الدكتور علي الوردي
استاذ متمرس
بجامعة بغداد

لمحات اجتماعية
من
تاريخ العراق الحديث

الجزء الرابع

من عام ١٩١٤ الى عام ١٩١٨

مقدمة

ان هذا الجزء خاص بدراسة أحداث العراق التي وقعت خلال سنوات الحرب العالمية الاولى ، أي من عام ١٩١٤ حتى عام ١٩١٨ • ولا حاجة بنا الى القول ان الحرب الاولى كان لها تأثير بالغ الأهمية في المجتمع العراقي، انها هزت العراق هزاً عنيفاً وكانت ايذانا ببدء مرحلة انتقال اجتماعية كبرى لا نزال نعيش فيها وسنظل نعيش فيها فترة لا نعرف مداها •

سوف نحاول دراسة النتائج الاجتماعية والفكرية والسياسية للحرب في العراق في أجزاء قادمة من الكتاب ، وسنكتفي في هذا الجزء بدراسة الاحداث التي وقعت خلال سنوات الحرب الأربع وتأثيرها الآني في المجتمع العراقي • وقد وجدت من المناسب تخصيص الفصلين الأول والثاني من هذا الجزء لدراسة بعض ما جرى من أحداث هامة في تركيا والشام والحجاز لما لها من علاقة مباشرة وغير مباشرة بأحداث العراق • وأرجو أن يعلم القاريء أني حين اذكر كلمة « تركيا » في هذا الجزء أقصد بها في بعض الاحيان الدولة العثمانية ، وحين أذكر «الاتراك» أقصد بهم رعايا تلك الدولة من أتراك وغيرهم ، وهذا اصطلاح جرى عليه الكثير من الكتاب والمؤرخين وقد جاريتهم في ذلك توخياً للاختصار •

كلمة لا بد منها :

أود ان أنتهز هذه المناسبة لأشير الى أمر ربما لاحظه القارىء في جميع كتبي هو كثرة الأخطاء النحوية فيها ، وهذا أمر أعترف به ولا أعتذر عنه •

لا أكتم القاريء أني اعتبر النحو العربي بلاءاً ابتليت به الأمة العربية، وأنا على يقين ان الأمة العربية في مسيرتها الحضارية نحو المستقبل سوف

يأتي عليها يوم تجد نفسها مضطرة الى الغاء النحو كله من مناهج مدارسها أو الغاء الجزء الأكبر منه على الاقل • فنحن حين نتصور ضخامة عدد الكتب والمعلمين وساعات الدروس التي تخصص لتعليم قواعد النحو في المدارس، ثم نتصور النتيجة من كل ذلك حيث يتخرج التلاميذ وهم قد نسوا معظم تلك القواعد أو أهملوها ، ندرك مبلغ التبذير الذي تعانيه الأمة العربيـة في جهودها الفكرية جيلاً بعد جيل •

مشكلة النحو العربي أنه ذو قواعد كثيرة ومعقدة دون أن تكون لها أية فائدة عملية • ولم نحصل من النحو الا" على أفراد من النـاس دأبهم البحث عن الأخطاء النحوية في خطب الناس وكتاباتهم لينتقدوا أصحابها بها ويشنوا عليهم الهجمات الشعواء • ومما يلفت النظر ان هؤلاء الافـراد الذين ينقبون عن الأخطاء النحوية عند غيرهم هم أنفسهم قد يتورطون في الاخطاء عندما يخطبون أو يكتبون ، ولم أجد أحداً مهما بلغ اتقانه للنحو قد نجا من الأخطاء النحوية في خطبه أو كتاباته ، فهو ينتقـد الناس علـى أخطائهم ثم يظهر بين الناس من يرد له الكيل وينتقده على أخطـائه التي اقترفها من حيث يدري أو لا يدري •

ومما أذكره في هذا الصدد ان المرحوم الدكتور مصطفى جواد ــ وكان أكبر عالم بالنحو واللغة في بلادنا كما هو معروف ــ رأيت أناسـاً قـد وجدوا بعض الأخطاء النحوية في كتاباته ، وجادلوه وجادلهم من غيـر أن يصلوا الى نتيجة حاسمة • معنى هذا ان النحو العربي بحر واسع عميق ليس له أول ولا آخر ، فما يقوله قوم فيه يناقضهم عليه قوم آخرون • ولا أدري متى ينتهي هذا البلاء الذي ابتليت به الأمة العربية !

يجب علينا أن نبدأ منـذ الآن فـي تقليص القواعـد النحوية أو تشذيبها في سبيل التخلص منها تدريجاً ، واني سـأبدأ ذلك بنفسي حيث أحاول اهمال بعض القواعد النحوية في هذا الجزء ، وأسأله تعـالى ان يمكنني من الاستمرار في ذلك في الاجزاء القادمة •

ان أول قاعدة نحوية سأحاول اهمالها هي اعـراب اسـماء الاعـلام العربية ، ولا سـيما الحديثة منها ، من أمثـال محمد علي ، أبو التمن ،

رؤوف ، جمال ، حميد ، فيصل ، حسين ، وما أشبه . فقد وجدت بعض الكتاب اذا ذكروا اسم «محمد علي» مثلاً وكان في محل نصب كتبوه هكذا « محمداً علياً » ، وهم يفعلون مثل ذلك في كثير من الاسماء ، وهذا في رأيي تزمت يسيء الى اللغة العربية ويؤدي الى ركاكة الاسلوب فيها . ان اسماء الاعلام يجب أن تكتب بالشكل الذي يلفظه الناس به ولا يجوز أن تخضع لقواعد الأعراب .

وهناك قاعدة نحوية أخرى سأحاول اهمالها كذلك وهي حذف حرف العلة من أواخر بعض الأسماء مثل سامي ، كافي ، داعي ، ساري ، راضي ، وغيرها . فان حذف الحرف الأخير من هذه الاسماء كثيراً ما يؤدي الى التباس المعنى في ذهن القارىء وغموضه ، فالقارىء اذا قرأ كلمة « سام » مثلاً قد لا يعرف هل هي مشتقة من السمو أو من السم . لا أنكر ان بعض القراء يستطيعون ان يعرفوا ذلك بسهولة حسبما توحي به القرينة في العبارة التي يقرأونها ، ولكننا يجب أن لا ننسى أن ليس كل القراء من هذا القبيل ، وليس هناك أي داعي لكي نشغل ذهن القراء بمثل هذه المسائل التي لا جدوى فيها .

ينبغي أن نعلم أن القارىء اليوم هو غيره بالأمس ، انه اليوم مشغول وعلى عجل من أمره وليس لديه وقت كافي لكي يتمعن في الكلمات التي يقرأها ويعيد النظر فيها من أجل فهمها . انه في حاجة الى اسلوب واضح في الكتابة يفهم المقصود منه بنظرة خاطفة . فلقد ذهب ذلك الزمان الذي كان الكتاب فيه يفتخرون بما في كتاباتهم من زخرف وتعقيد، والذي كان القراء فيه يفتخرون بمقدرتهم على حل الألغاز التي يأتي بها الكتاب .

رجاء الى النقاد :

أكتب هذه الكلمة في مقدمة هذا الجزء تنبيهاً لبعض النقاد لكي لا يشغلوا أنفسهم في تحري الأخطاء النحوية فيه على نحو ما فعلوا في الاجزاء والكتب السابقة . رجائي من النقاد أن يبحثوا عما في كتبي من أخطاء تاريخية واجتماعية ، فذلك أجدى لمجتمعنا من البحث عن اخطاء اللغة والنحو والصرف .

ان كتبي لا يمكن أن تخلو من أخطاء علمية على أي حال ، شأنها في ذلك شأن أي عمل من أعمال البشر . واني أشكر النقاد الذين اهتموا بهذا الجانب من كتبي ونبهوني الى الاخطاء العلمية التي وقعت فيها . واعترف اني انتفعت من ملاحظاتهم ونقداتهم قليلاً أو كثيراً .

يروى عن الغزالي أنه كان لا يبالي بالاخطاء اللغوية تظهر في كتاباته، وحين عوتب في ذلك أجاب قائلا : ان قصده هو المعاني وتحقيقها دون الألفاظ وتلفيقها . وقد علّق أحد الباحثين الحديثين على هذا الجواب قائلا : « ونحن نحمد الله على عدم اشتغال الغزالي بعلوم اللغة ، وعلى عدم اهتمامه بصناعة الالفاظ ، فانه لو اعتنى بهذه الناحية لما امتازت كتابته بهذه القوة والسلاسة في التعبير»[1] .

لا شك ان الغزالي سبق زمانه بهذا المبدأ الذي نادى به منذ مئات السنين ، حيث جعل اللغة وسيلة لا غاية ، وهو المبدأ السائد الآن في مختلف أنحاء العالم المتمدن . ومن المؤسف أن نرى بعض كتابنا ونقادنا لا يرتضون هذا المبدأ وقد يشجبونه ويتهمونه ، . والملاحظ ان هؤلاء الكتاب والنقاد قد يدعون لأنفسهم النزعة التقدمية او الثورية في الحياة ، انما هم في اللغة رجعيون . ولست أدري كيف يوفقون بين هاتين النزعتين المتناقضتين في أنفسهم ؟!

ان اللغة جانب مهم من جوانب الحياة الاجتماعية ، وهي مترابطة ترابطاً عضوياً وثيقاً مع الجوانب الأخرى منها . ولست أعتقد أن أمة من الأمم تستطيع أن تماشي الحضارة الحديثة في نظمها السياسية والاقتصادية بينما هي في لغتها لا تزال تتبع طريقة الحذلقة والتصنع وتخضع لقواعد كثيرة لا فائدة منها .

في رأيي اننا في حاجة الى ثورة في مجال اللغة كمثل حاجتنا الى الثورة في مجات الحياة الاخرى ! .

---

(1) جميل صليبا وكامل عياد (المنقذ من الضلال) ــ دمشق ١٩٦٠ ــ ص ٩ .

الفصل الأول
الدولة العثمانية في الحرب

قبل البدء بدراسة احداث العراق ينبغي دراسة بعض الأحداث الهامة التي كان لها أثرها في مجرى الحرب في الدولة العثمانية بوجه عام • ففي هذا الفصل سنحاول دراسة الاحداث غير العسكرية ، أما في الفصل التالي فسنحاول دراسة الاحداث العسكرية •

يجب أن نذكر قبل كل شيء ان الدولة العثمانية كانت قبيل اندلاع الحرب تحت سيطرة الاتحاديين ــ أي حزب الاتحاد والترقي ــ على نحو ما شرحناه في الجزء الثالث • فكان أنور باشا وزير الحربية أعظم رجال الدولة نفوذاً وأقواهم شخصية حتى أطلق عليه بعض المؤرخين لقب « دكتاتور الحرب » • ويليه في النفوذ طلعت باشا وزير الداخلية الذي صار فيما بعد رئيس الوزراء • ثم يأتي في الدرجة الثالثة جمال باشا وزير البحرية وهو الذي نيطت به القيادة العامة في بلاد الشام كلها كما سنأتي اليه • اما رئيس الوزراء سعيد حليم باشا والوزراء الآخرون فكانوا أمام هؤلاء الثلاثة ضعافاً ليس لهم من القوة والنفوذ الا قليلاً • يقول القائد التركي علي فؤاد بك في مذكراته : « كانت المملكة العثمانية في قبضة الاتحاديين ، وكان الاتحاديون في قبضة المركز العام ، وكان المركز العام في قبضة الحكام الثلاثة ، وكان الثلاثة في قبضة أنور يسوقهم سوقاً عنيفاً • أما مقام السلطنة والقوة التشريعية وحزب الاتحاد والترقي والحكومة الرسمية والمطبوعات والرأي العام فلم تكن الا أشباحاً ماثلة وخيالات مصورة » • [1] •

كان أنور باشا يميل الى المانيا ويعجب بجيشها اعجاباً لاحد له ويعتقد

---

(١) علي فؤاد (كيف غزونا مصر) ــ ترجمة نجيب الارمنازي ــ ١٩٦٢ ــ ص٣١ •

اعتقاداً جازماً أنه جيش لا يغلب ، فلما اندلعت نيران الحرب في أوربا كان أنور باشا واثقاً من أن النصر لا بد أن يكون في جانب المانيا في النهاية ، والظاهر أنه كان يهوى من أعماق قلبه زج دولته في الحرب الى جانب المانيا لكي تشاركها الغنيمة ويحظى هو بأكاليل الغار ، ولكنه وجد ذلك صعباً في بداية الحرب فآثر التريث والانتظار لكي يجد الفرصة المناسبة التي تتيح له ذلك بعدئذٍ .

النفير العام :

عندما اندلعت نيران الحرب في أوربا في أوائل آب ١٩١٤ أعلنت تركيا الحياد تجاه الدول المتحاربة ، وأعلنت كذلك حالة النفير العام في بلادها بحجة المحافظة على حيادها تجاه من يريد الاعتداء عليها .

كانت حالة النفير العام ــ وهي ما يطلق عليه في اللغة التركية «سفر برلك» ــ شديدة الوطأة على سكان البلاد العثمانية حيث سيق الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين العشرين والخامسة والأربعين الى التجنيد ، وصارت دوائر الاعاشة العسكرية تضع يدها على حيوانات النقل والكثير من المواد التي اعتبرتها لازمة للجيش باسم « التكاليف الحربية » ، وكانت هذه الدوائر تعطي لمن تأخذ منه شيئاً ورقة تتعهد الحكومة فيها بأنها سوف تسدد الثمن بعد انتهاء الحرب . وهذا معناه ان الحكومة تصادر أموال الناس من غير مقابل لان الناس لم يكونوا يثقون بالحكومة وأوراقها وكانوا على يقين بأن ما تأخذه الحكومة لن يعود ، وقد أدى ذلك الى شل الحياة الاقتصادية في البلاد .

يقول الباحث التركي المعروف الدكتور أحمد أمين في كتاب له عنوانه «تركيا في الحرب العالمية» : «ان حالة النفير العام ضربت الحياة التجارية في البلاد كأنها صاعقة تنزل من سماء صافية ، وقد تضررت كل فروع الحياة الاقتصادية كما تضررت الزراعة . فقد لجأت دوائر الاعاشة في الجيش الى مصادرة كل شيء ، ولم تقتصر مصادراتها على المواد الضرورية للجيش، بل أخذت تصادر أشياء من قبيل الجوارب الحريرية وأحذية الاطفال ومكائن الطباعة . وصار التجار يؤثرون بيع بضائعهم بأي ثمن للتهرب من مصادرة

الجيش لها . وكان هناك دافع آخر دفع التجار للبيع المستعجل هو أنهم في حاجة الى النقود لدفع الضريبة الحربية التي فرضت عليهم ... وتوقفت الاعمال التجارية التي تعتمد على الدفع المؤجل ، وتهافت الناس على البنوك لسحب ودائعهم ... واضطرت الحكومة الى اعلان تأجيل الديون» .(٢)

ان هذا الذي ذكره الدكتور أحمد أمين يؤيده مورغنتو الذي كان سفيراً للولايات المتحدة في اسطنبول خلال الحرب ، فقد كتب هذا الرجل في مذكراته حول المصادرات التي لجأت اليها الدوائر العسكرية فقال مانصه:

« وذلك هو المبدأ ـ مبدأ النهب ـ الذي تمشت عليه الحكومة التركية في جميع ما يحتاجه الجيش من مؤون وذخائر . وتفصيل ذلك أن الضباط الاتراك كانوا يقبضون على كل حصان أو بغل أو جمل أو بقرة أو خروف ، ويأتون به الى المأمور المعين لذلك . وفي أحد الايام اجتمعت بأنور باشا فقال لي انهم جمعوا ما ينيف على مائة وخمسين ألف من الحيوانات المتفرقة . وكان عملهم هذا ـ كما سيجيء ـ من أعظم العوامل التي أدت بألوف النفوس للموت جوعاً وذلك لانهم لم يتركوا من الحيوانات في المزارع والحقول ما يكفي للقيام بعمل الفلاح فانحطت الزراعة وقل القوت والطعام... ومن أظرف ما عرفت من أعمال الضباط بهذا الخصوص ـ عمل يضحك ويبكي معاً ـ وهو أنهم دخلوا أحد المحلات واذ لم يجدوا شيئاً يتمكنون من نهبه باسم الجيش أخذوا ما وجدوه من كلسات حريرية ومشدات للسيدات، وفرضوا على رجل آخر يتاجر بثياب للاولاد والسيدات أن يقدم عدداً معلوماً من الاحرامات واذ لم يفعل ذلك في الوقت المضروب نهبوا ما لديه من البضائع ، وبعد عدة أيام رأى بضائعه في مخازن جاره معروضة للبيع . تلك هي الطريقة التي استعملها الضباط لجمع الاموال. رأيت أنور في أحد الايام وقد اشتدت وطأة الضباط على الفلاحين والتجار فقلت له ان تلك الاعمال تؤدي بالمملكة الى خراب عاجل ودمار أكيد، ولكنه لم يعبأ بأقوالي ولم يخفق فؤاده ألماً لتلك الاعمال ، بل كان يفتخر

(2) Ahmad Amin (Turkey In The War) — New Haven 1930 — p. 109 — 110.

بأنه أنشأ جيشاً كبيراً مجهزاً من لا شيء ... »[٣]

انا حين نقارن بين تركيا والدول الاوربية في هذا المجال نجد فرقاً كبيراً هو الفرق بين رقي الحضارة وانحطاطها ، فالدول الاوربية اعتمدت على مصانعها في سد حاجاتها العسكرية ، ولم تصادر شيئاً من أيدي الناس الا بثمنه، أما تركيا فلم يكن لديها مصانع تنتج لها ما تريد الا قليلاً ، وكان الأجدر بها أن تستر على نفسها فلا تدخل في حرب هي حـرب حضارية في الدرجة الاولى .

التهيؤ للحـرب :

استمرت حالة النفير العام في تركيا ثلاثة أشهر تقريباً كانت الحكومة فيها تتأرجح بين دخول الحرب وعدمه، وقد انقسم رجال الدولة الى فريقين: أحدهما يدعو الى دخول تركيا في الحرب الى جانب المانيا ، والآخر يدعو الى الوقوف على الحياد. والواقع ان دعاة الحرب كانوا قليلين عدديا ولكنهم متنفذين ولهم سيطرة في مجلس الوزراء وفي أجهزة توجيه الرأي العام.

ومما يلفت النظر أنه في نفس اليوم الذي أعلنت فيه حالة النفير العام ني تركيا ــ أي في ٢ آب ــ عقدت معاهدة سرية بين المانيا وتركيا ، ولـم يكن في هذه المعاهدة ما يوجب على تركيا دخول الحرب الى جانب المانيـا انما هي كانت عاملاً قوياً في تقوية الروابط بين الدولتين .

ويقال ان المانيا لم تكن في بداية الحرب ترغب في دخول تركيا الى جانبها في الحرب اذ هي كانت تأمل أن تنال نصراً سـريعاً علـى الحلفـاء بمفردها دون معونة أحد ، ولم تحب أن تشاركها تركيا في ثمرات النصر ، ولكن ألمانيا غيّرت رأيها على أثر فشلها في معركـة المارن التي وقعت في ١٩ ايلول، فقد أرسل غليوم عندئذٍ الى سفيره في اسطنبول يأمره بان يبذل جهده لادخال تركيا في الحرب عاجلاً .

كان السفير الألماني في اسطنبول ــ واسمه البارون فون ونغنهايم ــ

---

(٣) هنري مورغنتو (مذكرات سفير اميركا في الاستانة) ــ ترجمـة فـؤاد صروف ــ القاهرة ١٩٢٣ ــ ص ٢٤ ــ ٢٥ .

رجلاً طويل القامة حاد النظرات قوي الشخصية له خبرة دبلوماسية طويلة ولهذا اختاره غليوم منذ ما قبل الحرب ليكون منفذاً لمآربه في اسطنبول ، وقد أخذ هذا الرجل يستعمل مختلف الوسائل لتحريض تركيا على دخول الحرب •

استأجر فون ونغنهايم كتاباً يملأون الأعمدة الطويلة في الصحف للتغني بمديح المانيا وذم بريطانيا وحلفائها • وأيدت الحكومة هذا الاتجاه في الصحف ، فالصحيفة التي لا تجاري ذلك سرعان ما تغلق • وصارت الصحف تنشر أخبار الانتصارات الألمانية وتبالغ فيها بينما هي لا تذكر عن انتصارات الحلفاء الا قليلاً • وأصبح غليوم حامي حمى الاسلام ، وأنور باشا البطل الذي سيعيد الى الأمة مجدها الغابر •

حدثت في تلك الآونة حادثة كان لها أثرها البالغ في هذا الشأن هي ان تركيا كانت قبل الحرب قد أوصت أحد مصانع بريطانيا على صنع باخرتين حربيتين ، وكانت قد جمعت ثمنها بواسطة الاكتتاب العمومي وتحمس الاتراك لهذا العمل الوطني فباعت النساء حليهن من أجله ودفع الموظفون له جزءاً من رواتبهم • ولكن بريطانيا امتنعت عن تسليم الباخرتين على أثر اعلان الحرب ، فهاج الرأي العام في تركيا ، وانتهز فون ونغنهايم تلك الفرصة الذهبية فأخذ يوجه الى الصحف التركية الرسائل العديدة يذكر فيها أن بريطانيا عدوة الاسلام وأنها تحاول دوماً أن تهبط بالمسلمين الى أدنى الدركات •[٤] •

وحدثت بعد هذا حادثة أخرى كانت لها اهميتها القصوى هي ان طرادين آلمانيين اسمهما « غوبن » و «برسلاو » كانا في البحر الابيض المتوسط عند اندلاع الحرب ، فأخذ الاسطول البريطاني يطاردهما مطاردة عنيفة • وفي ١٠ آب استطاع الطرادان الوصول الى مضيق الدردنيل فاحتميا فيه وبذلك نجيا من مطاردة الاسطول البريطاني • يقول وزير البحرية جمال باشا في مذكراته ما نصه : « في مساء ١١ آب اجتمعنا كالمعتاد في قصر الصدر الاعظم لتناول العشاء ، وكنت أنا وطلعت وجاويد

---

(٤) المصدر السابق — ص ٢٩ •

أول من حضر . ولما استقر بنا المقام جاء أنور باشا فحيانا بابتسامته الهادئة المألوفة قائلاً : لقد ولد لنا ولد . فلم نفهم مراده لأول وهلة ولكنه أشفق علينا من القلق فقال : لقد لوحظت غوبن وبرسلاو صباح اليوم بالقرب من الدردنيل ولما كان الاسطول الانكليزي يطاردهما طلبتا أن تأذن لهما باجتياز المضايق فصرحت لهما بذلك لأني لم أشأ تعريض مدرعتين لدولة محالفة لخطر محقق وهما الآن في الدردنيل تحت حماية قلاع المضايق ، وقد أصبحنا بناءاً على ذلك ازاء مشكلة سياسية فمن الواجب أن نصل الى قرار حاسم هذا المساء » .(٥)

الواقع أنها كانت مشكلة سياسية كبرى ، اذ ان الحياد يفرض على تركيا أن تطلب من الطرادين مغادرة المياه التركية في خلال أربع وعشرين ساعة والا فهي يجب أن تنتزع عنهما سلاحهما وتحتجزهما في أحد الموانى .

وقد جرت حول هذه المشكلة مناقشات حادة في مجلس الوزراء ، واتصل الوزراء بالسفير الالماني واتصل هذا ببرلين لاسلكياً ولم يستطيعوا الوصول الى حل الا في الساعة الرابعة بعد منتصف الليل حيث تم الاتفاق على أن يعلن للعالم شراء تركيا للطرادين ، وصدرت جريدة « اقدام » في صباح اليوم التالي وفي صدرها عنوان بأحرف كبيرة هو « صفقة عظيمة ــ نجاح باهر للحكومة العلية » ، وأخذت الجريدة تشرح للقراء كيف أن بريطانيا امتنعت عن تسليم الباخرتين الحربيتين بينما باعت المانيا للحكومة العثمانية الطرادين « غوبن » و « برسلاو » .

دخول الحرب :

كان الطرادان « غوبن » و « برسلاو » بقيادة الأميرال الالماني سوشون ، وقد خلع هذا الاميرال مع بحارته قبعاتهم ولبسوا بدلاً عنها الطرابيش الحمر اعلاناً بأنهم صاروا ضباطاً رسميين في البحرية التركية .

صار سوشون يتحين الفرص للخروج الى البحر الاسود بغية التحرش بالاسطول الروسي ، ويبدو أنه كان مأموراً بذلك سراً من قبل قيصر المانيا .

---

(٥) جمال باشا (مذكرات جمال باشا) ــ ترجمة علي احمد شكري ــ بغداد ١٩٦٣ ــ ص ١٣٥ .

وفي أواخر تشرين الاول استطاع سوشون أن يخرج الى البحر بطراديه مع بضعة مراكب تركية، فقصف بعض الموانئ الروسية وأغرق بضعة مراكب، ثم عاد الى اسطنبول .

حدث ذلك في يوم ٢٩ من تشرين الاول ، وصادف أنه كان يوم عرفة الذي يسبق عيد الاضحى . وفي ذلك اليوم كان رئيس الوزراء سعيد حليم باشا يلتمس الراحة في بيته استعداداً لمراسيم العيد في اليوم التالي وهو لا يعلم بما فعل سوشون . رن جرس التلفون عليه حيث طلب منه أنور وطلعت الاذن للحضور عنده ، فلما حضرا أخبراه أن معركة حدثت بين الاسطولين التركي والروسي في البحر الاسود ، وعند هذا حصلت مشادة بين الرئيس وأنور . ثم بدأ الوزراء يتوافدون الى بيت الرئيس ، وجاءت البرقيات تنبيء أن الاسطول التركي ضرب ميناء أوديسا ، فكان لذلك تأثير شديد على الرئيس ، وأخذ الوزراء يندون بعواقب هذا العمل وخطله . وقال رئيس الوزراء : « انه من أنصار السلم ويرى من الخطأ دخول تركيا في حرب تكون وخيمة عليها ، واذا كان هنالك من يؤيد فكرة الحرب فليتقدم لاستلام أمور الدولة » . فقام أنور باشا يدافع عن نفسه ويؤكد أن ما جرى لم يكن يعلمه ، فلم يقتنع الوزراء بكلامه ولكنه لم يحفل بهم وترك الغرفة. وبعد ساعتين وصل اليهم خبر آخر هو أن الاسطول التركي ضرب ميناء سباستبول ، فسأل أحد الوزراء طلعت باشا عن ذلك فأجابه هذا : « انه لا يبعد أن يكون الاميرال سوشون الألماني هو الذي فعل ذلك».(٦)

وفي اليوم التالي عقد مجلس الوزراء جلسة غير اعتيادية ، فكان أكثر الوزراء يعارضون دخول الحرب ويرون اتخاذ الاجراءات الضرورية لتسوية القضية مع روسيا سلماً ودفع التعويضات لها . وحدثت مشادة بين الوزراء مما دعاهم الى تأجيل الجلسة الى المساء . ولم يكد رئيس الوزراء يفرغ من الجلسة حتى وصل اليه سفراء بريطانيا وفرنسا وروسيا يطلبون منه جوازات سفرهم ايذاناً بمغادرة البلاد ، وكان الرئيس حينذاك مرهقاً فتوجه نحو السفير الروسي محاولاً اقناعه بأنه لم يكن يعلم شيئاً عن الحادثة ،

---

(٦) عمر ابو النصر (الحرب العالمية الاولى) ــ بيروت ــ ج ٥ .

فقال له السفير البريطاني : انه كان قد أنذره سابقاً بأن الحالة ستؤدي الى هذه النهاية . واغرورقت عينا الرئيس بالدموع وسألهم أن يؤجلوا سفرهم قليلاً لأن مجلس الوزراء سيجتمع مساءاً وأنه سوف يجاهد في سبيل حل مرضي وأن أكثرية الوزراء معه .

اجتمع مجلس الوزراء مساءاً في منزل شيخ الاسلام خيري أفندي، فلم يحضر الجلسة أنور وطلعت وجمال ، واستمع الحاضرون الى اقتراح قدمه وزير التجارة سليمان أفندي البستاني مؤداه ارسال مذكرة الى الحلفاء يؤكدون فيها التزام تركيا الحياد واعادة البعثة العسكرية الألمانية الى بلادها، وبينما هم في ذلك اذ دخل عليهم طلعت باشا وأظهر لهم خطأ الاقتراح والنتائج الوخيمة التي تنتج عنه ، وطلب منهم قبل الرد على سفراء الحلفاء أن يأخذوا رأي السفير التركي في برلين . فقبل الوزراء بذلك وأجلوا الجلسة الى موعد آخر .

والغريب أنه في الوقت الذي كان فيه الوزراء منهمكين في ايجاد حل للمشكلة صدر من الحكومة التركية بلاغ رسمي يصف حادثة البحر الأسود بخلاف حقيقتها حيث أشارت الحكومة فيه الى أن الاسطول الروسي هو الذي بدأ العدوان على الاسطول التركي . وهذا هو نص البلاغ بعد ترجمته الى العربية :

« ان الاسطول الروسي كان يتعقب الاسطول التركي ويزعج الاوضاع فيما يقومون به من أعمال تطبيقية بصورة متمادية . وفي ٢٩ تشرين الاول سنة ١٩١٤ م ابتدر في الخصام . وبناء على تقدمهم بأعمال عدائية نحو مضيق البوسفور بحاملة ألغام ، وثلاثة زوارق طوربيد ، وسفينة فحم ، قامت السفينة الحربية (غوبن) فأغرقت حاملة الألغام ، وأوقعت الخسارة في زورق طوربيد بصورة ثقيلة ، وضبطت السفينة حاملة الفحم ، وأسرت ثلاثة ضباط واثنين وسبعين جندياً ، وقصفت سباستيول بنجاح . وان حاملة الغام كانت تحمل سبعمائة لغماً ومائتي جندي ، فانقذ بعضهم فوصلوا الى اسطنبول في ٣٠ منه . ومن افادات الاسرى علم ان هؤلاء كان أملهم أن يبثوا الالغام داخل البوسفور ليتمكن الروس من تدمير

الاسطول . أما (برسلاو) فانها وافت شرقي مدخل بحر آزاق فخربت في مدينة نوفوروسيسق نحو خمسين مخزناً للبترول ، ومخازن عديدة للارزاق ، وأغرقت أربع عشرة سفينة نقل عسكرية »[٧] .

ان صدور هذا البلاغ الرسمي في مثل ذلك الوضع الدقيق كان بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير ، فمن كان المسؤول عن اصداره يا ترى. ولماذا ؟ وعلى أي حال فقد توتر الجو من جرائه في الدوائر السياسية والدبلوماسية ، وأدرك السفراء ان دعاة الحرب في الحكومة التركية أقوى من دعاة السلم ، ولهذا غادر السفير الروسي اسطنبول في مساء ٣١ تشرين الاول ، وفي مساء اليوم التالي غادرها السفيران البريطاني والفرنسي. وتلا ذلك اعلان روسيا الحرب على تركيا كما أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب عليها أيضاً .

وعلى أثر ذلك عقد مجلس الوزراء في الباب العالي جلسة فوق العادة. فأخذ رئيس الوزراء يشرح الظروف التي أدت الى اعلان الحلفاء الحرب على تركيا ، ثم طلب من الوزراء أن يبدو رأيهم بمنتهى الصراحة بلا خوف ولا محاباة . فكان أسبقهم الى الكلام أوسقان أفندي وزير البرق والبريد اد قال انه يبغض الحرب وهو لا يستطيع التوقيع على قرار دخول الحرب ولذا فهو يقدم استقالته من الوزارة ، اما اذا حولت وزارته الى مصلحة فانه يستمر في عمله بصفته مديراً عاماً . ثم تكلم بعده سليمان أفندي البستاني فقال انه يعارض الحروب بجميع أشكالها بصفته عضواً في جمعية السلام العالمي ، ولذا فهو مضطر الى الاستقالة . وتلاه شوروك صولو محمود باشا فقال : انه بناءاً على نظرة الارتياب التي ينظر زملاؤه اليه يلتمس قبول استقالته . ولم يكن جاويد بك وزير المالية حاضراً غير أن طلعت باشا قال عنه انه مصمم على الاستقالة . ثم غادر الوزراء المستقيلون المجلس ، وشرع الباقون في كتابة القرار الذي شرحوا فيه الضرورة القاضية بدخول

---

(٧) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) ـ بغداد ١٩٥٦ ج ٨ ص ٢٥٣ .

تركيا الحرب • [8] ويقال ان رئيس الوزراء كان قد عزم على الاستقالة أيضاً ولكنه عدل عن عزمه في اللحظة الأخيرة ، ويعزى هـذا العدول في رأي مورغنتو الى أنه كان محباً للفخر والأبهة والعظمة وقد دفعه ذلك الى البقاء في أعظم منصب في الدولة العثمانية •[9]

بين المثالب والمناقب :

بعد مرور أيام قليلة على دخول تركيا الحرب وقف أنور باشا يخطب في زمرة من الضباط فقال : أخطأ بعض الجبناء فيما توهموه من أن عمـل اسطولنا في البحر الاسود كان برأي الاميرال سوشون وحده لكي يجعل تركيا أمام الامر الواقع ، والحقيقة ان قادة الألمان وأمراءهم المستخدمين في تركيا ليسوا سوى موظفين لدى الحكومة التركية ، وان رجال الحكومة التركية ليسوا في قبضة أحد او تحت تأثير أي سلطان ، انما هم احرار في آرائهم وأعمالهم وهم الذين اختاروا خوض معامع الحرب كي لا يعيش الاتراك في ذلة « فاما أن يذودوا بالسيف عن حوض عزهم ويقاتلوا دون استقلالهم وحقهم حتى يبلغوا ما يؤملون واما أن يموتوا ميتة كريمة » • [10] يتضح من هذا ان تركيا انما دخلت الحرب بتأثير رجل واحد أو بضعة رجال أرادوا أن يكسبوا المجد والفخار فاندفعوا في أمر ظنوه يؤدي الى ذلك • ان القائد التركي علي فؤاد بك وصف أنور باشـا في تلك الايام بقولـه : « كان أنور يرى أن الله خلقه ليجري على يديه بعض خوارق العـادات ، ولا يخالجه شك في ذلك ، ويرى أن هذه الحرب هي أفضل وسيلة ينبغي التوسل بها ليبلغ مطامحه وشهواته وينفذ تلك الخوارق التي قدّر لها أن تجري على يديه ••• وغاية الحياة عنده هي أن يموت الانسان ميتة مذكورة، ولكن قبل أن يموت يجب ان يحمل برؤوس الحراب حملات عنيفـة يقيم فيها سوق المنايا ويقعدها ، وكل شي هين عليه بعد حملات الحراب لان

(٨) جمال باشا (المصدر السابق) ـ ص ١٥٠ ـ ١٥١ •
(٩) هنري مورغنتو (المصدر السابق) ـ ص ٤٨ •
(١٠) علي فؤاد (المصدر السابق) ـ ص ٣٨ ـ ٣٩ •

تاريخ العالم لا يكتب الا بروؤسها » .(١١)

الواقع اننا لا نلوم أنور باشا ورفاقه حين كانوا يريدون أن ينالوا المجد لو كان الضرر الناتج من ذلك مقتصراً عليهم وحدهم ، ولكنهم جروا وراءهم الى البلاء ملايين البشر ، وأهلكوا الحرث والنسل ، وخلفوا مئات الألوف من الايتام والثكالى والارامل . ومن الممكن القول ان الكثير من الحروب التي زخر بها التاريخ لا تختلف عن هذه الحرب من هذه الناحية اذ هي كلها حدثت بتأثير رجل واحد أو بضعة رجال أرادوا أن يكسبوا المجد والفخار !

وانا اذ نقول هذا في أنور باشا ينبغي أن لا ننسى جانباً آخر منه وهو جانب حسن . فان أنور باشا اذا كان المسؤول الأول عن ادخال تركيا في الحرب فانه كذلك يعزى اليه الفضل الاكبر في أمر تجديد الجيش التركي وتقويته . والواقع ان أنور باشا بدأ بتجديد الجيش منذ تسلم زمام وزارة الحربية في عام ١٩١٣ على أثر انتهاء الحرب البلقانية . يقول علي فؤاد بك في مذكراته :

« كان من الواجب الذي لا مناص منه انقاذ الجيش من الفوضى بعد انتهاء الحرب البلقانية ، وتجديد شبابه . ولا يستطيع القيام بهذه المهمة الا رجل عزيز الجانب منيعه ، وكان انور باشا ذلك الرجل ، وكان المكواة لداء الفوضى المستفحل . فقبض على أزمة الجيش قبضة الحاكم القاهر ، وانتزعه من الشيوخ الواهنين والشبان الاغرار ، فكفر الجيش عن سيئاته الماضية كلها ، واشتد كاهله في بضعة أشهر ، وساد فيه الضبط والنظام ... » .(١٢)

كان جهاز الجيش في العهد الماضي مثل غيره من اجهزة الدولة يخضع لاعتبارات المحسوبية والوساطة والرشوة ، وكان الكثير من ضباطه الكبار قد وصلوا الى مناصبهم عن طريق تلك الاعتبارات ، وهذا من شأنه أن يؤدي الى ضعف الجيش وتفككه فلا يستطيع أن يصمد لحرب طاحنة

---

(١١) المصدر السابق ــ ص ٢٧ ــ ٢٨ .
(١٢) المصدر السابق ــ ص ٤٠ .

مدة طويلة . وحين تولى أنور باشا زمام الجيش اتخذ في تجديده طريقة الحزم والصرامة ، فكان لا يحابي ولا يتأثر بالاعتبارات التي كانت مألوفة بين الناس يومذاك ، وهذا يعد من مناقب أنور باشا بلا مراء .

كانت التمارين العسكرية تجرى مراراً في الاسبوع ، وكان أنور باشا يقف منها موقف الناقد كما هي العادة المتبعة ، وكان يقول بعد انتهاء التمارين .. « ان الجيش العثماني سيغسل عنه العار الذي أورثته اياه حرب البلقان » .

وقد ساعدت أنور في عمله هذا البعثة العسكرية الالمانية التي كانت برئاسة الجنرال ليمان فون ساندرز ، فقد بذلت البعثة في هذا السبيل جهوداً عظيمة حقاً ، حتى أصبح الجيش التركي في الواقع من الجيوش التي يؤبه لها في الاوساط العسكرية العالمية .

خاض الجيش التركي معارك ضارية طيلة أربع سنوات كاملة ، فأصيب بهزائم منكرة ، ولكنه أنزل بالعدو هزائم منكرة أيضاً . ولو كان هذا الجيش في دولة غير متفسخة لقام بالمعجزات .

اعلان الجهاد :

لم يمض على دخول تركيا الحرب سوى ايام معدودة حتى أعلن فيها « الجهاد » لحرب الكفار . وقد جرى اعلان « الجهاد » على مراحل ثلاث:

الاولى في ٧ تشرين الثاني ١٩١٤ حين أصدر خيري أفندي شيخ الاسلام فتوى ذكر فيها أن الجهاد فرض عين على جميع المسلمين سواء منهم الذين يعيشون في البلاد العثمانية أو البلاد التي تحكمها بريطانيا وفرنسا وروسيا، وأن عليهم جميعاً أن يتحدوا لمقاومة هذه الدول الثلاث عدوة الاسلام وأن يحاربوها ويمتنعوا عن مساعدتها في هجومها على الدولة العثمانية أو على الدول المتحالفة معها وهي المانيا والنمسا والمجر .

وفي ١١ تشرين الثاني أعلن السلطان باعتباره خليفة المسلمين بلاغاً للجيش والاسطول حض فيه على الحرب من أجل تحرير المسلمين المستعبدين ومن أجل الدفاع عن الدولة العثمانية . وأخيراً جاءت المرحلة الثالثة في ٢٣ تشرين الثاني حين صدر بيان للعالم الاسلامي موقع من قبل ثلاثين رجلاً

من كبار رجال الدين كان في مقدمتهم خيري أفندي شيخ الاسلام وعلي حيدر أفندي أمين الفتوى وثلاثة من شيوخ الاسلام السابقين . وكان البيان طويلاً جاء فيه : أن بريطانيا وروسيا وفرنسا تستعبد المسلمين منذ زمن بعيد وتنتهك حرماتهم وهي تبغي اضعاف الخلافة لانها ركيزة الاسلام ومناط قوته ، ولهذا فان أمير المؤمنين الخليفة يدعو المسلمين جميعاً من غير استثناء الى الجهاد للدفاع عن قبر النبي وبيت المقدس وكربلا والنجف وعاصمة الخلافة . فيا ايها المسلمون من عاد حياً من جهاده نال سعادة كبرى ، أما الذي يموت منكم فله أجر الشهداء ويذهب الى الجنة حسبما وعدنا الله به . ثم ينتهي البيان بقوله : « ايها المقاتلون المسلمون ، بعون الله وشفاعة النبي انكم سوف تسحقون أعداء الدين وستملأون قلوب المسلمين بالفرح الابدي طبقاً للوعد المقدس » .(١٣)

ان هذه البيانات الرسمية الثلاثة أعقبها طوفان من المنشورات والكراريس والنشرات الدورية وما أشبه ، وهي مكتوبة بمختلف لغات العالم ، وانتشرت منها ملايين النسخ في أنحاء البلاد العثمانية وهربت الى مصر والسودان والهند وايران وافغانستان وما وراءها . وكانت تختلف اختلافاً كبيراً في أسلوبها وفي مضمونها فكان بعضها يحض الجنود على الفرار من جيوش الحلفاء ، وبعضها يدعو الى القتل والاغتيال أو غيرهما من الاعتداءات الفردية . ثم أوفدت البعوث لتؤيد بالقول واللسان ما دعت اليه الكتابات المطبوعة فتزيد من حرارتها ، وكانت البعوث من جميع الانواع : الوعاظ المتجولين والعلماء والفقهاء والمحرضين المحترفين والمستشرقين الالمان ، واستطاع بعض هؤلاء أن يتسللوا الى مصر والسودان والبلاد الافريقية الاخرى ...(١٤)

وألف محمد حبيب العبيدي الموصلي ـ وكان يومذاك في الشام ـ كتابين في الجهاد طبعا في بيروت عام ١٩١٦ ، أولهما عنوانه « حبل الاعتصام

---

(13) Ahmad Amin (op. cit.) p. 174 — 177.

(١٤) جورج انطونيوس (يقظة العرب) ـ ترجمة ناصر الدين الاسد واحسان عباس ـ بيروت ١٩٦٢ ـ ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .

ووجوب الخلافة في الاسلام » والثاني عنوانه « جنايات الانكليز على البشر وعلى المسلمين خاصة » • ففي الكتاب الاول يقول العبيدي ان الانكليز أشد الناس عداوة للمسلمين ولخلافتهم المقدسة ولدينهم المبين ، وهو يحذر المسلمين منهم ويحرضهم على حربهم • وفي الكتاب الثاني يعدد العبيدي مثالب الانكليز ويقول انهم ليسوا أعداء المسلمين فقط بل أعداء الشرقيين عامة ، وانهم انما يكرهون الدولة العثمانية لانها السبب في حياة المسلمين • ويقول العبيدي أيضاً : ان الانكليز بوجه عام يسعدون بشقاء من تحت يدهم من الشعوب ، وهو يلخص رأيه في الانكليز ببيتين من الشعر هما :

يا أسارى الهوان قوماً فقوماً ... قد عرفتهم جرائم الانكليز
فمتى تحطمون للذل قيداً ... مستعينين بالقوي العزيز (١٥)

الواقع أن الاتراك والألمان علقوا آمالاً كباراً على دعوة الجهاد، اذ هم كانوا يتوقعون أن يثيروا بها المسلمين على الحلفاء في كل مكان ، فقد كان هناك نحو سبعين مليونا من المسلمين في الهند ، وستة عشر مليونا في مصر والسودان ، وعشرين مليوناً في افريقيا ، وعشرين مليوناً في روسيا • فاذا ثار بعض هؤلاء على حكوماتهم أحدثوا في قوات الحلفاء أضراراً لا تقف عند حد، يروي مورغنتو : ان السفير الألماني فون ونغنهايم ذكر له بصراحة الهدف من ادخال تركيا الى جانب المانيا في الحرب حيث قال : « ان المانيا كانت ترمي الى اثارة العالم الاسلامي على المسيحيين — أي أنها كانت تنوي تسعير حرب دينية للقضاء على سلطة انكلترا وفرنسا في مستعمراتهما الاسلامية كالهند ومصر والجزائر وغيرها • ان تركيا بحد ذاتها ليست شيئاً مهماً : جيشها صغير ضعيف ولا تنتظر منه أعمالاً مجيدة في ساحات القتال، ولكننا نحن لا نرى في تركيا الا العالم الاسلامي فاذا تمكنا من اثارة الرأي الاسلامي العام ضد انكلترا وفرنسا وروسيا نكون قد أرغمناهم على طلب الصلح في وقت قريب » • (١٦)

---

(١٥) يوسف عزالدين (الشعر العراقي الحديث) — بغداد ١٩٦٠ — ص ٩٣ — ٩٤ •

(١٦) هنري مورغنتو (المصدر السابق) — ص ٦١ •

كان الدعاة الألمان في البلاد الاسلامية يزعمون أن الشعب الالماني كله قد اعتنق الاسلام ، حتى القيصر غليوم نفسه قد اعتنق الاسلام أيضاً، (١٧) ولهذا صار القيصر يعرف بين المسلمين باسم « الحاج غليوم » تارة و « محمد وليم » تارة أخرى • (١٨) وهذا يذكرنا بما فعل نابليون في مصر عندما فتحها في عام ١٧٩٨ حيث رأيناه يلبس العمامة ويتحدث عن رؤيته للنبي محمد في المنام •

يواجهنا هنا سؤال: هل نجحت دعوة الجهاد بالقدر الذي توقعه الأتراك والألمان ؟ ان اكثر المؤرخين يجيبون على هذا السؤال بالنفي • وربما صح القول ان دعوة الجهاد كانت حركة فاشلة ، ففي الوقت الذي كان المتوقع فيه أن يثور المسلمون في الهند وغيرها على الحلفاء رأينا الكثيرين منهم يتطوعون في جيوش الحلفاء وقد أخلص بعضهم في القتال الى حد يثير الدهشة •

يقال ان السلطان السابق عبدالحميد ـ وكان عند اعلان الجهاد لا يزال حياً في اسطنبول ـ كتب في مذكراته يقول : «أخطأ أخي في اعلان الجهاد، وكان عليه أن يهدد به الحلفاء وان يتخذه سلاحاً للتهويل لا أن يعلنه • فانا على يقين أن ليس بين المسلمين في الخارج من يلبي نداءه • لقد كنت شديد الاطلاع على نفسية البشر ، ولذا كنت أهدد باعلان الجهاد تهديداً فقط • أما وقد أعلنه أخي فلا حول ولا قوة الا بالله ! ••• » (١٩)

الدعاية الالمانية :

لم يكن أنور باشا وحده واثقاً من انتصار المانيا في الحرب بل كان الكثير من المسلمين مثله في ذلك • وقد كانت الدعاية الألمانية في البلاد الاسلامية تسير جنباً الى جنب مع دعوة الجهاد ، وهذا يذكرنا بما حدث في الحرب العالمية الثانية عندما كانت الدعاية الالمانية في البلاد العربية تسير جنباً الى جنب مع الدعوة القومية •

---

(17) Percy Sykes (A History of Persia) — London 1958 — vol 2, p. 442.

(18) Ronald Storrs (Orientations). — London 1939, — p. 142.

(١٩) مجلة الاسرار ـ في عددها الصادر في ٣ أيار ١٩٣٨ •

كان الكثير من المسلمين في الحرب الاولى يعتقدون ان المانيا لديهـا أسلحة سرية ومخترعات ستغلب الحلفاء بها • وكان أهم تلك المخترعـات في نظر الناس هو منطاد زبلين ، وهو منطاد ضخم جداً يحلق عالياً فـي السماء ، وكان لألمانيا عدد غير قليل منه في بداية الحرب فصارت ترسـله لقصف لندن وباريس وبعثت الرعب في سكان تينك المدينتين •

وكان الدعاة الالمان يركزون قسطاً كبيراً من دعايتهم حول هذا المنطاد وعظمته وجسامة التدمير الذي يحدثه في بلاد العدو • يروي ستورز أن بطاقات بريدية كانت توزع في مصر أثناء الحرب وفيها صورة لمنطاد زبلين وهو يرمي بقذائفه من الديناميت على الاسطول البريطاني •(٢٠)

ومن طريف ما يذكر في هذا الصدد ان الشيخ محمد علي اليعقوبي من شعراء العراق نظم قصيدة أثناء حصار الكوت أشار فيها الى منطاد زبلين ومبلغ التدمير الذي أحدثه في لندن وهذه بعض ابيات منها :

لله جيشـ المسـلمين المنعـوت   كل حجي قـد عـاد منه مبهوت
صال على انكلترا وهي الحـوت   ولم يزل يطردها حتى الـكوت
من بعـد ما جاست خـلال سـلمان

قـد عز يا انكلتـرا ما تبغـين   وراءك اليـوم عـن المعصومين
ليسـ العـراق مثلمـا تظنين   فلنـدن حـام عليهـا زبلين
يقذفهـا قنابلاً ونيران (٢١)

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان بلاد ايران كانت خلال الحرب تربة خصبة للدعاية الالمانية ، حيث أخذ الدعاة الألمان يبذلون جهوداً كبيرة فيها وينفقون الأموال الطائلة ، وكانوا يدأبون على بث الاشـاعات حـول اخلاص « الحاج غليوم » للاسلام وحول سلاحه الخطير « زبلين » • وقـد انتهزوا حالة الفوضى التي كانت سائدة في ايران في تلك الآونة فصاروا يسرحون ويلعبون فيها كما يشاؤون •

كان أشهر الدعاة الالمان في ايران وأعظمهم حذقاً وجرأة رجل اسمه

---

(20) Ronald Storrs (op. cit) p. 140.

(٢١) جريدة «صدى الاسلام» في عددها الصادر في ٦ ربيع الثاني ١٣٣٤ هـ •

فاسموس، وكان هذا الرجل قبل الحرب قنصلاً لالمانيا فيبوشهر فلما شبت الحرب أخذ يجمع حوله الأعوان ويتخذ الدعوة الدينية سلاحاً له ، وقد حرض الايرانيين على قتل القناصل الانكليز ومستخدميهم في كل مكان . ويزعم الانكليز أنه كان يستخدم آلة لاسلكي مدعياً أمام الناس أن الاخبار تأتي اليه من السماء وأن الحاج غليوم يعدهم بالجنة ان هم ظلوا مثابرين على جهاد الانكليز الكفار . (٢٢) وفي أحد الأيام انتشر خبر في اصفهان بأن منطاد زبلين سيأتي محملاً بأكياس من السكر ، وكان السكر يومذاك قد ارتفع سعره ارتفاعاً فاحشاً ، فخرج الناس لاستقبال المنطاد ، ولـكن المنطاد لم يصل مع الاسف ، ورجع الناس الى بيوتهم بخفي حنين .

ومن الطرائف التي يرويها الانكليز عن فاسموس أنه استطاع أن يقنع أحد التجار الاثرياء في شيراز ويجعله من عملاء ألمانيا، وقد أخبره ذات يوم بان القيصر نفسه يريد مخابرته من برلين ، ولكي يجعل الحيلة تنطلي عليه جلس هو في غرفة فيها آلة تلغراف وأدخل التاجر الشيرازي عليه وأخـذ يدق على الآلة مدعياً أن القيصر موجود في المحطة اللاسلكية للمحادثة معه ولذا يجب عليه أن يقبل الأرض ثلاث مرات ، وعاد فاسموس يدق علـى آلته ثم قال للتاجر ان القيصر يسلم عليه ويسأل عن صحته ، وأسرع التاجر فتبرع بمبلغ من المال مقداره عشرة آلاف باون ، فقال لـه فاسموس ان القيصر تقبـل الهديـة ووعده بأنه سيرسل صورته باللاسلكي . وقـد وصلت صورة القيصر الى التاجر فعلاً بعد يومين . وظل التاجر بعد ذلك معتقداً بصحة ما حدث ، ولم ينكشف له سر الحيلة الا بعد وصول القائد الانكليزي سايكس مع قواته الى شيراز ، فجاء اليه التاجر يشكو اليـه قائلاً : انه آكل خرا . (٢٣)

ماساة الارمن :

قدر عدد الأرمن الساكنين داخل الحدود التركية في بداية الحرب بمليون ونصف ، ومشكلتهم أنهم كانوا غير متجمعين في منطقة معينة خاصة

---

(22) Barker (The Neglected War) — London 1967 — p. 173.
(23) Percy Sykes (op. cit.) — vol 2' p. 243 — 245.

بهم بل كانوا متفرقين فـي عـدة ولايات هي : أرضروم ، وان ، بتليس خربوط ، ديار بكر ، طرابزون ، سيواس ، أطنه ، حلب ، وغيرها . وكانوا يعيشون في هذه الولايات متجاورين مع المسلمين من الاتراك والأكراد ، وكثيراً ما كانت المعارك الدينية والفتن تنشب بينهم وبين جيرانهم كما هو ديدن البشر في مثل هذه الظروف .

ذاق الأرمن مذابح رهيبة في عام ١٨٩٥ على نحو ما ذكرناه في الجزء الثالث، وذاقوا المذابح كذلك في عام ١٩٠٩. وعندما اندلعت نيران الحرب في عام ١٩١٤ كان من الطبيعي أن يتجه هوى الأرمن نحو الروس ضـد أعدائهم الاتراك ، وقد عبرت الحدود الشرقية تشكيلات من المتطوعين الأرمن فتغلغلوا في الاناضول وأخذوا يخربون القرى ويقتلون سـكانها وينسفون الجسور وسكك الحديد وخطوط التلغراف . وفي ٢٠ نيسـان ١٩١٥ سيطر ٢٥٠٠ أرمني مسلح على بلدة « وان » وأسسوا فيها حكومة أرمنية موقتة . وفي الوقت نفسه أخذ الأرمن الفـارون من التجنيد فـي تركيا يؤلفون عصابات مسلحة ويعيثون فساداً في نواحي ديار بكر وسيواس ومرعش وقره حصار . ثم صاروا يهاجمون الجيوش التركية من الخلف، وبهذا صارت الجيوش التركية بين نارين : نار الجيوش الروسية من الامام ونار العصابات الأرمنية من الخلف . (٢٤)

أثار هذا النشاط الارمني المعادي بعض رجال الدولة في تركيا وعلى رأسهم طلعت باشا وزير الداخلية، وكان من رأي هؤلاء الرجال ان الحكومة التركية ينبغي أن تنتهز هذه الفرصة للتخلص من الأرمن كلياً ، فان وجود الأرمن في تلك المناطق الحساسة هو مصدر خطر دائـم علـى الامـة التركية ، وقد أصبح من الواجب انقاذ الأمة من هذا الخطر نهائياً ، ان هذا العمل سينال احتقار الرأي العالمي ولعنته ولكنه في الأمد البعيد يؤدي الى ما فيه مصلحة الامة .

نوقشت قضية الأرمن فـي اجتماع لمجلس الوزراء التركي فـي ١١ حزيران ١٩١٥ ، وقد صدر بلاغ رسمي عقب الاجتماع يبدو في ظاهره بريئاً

---

(24) Ahmad Amin (op. cit) — p. 215.

ولكنه في حقيقته يحمل المأساة الكبرى للارمن ويعد لطخة عار في جبين الذين وافقوا عليه والذين نفذوه . ننقل فيما يلي نص البلاغ :

« بما أن الأرمن يأتون بأمور مخالفة للقوانين وينتهزون الفرص لاقلاق الحكومة وقد ظهر عندهم أسلحة ممنوعة وقنابل ومواد متفجرة مهيأة بقصد عمل ثورة داخل البلاد وقد قتلوا المسلمين في وان وساعدوا الجيوش الروسية . ولما كانت الحكومة بحال الحرب مع دول انكلترا وفرنسا وروسيا فخوفاً من أن يتصدى الأرمن لعمل شغب وثورة كعادتهم فقد قررت الحكومة جمع جميع الأرمن وسوقهم لولايتي الموصل وسوريا وللواء دير الزور على أن تكون أعراضهم وأموالهم وأنفسهم في أمان من اعتداء المعتدين وتسلط المجرمين . وقد أعطيت الأوامر اللازمة لاحضار أسباب راحتهم ولاسكانهم في تلك البلاد الى أن تضع الحرب اوزارها » . (٢٥)

وبدأت منذ ذلك الحين عمليات تسفير الأرمن من بيوتهم في قوافل سيراً على الاقدام عبر البراري والجبال باتجاه العراق وسوريا . تبدأ العملية عادة بذهاب جنود الدرك الى محلات الأرمن يخبرونهم بأنهم يجب أن يستعدوا للسفر خلال يومين أو أيام معدودة . ثم يؤخذون بعد هذا بنسائهم واطفالهم فيساقون قسراً في صفوف طويلة ...

أدرك الأرمن سوء المصير الذي ينتظرهم من تسفيرهم هذا ، ولهذا أسرع بعض رجالهم الى حمل سلاحهم والتجأوا الى الجبال والمغاور ليقاتلوا فيها قتال المستميتين . أما النساء والاطفال فقد سيقوا كالنعاج تحت وطأة السياط وكعوب البنادق . وانثال عليهم قطاع الطرق والجنود والذين يتخذون من الدين ستاراً للنهب والانتهاك والتلذذ بالقتل يعملون فيهم ما يشتهون . وأخذ النساء والاطفال يتساقطون على جانبي الطريق من شدة الجوع او الارهاق أو المرض . وأصبح اغتصاب النساء الجميلات مألوفاً اذ لم ينج منه حتى البنات الصغيرات أحياناً . وقد ضحت الكثيرات من الارمنيات بأرواحهن في سبيل الذياد عن أعراضهن .

---

(٢٥) فائز الغصين (المذابح في ارمينيا) – ١٩١٧ – ص ١٣ .

يروي فائز الغصين وكان مسافراً في تلك الايام من حلب الى ديار بكر أنه شهد بالقرب من مدينة اورفه صفوفاً ماشية على أقدامها فظنها عن بعـد جنوداً سائرين الى ميدان الحرب ولما اقترب منهم وجدهم نساءاً أرمنيات حافيات حاسرات وخلفهن أفراد من الدرك ، واذا تخلفت واحدة منهن لكزها الدركي بكعب بندقيته فيسقطها على وجهها أرضاً ، أما من تتخلف منهن لمرض يصيبها فانها تترك في البر وحيدة . وعندما وصل فائز الغصين الى مقربة من بلدة « سيورك » شاهد منظراً مريعاً ، اذ وجد جثث الموتى على جانبي الطريق بكثرة ، وكلما اقترب من « سيورك » ازداد عدد الجثث ، وكان فيها جثث النساء والاطفال علاوة على جثث الرجال .

وعند وصول فائز الغصين الى مقربة من ديار بكر لاحظ على جانب الطريق طفلاً في الرابعة من عمره ذهبي الشعر أزرق العينين تبـدو عليـه آثار الترف والدلال وهو واقف في الشمس لا يتحرك ولا يتكلم ، فكلموه دون جدوى . وروى أحد اعراب الجزيرة أنه كان مسافراً مـع رفاق لـه في تلك الانحاء فوجدوا في البرية سبعة عشر طفلاً اكبرهم في الثالثـة عشرة من عمره ، وهم في حالة يرثى لهـا من الجوع والعطش فسقوهم وأطعموهم . ثم تركوهم ولما عادوا بعد أسبوع الى المكان نفسه وجدوهم موتى جميعاً . (٢٦)

تقدر المصادر التركية عدد الهالكين من الأرمن بين مائتين وثلاثمائـة ألف ، أما المصادر الغربية فتقدرهم بين خمسمائة وستمائة ألف . (٢٧) وقد ضج الرأي العام العالمي لهذه الكارثة ، واتخذها الحلفاء ذريعـة لتشويه سمعة الاتراك والألمان .

وقف الزعيم الأرمني كريكور زهراب فـي مجلس المبعوثين فخطب محتجاً بشدة على هذه الفضائح، ووجه الكلام الى طلعت باشا وزير الداخلية قائلا له : «ساناقشك الحساب يوماً » ، فأجابه طلعت باشـا متهكماً : « في أي وقت وأي مكان ! ؟ » ، فرد عليه زهراب : « في البرلمان ومـن

---

(٢٦) المصدر السابق ص ١٨ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٥٧ .

(27) Ahmad Amin (op. cit) — p. 221.

فوق منبر الخطابة ! » (٢٨) • وفي اليوم التالي ألقي القبض على زهراب وسيق نحو البلاد العربية ، وقيل انه قتل في الطريق •

يجب أن نذكر ان الاتراك لم يكونوا كلهم راضين عن هذه المآسي التي حلت بالأرمن ، فقد أبدى الكثير منهم اعتراضهم عليها ، كما بذل الكثير من الولاة والموظفين جهدهم في تخفيف وطأة الكارثة عن الارمن وحمايتهم ، وقد استقال بعضهم من وظيفته احتجاجاً • والمعروف عن ثابت بك السويدي وهو بغدادي كان قائمقاماً في قضاء البشيري التابع لولاية ديار بكر أنه استقال من وظيفته احتجاجاً على ذلك ، (٢٩) وقيل انه قتل في الطريق على نحو ما قتل زهراب •

وفي الوقت الذي نجد في تركيا أمثال هؤلاء نجد أناساً على النقيض منهم اذ هم اندفعوا مع التيار العام فاشتركوا في المجازر أو رضوا عنها على الاقل ، وكان بعضهم يفتخر بما فعل بالأرمن من تعذيب أو قتل ، وهم يبررون عملهم بأنهم انما ينفذون أمر السلطان ويزعمون ان أمر السلطان من أمر الله وتنفيذه فرض • (٣٠)

ان بعض رجال الدولة المسؤولين عن مذابح الأرمن قد كتبوا يدافعون عن أنفسهم ويبررون أفعالهم • وكان في مقدمتهم طلعت باشا حيث كتب في مذكراته عقب انتهاء الحرب يقول : « لقد اتخذ الكتاب مسألة نفي الأرمن ••• سبباً للطعن على الحكومة العثمانية • وقبل أن أذكر شيئاً عن موقف الحكومة نحو الأرمن أريد أن أصرح أن الاخبار عن هذا النفي مبالغ فيها فالأرمن واليونان أرادوا أن يستميلوا الشعوب الأوربية والامريكية فصوروا الحالة بصور جاءت غير منطبقة على حقيقة الواقع ، ولا أريد بقولي هذا أن أنفي صحة هذه الحوادث ولكني أريد أن انفي ما فيها من مبالغة واغراق ••• اني اعترف ان النفي لم يجر في كل الاماكن حسب القوانين المرعية والمعترف بها ، وأنه حدثت في بعض القرى أعمال غير

---

(٢٨) استارجيان (تاريخ الامة الارمنية) _ الموصل ١٩٥١ _ ص ٣٣٥ •
(٢٩) فائز الغصين (المصدر السابق) _ ص ٧٥ •
(٣٠) المصدر السابق _ ص ٧٨،٤٠ •

قانونية ، وما ذلك الا نتيجة البغض الذي أوغر قلوب الفريقين ــ الأرمن والمسلمين ــ نعم هناك عدد من أصحاب المناصب في الحكومة أساؤوا استعمال سلطتهم ولحق الضرر بعدد كبير من الأبرياء ... فاذا عاقبنا هؤلاء يهيج الرأي العام علينا وتنتشر الفوضى في بر الاناضول وتنشطر الامة الى شطرين في وقت نحن فيه بأمس الحاجة الى الاتحاد ... لقد حدثت أمثال هذه الحوادث في كل مملكة في العالم أثناء الحرب ولكن لسوء الحظ لم يرها العالم ولم يسمع بذكرها الا في بلادنا لأن أعين الجميع كانت متجهة الينا » . ويضيف طلعت باشا الى ذلك قائلا : ان التبعة في هذه المأساة تقع على الأرمن أنفسهم لأنهم ساعدوا الجيش الروسي وعاثوا فساداً في مؤخرة الجيش التركي ، ولم تكن كنائسهم سوى مستودعات للاسلحة والذخائر ... (٣١)

وكان جمال باشا من بين الذين كتبوا في تبرير مأساة الأرمن أيضاً ، لكنه يدعي أنه لم يكن من المسؤولين عنها وأنه ساعد نساء الأرمن وأيتامهم عند وصولهم الى بلاد الشام . ان جمال باشا في مذكراته يضع تبعة تلك المأساة على السياسة الروسية التي كانت تحرض الأرمن خلال سبعين عاماً على جيرانهم الاكراد والاتراك ويزعم ان الأرمن اقترفوا من المذابح ضد المسلمين أثناء الحرب أكثر مما أقترفه المسلمون ضدهم . وهو يقول في ذلك ما نصه :

« فلنفرض جدلاً ان الحكومة العثمانية نفت مليوناً ونصف مليون من الأرمن من ولايات الاناضول الشرقية وان زهاء ستمائة ألف منهم قد مات أو قتل في الطريق أو سقط ضحية الجوع والتعب ، فهل يدري أحد كم قتل من الاكراد والاتراك في ولاية طرابزون وأرضروم ووان وبتليس بصورة تقشعر منها الابدان بأيدي الأرمن عندما زحف الجيش الروسي على تلك الولايات ؟ اني لأقرر هنا بأن عدد من قتل من الاكراد والاتراك ليربي كثيراً على مليون ونصف ، فان جاز أن يكون الاتراك مسؤولين عن المذابح الارمنية فلماذا لا يكون الارمن مسؤولين عن المذابح التركية ؟ ألأن

---

(٣١) من مذكرات طلعت باشا ــ ملحق في كتاب هنري مورغنتو (المصدر السابق) ــ ص ١٠٥ .

الاتراك والاكراد ليسوا في نظر الانسانية... باكبر قيمة من الذباب؟!» .[٣٢]

ثم يتحدث جمال باشا في مذكراته عن الفظائع التي قام بها الأرمن تجاه المسلمين ، وهي فظائع لا تقل حسب وصفه لها عن تلك التي قام بها المسلمون . ويعلق الباحث التركي الدكتور أحمد أمين على ذلك فيقول : ان ما ورد في مذكرات جمال باشا عن مذابح الأرمن للمسلمين مبالغ فيه ، وان عدد الذين قتلوا من المسلمين بأيدي الأرمن لا يزيد على الأربعين ألفاً .[٣٣]

اننا نقف هنا ازاء فضائع بشرية بين فريقين يضع كل منهما اللوم فيها على الآخر . نحن لا نشك أن مأساة الأرمن كانت فظيعة حقاً ، ولا نشك كذلك ان الأرمن انتقموا لأنفسهم من المسلمين عندما اتيحت لهم الفرصة . فهي اذن كانت مذابح متبادلة ، وهي تكشف لنا عن خفايا الطبيعة البشرية بلا طلاء .

ان هذا ليس بالأمر الشاذ النادر في تاريخ البشر ، والواقع ان التاريخ مليء بمثل هذه المذابح ، وهي تتوالى حيناً بعد حين من غير انقطاع ، ويبدو ان البشر لا يستطيعون أن يبدلوا طبيعتهم هذه مهما طال بهم الزمن .

ومشكلة البشر ان كل فريق منهم حين يقص تاريخه انما يذكر منه جانباً واحداً وينسى الجانب الآخر ، انه يذكر الفظائع التي أوقعها خصومه به وينسى الفظائع التي أوقعها هو نفسه بخصومه . وقد صدق من قال : « ان العقل البشري متحيز بطبيعته » .

المجاعة في لبنان :

عانت البلاد العثمانية خلال الحرب شحة في الطعام على درجات متفاوتة ، ولكن المجاعة الشديدة لم تظهر الا في أربع مناطق فقط هي الكوت وخانقين والموصل ولبنان . وكانت المجاعة في المناطق الثلاث الاولى ذات نطاق محدود وفي فترة زمنية غير طويلة نسبياً على نحو ما سوف

---

(٣٢) جمال باشا (المصدر السابق) — ص ٣٢٤ — ٣٢٥ .

(33) Ahmad Amin (op. cit) — 222.

نذكره ضمن أحداث العراق في فصول قادمة . أما مجاعة لبنان فكانت واسعة النطاق حيث شملت بعض المناطق المجاورة من سوريا علاوة على منطقة لبنان ، واستمرت اكثر من سنتين ، وعانى الناس فيها البلاء الوبيل.

بدأت المجاعة في نيسان من عام ١٩١٦ حين وفدت اسراب كثيفة من الجراد الى بلاد الشام ، فأكلت الاخضر واليابس . وأخذت أسعار الحبوب ترتفع في مختلف بلاد الشام ولكن الغلاء تفاقم في منطقة لبنان بصفة خاصة لانها منطقة جبلية تقل فيها زراعة الحبوب ، وهي كانت في زمن السلم تستورد الحبوب من المناطق الداخلية أو عن طريق البحر ، فلما اشتدت الحرب قل ورود الحبوب اليها لقلة حيوانات النقل من جهة ولوجود الحصار البحري عليها من الجهة الاخرى .

كان سعر طن الحنطة في بداية المجاعة زهاء أربعين ليرة ذهب . ثم أخذ يرتفع تدريجاً حتى وصل أخيراً الى مائة وعشرين ليرة ، وهذا مبلغ كبير جداً بمقياس تلك الايام . وكذلك ارتفعت أسعار الحبوب الأخرى. يروي عمر أبو النصر : أنه سمع جائعاً يشكو الى الله شدة جوعه ويقول: « يارب أكلة عدس وأموت » . (٣٤)

أخذ الناس تحت وطأة ضغط الحاجة يبيعون أثاثهم ثم قلعوا الاخشاب والاشجار والاحجار من بيوتهم وعرضوها للبيع بثمن بخس ، كما باعوا بيوتهم أحياناً. أما النساء فقد بعن حليهن في البداية ثم ملابسهن، واضطر البعض منهن الى بيع أنفسهن عن طريق الحلال أو الحرام . فقد كان في مقدور أي انسان أن يتزوج فتاة جميلة بمهر تافه . وكثرت الخادمات في تلك الأيام كما كثرت بائعات العرض .

ان المجاعة تؤدي عادة الى انتشار الاوبئة والامراض بسبب سوء التغذية ، ولهذا ينتشر الموت بين السكان على نطاق واسع . يقال ان عدد الموتى في بلاد الشام من جراء المجاعة بلغ ثلاثمائة ألف وربما أكثر ، (٣٥) فتلاشت قرى باكملها . وتشير بعض الاحصاءات الى أن منطقة صيدا

---

(٣٤) عمر ابو النصر (المصدر السابق) — م ٣ ص ١٨٦—١٨٧ .

(٣٥) جورج انطونيوس (المصدر السابق) — ص ٣٤٤ .

وجنوب لبنان كان عدد سكانها في بداية الحرب ٧٧ ألفاً فأصبحت في نهاية الحرب ٤٤ ألفاً . وكانت قرية البطرون تحتوي على خمسة آلاف نسمة فأصبحت تحتوي على ألفين فقط . (٣٦)

لكي يأخذ القارىء صورة واضحة عن المجاعة في لبنان تنقل عنها شهادات مختلفة لاشخاص أربعة كانوا قد شهدوا المجاعة بأنفسهم وكتبوا عنها في مذكراتهم . فاحدى هذه الشهادات لرجل لبناني هو جرجيس الخوري المقدسي وكان حينذاك استاذاً في جامعة بيروت الامريكية ، وهو يقول في كتاب نشره في بيروت عام ١٩٢١ : « ان الذين لم يهربوا الى سوريا الداخلية طلباً للقوت صاروا من جملة الشحاذين الذين كان عددهم في ازدياد مستمر في بيروت ، وكان من بين الشحاذين أفراد يملكون شيئاً من الطاقة تمكنهم من التجول في الشوارع والطرق على أبواب البيوت ، أو اجتياح اكوام النفايات والبحث عن جثث الحيوانات الميتة ، أما الذين لا يقدرون على ذلك فقد انطرحوا على جوانب الشوارع يستغيثون بالمارة بأيدي ممدودة وأصوات ضعيفة . وهناك أفراد بينهم أطفال كانوا ينطقون من خلال نظراتهم ... وحين جاءت سنة ١٩١٨ كانت الطبقات السفلى من المجتمع قد أبيدت تقريباً ، وحلت محلها الطبقة الوسطى » . (٣٧)

أما الشهادة الثانية فهي لرجل أمريكي كان قد تجول في بعض قرى لبنان في تموز ١٩١٧ بصحبة رئيس الصليب الاحمر الامريكي وكتب يقول ما نصه : « كانت المناظر مما يعجز دونه الوصف . وكم رأينا عائلات كاملة تتلوى من الآلام المبرحة على المصاطب العارية في اكواخها البائسة ، وكانت الأنات في طرف من الحي تسمع في طرفه الآخر . لقد باع هؤلاء كل قطعة من أثاث بيوتهم ليشتروا خبزاً ، وفي كثير من الاحيان نزعوا آجر السقف لمثل ذلك أيضاً ، وكانت مئات الدور التي مات أصحابها خالية آيلة الى السقوط والاندثار . ويقدر المعتدلون أن من ماتوا من الجوع نفسه خلال سنتين في لبنان وحده لا يقلون عن مائة

---

(36) Philip Hitti (Lebanon In History) — London 1957 — p. 486.
(37) Ibid. p. 485.

وعشرين ألفاً ». (٣٨)

أما الشهادة الثالثة فهي لرجل تركي من أولي الشأن أسمه فالح رفقي بك ، وكان قد زار بيروت اثناء استفحال المجاعة ، فكتب في مذكراته يقول : « ... خرجت الى شوارع بيروت فاذا بي تجاه مناظر مفجعة ، فهنا أولاد عراة منتفخو البطون يتزاحمون على قشور البرتقال يلتهمونها لاشباع جوعهم ، وهناك هياكل عظمية من النساء تسترهن رقع بالية مرتميات على الطرقات يلتمسن كسرة الخبز ... » ويقول أيضاً : « وما كدنا نجتاز طريق ذلك الشارع القائم على احدى مرتفعات المدينة ونجتاز الى المناطق المجاورة حتى شعرت بمرارة ألم تضطرني الى الوقوف ، فقد أخذت الاصوات ترتفع حولي وكلها تشير الى أن أصحابها يقاسون آلام الجوع المؤلم وهم يستعطفون المارة بعبارات مفجعة طالبين كسرة من الخبز ، ثم أخذت أرى الهياكل العظمية ترتمي هنا وهناك وهي بحالة غير قادرة على الحبل ، ثم رأيت احدى عربات النقل تقف أمامي وأذرعاً ممدودة من طرفها الخلفي ، فاقتربت منها فاذا بها عدة جثث هي جثث النساء والاطفال الذين فتكت بهم المجاعة . وان بلدية بيروت خصصت مثل هذه العربات لتطوف الأحياء وتجمع الاموات الذين يسقطون في الطرقات لتنقلها الى مثواها الاخير . وان هذه العربات تنقل كل ليلة عشرات من هؤلاء البؤساء وفي بعض الاحيان تنقل بعض الذين أغمي عليهم من الجوع وليس هناك من يهتم بهم ، فيلقون أيضاً في الحفرة مع رفاقهم ، حتى اذا قاموا من اغمائهم هذا ووجدوا أنفسهم بين الاموات عاد الجوع والخوف فأثر فيهم ولحقوا برفاقهم . وقد روي لي سائق هذه العربة أنه كثيراً ما شاهد أمثال هذه الحوادث وليس هناك من يهتم بها ... » . (٣٩)

ونأتي أخيراً الى الشهادة الرابعة وهي التي روتها الراقصة المشهورة بديعة مصابني ، فقد كانت هذه السيدة يومذاك تحترف الرقص والغناء في بيروت وكانت ذات بشرة ناعمة يندر مثيلها وجمال وشخصية مغرية ،

---

(٣٨) جورج انطونيوس (المصدر السابق) ــ ص ٣٤٤ .

(٣٩) احمد عزت الاعظمي (القضية العربية) ــ بغداد ١٩٣٣ ــ ج ٥ ص ٩٢ ــ ٩٦ .

فاحبها ضابط تركي من ذوي النفوذ اسمه صلاح الدين وأخذ يغدق عليها ما تشتهي من مقادير الحبوب . انها تقول في مذكراتها : « ففي صباح أحد الايام ، وبينما كنت أقف على شرفة منزلنا ، شاهدت طفلة تبحث في نفايات الشارع عن شيء تأكله ، فناديت شقيقتي نظلة وطلبت اليها أن تأتيني بالطفلة الجائعة . وما أن رأت تلك الصغيرة نفسها أمام ما أحضرته لها نظلة من طعام حتى أقبلت عليه بشراهة ونهم وكأنها حيوان صغير . تركتها تأكل ما طاب لها دون أن تساورني أية فكرة بأن التخمة قد تؤذيها ، وسرعان ما بدت عليها آثار التورم ، وماتت بعد اسبوع واحد . لم تمت من الجوع بل ماتت من التخمة ! يا للسخرية ! ... وتجددت الحالة نفسها مع والدة مسكينة كانت تبحث عما تقتات به مع ولدها الصغير ، آويناها في منزلنا وقدمنا لها ما يطرد الجوع من جسدها وجسد طفلها الهزيل . لم تصب المرأة بأذى بل تمكنت من مقاومة الجوع والتخمة ، أما طفلها فلم تطل به المدة حتى لحق بالصغيرة الاولى ... » . [٤٠]

من صفات المجاعات بوجه عام أنها ذات تمييز طبقي ، فالفقراء هم الذين ينالون منها النصيب الاكبر ، اما الاغنياء فلا يتأثرون بها الا قليلاً وربما استفاد منها بعضهم لا سيما المحتكرون والمرابون وطلاب الشهوات ، فتتضخم ثرواتهم ويتسع نطاق ملذاتهم .

يروي الذين شاهدوا مجاعة لبنان ان بعض الاغنياء استطاعوا أن يضاعفوا ثرواتهم عن طريق الاحتكار أو الربا او شراء الدور ونفائس الاشياء بأثمان بخسة ، وكانوا في بيوتهم يأكلون مثلما اعتادوا عليه في حياتهم الاعتيادية ، وقد يعمد بعضهم الى اقامة الولائم الفخمة حيث يقدمون فيها أفانين الطعام لضيوفهم وهم يضحكون ويمرحون دون أن يهتموا بما يجرى بالقرب منهم من بؤس عجيب .

يحدثنا فالح رفقي بك في مذكراته : أن احد أغنياء بيروت أقام في قصره الفخم حفلة راقصة ساهرة لجمال باشا في نفس الوقت الذي كانت فيه شوارع بيروت مملوءة بالجياع والموتى من الجوع على النحو

---

(٤٠) نازك باسيلا (مذكرات بديعة مصابني) ـ بيروت ـ ص ١٦٦ .

الذي ذكرناه ، ويصف فالح رفقي بك الحفلة فيقول ان الموائد التي صفت فيها كانت تحتوي على مالذ وطاب من المأكولات والخمور المعتقة والعرق الزحلي ، وكان الاعيان الذين حضروها مرتدين الملابس الانيقة كما كـانت النساء متزينات بالجواهر القيمّة . وعلائم السرور والابتسامات ظاهـرة على وجوههم جميعاً ... (٤١)

من المناظر المألوفة في أيام المجاعة أن باعـة الاطعمة والبقالين يظلـون يعرضون أشياءهم في الاسواق على منوال ما كانوا يفعلون فـي الأيـام الاعتيادية ولكن أسعارها عالية جداً لا يقدر عليها الا" الاغنياء وبعض أفراد الطبقات الوسطى . وليس من النادر منظر جائـع على وشـك الموت وهو مطروح بالقرب من دكان بقال . ولا لوم على البقال في ذلك وعذره أنـه لو وزع ما عنده على الجياع لصار واحداً منهم ثم لا ينفعهم ذلـك الا" الى أمد قصير حيث يعودون بعده الى جوعهم الأول .

وقد يعمد بعض الجياع ــ لا سيما الصغار منهم أو الذين لهم قـدرة على الجري والمصاولة ــ الى اختطاف الأطعمة من أيدي الناس والهروب بها. يروي منير الريس في مذكراته عما شاهده في دمشق اثناء المجاعة فيقول: « لقد كان مشهد الصبية والاطفال الجياع مثيراً وهم يتسولون في الشوارع والأسواق ، ومنهم من كان يختطف من الباعة ومن أيدي الناس كل ما تقع عليه عينه من الغذاء : هذا يغرف بيديه من ماعون اللبن الخاثر او الرائب اذا رآه بيد تحمله من السوق ، وذاك يتلصص بقدميه الحافيين وراء حامل الوعاء يتحين الفرصة للغرف والخطف فاذا تلفتّ صاحب الماعون فر الجائع واللبن يقطر من يديه وفمه . حتى الجنود كانوا جياعاً يخرجون من صفوفهم مشاة" ويهجمون في أسواق المدن وشوارعها على الحوانيت وباعة الاطعمـة يتخطفون ما تصل اليه أيديهم . وكلما مرت سرية من الجنود في شوارع دمشق وأسواقها كنا نرى الباعة المتجولين يفرون بصوانيهم وعرباتهم التي تحمل المآكل الجاهزة والحلوى خشية أن يتخطفها الجنود الجيـاع مـن

---

(٤١) أحمد عزت الاعظمي (المصدر السابق) ــ ج ٥ ص ٩٣ــ٩٤ .

بين أيديهم » . (٤٢)

وقد تناقل الناس في لبنان حكايات واشاعات عن نساء أكلن لحوم الاطفال من شدة الجوع . يحكى مثلاً عن امرأة من قرية « قلمون » القريبة من طرابلس أنها دخلت على جارة لها فوجدتها قد طبخت لحم طفلها في قدر وصارت تأكل منه ، فلما سألتها الجارة عن ذلك أجابتها: «مات ولدي جوعاً فأكلته لكي لا أموت أيضاً . وقد مات لي ولد قبله فأكلته أيضاً » . وتبين أخيراً أن الطفلين لم يموتا ميتة طبيعية بل أن المرأة ذبحتهما . وقد ألقت الحكومة القبض عليها وزجتها في السجن . وماتت المرأة في السجن..

ويروي الأب بولس سيور : أن فتاتين اختين في ميناء طرابلس لا يزيد عمر اكبرهما عن الثامنة عشرة كانتا تجتذبان الاطفال بحيلة الى بيتهما المنفرد فتذبحانهم بسكين كبيرة ، ثم تطبخان لحومهم فتأكلان منها وتبيعان منها قطعاً مقلية للأكل ودهناً للاضاءة . وصادف في أحد الايام أن افتقدت أم طفلها ثم رأت ملابسه على طفل آخر فأمسكت به ، وتبين أن هذا الطفل أخو الفتاتين ، وذهبت هيئة التحقيق الحكومية الى بيتهما فوجدت في بئر فيه اربعاً وعشرين جمجمة . فزجت الحكومة الفتاتين في السجن وأماتتهما فيه جوعاً . (٤٣)

لا ندري مبلغ هذه الحكايات من الصحة ، وربما كانت من المبالغات التي اعتاد الناس على تداولها في مثل تلك الظروف . ولكن الذي نعرفه ان المجاعات الشديدة قد تؤدي بالناس أحياناً الى أكل لحوم البشر . وقد وقعت في الموصل حادثة من هذا القبيل سنأتي الى ذكرها في فصل قادم . ويروي التنوخي أن امرأة ببغداد في عام ٣٣٤ هـ ، وكان عام غلاء شديد ، شوت ولدها وجلست تأكله ، فعلم الناس بأمرها وأخذوها الى السلطان فقتلها . (٤٤)

ويروي مؤرخ اسمه عبداللطيف البغدادي أنه شهد في مصر في

---

(٤٢) منير الريس (الكتاب الذهبي) ـ بيروت ١٩٦٩ ـ ص ٥١-٥٢ .
(٤٣) عمر ابو النصر (المصدر السابق) ـ بيروت ـ م ٣ ص ١٨٨ ـ ١٨٩ .
(٤٤) القاضي التنوخي (نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة) ـ تحقيق عبود الشالجي ـ بيروت ١٩٧١ ـ ج ١ ص ٣٥١ .

عام ٥٩٥ هـ مجاعة شديدة اعتاد الناس فيها على أكل لحوم البشـر علـى نطاق واسع • تنقل فيما يلي مقتطفات من أقواله لأهميتها الاجتماعية :

« ••• واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والأرواث ثم تعدوا ذلك الى أن أكلوا صغار بني آدم فكثيراً ما يُعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون فيأمر صاحب الشرطة باحراق الفاعل لذلك والآكل • ورأيت صغيراً مشوياً في قفة ، وقد أحضر الى دار الوالي ومعه رجل وامرأة زعم الناس أنهما أبواه فأمر باحراقهما • و وجد فـي رمضان بمصر رجل وقد جردت عظامه من اللحم فأُكل وبقي قفصاً كمـا يفعل الطباخون بالغنم ••• ولقد رأيت امرأة يسحبها الرعاع فـي السوق وقد ظُفر معها بطفل مشوي تأكل منه ، وأهل السوق ذاهلون عنها ومقبلون على شؤونهم وليس فيهم من يعجب لذلك أو ينكره فعاد تعجبي منهم أشد، وما ذلك الا" لكثرة تكرره على احساسهم حتى صار في حكم المألوف الذي لا يستحق أن يتعجب منه ••• واكثر ما كان يطلع من ذلـك مـع النسـاء وما أظن العلة فيه الا" ان النساء أقل حيلة من الرجال وأضعف عن التباعـد والاستتار • ولقد أحرق بمصر خاصة في أيام يسيرة ثلاثون امرأة كل منهن تقر أنها أكلت جماعة ••• ثم فشا فيهم أكل بعضهم بعضاً حتى تفانى أكثرهم، ودخل في ذلك جماعة من المياسير والمساتير : منهم من يفعله حاجة ، ومنهم من يفعله استطابة ••• وظهر من هؤلاء الخبثاء من يصيد الناس بأصناف الحبائل ويجتلبونهم الى مكانهم بانواع المخاتل ••• ووجد باطفيح عنـد عطار عدة خوابي مملوءة بلحم الآدمي وعليه الماء والملح فسألوه عن علـة اتخاذه والاستكثار منه فقال : خفت اذا دام الجدب أن يهزل الناس • وكان جماعات من الفقراء قد أووا الى الجيزة وتستروا ببيوت طين يتصيـدون فيها الناس ، وفُطن لهم وطُلب قتلهم فهربوا ، ووجد في بيوتهم من عظام بني آدم شيء كثير ، وخبرني الثقة الذي وجـد في بيوتهم أربـع مائـة جمجمـة ••• » (٤٥)

---

(٤٥) عبداللطيف البغدادي (عبداللطيف البغدادي في مصر) ـ القـاهرة ص ٦٢ ـ ٦٤ •

ومن الجدير بالذكر في شأن مجاعة لبنان أنها كانت كمأساة الأرمن موضع تلاوم بين فريقين ، فالاتراك يضعون اللوم فيها على الحلفاء ويدعون أن الحصار البحري الشديد الذي فرضه الحلفاء على السواحل اللبنانية كان السبب الاول في المجاعة حيث منعوا به من ورود الحبوب على السفن المحايدة الى لبنان . (٤٦) وكان الحلفاء يردون التهمة على الاتراك بمثلها ويدعون أن سوء الادارة التركية ولؤمها كان السبب الاكبر في المجاعة . ويقول منير الريس في مذكراته : ان الحكومة التركية اتبعت نحو لبنان سياسة انتقامية خاصة خلال سنوات الحرب ، وكان جمال باشا ينفذ تلك السياسة بلؤم فيحول دون وصول القمح والدقيق ومواد الغذاء اليه ، وهو بلد جبلي لا ينتج الا القليل من الحبوب . (٤٧)

انهيار الدولة :

كان الجندي التركي مشهوراً في العالم ببسالته وقوة صموده وصبره على القتال ، ولكن الصبر له حدودة ، فقد ظل الجندي التركي يقاتل بضراوة حتى أواخر عام ١٩١٦ وعند ذلك بدأ صبره ينفد ، وصار عدد الفارين من صفوف الجيش التركي يزداد يوماً بعد يوم . وفي بداية عام ١٩١٧ بلغ عدد الفارين من الجنود الاتراك ثلاثمائة ألف ، وفي صيف ١٩١٨ زاد عددهم على نصف مليون . (٤٨) وقد ظهرت مشكلة كبرى من جراء هذا الفرار الواسع النطاق ، تلك هي ان الجنود الفارين لم يعودوا الى بيوتهم أو قراهم اذ كانوا يخشون القاء القبض عليهم واعدامهم ، بل لجأوا الى الجبال وصاروا يؤلفون هناك العصابات المسلحة ، وأخذت تلك العصابات تشن الغارات على السكك الحديدية وطرق القوافل ، وقد تهاجم القرى والمدن ، وفرضت الاتاوة على الفلاحين ، فكان الفلاحون مضطرين ان يشتروا سلامتهم بدفع الاتاوة حيث لم تكن الحكومة قادرة على حمايتهم . (٤٩)

---

(٤٦) شكيب ارسلان (سيرة ذاتية) ـ بيروت ١٩٦٩ ـ ص ٢٢٥ ـ ٢٣٦ .

(٤٧) منير الريس (المصدر السابق) ـ ص ٥٠ .

(48) Ahmad Amin (op. cit) — p. 261—262.

(49) Ibid, p. 262.

ووصل أذى العصابات الى مقربة من اسطنبول ، وكـان الجنود الـذين يرسلون لحماية الطريق هناك ينضمون الى العصابات . وأرسل رجـال العصابات الى طلعت باشا رئيس الوزراء يهددونه بأنه اذا لم يعقد الصلـح فسوف يزحفون على اسطنبول وينهبونها . (٥٠) حاولت الحكومة عـلاج المشكلة حيث أنها في ٢٠ تموز ١٩١٨ أعلنت العفو العام عن الفارين جميعاً وطلبت منهم العـودة الى مواضعهم في الجيش من أجـل الدفـاع عن شرف الوطن . ولما وجدت الحكومة أن ذلك لم ينفعها شيئاً عمدت في ٢٩ تموز الى اعلان بيان مؤثر تستنجد فيه بمروءة الفارين وايمانهم حيـث خاطبتهم قائلة بأنهم يجب أن يتحملوا كل الحرمان والاذى في سبيل الله وأن لا يفكروا بالفرار حتى ولو مزقت أبدانهم تمزيقاً . انه كان بياناً بليغاً مؤثراً ولكن البلاغة ـ كما يقول الباحث التركي أحمد أمين ـ لا تجـدي في مثل تلك الظروف لان الفرار من القتال كان بمثابة ثورة ضد الحرب وضد الاسلوب الذي أديرت الحرب به . (٥١)

وفي شهر تموز نفسه الذي كانت الحكومة فيه تستنجد بالفارين على هذه الصورة الذليلة مات السلطان محمد الخامس وحل محله أخـوه الامير وحيد الدين باسم السلطان محمد السادس ، وكان هـذا السلطان الجديد على النقيض من أخيه الراحل يكره طلعت باشا وأنور باشا والوزارة الاتحادية كلها ويتحين الفرصة للايقاع بهم ، وقد اتخذ القائد المشهور عزت باشا الارناؤوطي مستشاراً له، وكان هذا القائد شديد الكراهية للاتحاديين.

وفي ايلول نزلت بالحكومة كارثتـان متعاقبتـان ، ففي ٢١ منـه استطاع الجنرال اللنبي أن ينزل بالجيوش التركية في فلسطين ضربة ماحقة مزقتها تمزيقاً . وفي ٢٩ منه استسلمت بلغاريا للحلفاء وبذلك قطعت خط الاتصال بين تركيا والمانيا من جهة ، وجعلت فـي مقدور جيوش الحلفاء مهاجمة اسطنبول من الغـرب من الجهة الأخرى . وفي ٧ تشـرين الاول اضطرت الوزارة الاتحادية الى تقـديم استقالتها . وبعـد يومين أوعـز

---

(٥٠) تشارلس طونزند (محاربتي فـي العـراق) ترجمـة عبدالمسيح وزير بغـداد ١٩٢٣ ـ ص ٥٦٣ .

(51) Ahmad Amin (op. cit) p. 264.

السلطان الى عزت باشا الارناؤوطي بتشكيل وزارة جديدة ، وأسرعت هذه الوزارة بارسال مندوبين عنها الى الحلفاء طلباً لعقد الهدنـة • وفي ٣٠ من الشهر نفسه تم التوقيع على شروط الهدنة في جزيرة « مودروس » وتحركت سفن الحلفاء متجهة نحو اسـطنبول للدخول اليها دخول الفاتحين • وفي اليوم الاول من تشرين الثاني دخلت السفن اسطنبول ، ونزل منها الجنـود الى الشوارع ، فاستقبلهم السـكان غير المسلمين ، ولا سيما اليونانيون والأرمن ، استقبالاً حماسياً هائلاً ، وأصبحت كلمة « زيتو » اليونانيـة تملأ الجو في كل مكان ترحيباً بجنود الحلفاء • وصارت الاهانات توجـه الى الضبـاط الاتراك فاضطـر هـؤلاء الى خلـع ملابسـهم العسـكرية تجنبـاً للاهانة • (٥٢)

مصير الزعمـاء :

عندما تم عقـد الهدنة بين تركيا والحلفاء خاف طلعت وأنور وغيرهما من زعماء الاتحاديين على أنفسهم ، انهم كانوا يخشون أن يسلمهم السلطان الى الانكليز ويقدمهم هؤلاء الى المحاكمة بتهمة قتـل الأرمن أو غيرهـا • وقد عقد هؤلاء الزعماء مؤتمراً لهم في دار أنور باشا ، وقرر سـبعة منهم الهروب من اسطنبول قبل دخول سـفن الحلفاء اليها ، وهم طلعت وأنور وجمال وبدري وعزمي والدكتور بهاءالدين شاكر والدكتور ناظم • واستطاع هؤلاء السبعة أن يركبوا نسافة ألمانية أوصلتهم الى شبه جزيرة القرم ، ومن هناك ركبوا قطاراً أوصلهم الى برلين • وكان أنور باشا قـد افترق عنهم في الطريق بحثاً عن فرصة لمغامرات جديدة •

يقال ان رئيس الوزارة الجديدة عزت باشا ساعد الزعماء السبعة على الهرب وحين علم السلطان بذلك لام عزت باشا على مساعدته لهم قائلاً : « ان تركيا ينبغي أن تكون على صلة طيبـة مـع الانجليز المنتصرين » ، فأجابه عزت باشا : « ان أنور وطلعت قد يكونان نذلين ، ولكنهما تركيان قبل كل شيء ، وما كنت لاشترك في تسليم أحد من المواطنين الى أية دولة

---

(٥٢) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) ــ بغداد ١٩٢٥ ــ ج ١ ــ ص ١٤٥ •

اجنبية ولو تنفيذاً لأمر السلطان » • وقـد توترت العلاقة بين السلطان وعزت باشا على أثر هـذه المحاورة ، فاستقال عزت باشا وخلفه في رئاسة الوزارة توفيق باشا • (٥٣)

كان في برلين يومذاك عـدد كبير من الطلبة الاتراك ، وحين سمعوا بوصول الزعماء الاتحاديين اليها حـدث هياج بينهم وطلبوا من الحكومة الألمانية تسليم الزعماء الى الحكومة التركية ، ثم صاروا يبحثون عنهم ليضربوهم ويهينوهم • ثم التقى وفـد من الطلاب بطلعت باشا وكانوا في غاية الحنق عليه ، فأخذ يحادثهم بلطف يدافع عن نفسه وعن السياسة التي انتهجها في الحرب ، ثم أجهش طلعت باشا بالبكاء أثناء حديثه معهم فتأثروا ببكائه وفتر حماسهم ضده وانصرفوا عنه •

عاش طلعت باشا في برلين مدة ، وكان خلال تلك المـدة يغادر برلين أحياناً ليتجول في بعض البلاد الاوربية • ثم نشر مذكراته حيث أشار فيها الى أنور وجمال قادحاً فيهما • وكان يرافقه في غربته أحد الاتحاديين وهو من يهود أزمير اسمه نسيم مازلياح • وكان الأرمن في برلين يتحينون الفرصة لاغتيال طلعت باشا فحرضوا عليه شاباً منهم مصاباً بالسل اذ قالوا له : انك لا تعيش أكثر من سنة والافضل لك قبل أن تفارق الحيـاة أن تقتـل هـذا الرجل الذي قتل أمة بأسرها من الأرمن • وفي السـاعة الحادية عشرة من ضحى ١٥ آذار ١٩٢١ بينما كان طلعت باشا يتمشى في الشارع قرب مسكنه هاجمه الشـاب الارمني من خلفه بغتـة وجعله يتخبط بدمائه • وقـد ألقت الحكومة الألمانية القبض على القاتل ثم أطلقت سراحه بعد شهرين بسعي من سفير احدى الدول الكبرى •

اقامت الجالية الاسلامية في برلين حفلة تأبين فخمـة لطلعت باشـا ، وانقسمت الصحف الالمانية حوله ، فالصحف المنسوبة للحزب الامبراطوري أعلنت أسفها عليه وذكرته بالخير لأنه كان هو وأنور السبب في محالفة تركيا لألمانيا ، أما الصحف الديمقراطية واليهودية فقـد غمزت به وأشارت الى فظائعه مع الأرمن •

---

(٥٣) ارمسترونج (مصطفى كمال) ــ ترجمة دار الهلال ــ القاهرة ــ ص ١٠٠

وقد استطاع الأرمن في اوائل ١٩٢٢ أن يغتالوا اثنين من زملاء طلعت باشا هما عزمي والدكتور بهاء الدين . وفي ١٨ تموز من تلك السنة اغتالوا جمال باشا مع اثنين من مرافقيه في مدينة تفليس وكان جمال باشا يومذاك في طريقه الى افغانستان بعد أن استعان به الملك أمان الله خان في تنظيم جيشه .

أما أنور باشا فقصته طويلة عجيبة تدل على أنه رجل غير عادي . ولا يسعنا المجال هنا ذكر القصة تفصيلاً ، يكفى أن نعطي القاري صورة موجزة عنها كما يلي :

كان أنور باشا حين فارق زملاءه في الطريق ينوى الانضمام الى البلاشفة بغية اثارة المسلمين في قفقاسيا على الانكليز ، فركب من احد موانئ القرم زورقاً يريد الوصول به الى قفقاسيا ، ولم يكد الزورق يسير به بعيداً عن الساحل حتى هبت عليه ريح هوجاء مع مطر شديد ، وكاد الزورق يغرق ، وقد تمكن أنور ان يعود سالماً الى الساحل بعد أن فقد حقائبه وأصيب بذات الرئة . وظل أنور في القرم مختبئاً حتى شفي ، ثم ذهب الى ألمانيا ، ومكث فيها طيلة سنة لا يعرف الناس عنه شيئاً . ثم ركب طائرة مع الدكتور بهاء الدين قاصداً موسكو ، فتاهت الطائرة بهما ونزلت في لتوانيا التي كانت تحت سيطرة الحلفاء . فألقت الشرطة المحلية القبض عليهما ، غير أن الالمان أنجدوهما بطائرة أخرى . أما كيفية وصول الطائرة اليهما وكيف تخلصا من أيدي الشرطة وتمكنا من ركوب الطائرة فتلك قصة تصلح للسينما لغرابتها. وقد عادت بهما الطائرة الى المانيا، ولكن أنور لم يمكث فيها طويلاً بل ركب طائرة ثالثة وقد تمكنت هذه الطائرة من الوصول الى موسكو سالمة ، وأنزله البلاشفة في قصر فخم مقابل الكرملين .

كانت زوجة أنور باشا قد غادرت اسطنبول في ذلك الحين وذهبت الى برلين لزيارة زوجها وهي تحسبه أنه فيها . وحين سمع أنور بذهابها الى برلين جاء اليها من موسكو لزيارتها ، وأخذ يتردد بين موسكو وبرلين مرة بعد مرة . وفي احدى المرات بينما كان أنور ماراً في استونيا في طريقه الى موسكو وقع في قبضة الحلفاء ، فحبسوه في سجن مع المجرمين طيلة شهرين ، وكانوا يضربونه ضرباً مبرحاً ولا يطعمونه سوى الخبز اليابس .

وقد أنقذه أخيرا رجل بريطاني حيث تشفع له وهو لا يعرفه ، فأطلقوه .

وفي عام ١٩٢١ اختلف أنور باشا مع البلاشفة ، فقرر الذهاب الى تركستان لاثارة المسلمين فيها عليهم . وحين وصل الى بخارى وجد فيها حزبين يتنازعان هما : « الحزب الاميري » الذي كان ضد البلاشفة و « حزب مجددي » الذي كان معهم . فانضم الى « الحزب الأميري » واستطاع بشخصيته الخلابة وحزمه الذي لا يلين أن يجمع حوله الانصار ، وهاجم القوات البلشفية وانتصر عليها في عدة مواقع .

أخذ نفوذ أنور يتسع شيئاً فشيئاً ، وانتشر صيته في تلك البقاع حتى كاد يصبح سلطاناً . وصارت الجرائد الأوربية تنشر أخبار انتصاراته وغزواته . وفي ٤ آب ١٩٢٢ حل عيد الأضحى ، وكان أنور يومذاك في بلدة «بالجوان» التي تقع الى الشرق من بخاري ، وقد تفرق جنوده للاحتفال بالعيد ولم يبق معه سوى شرذمة صغيرة منهم ، وحينذاك هاجمته قوة كبيرة من الخيالة الروس ، فخرج بنفسه اليهم وظل يقاتلهم حتى قتل .

ظلت الصحف الأوربية والاسلامية تنشر الاخبار عنه ، فمنها مانشرت خبر قتله ، ومنها ما كذبت الخبر . وكانت الصحف الهندية مولعة بأخباره لشدة حب المسلمين له في الهند ، فكانت تارة تنشر أنه في أفغانستان ، وتارة أنه في ايران ، وتارة أنه على حدود الهند . والظاهر ان المسلمين كانوا يطربون لهذه الاخبار ويتوقعون لها نتائج عظيمة . وفي أحد الأيام ظهر في احدى الصحف الهندية بيان بتوقيع الميرألاي علي رضا بك نائب أنور باشا هذا نصه :

« مضى زمن على شهادة الغازي أنور باشا الذي كان يجاهد لتحرير تركستان ، فهو اليوم ليس في افغانستان ولا في ايران ولا على حدود الهند ، بل انتقل الى جوار ربه الذي جاهد لمرضاته بماله ونفسه ، وقد انتقلنا نحن بعد هذه الفاجعة الى كابول ، وعسى أن نرجع قريباً الى انقرة ، فرجاؤنا من مسلمي الهند ان لا يجددوا أحزاننا بنشر الأخبار الكاذبة عنه بل أن يسألوا الله تعالى له المغفرة والجنة » . (٥٤)

---

(٥٤) شكيب ارسلان (المصدر السابق) ـ ص ٢٣٦ ــ ٢٨٥ .

الفصل الثاني

جبهات الحرب

كان للدولة العثمانية خلال الحرب أربع جبهات هي : قفقاسيا والدردنيل وسيناء والعراق • وسنتحدث في هذا الفصل عن الجبهات الثلاث الاولى مرجئين الحديث عن الجبهة الرابعة أي جبهة العراق الى الفصول التالية •

والملاحظ بوجه عام ان المسؤولين عن ادارة الحرب في الدولة العثمانية كانوا ذوى مزاج هجومي فلم يكونوا يفكرون بالدفاع أو يميلون اليه ، فبدلاً من أن يهتموا بتحصين المواقع التي كان من المتوقع هجوم العدو عليها كالعراق والدردنيل تراهم منصرفين الى اعداد الهجوم على روسيا من جهة قفقاسيا ، وعلى مصر من جهة سيناء وقناة السويس • ويبدو أن أذهانهم كانت مشغولة بأوهام الامجاد والبطولات ، وهم انما أدخلوا دولتهم في الحرب من أجل توسيع رقعتها وليس من أجل الدفاع عنها • وكانت النتيجة أنهم اخفقوا في هجومهم في قفقاسيا وسيناء ، بينما تمكن العدو منهم في العراق وكاد يتمكن منهم في الدردنيل •

جبهة سيناء :

عين جمال باشا قائداً للجيش الرابع الموجود في بلاد الشام ، وكلفه باعداد الحملة لفتح مصر • وفي ٢١ تشرين الثاني ١٩١٤ غادر جمال باشا اسطنبول بالقطار متوجهاً الى الشام ، وقد جرى له في المحطة توديع حافل اشترك فيه الوزراء والأعيان ، وخطب هو في المحطة قائلاً : انه يدرك جسامة المهمة التي كلف بها ، والمصاعب التي تكتنفها ، ولكنه اذا مات هو ورجاله دون انجاز تلك المهمة فعلى رفاقهم أن يحلوا محلهم ويعبروا على جثثهم لتحرير مصر وديعة الاسلام من أيدي الانكليز الغاصبين • [1]

---

(١) جمال باشا (مذكرات جمال باشا) — ترجمة على احمد شكري — بغداد ١٩٦٣ — ص ١٥٥ •

وجرى لجمال باشا استقبال عظيم في كل بلدة مر بها ، وكان يطلق عليه لقب « محرر مصر » . ولم ينس عند مروره بمدينة قونيــة أن يزور ضريح « مولانا » جلال الدين الرومي للتبرك . وقد التحق به هناك بعض دراويش المولوية من الشباب ، وشكلوا كتيبة خاصة بهم سارت بعــدئذٍ مع الحملة لفتح مصر .

وفي ٥ كانون الاول ١٩١٤ وصل جمال باشا الى دمشق ، وكانت المدينة قد زينت له بأبهى زينة ونصبت له أقواس النصر ، وحضر الألوف لاستقباله في محطة القطار ونحرت تحت قدميه الذبائح وألقيت في مديحه القصائد . وكان من جملة القصائد التي ألقيت بين يديه قصيدة طويلة القــاها الشيخ عبدالرحمن أفندي القصار بعنوان « مصــر تســتغيث » نقتطف منهــا الأبيــات التاليــة :

جمال الدنا والدين والملك من سعت	لدعوته مــن كل شــعب أعاظمــه
تناديك مصــر المســلمين وملكهم	لتنقذهــا ممــن تعــدت مظالمــه
مشى جيشك الجرار للحرب مسرعاً	تحف بــه الأملاك والله عاصمــه
جمال العلى أســرع فجيش عدونا	لصارمك اشتاقت وحنت جماجمــه
يغــرر ملــك الانكليــز بجيشــه	ويحشده في مصر والله قاصمه(٢)

وقبل وصول جمــال باشــا الى دمشق ببضعة أيام جرى في المدينة المنورة احتفال عظيم لاخراج « اللواء الشريف » المحفوظ فــي المســجد النبوي وارساله الى دمشق ، وهو عبارة عن قطعــة من أحد الاكسية التي تغطي الضريح المقدس باعتبارها الراية التي كان النبي يحملها في غزواته . وفي ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٤ نشرت صحف دمشق بلاغاً فحواه : أنه بمناسبة اعلان الجهاد الاكبر جرى احتفال مهيب عند قبر الرسول في المدينة المنورة شهده عشرون ألفاً من المؤمنين ، حيث أخرج لهم « اللواء الشريف » فجرى ما يليق به من التبجيل تمهيداً لنقله الى دمشق لكي يتبرك به الجيش العثماني المعد لفتح مصر ، وفاز بشرف نقل اللواء رجل من سلالة الرســول كبير

(٢) احمد عزت الاعظمي (القضيــة العربيــة) ـ بغــداد ١٩٣٣ ـ ج ٥ ص ٤٧ ـ ٥٠ .

السن اسمه « السيد علوي بافقيه »مع أولاده الثلاثة . وقد نشرت صحف دمشق في أماكن بارزة برقية أرسلها السيد علوي اليها قال فيها : « بالرغم من أني تجاوزت السبعين ، وتلبية لما فرضه الله علينا من الجهاد فاني أتقدم ومعي أبنائي الثلاثة لنجاهد في سبيل الله عز و جل حاملاً باحدى يدي راية الرسول المشرفة ، وباليد الاخرى كتاب الله الـذي فرض الجهاد علـى المؤمنين كافـة . ان هتافات عشرين ألفاً من المسلمين ودعواتهم ترن فـي أذني وأنا اتوجه الى دمشق وملء نفسي الاخلاص والرغبة في أن أموت شهيداً لاعلاء كلمة الله . ان أرض الحجاز ومن فيهـا من القبـائل جميعاً قد لبت نداء خليفتنا المعظم » .

وفي ١٥ كانون الاول وصل موكب « اللـواء الشريف » بالقطـار الى دمشق ، فجرى له فيها استقبال عظيم جداً . وكان فـي المحطة جمـال باشـا ، والوالي وكبـار الضبـاط والموظفين والاعيـان ، كمـا كان فيها مندوبون من مختلف بلاد الشام . وعندما وقف القطـار وضع اللواء علـى منصة خاصة وأدى له حرس الشرف التحية برفع أسلحتهم ، ثم ركع جمال باشـا وقبل طرف اللواء ، وهتف الجمهور « الله اكبر » . ثم سـار الموكب في شوارع دمشق تتقدمه الموسيقى ...

ونقل اللواء بعدئذٍ الى مدينة القدس فوصل اليها في ٢٠ كانون الاول، وأقيم له هناك احتفال كبير في الساحة الواسعة المحيطة بقبة الصخرة برعاية جمال باشا . ثم اختتم الاحتفال باقامة الصلاة في المسجد الأقصى . وأودع اللواء هنالك انتظاراً لليوم الذي يحمل عالياً في مقدمة الجيش الذاهب لفتح مصر . ويشاء القـدر أن يموت السيد علوي بافقيه بعـد ثلاثة أيام من وصوله الى القدس ، فصدرت الاوامر الى الوعاظ بأن ينتشـروا بين الناس يشيدون بموته ويعظمون من شأنه ويعتبرون وفاته نذيراً وشؤماً لاعداء المسلمين . (٣)

وفي ١٤ كانون الثاني ١٩١٥ تحركت الحملة من فلسطين باتجاه قناة

---

(٣) جورج انطونيوس (يقظة العرب) ـ ترجمة ناصر الدين الاسد واحسان عباس ـ بيروت ١٩٦٢ ـ ص ٢٢٩ ـ ٢٣١ .

السويس عبر صحراء سيناء . وكانت القدس والمدن الفلسطينية الأخرى قد علقت في ساحاتها وشوارعها بعض الآيات القرآنية وهي مكتوبة بخط عريض واضح : « نصر من الله وفتح قريب » ، « ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين » .

كان جمال باشا على رأس الحملة ، وقد كتب في مذكراته يقول : « وفي خلال تلك الحملة ونحن نواصل السير بالليل على ضوء القمر كان قلبي مفعماً بالكآبة الممزوجة بالأمل الكبير في النجاح كلما رددت الموسيقى انشودة (الراية الحمراء تخفق فوق القاهرة) والتي على وقعها شقت الصفوف الزاحفة طريقها في ذلك القفر المظلم الذي لا نهاية له . ولا أعد مبالغاً اذا قلت ان ذلك الجيش ـــ الذي لم يسمح لفرد من أفراده سواء كان القائد العام أو الجندي الصغير أن يتناول في اليوم اكثر من ٦٥٠ غراما من البقسماط وقليل من التمر والزيتون فضلاً عن الاقتصاد الكلي في استعمال الماء ـــ كان يندفع بقوة الآمال العزيزة كلما اقترب من هدفه ، فقد رسخ في نفس كل فرد فيه اعتقاد جازم بسهولة عبور القناة والثبات في الخنادق في الضفة الغربية وقيام الوطنيين المصريين بمهاجمة الانجليز من الخلف ... » . (٤)

قضت الحملة في مسيرتها زهاء عشرين يوماً ، واتخذت في السير سبلاً في قلب الصحراء بعيدة عن ساحل البحر ، وكانت تسري ليلاً وتستقر نهاراً ، خشية أن يكتشف أمرها العدو . ونجحت الحملة في ذلك نجاحاً لا يستهان به اذ هي وصلت الى مقربة من القناة دون أن يعرف العدو عنها شيئاً .

وعند وصول الحملة الى القناة كان قد استولى على جنودها الارهاق، ولم يكن لديها من الماء والطعام الا ما يكفيها أياماً قليلة ، فأذاع جمال باشا عليهم بياناً يستثير حماسهم على طريقة طارق بن زياد قائلاً : « أيها الجنود ، ان الصحارى القاحلة لتمتد وراءكم ، والعدو الجبان أمامكم ، ومصر الخصيبة خلف هذا العدو ، وهي مشتاقة الى الترحيب بكم ، فان

---

(٤) جمال باشا (المصدر السابق) ص ١٧٠ ـــ ١٧١ .

ترددتم فلن يكـون نصيبكم الا الموت ، فالى الامـام ، فـان الجنـة أمامكـم » . [5]

بدأت محاولة عبور القناة من قبل الجيش التركي في الساعة الثانيـة من بعد منتصف ليلة ٣ شباط ١٩١٥ ، وكانت عبارة السر بينهم « اللـواء الشريف » . فعبرت زمر من الجنود تحت جنح الظلام على زوارق خشـب خاصة ، ولكن الكلاب في الضفة المقابلة أحست بهم وأخذت تنبح عليهـم مما دل الانكليز على مواضع العبور فوجهوا عليها الانوار الكشافة وأمطروا الزوارق برصاص الرشاشات .

غرق الزورق الاول فاستطاع جندي وضابط من ركـابه أن يصـلا الى الشاطيء المقابل ، ونجا الزورق الثاني ، وغرق الثـالث ، ثم وصلت زوارق أخرى، ولم يتيسر انزال ركابها الى الشاطيء لاختلاف تكوينه الا بقعة واحدة منه كانت صالحة للانزال ولكنها كانت معرضة لنيران الرشاشات . وكان الضباط يلقون بأنفسهم في الماء لتعويم الزوارق المثقوبة ، غير ان تلك البسالة لم تنفع في كل مرة فغرقت زوارق كثيرة بمن فيها . ولم يتمكن مـن العبور سوى ستمائة جندي فارتفعت أصواتهم : « الله اكبر .. الله اكبر » ، وسرعان ما خفتت اصواتهم ، فقد سقط بعضهم صرعى بينما وقع الآخرون أسرى في أيدي الانكليز .

توقفت محاولات العبور عند طلوع الشمس من جراء النيران الكثيفة التي انصبت عليها ، وغرقت معظم الزوارق التي عبرت . وحاول الاتراك تجديد المحاولة في الساعة التاسعة والنصف صباحـاً فلـم يوفقوا بسـبب التفوق الناري للعدو الكامن لهم في الضفة المقابلة . [6] والغريب ان القناة كانت آنذاك تضـم بواخـر للركـاب وهي فـي طريقهـا نحـو البحـر الابيض أو البحر الاحمر ، وحين أدركت البواخر خطورة الموقف أسرعت تريد النجاة ، وصارت لسرعتها تخالف قواعد السير وتتزاحم بغية الوصول الى ثغر الاسماعيلية للاحتماء به . [7]

---

(٥) جورج انطونيوس (المصدر السابق) ـ ص ٢٣٦ .
(٦) شكري محمود نديم (حرب فلسطين) ـ بيروت ١٩٦٥ ـ ص ٣٢ .
(٧) علي فؤاد (كيف غزونا مصر) ـ ١٩٦٢ ـ ص ١٤٣ .

اجتمع قواد الحملة في مقر القائد العام جمال باشا عند الظهر ، وكان بينهم قائدان ألمانيان هما فون كريس وفون فرانكنبرغ ، فوجه جمال باشا كلمة الى الحاضرين قائلاً : ليس القصد من هذا الاجتماع توزيع المسؤولية بل التعرف على حقيقة الموقف ، فيجب ابداء الرأي بلا حيطة أو حذر ، واذا كان هناك أمل بالنجاح بنسبة ثلاثين أو اربعين بالمائة فانه لا يحجم عن المخاطرة . فكان رأي فون فرانكنبرغ ان الأمل بالنجاح أصبح مفقوداً ، ولذا فهو يرى ضرورة التوقف عن القتال والشروع بالانسحاب . وقد أيد القواد الأتراك هذا الرأي ، غير أن القائد الألماني الآخر فون كريس كان يخالفهم في الرأي حيث قال : انه يرى وجوب متابعة القتال على الرغم من فقدان الأمل من النجاح ، فالمروءة والحمية تقضي في نظره بمهاجمة القناة حتى ولو فنيت الحملة كلها فذلك خير من أن تنكص الحملة على أعقابها . وهنا أجاب جمال باشا قائلاً : اذا لم يكن هناك أمل بالفوز فانه يضن بالحملة أن تراق دماؤها في سبيل الشرف المحض . ثم أصدر أمره بالاستعداد للانسحاب .

يقول القائد التركي علي فؤاد بك وكان مشاركاً في الحملة : انهم عندما قرروا الانسحاب وقفوا يتساءلون كيف يمكن ان يقطعوا صحراء التيه مرة ثانية ، فهم لم يعدوا العدة لهذا الانسحاب بل كان كل أملهم أن ينجحوا بعبور القناه والتمتع برغيد العيش وراءها . انهم كانوا بحاجة ماسة اثناء انسحابهم الى الماء ، كما كان هناك احتمال أن يعبر العدو عليهم فيطوقهم . وقد دفعتهم هذه المخاوف أن يسرعوا في الانسحاب تحت ستار الظلام لكي لا يضيعوا من وقتهم ساعة واحدة . (٨)

بدأ انسحاب الحملة في مساء ٤ شباط ، فكانوا يسيرون ليلاً ويتوقفون نهاراً على منوال ما فعلوا عند مجيئهم . وقد ساعدهم القدر فعثروا اثناء الطريق على صهريج يحتوي على ماء ، فكان ذلك بشري لهم وانتفعوا منه ، ولولاه لهلكوا . وظلوا يواصلون السير بعزيمة حتى وصلوا الى بير السبع في ١٥ شباط . انهم فقدوا في انسحابهم ستة آلاف

---

(٨) المصدر السابق — ص ١٤١ — ١٥٣ .

بعير هلكت من شـدة العطش والجوع ، ولكنهم لـم يفقدوا من جنودهم الا عدداً قليلاً • وهذا يعد انسحاباً ناجحاً من الناحية العسكرية •

ومما يلفت النظر أنه في الوقت الذي كانت فيه الحملـة فـي طريق انسحابها عبر الصحراء أذيع في دمشق وبيروت بلاغ رسمي هذا نصـه : « تمكنت القوات العثمانية بين التهليل والتكبير من اجتياز قناة السويس حيث فتكت بالقوات المعادية فتكاً ذريعاً ويزيد عـدد خسائر الاعداء على خمسة آلاف مقاتل » •

ونشرت احدى الصحف في دمشق تقول : « دوت أصوات البشائر عصر يوم السبت في جميع أنحاء سوريا بالفوز المبين الذي أحرزته قواتنا باختراق قناة السويس ، فكان يوماً مشهوداً أقيمت فيه معالم الزينة في كل مكان ورقصت الأفئدة طرباً • ولم تنم للنـاس عين ، وبلغت المظـاهرات الوطنية أشدها وعلت أهازيج الرجال وزغردة النسـاء تختـرق الاسـماع وتطيّر عن العيون لذيذ المنام • ولم تكد تشرق غزالة يوم الأحـد حتى ظهرت المدن السورية تختال في حلل الزينة ، ولم يبق في الازقة والاسواق المحتشدة فيها الجموع الغفيرة محط لقدم • وسارت في دمشق مظاهرات طلاب المدارس مع موسيقاها تعزف الأناشيد الوطنية وتبشر العالم بالفتح المبين • وسارت وراءها الجماهير الى دار الحكومة تحييها تحيـة المحب الولوع المنتظر بفروغ الصبر كل خبر سار من أخبارها • وعنـد ذاك خرج الى الشرفة الوالي وهيئة الحكومة لتحية المخلصين ، وانصرفت الجموع وكل منهم يدعو لهذه الدولة بالنصر والظفر على الاعداء » •

والأطرف من هذا أن مظاهرة خرجت في بيروت ابتهاجاً بعبور القناة ، وقد أحضر المتظاهرون زورقاً مزيناً بالاعلام على زعم أنه أحد الزوارق التي تمكنت القوات العثمانية بها من عبور القناة ، ووضعوا الزوراق على عربة وأخذوا يجرونها في الشوارع ، فيهتف بعضهم ، « هيللي هيللي ! » فيرد الآخرون عليهم : « أخذنا الترعة الحمد للي » • واستمرت المظاهرات طيلة ذلك اليوم ، وألقى أحدهم في ساحة البرج قصيدة هنأ بها الجيش العثماني وقائده المظفر جمال بالنصر العظيم ، وأعقبه شاعر آخر بقصيدة أخرى • (٩)

---

(٩) مجلة الاسرار البيروتية ــ في عددها الصادر في ٢٧ نيسان ١٩٣٨ •

وعندما وصل جمال باشا الى دمشق أخيراً أمر بتزيين المدينة بالاعلام والانوار الكهربائية واستعرض الجيش . [10] وكان يتفاخر أمام الناس بأنه قاد حملة كبيرة عبر صحراء قاحلة ثم عاد الى مقره من غير حادث وأنه لم يترك وراءه في الصحراء شريداً واحداً ولم يكن بين جنوده من عضه الجوع والعطش . [11]

انه ذهب قاصداً الفتح ثم عاد يفاخر بنجاحه في الانسحاب !

جبهة الدردنيل :

يقع مضيق الدردنيل الى الجنوب من اسطنبول ويعد مفتاحاً لها ، فالعدو الذي يتمكن من اختراق هذا المضيق يستطيع أن يفتح اسطنبول بسهولة .

يحد مضيق الدردنيل من الشرق سواحل تركيا الآسيوية . ومن الغرب شبه جزيرة غاليبولي . ويبلغ طول غاليبولي اثنين وخمسين ميلاً وهي ذات أرض وعرة جداً مليئة بالجبال والوديان وسواحلها شديدة التعرج تكتنفها المرتفعات . وهناك موقع في المضيق هو أضيق مكان فيه وتشرف عليه قلعة اسمها « جناق قلعة » ولهذا كانت جبهة الدردنيل يطلق عليها اسم جناق قلعة أحياناً ، واسم غاليبولي أحيانا أخرى .

تقع على جانبي مضيق الدردنيل عدة قلاع مشرفة عليه علاوة على جناق قلعة ، وقد بنى هذه القلاع بعض السلاطين في أزمان متعاقبة من أجل حماية اسطنبول ، وعندما أعلن النفير العام في تركيا لم تكن القلاع في حالة جيدة وكانت تنقصها المدافع الحديثة . ان المسؤولين عن ادارة الحرب في تركيا كانوا ـــ كما أشرنا اليه من قبل ـــ ذوي مزاج هجومي ولذا أهملوا تلك القلاع الدفاعية ولم يهتموا بأمر تحصينها كما ينبغي .

في ٣ تشرين الثاني ١٩١٤ ـــ أي بعد يومين من اعلان بريطانيا الحرب على تركيا ـــ أطلقت قطع الاسطول البريطاني قنابلها على قلاع الدردنيل ، وكان القصد من ذلك تخويف تركيا لكي تتجنب الدخول في الحرب ،

---

(١٠) سليمان موسى (الحركة العربية) ـــ بيروت ١٩٧ .

(١١) جمال باشا (المصدر السابق) ـــ ص ١٧٩ .

ولكن اطلاق القنابل أضر ببريطانيا دون أن ينفعها شيئاً ، حيث جعل الاتراك يتنبهون الى أهمية الدردنيل والى ضرورة الاهتمام العاجل بتقوية قلاعه وتسليحها • وقد شرعوا فعلاً بالعمل في ذلك بالتعاون مع الالمان ، فأصبحت القلاع بعد وقت قصير في حالة من المناعة لا يستهان بها • (١٢)

وفي شهر شباط ١٩١٥ قرر الحلفاء مهاجمة الدردنيل بالسفن الحربية وحدها ، وكانت تلك فكرة المستر ونستن تشرشل الذي كان يومذاك وزيراً للبحرية البريطانية ، فقد كان واثقاً بأن قنابل السفن الحربية الضخمة قادرة على دك قلاع الدردنيل • وفي ١٩ شباط اقتربت سفن بريطانية وفرنسية من الدردنيل وأخذت ترمي قلاعه بقنابلها الضخمة • ولكن الاتراك صمدوا لهذا القصف ، واستمرت المعركة طيلة شهر كامل غرق فيها للحلفاء ثلاث بوارج كبيرة وعطلت لهم ثلاث بوارج أخرى • وتبين للحلفاء أخيراً أنها حملة فاشلة فقرروا ايقافها •

صمم الحلفاء على القيام بحملة أخرى تشترك فيها القوات البرية مع الاسطول ، وعينوا الجنرال هاملتون قائداً لها • وقد وصل هذا القائد الى الاسكندرية للعمل على اعداد الحملة • وعلم الاتراك بأمر تلك الحملة فحشدوا الكثير من قواتهم في الدردنيل وعينوا الجنرال فون ساندرز الالماني قائداً لها • وفي صباح ٢٥ نيسان بدأ الهجوم حيث برز من خلال الضباب المخيم على سواحل غاليبولي الجنوبية عدد هائل من السفن الحربية — من بوارج ومدمرات وناقلات — وأخذ الجنود ينزلون منها الى السواحل ، وكان ذلك ايذانا ببدء معارك طاحنة حصدت فيها الارواح حصداً • وقد استمرت المعارك ثلاثة أشهر تقريباً دون أن يحظى المهاجمون فيها بطائل • ومع انهم قد حصلوا على موطىء قدم لهم على الساحل غير أنهم لم يستطيعوا التوغل فى الداخل كثيراً ، وكان الاتراك متحصنين على المرتفعات المشرفة فوقهم يقاتلون ببسالة منقطعة النظير وهم يهتفون « الله اكبر » • وقد تجلت في تلك المعارك مقدرة القائد التركي مصطفى كمال بك — وهو الذي أصبح أول رئيس للجمهورية التركية بعد الحرب —

---

(12) Willim Yale (The Near East) — Ann Arbor — p. 223.

وكان يومذاك برتبة قائمقام أي عقيد ، وقد أبدى من الحزم والشجاعة وسرعة البديهة أمراً عجيباً • (١٣)

يقول بارتلت مندوب صحافة لندن في معارك الدردنيل : ان السبب في فشل الحلفاء في تلك المعارك يعود الى خطأ اقترفه الجنرال هاملتون ، فهو بدلاً من مهاجمة الاتراك في مواقعهم الضعيفة راح يهاجمهم في مراكزهم القوية واستحكاماتهم المنيعة مخالفاً بذلك القواعد الحربية التي أشار اليها نابليون بقوله : « يجب مهاجمة العدو في أضعف مكان منه بكل ما لدينا من سلاح وذخيرة ورجال » • (١٤)

يبدو ان هاملتون أدرك سر خطأه هذا فأراد أن يتلافاه في حملة جديدة ، وأخذ يعد العدة لها واختار لها موقعاً في الشمال الغربي من شبه جزيرة غاليبولي ، وكان يستهدف من وراء ذلك تطويق القوات التركية في شبه الجزيرة وقطع خط اتصالها باسطنبول •

وفي ٦ آب أنزل الجنرال هاملتون جنوده في خليج « سوفلا » ولم يكن الاتراك يتوقعون الانزال في هذه المنطقة ولم تكن لديهم فيها قوات كافية • وقد نجح الانزال في اليوم الاول نجاحاً عظيماً • ولكن الجنود بدلاً من أن يستثمروا نجاحهم هذا فيستمروا في الزحف ركنوا الى الراحة وأخذوا يستحمون في مياه البحر مبتهجين ، بينما ذهب قائدهم الجنرال ستوبفورد الى خيمته ليتمتع فيها بغفوة قصيرة في القيلولة •

وصل الجنرال هاملتون الى موقع الانزال ليرى ما يجرى فيه ، فوجد القائد نائماً ، وعندما استيقظ القائد سأله هاملتون : لماذا لم يباشر زحفه حتى الآن ؟ فكان جواب القائد : « الوقت طويل ، والجنود الآن غير مستعدين ، وأرى تأجيل ذلك الى الغد » • وقد ذهل هاملتون من هذا الجواب لأن المفروض في الحركات العسكرية ان يكون الوقت فيها ثميناً جداً ، فالساعة الواحدة قد تؤدي الى نصر باهر أو هزيمة منكرة • والغريب ان هاملتون لم يفعل شيئاً تجاه هذا القائد « البارد » وغادر الموقع دون أن

---

(١٣) أرمسترونج (مصطفى كمال) ـ القاهرة ـ ص ٧٠ •
(١٤) عمر أبو النصر (الحرب العالمية الاولى) ـ بيروت ـ ج ١٠ ص ٢٧ •

يقول له شيئاً . [١٥] وقــد اعترف الضباط الاتراك بعــدئذٍ ان القــوات الانكليزية لو كانت قد استمرت في زحفها لجعلت القوات التركيــة فــي موقف حرج جداً لنفاذ العتاد عندها . [١٦]

ومما يلفت النظر ان الجنرال فون ساندرز قائد القوات التركية كان رجلاً من طراز آخر ، فهو حين علم بأمر الانزال فــي خليج « سوفلا » أصدر أمره حالاً بتوجيه فرقتين من قواته الــى مرتفعــات « أنافورطة » المشرفة على موقع الانزال . ثم ركب حصانه وذهب الى تلك المرتفعــات ليتفقد الامور بنفسه . وكانت احدى الفرقتين لم تصل في الوقت المحدد لها ، فأرسل فون ساندرز يستدعي اليه قائد الموقع الميرآلاي فيضي بك ، وسأله عن السبب في تأخر الفرقة عن الوصول . فكان جواب القائــد : ان التعب الذي أصاب الجنود هو الذي أخر الفرقة عن الوصول . وعند هذا أمر فون ساندرز بعزل هذا القائد المتكاسل وعين مصطفى كمال بك بدلا عنه . [١٧] وقد أنجز هذا القائد الجديد مهمته بكل جدارة ، مما ادى الى فشل حملة الحلفاء للمرة الثانية . وقد منح مصطفى كمال بك على أثر ذلك رتبة « الباشوية » وأطلقت الصحف التركية عليه لقب « منقذ الدردنيل والعاصمــــة » . [١٨]

ظلت المعارك مستمرة على الشواطيء بضعة أشهر بعد أن تحولت الى حرب خنادق ، وأخذ بعض الجنود السنغاليين يجرحون أنفسهم عمداً لكي يتهربوا من القتال، كما كان بعضهم يضعون عقاقير مضرة في عيونهم فيفقدون بصرهم موقتاً أو نهائيا اذ هم يعــدون ذلك أفضل من معــاناة أهــوال الحرب . [١٩] وقرر الحلفاء أخيراً الخلاص من هذه المحنة والانسحاب مــن شواطيء الدردنيل . وصرح بعض وزراء بريطانيا : « : أن نفوذ بريطانيــا

---

(١٥) عمــر الديراوي (الحــرب العاليــة الاولــى) ــ بيروت ١٩٦٦ ــ ص ١٦٤ ــ ١٦٥ .

(16) William Yale (op. cit) — p. 224.

(١٧) عمر ابو النصر (المصدر السابق) ــ ج ٩ ص ٢ ــ ١٦ .

(١٨) أرمسترونج (المصدر السابق) ــ ص ٧٠ ــ ٧١ .

(١٩) عمر أبو النصر (المصدر السابق) ــ ج ٨ ص ٣٨ .

وهيبتها قد تمرغا في وحول الدردنيل » . [٢٠]

بدأ انسحاب الحلفاء من سواحل الدردنيل في ١٠ كانون الاول ١٩١٥، وانتهى في ٩ كانون الثاني ١٩١٦ . ويعد هذا الانسحاب العمل العسكري الوحيد الذي نجح فيه الحلفاء في الدردنيل . والواقع أنه كان قطعة رائعة من الفن العسكري ، وقد وصفه فون ساندرز بأنه كان على جانب عظيم من الدقة والمهارة والسرعة . ومعنى هذا أن الحلفاء فشلوا في الهجوم غير أنهم نجحوا في الانسحاب !

لقد تركت القوات المنسحبة وراءها على السواحل مقادير عظيمة من العتاد والاطعمة ، فكانت هناك ألوف الصناديق وهي مملوءة بالاسلحة الخفيفة والرشاشات والقنابل اليدوية ، كما كانت علب الطعام المحفوظ وأكياس الطحين والشعير وهي مكومة الى ارتفاع شاهق لكثرتها . والظاهر أن القوات المنسحبة لم تعمد الى اتلافها لكي لا يكتشف الاتراك أمر الانسحاب . وقد تركت القوات كذلك خيماً كثيرة منصوبة لايهام الاتراك بان القوات باقية في مواضعها . ولكن القوات المنسحبة قتلت الكثير من حيواناتها ، فتركت وراءها المئات من جثث الخيول والبغال المقتولة ، فكانت جيفة كبرى !

بلغت خسائر الانكليز في معارك الدردنيل مائة وعشرين ألفاً بين قتيل وجريح ومفقود ، بينما كانت خسائر الفرنسيين خمسة وعشرين ألفاً . أما خسائر الاتراك فربما ناهزت المائتي ألف . ولم يخسر الألمان سوى أربعة وأربعين فقط لا غير !

الهلع في اسطنبول :

حينما كانت المعارك ناشبة في الدردنيل كان الهلع مسيطراً على اسطنبول ، والواقع ان الهلع بدأ منذ الايام الاولى من عام ١٩١٥ وذلك حين أخذت الاشاعات تروج عن قرب هجوم الحلفاء على الدردنيل وتقدمهم نحو اسطنبول . وكان الكثير من الناس على يقين بأن الاسطول البريطاني

---

(٢٠) عمر الديراوي (المصدر السابق) — ص ١٦٨ .

الذي كانت له سمعته في تلك الايام قادر على اختراق الدردنيل والوصول الى اسطنبول في وقت قريب •

ومن الممكن القول ان أهل اسطنبول قد انقسموا تجاه هـذا الخطر الى قسمين ، فالقسم الاكبر منهم كانوا في اعماق قلوبهم يتمنون دخـول الحلفاء لكي ينقذوهم من ويلات الحرب وتعسف الاتحاديين ، أما القسـم الآخر فكانوا يعتقدون ان دخول الحلفاء الى اسطنبول يؤدي الى تدمير المساجد وانتهاك الحرمات ، وهـذا هو ما كانت الدعاية الحكومية تلفقه لهم ، فكانوا يصدقون بها ويخشون دخول الحلفاء من جراء ذلك •

وفي ١٩ شباط ١٩١٥ عندما بدأت سفن الحلفاء تقصف قلاع الدردنيل اشتد الهلع في اسطنبول ، وأعد مدير الشرطة قطارين : أحدهما لنقـل السلطان وأعضاء الحكومة الى داخل البلاد ، والثاني لنقل السفير الالماني والسفير النمساوي الى بلادهما • وكان كل قطار مؤلفاً من ثلاث عربات فقط لكي يتمكن من السير بسرعة فائقة • يروي السفير الامريكي مورغنتو ان السفير الالماني فون ونغنهايم جاء اليه يريد أن يودع لديه الاشـياء الثمينة التي كان يملكها استعداداً لمغادرة اسطنبول ، وقد نقل فون ونغنهايم له رأياً للمارشال در غولتز بأن بريطانيا تتمكن بخسارة عشـر بوارج أن تخترق مضيق الدردنيل وتحتل اسطنبول • (٢١)

وفي الاول من شهر آذار بدأ الكثير من الاهالي يغادرون اسطنبول ، وصدرت الأوامر الى المصارف الكبرى بنقل أموالها الى داخـل البـلاد ، كما أرسلت الحكومة سجلاتها الى هنالك • وجاء بدري بك مدير الأمن العام الى السفير الامريكي يطلب منه الالتحاق بركب السلطان في القطار ، ولكن السفير فضل البقاء لكي يتمكن من منع المذابح المتوقعة بصفته سفير دولة محايدة • وأخذ السفير يتعاون مع بدري بك في وضع خارطة للمحلات التي يجوز للاسطول البريطاني قصفها ، والتي لا يجوز قصفها ، حسـب القانون الدولي • وأبرق السـفير بذلك الى واشنطن طالبـاً مـن وزارة

---

(٢١) هنري مورغنتو (مذكرات سـفير امريكا فـي الاسـتانة) ـ القـاهرة ١٩٢٣ ـ ص ٧٠ •

الخارجية الامريكية أن تحصل على موافقة قائد الاسطول البريطاني عليه . وجاء جواب واشنطن بالقبول .

ويقول السفير الامريكي ان جميع رجال السياسة كانوا على يقين من نجاح الاسطول في تقدمه ما عدا أنور باشا ، فقد كان هذا الرجل على ثقة تامة بان الاسطول غير قادر على اختراق الدردنيل . وقال للسفير : « سيخلدني التاريخ رجلاً أظهر للعالم أنه يمكن قهر اسطول بريطانيا العظيم ... » (٢٢)

وفي أواخر شهر آذار عندما كف الاسطول عن القصف وعاد الى قواعده ، هللت الحكومة وكبرت لهذا الحادث الذي اعتبرته نصراً عظيماً لها . وأصدرت أوامرها الى جميع أنحاء البلاد بوجوب اقامة الاحتفالات. ولكن هذا الفرح لم يستمر طويلاً اذ أن الحلفاء عادوا في ٢٥ نيسان ـــ على نحو ما ذكرناه آنفاً ـــ فهاجموا الدردنيل بقواتهم البرية والبحرية معاً . وشرع السلطان وأعضاء الحكومة يستعدون للسفر من جديد .

وفي ٢ أيار أخبر أنور باشا السفير الامريكي بأن سفن الحلفاء قصفت في غاليبولي قرى غير محصنة وقتلت فيها كثيراً من سكانها المسلمين ، وطلب اليه أن يبرق الى بريطانيا وفرنسا تهديداً بأنه اذا استمرت سفنهم بقصف القرى فسوف ينقل الى تلك القرى رعايا بريطانيا وفرنسا الموجودين في اسطنبول ليكونوا عرضة للقصف فيها . وقال أنور باشا غاضباً : « آه من هؤلاء الانكليز الجبناء جربوا أن يخترقوا الدردنيل فباؤوا بالذل والخسران ، وها هم يثأرون لأنفسهم . قنابلهم تدمر قرانا ومستشفياتنا وتهلك اخواننا وأهلينا .. » .

وفي اليوم التالي أخذ بدري بك يلقي القبض على رعايا بريطانيا وفرنسا ، وعين موعداً قريباً لسفرهم الى غاليبولي . وبذل السفير الامريكي محاولات كثيرة مع أنور باشا ليقنعه بالعدول عن قراره ، وتم الاتفاق معه أخيراً على أن يرسل من أولئك الرعايا خمسين شاباً فقط . وقد نقل هؤلاء الخمسين الى غاليبولي فذاقوا فيها العذاب ألواناً . وفي ٩ أيار وصلت

---

(٢٢) المصدر السابق ـــ ص ٧٨ .

الى السفير من واشنطن برقية مفادها ان بريطانيا ستلقى على أنور باشا شخصياً مسؤولية سوء معاملة الرعايا الاجانب • وذهب السفير الى أنور يخبره بذلك ويرجوه اعادة الرعايا من غاليبولي ، فصاح أنور مزمجراً : « انهم لن يرجعوا • سأتركهم هناك حتى ينتنوا • وليغتالني اولئك الانكليز اذا تمكنوا مني » • ولكن الرعايا أعيدوا الى اسطنبول على أي حال وكانت صحتهم جيدة • (٢٣)

وفي ٦ آب عندما وصلت الى اسطنبول أخبار الانزال البريطاني في خليج « سوفلا » ، اشتد الهلع في المدينة الى الدرجة القصوى • يقول الجنرال فون ساندرز في مذكراته : ان بعض السكان تهافتوا على محلة « بك أوغلي » يستأجرون شرفات المنازل فيها لمشاهدة جيش الاحتلال عند مروره في شوارع العاصمة • وقد طلب فون ساندرز من مرافقه أن يستأجر شرفة له أيضاً لكي لا يحرم من رؤية هذا المنظر الجميل • (٢٤)

وقد استمر الهلع في اسطنبول ، يشتد تارة ويخمد أخرى ، الى أن وصلت الاخبار في الشهر الاول من عام ١٩١٦ تنبيء بأن الحلفاء قد أنسحبوا نهائيا من الدردنيل • وعند هذا أقيمت الاحتفالات الفخمة ونشرت أعلام الزينة في كل مكان ، وازدهى أنور باشا والاتحاديون غروراً وفرحاً • يقول شكيب ارسلان: ان الاتحاديين حصلت لديهم على أثر انتصار الدردنيل نشوة ظفر غير معهودة ، ولعبت خمرة النصر برؤوسهم ، فسكروا وأبرموا قرارات غريبة عجيبة : منها سفور النساء بعد أن كان ذلك ممنوعاً ، ومنها نقل المحاكم الشرعية من المشيخة الاسلامية الى وزارة العدلية حيث بقيت المشيخة بلا عمل تقريباً ، ومنها تتريك سوريا واقتلاع الروح العربية منها• وقد ظنوا أنهم اذ تغلبوا على تلك الجيوش الجرارة في الدردنيل لا يعجزون بعدئذ عن القيام بأي عمل يريدونه اذا أتخذوا طريق الحزم • (٢٥)

---

(٢٣) المصدر السابق ص ٨٤ — ٩١ •

(٢٤) عمر أبو النصر (المصدر السابق) — ج ٩ ص ٦ •

(٢٥) شكيب ارسلان (سيرة ذاتية) — بيروت ١٩٦٩ — ص ١٥٥ ، ١٨٥ •

وفـد رجـال الـدين :

على أثر الانتصار الذي ناله الجيش التركي في الدردنيل قرر جمال باشا ارسال وفد من رجال الدين الى تركيا ليحيي السلطان باسم الشام . وكان جمال باشا قد شنق الدفعة الأولى من زعماء العرب قبل مدة قصيرة فأراد أن يذهب رجال الدين الى اسطنبول ليثبتوا للمسؤولين هناك بـأن أهل الشام راضين عن جمال باشا ويحبونه .

كان الشيخ أسعد الشقيري مفتي الجيش الرابع رئيساً للوفد ، وقد رافقهم أربعة صحافيين هم : محمد كرد علي صاحب جريدة « المقتبس » ، ومحمد الباقر صاحب جريدة « البلاغ » ، وحسين الحبال صاحب جريدة « أبابيل » ، والشيخ عبدالباسط الأنسي صاحب جريدة « الاقبال » . وكان من أعضاء الوفد رجل دين عراقي هو محمد حبيب العبيدي الموصلي الذي كان يومذاك واعظاً للجيش الرابع ، [٢٦] كما كان بينهم رجل دين شيعي من جبل عامل يضع على رأسه عمامة سوداء اسمه السيد صدر الدين . [٢٧]

اجتمع أعضاء الوفد في محطة رياق في ٢٨ ايلول ١٩١٥ ، فركبوا القطار متوجهاً بهم نحو الشمال . وبعد سفر شاق وصلوا الى اسطنبول في ٧ تشرين الاول . فجرى لهم في المحطة استقبال فخم وعزفت لهم الموسيقى. وفي يوم الجمعة استقبلهم السلطان في أحد قصور يلدز ، وبعد أن ألقى الشقيري كلمة بالمناسبة قال السلطان : « لقد سررت بمرآكم جميعاً يا علماء الدين ، ولا سيما لمصادفة قدومكم لدار الخلافة قرب ختم قراءة البخاري الشريف الذي أقرأه منذ بداية الجهاد حتى اليوم الى لفيف من العلمـــاء الصلحاء في حجرة المخلفات النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأشرف التحية ، ولا يخفى ان قراءة البخاري الشريف بحجرة المخلفات النبويـة تكون روضة من رياض الجنة ، واني أصدر ارادتي أن تزوروا تلك الدائرة وتشتركوا في الدعوات المستجابة عنـد ختم التلاوة للبخاري الشريف ، فاني علقت ختم البخاري على قدومكم » . ثم قال : « انه كان مبتهجاً جداً من البرقيات التي كانت ترد اليه من بلاد العرب تستفسر عن صحته ، وأنـه

---

(٢٦) أحمد عزت الاعظمي (المصدر السابق) ــ ج ٥ ص ٦٧ .

(٢٧) مجلة الاسرار البيروتية في عددها الصادر في ٢٦ ايلول ١٩٣٨ .

رأى آثار تجليات باهرة من ختم البخاري » .[28]

وقابل الوفد بعد ذلك شيخ الاسلام ، ثم وزير الداخلية طلعت باشا وقام محمد كرد علي يخطب أمام وزير الداخلية فمدح الانقلاب الدستوري الذي قام به الاتحاديون قبل الحرب وما أدى اليه من عمران للبلاد وتهذيب للطباع ، ثم مدح جمال باشا على ما قام به في بلاد الشام من تعبيد الطرق ومد السكك الحديدية وانشاء المدارس العليا الأمر الذي لا تحلم البلاد بتحقيقه في مدة نصف قرن . ثم ختم محمد كرد علي خطابه بقوله : « كانوا يقولون ان في الحرب خراب البلاد ، ولكن حربنا الحاضرة والحمد لله على مكانتها قد عمرت بلادنا ومحصت الناس فتبين بها الخائن المائن من الوطني المخلص ، والخامل من العامل ، والجاهل من العالم . ولو لم توفق الحكومة الى انتداب أمثال أحمد جمال باشا واخوانه الولاة لسياسة سورية أثناء هذه الازمة لتم فيها المضحك المبكي » .[29]

ثم زار الوفد وزارة البحرية فاحتفى به ضباطها احتفاءاً منقطع النظير. وتناول الوفد طعام الغداء في الوزارة وتتابع أعضاء الوفد يخطبون في مدح جمال باشا وذكر الاعمال العظيمة التي قام بها . ونهض أخيراً رئيس الوفد أسعد الشقيري فألقى خطابا طويلاً في مدح جمال باشا بدأه بقوله:

« ربما ظن الحاضرون ممن لا علم له باخلاق أعضاء الوفد ، ولا وقوف عنده على حقائق أحوالهم ، أنهم من المداهنين الذين يجازفون في مديح الامراء واطراء العظماء ، تزلفاً لهم وطلباً للحظوة عندهم ، وذلك لكثرة ما سمع منهم بالثناء على القائد العظيم أحمد جمال باشا واطرائه . والحقيقة على خلاف ذلك ، فان أعضاء الوفد الذين ترونهم أمامكم أبعد الناس عن مخالطة الحكام والاختلاف اليهم ، وأقربهم الى الاعتدال والصدق ، واكثرهم اخلاصاً ، وأصفاهم سريرة ... » ثم أخذ الشقيري يطنب في مدح جمال باشا لكي يثبت بذلك ان ما قاله أعضاء الوفد فيه هو عين الصواب من غير نفاق . ثم ختم خطابه الطويل بقوله : ان جمال باشا لكثرة الاعمال العظيمة التي قام بها في بلاد الشام يعدونه من الشخوص

---

(٢٨) جمال الدين الالوسي (محمد كرد علي) — بغداد ١٩٦٦ — ص ١٠٤ .

(٢٩) أحمد عزت الاعظمي (المصدر السابق) — ج ٥ ص ١٠٠ .

الخيالية التي يصورها الوهم وينفيها الحس والعقل « لذلك هم يقدسونه من أعماق قلوبهم ويقدسون كل من كان على شاكلته من رجال العمل المخلصين » .

وبعد أن تجول الوفد في اسطنبول والدردنيل وغيرها عاد الى بلاده ، واقيمت له في دمشق حفلة عظيمة حضرها جمال باشا والامير فيصل بن الشريف حسين وكبار الموظفين والاعيان ، وبعد أن القى الشقيري خطبة طويلة في وصف ما لقى الوفد من تكريم فى البلاد التي زارها نهض الشيخ علي الريماوي المقدسي فالقى قصيدة تحتوي على اكثر من خمسين بيتا حيا فيها جمال باشا ، كان مطلعها :

سرى وفدك الغازي ومثلك يوفد وعاد بملء البشر والعود أحمد(٣٠)

جبهة قفقاسية :

نقصد بقفقاسيا تلك المنطقة التي تقع الى الشمال الشرقي من تركيا ، وهي منطقة جبلية وعرة يبلغ ارتفاع بعض قممها عشرة آلاف قدم ، ويسكنها أقوام مختلفون كالأرمن والاكراد والاتراك والكرج والآذربايجانيين والداغستانيين وتختلط فيها شتى الاديان والمذاهب مما أدى الى وقوع مذابح طائفية عديدة ، وكثيراً ما نشبت الحروب الطاحنة فيها بين الروس والاتراك.

كان الواجب على تركيا أثناء الحرب أن تقف في جبهة قفقاسيا موقف الدفاع لكي تتفرغ للجبهات الاخرى التي هي اكثر أهمية منها . والواقع ان هذه الجبهة تصلح للدفاع اكثر من صلاحها للهجوم وذلك لوعورتها وكثرة الجبال فيها ، وقد يكفي للدفاع عنها وضع قوات صغيرة في بعض النقاط السوقية منها فيصعب على العدو عندئذٍ اجتيازها .

يبدو ان مصلحة الالمان ورغبة الاتراك اتفقتا على القيام بهجوم في جبهة قفقاسيا ، فالألمان يريدون الهجوم على الروس في هذه الجبهة لكي يخف عنهم ضغط الروس في جبهة أوربا الشرقية . أما الاتراك فكانوا يطمحون الى الفتح في تلك الجبهة بغية الاتصال بالشعوب الطورانية التي تعيش هناك تحت حكم روسيا القيصرية ، وربما كان أنور باشا يطمح أيضاً

---

(٣٠) جمال الدين الالوسي (المصدر السابق) — ص ١٠٨ — ١١٢ .

الى القيام بحركة « نابليونية » بعيــدة المدى تستهدف الهنــد في نهايــة المطـــــاف . (٣١)

كان للاتراك في جبهة قفقاسيا جيش تعداده مائة وخمسون ألفاً ، أما الروس فكان تعداد جيشهم فيها مائة ألف فقط . وفي ١٣ تشرين الثاني ١٩١٤ ــ أي بعد أيام قليلة من اعلان الحرب على تركيا ــ شن الروس هجوماً في تلك الجبهة ، ولكن القوات التركية أرغمتهم على التراجع بعد أن ألحقت بهم خسائر كبيرة . والظاهر ان هذا الانتصار الجزئي الذي ناله الاتراك شجع أنور باشا على القيام بهجوم كبير على الروس .

ففي كانون الاول ١٩١٤ غادر أنور باشــا اسطنبول متجهاً الى جبهة قفقاسيا وتولى قيادة الجيش فيها بنفسه . ويقال أن أنور باشا كان يريــد تقليد الطرق العسكرية الالمانية فوضع خطة لتطويق القوات الروســية كلها وتدميرها . وهي كانت خطة عظيمة من الناحية النظرية ، انما هي كانت عقيمة من الناحية العملية ــ انها كانت بعبارة أخرى خطة رائعة على الورق ولكن طبيعة الارض في منطقة قفقاسيا لا تلائم تطبيقها عملياً .

شن أنور باشا هجومه الكبير على الروس ، ولكن الروس استطاعوا في ٣ كانون الثاني ١٩١٥ أن يوجهوا للجيش التركي ضربة قاصمة هلك فيها معظم جنوده ، ولم يبق منهم سوى اثني عشر ألفاً . فكــانت تلــك كارثة عسكرية لم يشهد تاريخ الدولة العثمانية لها مثيلاً . ومن الجــدير بالذكر ان تلك الكارثة كانت ذات أهمية بالنسبة للعراقيين اذ كان فيها الكثير منهم ولم يعد منهم سوى أفراد قليلين ــ كما سنأتي اليه في فصل قادم .

عاد أنور باشا الى اسطنبول وهو يشعر بما جلبته الكارثة على سمعته من الهوان ، فلم يظهر كثيراً في الاماكن العامة لانه لا يدري بماذا ســوف يستقبله الجمهور . (٣٢) وقد اتخذت الحكومة التركيــة التدابير لمنع نشر أي خبر عن كارثة قفقاسيا في بلادها ، وفرضت عقوبة رادعــة على من يتكلم عنها . (٣٣)

---

(31) William Yale (op. cit.) — p. 218 — 219.

(٣٢) هنري مورغنتو (المصدر السابق) ــ ص ١٥ .

(33) William Yale (op. cit) — p. 219.

ســاد الهدوء النسبي في جبهة قفقاسيا طيلة الشهور التالية • وفي ايلول ١٩١٥ وصل الى الجبهة الغراندوق نقولا ، وكان هذا قائداً للجيوش الروسية في أوربا الشرقية وقد أنزل به الالمان هزائم منكرة هنالك ، فنقل الى قفقاسيا • والظاهر أنه كان يريد أن يستعيد سمعته بنيل نصر له على الاتراك يعوض به عن هزائمه السابقة تجاه الألمان •

وضع الغراندوق خطته على أساس أن يكون الهجوم على الاتراك في الشتاء ، ولم يكن الاتراك يتوقعون هجوماً في ذلك الفصل الذي تكــون الطــرق فيه مغمورة بالثلوج • وشــرع الغراندوق يعــد العــدة للهجوم بتكتم شديد • وفي ١٧ كانون الثاني ١٩١٦ بدأ هجومه ، واخــذت قواته تسير من نصر الى نصر ، فاحتل مدينة أرضروم في ١٦ شباط وتعتبر هــذه المدينة أعظم نقطة سوقية في المنطقة كلها • ثم احتلت قواته بعد ذلك ميناء طرابزون الواقع على البحر الاسود ، ومدينتي موش وبتليس الواقعتين الــى الغرب من بحيرة وان •

ارسل الاتراك جيشهم الذي كان موجوداً في تراقيا لانجــاد قواتهم في قفقاسيا ، ولكن هذا الجيش لم يتمكن من الوصول الى جبهة القتــال الا" في شهر آب ، فكان وصوله بعد فوات الاوان ، وحلت به الهزائم ، وصار عشرات الألوف من الجنود يفرون من خطوط القتال • (٣٤)

ولم يكتف الروس بانتصاراتهم الباهرة في جبهة قفقاسيا ، بل أرسلوا ارتالا" من الخيالة القوزاق الى ايران ، وأخذت هذه الارتال تتغلغل فــي داخل ايران حتى وصلت الى اصفهان ، وعبرت الحدود العراقية من الشمال باتجاه راوندوز ، ومن الوسط باتجاه بعقوبة •

يمكن القول ان هذه الانتصارات الباهرة التي نالتها القوات الروسية على الاتراك كانت بمثابة القمة العالية التي يأتي بعدهــا الانحدار • ففي ذلك الوقت التي كانت فيه القوات الروسية تسير من نصر الى نصر فــي تركيا وايران نشبت ثورة في بطرسبرغ ، وقد أدت هذه الثورة الى انهيار الجيوش الروسية في جميع الجبهات ، فكان ذلك كأنه انقاذ نــزل الى

---

(34) Ibid, p. 233.

الاتراك من السماء ، وبه استطاع الاتراك على ضعفهم أن يتحولوا من موقف الدفاع الى موقف الهجوم كما سنأتي اليه .

الثورة الروسية :

لابد لنا هنا من استعراض موجز للثورة الروسية لما كان لها من تأثير عظيم على مجرى الحرب في تركيا أولاً وعلى مجرى التاريخ في العالم كله أخيراً .

الواقع ان الشعب الروسي عاني من ويلات الحرب عناءاً يصعب تصوره . يقول الكاتب الانكليزي المعروف ويلز : ان الجنود الروس كانوا يذهبون الى الحرب من غير مدافع تدعمهم ، وحتى من غير رصاص لبنادقهم ، فكانوا يساقون الى الهلاك من قبل قوادهم تحت تأثير هوس الحماس العسكري ، وكانوا في بعض الاحيان يتحملون الويل صامتين كالانعام . اما الطبقة النبيلة الحاكمة فكانت متفسخة غير قديرة ، بينما كان القيصر قد سيطر عليه نوع من التقوى البلهاء وكان هو وحاشيته قد وقعوا تحت تأثير راهب دجال هو راسبوتين ... (٣٥)

نفد صبر الروس في شهر آذار ١٩١٧ ، حيث خرجت مظاهرة في العاصمة بطرسبرغ تطالب بالخبز ، فأمرت الحكومة باطلاق الرصاص عليها غير أن الجنود امتنعوا عن تنفيذ أمر الحكومة . وتألفت حكومة موقتة من قبل الاحزاب المعارضة . وحين سمع القيصر بذلك ، وكان في احدى جبهات الحرب ، غادر الجبهة مسرعاً متوجهاً الى العاصمة ، ولكنه أوقف في الطريق من قبل الحكومة الموقتة وطلب منه التنازل عن العرش . وقد تنازل القيصر عن العرش لصالح أخيه ميخائيل غير أن أخاه رفض قبول العرش في اليوم التالي .

مرت على روسيا بعد هذا ثمانية أشهر عمت فيها الفوضى في كل مكان ، فلقد كانت الحكومة الموقتة ضعيفة غير متناسقة يقودها رجل اسمه كرنسكي ، وكان هذا الرجل خطيباً مصقعاً يعرف كيف يخاطب الجماهير ، فصار معبودهم ، ولكنه لم يكن رجل دولة ، فترك

---

(35) H.G. Wells (Outline of History) Garden City — p. 1094.

الامور تجري على رسلها ، وبذلك استفحلت الفوضى واشتد التنافس بين الاحزاب كل حزب يريد أن يجر النار لقرصه .

كانت الحكومة القيصرية السابقة قد نفت الكثير من رعاياها الى سيبريا ، كما هرب آخرون الى مختلف البلاد الأوربية ، وقد بدأ هؤلاء المنفيون يعودون الى بطرسبرغ فزادوا في حدة الفوضى . وصار كل شخص ذاق شيئاً من الاذى او النفي في عهد القيصر يريد أن يكون في عهد الثورة زعيما . وأصبحت الجماهير تتقاذفهم الأهواء من كل جانب، وتتابعت التجمعات والمظاهرات ، وأخذ الخطباء يملأون الجو بالصراخ المثير.

وفي الوقت الذي كانت فيه بطرسبرغ تزخر بهذه الأحداث كان يعيش في سويسرا رجل روسي قصير القامة أكوس اللحية اسمه اوليانوف، ويلقب نفسه « لنين » . انه كان شيوعيا من زعماء الحزب المعروف باسم « البلشفيك » .

لم يكن في مقدور لنين العودة الى روسيا الا عن طريق المانيا ، وكان ذلك أمراً عسيراً لوجود حالة الحرب بين المانيا وروسيا . ولكن القيادة الالمانية ساعدت لنين على العودة الى روسيا حيث نقلته في قطار مغلق عبر بلادها الى ساحل بحر البلطيق ، ومن هناك استطاع لنين الوصول الى بطرسبرغ عن طريق السويد حيث وصلها في ١٦ نيسان . والمظنون ان القيادة الالمانية كانت تبغي من اعادة لنين الى روسيا زيادة الفوضى فيها وما درت أنها أرسلت الى روسيا رجلاً سيغير مجرى التاريخ فيها وسيجعلها من أعظم دول العالم في وقت قصير !

كان لنين من طراز اولئك الرجال الذين يجمعون في أنفسهم بين الحماس والحكمة ، وكان يختلف عن الكثير من الشيوعيين الذين لا يعرفون من دنياهم سوى النصوص المحفوظة يهتفون بها ويتحمسون لها دون أن يفقهوا فحواها . فهو لم يكد يصل الى بطرسبرغ حتى بدأ العمل وفق خطة واضحة في ذهنه دون أن يهتم بالشعارات المرفوعة او الهتافات .

أصبحت بطرسبرغ يومذاك ميدان صراع بين رجلين من طرازين مختلفين ، فقد كان كرنسكي من جانب يثير الجماهير بخطبه الرنانة بينما

كان لنين من الجانب الآخر يفكر تفكير من يرمي ببصره الى الافق البعيد دون أن يهتم بالاغراءات الآنية •

كان كرنسكي يريد مواصلة الحرب ، وأخذ يخطب في الجنود محمساً لهم • أما لنين فكان يعتبر الحرب مهلكة للجنود البائسين ولا يستفيد منها سوى الحكام وأصحاب الأموال • كان لنين يدعو الى وقف الحرب حالاً وعقد الصلح مع ألمانيا بأي ثمن لكي يتفرغ بعدئذٍ الى بناء دولته على أسس جديدة ، ولهذا صار خصومه يتهمونه بأنه عميل للألمان وخائن لوطنه • ولم يكترث لنين لهذه التهم بل سار في طريقه لا يلوي على شيء •

شنت الجيوش الروسية هجوماً على الالمان بايعاز من كرنسكي في تموز ١٩١٧ ، وقد نال الهجوم بعض النجاح في بداية الأمر غير أن الالمان انثالوا بعدئذ على الجيوش الروسية فأنزلوا بها كارثة أخرى من نمط الكوارث السابقة ، وكانت تلك مذبحة جديدة مني بها الجنود المساكين •

وبينما كان كرنسكي مشغولاً بجبهة الحرب كان لنين مشغولاً بالجبهة الداخلية يفكر كيف يهدم الحكومة الحالية لكي يبني مكانها حكومته الجديدة • وفي ٧ تشرين الثاني ١٩١٧ تم له ما اراد فقامت ثورة في بطرسبرغ بقيادته ، وبدأت منذ ذلك الحين تلك الطفرة الاجتماعية الكبرى التي لا ندري أين ينتهي المطاف بها •

سميت تلك الثورة بـ « ثورة اكتوبر » أي تشرين الاول على الرغم من كونها حدثت في تشرين الثاني ، ويعزى سبب ذلك الى أن روسيا كانت في تلك الايام تجري على التقويم الشرقي وهو يقل عن التقويم الغربي بثلاثة عشر يوماً •

ققفاسيا ــ مرة اخرى :

كانت الجيوش التركية في جبهة ققفاسيا ــ في الفترة التي سبقت قيام الثورة الروسية ــ في أسفل درك من الضعف وتفسخ القيادة • يقول أرمسترونج في وصفها : « ••• كان ينقصها كل شيء من الطعام والذخائر والاسلحة ، وكانت ثياب الجنود قد غدت اسمالاً مهلهلة ، كما كانت مواد تموينهم تختلس وتنهب ، فمتعهدو الجيش يرشون الضباط الذين بيدهم

الأمر والنهي ويشاركونهم أرباح الصفقات • فأثرى الفريقان من هذه السرقات على حساب تموين الجيش • وكذلك كانت الخدمة الطبية على أسوأ حال •• فالجنود يموتون بالالوف تأثراً بالدوسنطاريا والتيفوس وغيرها من الامراض فضلا عن موت الكثيرين منهم تأثراً بالبرد والجوع • » (٣٦)

ارسلت القيادة التركية العليا الى جبهة قفقاسيا قائداً نزيهاً صارماً هو مصطفى كمال باشا بطل الدردنيل ، وقد بدأ هذا القائد بحملة تطهير شملت اللصوص من الضباط والمتعهدين ، فأنزل بهم عقوبات شديدة لا تعرف الرحمة ، وقد تصور بعضهم أن في مقدورهم رشوته وعرضوا عليه مشاركتهم في أعمال السلب والنهب ، فكان رده عليهم أنه أمر بشنقهم ، كما أمر بجلد كل من ثبتت عليه أية تهمة مخلة بالنزاهة •(٣٧)

وعندما نشبت الثورة الروسية في آذار كان أثرها شديداً في جبهات الحرب حيث أخذ الكثير من الجنود الروس يعصون أوامر ضباطهم ويفرون عائدين الى بيوتهم • وأرادت القيادة التركية انتهاز الفرصة لاستعادة المناطق الواسعة التي كانت القوات الروسية قد احتلتها في شرقي الاناضول ، وشرعت القوات التركية تتقدم بقيادة مصطفى كمال باشا ، ولكن تقدمها كان بطيئاً جداً لما كانت تعانيه من ضعف في الرجال ونقص في التموين • وقد استطاعت على أي حال أن تسترجع وان وبتليس وموش ، وواصلت تقدمها نحو باطوم •

وبينما كان مصطفى كمال باشا مشغولاً في هذه الجبهة اذ صدرت اليه الاوامر من اسطنبول بان يترك الجبهة بعهدة نائبه كاظم قره بكر بك ويتوجه الى فلسطين لقيادة أحد الجيوش التي كانت معدة هناك لمواجهة الهجوم الانكليزي المتوقع •

يبدو أن انور باشا كان مهتماً بأمر الهجوم في قفقاسيا اكثر من اهتمامه بأمر الدفاع عن فلسطين ، وقد ادى ذلك الى خلاف في الرأي

---

(٣٦) ارمسترونج (المصدر السابق) ــ ص ٧٦ •
(٣٧) المصدر السابق ــ ص ٧٦ ــ ٧٧ •

بينه وبين القادة الألمان • كتب القائد الالماني فون ساندرز يقول : ان التقدم التركي في ايران كان السبب في ضياع بغـداد ، والآن يمكن أن يكـون التقدم في قفقاسيا سبباً في ضياع البلاد العربية الأخرى • (٣٨)

ففي آذار من عام ١٩١٨ عقدت معاهدة الصلح بين المانيا والحكومة البلشفية الجديدة ، وفيها وافقت الحكومة البلشفية على الجلاء عن المناطق التركية التي كانت القوات الروسية قد احتلتها سابقاً في شرقي الاناضول ، وتسليم أردهان وقارص وباطوم الى تركيا • وأراد أنور باشا استغلال تلك الفرصة الى الحد الاقصى فأمر القوات التركية بالتقدم نحو باكو •

ان منطقة قفقاسيا تحتوي ــ كما أسلفنا ــ على قوميات وطوائف دينيـة شتى • وعندما انسحبت القوات الروسـية منها ظهرت فيهـا عـدة دويلات، وبدأت المعارك والفتن تنشب بين أقوامها على نطاق واسع• وجاءت القوات التركية لتضيف الى الفوضى وقوداً جديداً ، كما أرسل الألمان قواتهم الى المنطقة ، وكذلك أرسل الانكليز قواتهم اليها عن طريق ايران • وقـد احتل الانكليز باكو في تموز ١٩١٨ غير أن الاتراك أخرجوهم منهـا في منتصف ايلول •

ظلت المنطقة في فوضى مدة غير قصيرة بعد انتهاء الحـرب ، ولـكن الاتراك على أي حال نجحوا في استعادة الأراضي التي كانوا قـد خسروها في حرب ١٩١٤ ، وحرب ١٨٧٧ أيضاً • فكان ذلك الفتح الوحيـد الـذي حصلت عليه الدولة العثمانية من دخولها الحرب • يقول المؤرخ الامريكي ييل : ان أنور باشا نال هدفه في منطقة قفقاسيا ولكن هذا الربح كلفه ثمناً باهضاً اذ هو خسر مقابل ذلك البلاد العربية على نحو ما تنبأ به القائـد الألماني فون ساندرز • (٣٩)

الثـورة العربيـة :

في يوم ١٠ حزيران ١٩١٦ م ــ الموافق ٩ شعبان ١٣٣٤ هـ ــ أعلن شريف مكة الحسين بن علي الثورة على الاتراك بالاتفاق مع الانكليز على

---

(38) William Yale (op. cit) — p. 245.
(39) Ibid, p. 247.

شروط تعهدوا له بها . وقد جهزه الانكليز بالذهب الكثير وبعض المدافع والاسلحة .

كان لدى الاتراك في الحجاز زهاء اثنى عشر ألف جندي موزعين في مكة والطائف وجدة والمدينة وغيرها . أما الشريف فلم يكن لديه جيش نظامي بل اعتمد في ثورته في أول الأمر على قبائل البدو حيث أغدق عليهم الذهب الذي أمده به الانكليز ، وقد انضم البدو الى الثورة يحدوهم الذهب المدفوع من جهة ، والأمل بالغنائم الوفيرة من الجهة الاخرى — كما هو ديدن البدو في أكثر الاحيان .

أول حامية تركية استسلمت للثورة العربية هي حامية جدة ، وذلك في ١٦ حزيران — أي بعد ستة أيام من اعلان الثورة — وقد ساعد الاسطول البريطاني في ذلك حيث قصف ثكنات الحامية قصفاً متواصلاً لمدة ثلاثة أيام . وقد استفاد العرب من المدافع التي غنموها في جدة فنقلوها الى مكة ، كما وصلتهم من مصر مدافع أخرى مع ثلاثة آلاف بندقية وعدد من الجنود والضباط المصريين بقيادة ضابط كبير اسمه سيد علي بك . وفي ٩ تموز تم الاستيلاء على قلعتي « جياد » و « جرول » في مكه . وفي ٢٢ ايلول استسلمت حامية الطائف .

انضم الى الثورة ضابط بريطاني اسمه لورنس ، وكان هذا الضابط ذا شخصية فريدة يتقن العربية فتغلغل بين البدو واستطاع أن يجعل منهم قوة لا يستهان بها في ارباك الاتراك وتدمير سككهم الحديدية وطرق مواصلاتهم .

وفي ٢٤ كانون الثاني ١٩١٧ تم الاستيلاء على بلدة « الوجه » الواقعة على البحر الاحمر على بعد مائتي ميل من ينبع شمالاً ، وقد قام بالاستيلاء عليها أربعمائة بدوي يقودهم ضابطان بريطانيان حيث نقلتهم الى هناك سفينة بريطانية . وقد رافق الاستيلاء نهب وتخريب وتقتيل بشكل فظيع جداً(٤٠) على عادة البدو عندما يفتحون بلدة .

---

(40) Richard Aldington (Lawrence of Arabia) — London 1958 p. 167 — 168.

وحين وصل لورنس الى البلدة في اليوم التالي تألم مما شاهده فيها من المناظر البشعة ، وقد وصف ذلك في كتابه « اعمدة الحكمة السبعة » حيث قال : ان ما شاهده فيها من تدمير وتقتيل كان بمثابة تصرف فاجر لا يليق ، فالبدو كانوا قد وجدوا البلدة مليئة بالغنائم فكنسوها وسلبوا المتاجر وحطموا الابواب وفتشوا كل غرفة وكسروا الصناديق والخزائن ومزقوا الستائر والفرش والوسائد مفتشين عن الكنوز الخبيئة ، بينما كانت مدافع الاسطول تفتح بقنابلها الثغرات في جدران كل منزل • ويقول لورنس : ان الضابط البريطاني الذي أدار المعركة كان مرتاحاً مسروراً ، ولكن لورنس لم يشاركه في سروره ، ففي رأيه ان بلدة الوجه كان من الممكن فتحها عن طريق ضرب الحصار عليها بضعة أيام ، ولهذا فان التدمير الذي جرى فيها كان غير ضروري • ويضيف لورنس الى ذلك قائلا ما نصه : « ثم أخذ سكان البلدة الغاضبون علينا ينتقمون منا فيسرقون كل شيء تقع عليه أيديهم ويمزقون أكياس الرز ويغترفون منها ويفرون • لذلك اضطر فيصل الى تعيين مولود مخلص القاسي حاكماً للبلدة • وقد استحضر هذا خيالته واستطاع خلال يوم واحد أن يلقي بعدد كبير في السجون » • (٤١)

وعلى أي حال فقد كان احتلال بلدة الوجه بمثابة البداية لصفحة جديدة في تاريخ الثورة العربية • فان الغنائم الوفيرة التي حصل عليها البدو لفتت أنظار القبائل المجاورة وجعلتها تنجذب الى الثورة انجذاباً قوياً • فتلك كانت أول معركة يظفر البدو فيها بالغنائم على طريقة « الفرهود » ، وهذا أمر يشتهيه البدو من أعماق قلوبهم ويتفاخرون به اذ هو محور مهم من محاور تراثهم الاجتماعي •

في ٥ نيسان ١٩١٧ انضم الى الثورة العربية رجل يعد نموذجاً للشخصية البدوية هو الشيخ عودة أبو تايه • انه كان رئيس عشيرة الحويطات التي تسكن بالقرب من العقبة ، وكان أشهر رجل في تلك الانحاء ، ومضرب المثل في الشجاعة والكرم ، والمعروف عنه أنه شمل بغزواته مساحة واسعة من البادية تمتد بين مكة والبصرة وحلب ، ولكنه كان على كثرة الغنائم

---

(٤١) لورنس (اعمدة الحكمة السبعة) — بيروت ١٩٦٣ — ص ١٢٣–١٢٤ •

التي غنمها في غزواته تلك لا يملك شيئاً لأنه أنفقها كلهـا علـى ضيوفـه والقاصدين لـه ، وكانت جفنته التي يقـدم الطعام بها لضيوفـه تسع ما يكفي لخمسة وعشرين رجلاً في آن واحد • والمعروف عنه كذلك أنه قتل بيده خمسة وسبعين رجلاً من العرب ، أما قتلاه من الاتراك فلا حصر لهم لأنهم لا يستحقون العد في نظره • (٤٢)

كان انضمام الشيخ عودة أبو تايه الى الثورة كسباً كبيراً لها ، وقـد فرح بذلك الامير فيصل بن الحسين فرحاً لا مزيد عليه ، كمـا فرح بـه لورنس • وقد جمع الشيخ عودة من عشيرته خمسمائة رجل فهاجم بهـم قوة تركية كانت معسكرة قريباً من العقبـة ، وكانت تلك أول مرة فـي تاريخ الثورة يقوم بها البدو بالهجوم المباشر على قوة نظامية جيدة التسليح• وقد أدار عودة المعركة بشجاعة فائقة اعتمد فيها على المباغتة ، وانتصر فيها انتصاراً ساحقاً • ولم يترك عودة لرجاله وقتاً يرتاحون فيه عقب المعركـة بل حثهم حثاً شديداً باتجاه العقبة • وفي ٦ تموز دخلوا العقبة وهم فـي غاية الجوع والعطش والتعب ولكنهم كانوا يسوقون أمامهم قطيعاً مـن الاسرى الاتراك يفوقونهم عدداً • (٤٣)

يعتبر احتلال العقبة نقطة تحول كبرى في تاريخ الثورة العربيـة • ومما زاد في أهميتها ان بريطانيا بدأت حينذاك تولي اهتماماً فوق العادة للجبهة الفلسطينية ، فعينت الجنرال اللنبي قائداً لها ، وقـد وصل هـذا القائد الى مركز قيادته في القاهرة قبل أيام معدودة من احتلال العقبة •

كان لورنس قد غادر العقبة عقب احتلالها برفقة ثمانية رجـال مـن عشيرة الحويطات ، وكان يلبس الملابس البدوية مثلهم ، فوصلوا بعـد مسيرة شاقة على الاباعر الى الاسماعيلية • فترك لورنس اصحـابه هنـاك وسافر هو بالقطار الى القاهرة ، ثم دخـل على اللنبي وهو بزيه البـدوي حافياً ، وصار يتحدث اليه عن احتلال العقبة وأهميتها لحركـات الجيش

---

(42) Lowell Thomas (With Lawrence in Arabia) — London p. 105 — 107.

(٤٣) جورج انطونيوس (المصدر السابق) ــ ص ٣٢٣ •

الانكليزي في الجبهة الفلسطينية • وقد قرر اللنبي على أثر هذه المحادثة مع لورنس دعم القوات العربية بكل الوسائل الممكنة لتكون الجناح الايمن لجيشه في حركاته المقبلة •

عاد لورنس الى العقبة بعد أن زودته القيادة الانكليزية بسلطة واسعة وذهب كثير ، كما رفعت رتبته العسكرية من كابتن الى كولونيل — أي من نقيب الى عقيد • وصار لورنس يخرج بالتعاون مع الشريف ناصر والشيخ عودة أبو تايه لشن الغارات على خطوط مواصلات الاتراك وقطاراتهم فأنزل بهم ضربات مريعة • (٤٤) وأدرك الاتراك خطورة لورنس عليهم فأعلنوا جائزة قدرها خمسون ألف ليرة ذهب لمن يأتي به حياً أو ميتاً • (٤٥)

وفي شهر تشرين الثاني ١٩١٧ وقع لورنس في قبضة الاتراك ولكنه فلت منهم بأعجوبة • وخلاصة القصة أنه ذهب الى بلدة درعا بزي بدوي بغية التجسس ، فلمحه هاشم بك حاكم درعا ، وكان هذا الحاكم لوطياً يحب الغلمان ، ومما يجدر ذكره أن لورنس كان ذا وجه صبياني يبدو أصغر من سنه الحقيقية • (٤٦) فاشتهاه الحاكم وطلب من أحد الجنود أن يأتي به اليه • ويقص لورنس في كتابه كيف حاول هاشم بك اللواط به عن طريق الاغراء تارة وعن طريق القسر تارة أخرى ، ويدعي لورنس أنه استطاع أن يتحمل العذاب بصبر وقاوم محاولات هاشم بعناد ، ثم تمكن من الهرب أخيراً • (٤٧) وتشير بعض القرائن الى ان هذا الادعاء من لورنس لا يخلو من مبالغة أو هو غير صحيح • هناك رسالة بعث بها لورنس الى زوجة برنارد شو اعترف فيها بأنه لم يستطع احتمال العذاب وأنه استسلم في النهاية لشهوة هاشم بك • (٤٨) ويقال ان عقدة نفسية شديدة سيطرت على لورنس من جراء تلك الفعلة الشنعاء التي فعلها به هاشم بك وظلت هذه

---

(٤٤) المصدر السابق — ص ٣٢٥ •

(45) Lowell Thomas (op. cit.) — p. 76.

(46) Richard Aldington (op. cit) — p. 200.

(٤٧) لورنس (المصدر السابق) — ص ٣١٥ — ٣١٨ •

(48) Richard Aldington (op. cit) — p. 200 — 201.

العقدة تلازمه طيلة حياته .

ومن مفارقات القدر ان الجنرال اللنبي كان مشغولاً باعداد هجومه على فلسطين في نفس الوقت الذي كان فيه هاشم بك مشغولاً بلواط لورنس . وفي ٧ تشرين الثاني ١٩١٧ استطاع اللنبي أن يحتل غزة . وفي ١١ كانون الاول فتح القدس . ويقال ان لويـد جورج رئيس الـوزارة البريطانية كان قبل ذلك قد أبدى رغبته للجنرال اللنبي في أن يكون فتح القدس هدية للامة البريطانية بمناسبة عيد الميلاد . (٤٩) وقد حقق اللنبي رغبة رئيس الوزراء . !

حشد الاتراك جيوشاً ثلاثة تجاه الجيش الانكليزي الذي كانت القوات العربية تمثل جناحه الأيمن . وفي ١٩ ايلول ١٩١٨ بدأ اللنبي بشن هجومه الكبير على تلك الجيوش ، وفي خلال ثلاثة أيام استطاع بخطة بارعـة كل البراعـة أن ينزل بالجيوش التركيـة ضربات ماحقة مزقتها تمزيقاً . وأخذ الجيش الانكليزي يتسابق مع القوات العربية للوصول الى دمشق. وفي صباح ١ تشرين الاول دخلت الخيالة الاسترالية الى دمشق من جانب ، والقوات العربية من جانب آخر . وقـد استقبل الاهالي القوات العربيـة بحماس منقطع النظير ...

الضباط العراقيون والثورة :

التحق بالثورة العربية في الحجاز عدد كبير من الضباط العرب ، وكان معظمهم من العراقيين وهم الذين تولوا المناصب العاليـة في العراق بعـد الحرب عندما تأسست الحكومة العراقية كما هو معروف .

أول ضابط عراقي التحق بالثورة هو شريف أفندي الفاروقي ، وهو من آل العمري في الموصل . وكان هذا الضابط يقاتل في صفوف الجيش التركي في معارك الدردنيل ، واستطاع أن يهرب الى الانكليز فنقلوه الى القاهرة ، وهناك أطلعه الانكليز على المفاوضات التي كـانت تجرى بينهـم وبين الشريف الحسين قبل اعلانه الثورة ، فكتب هو في ٦ كانون الاول

(٤٩) شكري محمود نديم (المصدر السابق) — ص ٩٠ .

١٩١٥ كتاباً الى الشريف يضع نفسه في خدمته ويقول : « نحن رجال ليس لنا ارب سوى الاستقلال ونحن مستعدون لتضحية كلما يلزم لهذا الاستقلال لان منافع الطرفين متحدة كل الاتحاد . ونحن نرى الموت حياة في سبيلنا ولنا ثقة بأنفسنا واعتماد على بريطانيا العظمى التي جاهرت بعون العرب والتي تحب أن تصاحب العرب أصحاب السيادة في العالم الاسلامي وتعينهم على استقلالهم لاتحاد المصلحتين ... » فأجابه الشريف يشكره على هذا الكتاب ، ثم عينه ممثلا له في القاهرة . (٥٠)

أما الضابط العراقي الثاني الذي التحق بالثورة فهو نوري السعيد ، وكان قد هرب من الاتراك قبل اندلاع الحرب والتجأ الى السيد طالب النقيب في البصرة ، ولما احتل الانكليز البصرة اعتقلوه ونقلوه الى الهند . وعندما نشبت الثورة العربية طلب منهم التطوع فيها فنقلوه الى مصر ...

كان في الهند معتقل للاسرى اسمه « سمربور » يقع على بعد مائة كيلو متر من بومبي ، وكان فيه في وقت نشوب الثورة العربية زهاء ٣٠٠ ضابط عربي و ٤٠٠٠ جندي ، وكان معظمهم عراقيين من الذين أسرهم الانكليز في معارك العراق . ولم يكن هؤلاء يعلمون بخبر الثورة عند نشوبها ، الا قليل منهم كان قد أخبرهم بها السيد حسين أفنان الذي كان يعمل هناك مترجماً في خدمة الانكليز .

وفي منتصف حزيران ١٩١٦ اختار الانكليز من بين الأسرى ١٠ ضباط و ١٥٠ جنديا ، من المختصين بالمدفعية ، بحجة أنهم سينقلونهم الى العراق لمبادلتهم بأسرى من الانكليز . ونقلوهم الى بومبي بالقطار ومن هناك أبحروا بهم في باخرة متجهة الى السويس في مصر . وقد وصلت الباخرة الى السويس في أواسط تموز ، ولم تكد الباخرة تصل الى رصيف الميناء حتى صعد اليها ضابط انكليزي ومعه نوري السعيد ، فأخذ نوري يكلم الأسرى قائلا : ان الشريف حسين قد قام بالثورة ، وليس هنا مجال المناقشة حول الثورة : هل هي صحيحة أم لا ، ولكن دعنا نناقش الامر من ناحية

---

(٥٠) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) — بغداد ١٩٢٥ — ج ١ ص ٢١٩ — ٢٢٣ .

أخرى : هـل من الواجب علينـا نحن ذوي المبادىء القوميـة من عراقيين وسوريين أن تنضم اليها أم لا ، فنحن لو رفضنا الانضمام اليها لجاء الانكليز بضباط من مستعمراتهم هنود ومصريين ، وجاء الفرنسيون بضباط تونسيين أو جزائرين أو مغاربة ، وبهذا تكون الثورة تحت قيادة ضباط من المستعمرين بدلاً من ان تكون تحت قيادتنا نحن ذوي المبادىء القومية حيث نوجهها عندئذٍ كما نرغب ونشتهي . (٥١)

عند سماعهم لهذا الـكلام انقسموا الى فريقين ، حيث امتنـع عن الالتحاق بالثورة منهم أربعة ضباط وخمسة عشر جندياً ، فسيقوا الى معتقل للاسرى قرب القاهرة . أما الباقون فقد استجابوا للثورة ، وكـان فيهـم الضباط التالية أسماؤهم : رشيد المدفعي ، سعيد المدفعي ، محمد حلمي الحاج ذياب ، راسم سردست ، داود صبري ، ابراهيم الراوي . وكانوا كلهم برتبة ملازم ثاني ما عدا الاول منهم اذ كان برتبة «يوزباشي» أي نقيب . وقد نقل هؤلاء الضباط مع جنودهم الى القاهرة فمكثوا فيها أسبوعاً واحداً، ثم غادروها بالقطار الى السويس حيث ركبوا منها باخرة متجهة الى جدة ، وكان معهم نوري السعيد ، فوصلوا جدة في ٢ آب ١٩١٦ .

ومما يلفت النظر أنهم عند اختلاطهم بأهل جدة وجدوا الرأي العـام فيها معارضاً للثورة ناقماً عليها ، اذ كان يعتبر الثورة كأنهـا خروج علـى الاسلام وحلف مع الكفار . وقد وجدوا كذلك الجنود الاتراك الـذين استسلموا للثورة في جدة مطلقي السراح يعيشون في البلدة كما يشاؤون ويخالطون سكانها ، وكان لهؤلاء الجنود أثرهم في توجيه الرأي العـام في جدة . ولما خالطهم الجنود العراقيون الذين جيء بهم من الهند تأثروا بهم وندموا على التحاقهم بالثورة . فقـد كان الجنود الاتراك يقولون لهم : « كيف ولمـاذا يا أخي المسـلم تحـارب أخـاك المسـلم جنباً لجنب مـع الانكليز الـكفار ؟ ! » .

أصدر الشريف حسين أمره تلفونياً من مكة بتعيين نوري السـعيد وكيلاً للقائد العام لقوات الثورة . وقـد أدرك نوري السعيد خطـورة

---

(٥١) ابراهيم الراوي (ذكريات) ــ بيروت ١٩٦٩ ــ ص ٢٢ .

الجنود الاتراك الموجودين في جدة فأمر بجمعهم وايداعهم في معتقل خاص بهم وتشديد الحراسة عليهم ، لكي يمنع تأثيرهم على الرأي العام في جدة وعلى الجنود العراقيين فيها .

يبدو أن هذا الاجراء الذي قام به نوري السعيد قد جاء بعد فوات الأوان ، فقد ظل الجنود العراقيون متأثرين بما أوحى بـه اليهم الجنود الاتراك ، وأعلنوا رفضهم للانضمام الى الثورة ، وصاروا يهتفون بالهتاف التركي الذي تعلموه في سلك الجندية : « باديشا هم جوق يشا ! » .

حاول نوري السعيد اقناعهم فلم يؤثر فيهم شيئاً ، وأصروا على العودة الى معتقل الهند الذي أتوا منه . واتصل نوري بالشريف في مكة تلفونياً يخبره بجلية الأمر ، فكان جواب الشـريف : « يا ابني نحن اللي ما يبغانا ما نبغاه » ــ أي أن الذي لا يرغب فينا لا نرغب فيه . وعرض الشريف عليهم أن يأتوا الى مكة ما داموا قريبين منها فيؤدوا العمرة فيها ثم يعودون ليذهبوا الى المحل الذي يريدون . وقد ذهب الجنود الى مكة فعلاً فاعتمروا فيها ثم عادوا الى جدة ومنها نقلوا الى حياة الاسر من جديد .

لم يبق من الجنود من ظل مع الثورة سوى ستة فقط ، فساروا مـع ضباطهم الى مكة ، وقد جرى لهم هناك استقبال رسمي شارك فيه الموظفون وأعيان مكة . يقول ابراهيم في مذكراته ، وهو من جملة الضباط الذين وصلوا الى مكة مع الجنود الستة : انه وجد الرأي العام في مكة على منوال ما وجده في جدة اذ أن الكثير من سكانها ــ ولا سيما غير العرب منهم ــ كانوا ساخطين على الشريف حسين لتحالفه مع الانكليز والفرنسين ومحاربته الاتراك . وقـد عتب الراوي في مذكراته على أهل مكة وأخـذ يناقشهم ويحتج عليهم حيث وصف تقاعسهم الحالي عن نصرة الشريف حسين بمثـل تقاعسهم القديم عن نصرة الرسول وعن نصرة ابن بنته الحسين ... [٥٢]

جاءت الى الحجاز بعد ذلك دفعة أخرى من الضباط كان من بينهم : علي جودت الايوبي ، عبداللطيف نوري ، عبدالحميد الشالجي ، مولـود مخلص ، جميل المدفعي ، عبدالكريم شاه ، حامد الوادي ، رشيد خماس ،

---

(٥٢) المصدر السابق ــ ص ٨٤ .

عبدالله الدليمي ، رشيد الانكورلي ، جميل الراوي ، شاكر الشيخلي ، برقي العسكري ، جمال علي •

حاول الانكليز اقناع بقية الأسرى في سمربور على الالتحاق بالثورة فلم يوفقوا ، وكان رأي بعض الأسرى : « ان هذه بئر لا يعرف قرارها فكيف نرمي أنفسنا بها » ، وقال آخرون منهم : « ان الانكليز كفار وأعداء الدين الاسلامي ••• ودستورهم العملي هو أن الغاية تبرر الواسطة » •(٥٣)

وفي أواخر تشرين الثاني ١٩١٦ نقل الانكليز عدداً كبيراً من الأسرى من سمربور الى بومبي بالقطار على غير رغبة منهم ، ثم أركبوهم باخرة توجهت بهم الى ميناء رابغ في الحجاز • وقد اعترض الاسرى واحتجوا وقاوموا دون جدوى • وفي رابغ خرج اليهم رجل يخطب فيهم ليحرضهم على الالتحاق بالثورة ، ثم قابلهم الامير علي محاولاً اقناعهم وشرح لهم القضية العربية ، كما حاول اقناعهم بعض الضباط الذين التحقوا بالثورة من قبل ، ولكن الاسرى أصروا على الامتناع وعاندوا عناداً شديداً ، ولم يرضخ منهم سوى ضابطين وبضعة وعشرين جندياً •

اضطر الانكليز أخيراً الى نقل الأسرى الرافضين الى مصر ، فأودع الضباط منهم في معتقل أقيم على ساحل البحر الابيض المتوسط الى الشرق من الاسكندرية في موضع يقال له « سيدى بشر » وهو الآن جزء من الاسكندرية • أما الجنود فأودعوا في معتقل جنوب القاهرة في موضع يقال له « المعادي » ، ثم اعيدوا الى الهند بعدئذٍ •

كان في مصر يومذاك ضابط عراقي أسير برتبة « بكباشي » أي مقدم ، اسمه جعفر العسكري ، وقد قرر هذا الضابط الالتحاق بالثورة ، فأرسله الانكليز الى معتقل « سيدي بشر » في محاولة اخيرة لاقناع الضباط الرافضين ، فقابل كبيرهم وكان في مثل رتبته اسمه علي غالب ، فأجابه هذا قائلا : انه وجميع الضباط لا يريدون الالتحاق بالثورة فلا فائدة من الكلام معهم أصلا •(٥٤)

---

(٥٣) محمد رؤوف الشيخلي (مراحل الحياة) ـ بصرة ١٩٧٢ ـ ج ٢ ص٣٨٧•
(٥٤) المصدر السابق ـ ج ٢ ص ٤٠٩ •

وفي ١١ كانون الاول ١٩١٦ أرسل جعفر العسكري رسالة الى الشريف حسين يطلب منه قبوله في صفوف الثورة ، ولكن الشريف رفض قبوله بأدب قائلا في جوابه : « ان جيشنا غير مستعد لقائد شهير مثلك ... » (٥٥) والمظنون أن سبب هذا الرفض هو ان الشريف كان حذراً من الضباط الكبار اذ كان يخشى أن يقوموا بانقلاب عليه فيما بعد كما فعلوا مع السلطان عبدالحميد .

وعلى أي حال فقد قرر الامير فيصل الاستفادة من كفاءة جعفر العسكري فاستدعاه اليه على مسؤوليته الخاصة . وقد وصل جعفر الى الحجاز في حزيران ١٩١٧ فأنيطت به مهمة تكوين جيش نظامي مدرب على الاسلحة الحديثة وقد نجح جعفر في ذلك . يقول لورنس . ان التحاق جعفر العسكري بالثورة كان بمثابة نجدة ضخمة لها . (٥٦)

فخري باشا :

كان فخري باشا (٥٧) قائداً لحامية المدينة عند نشوب الثورة العربية في الحجاز ، وكان يحمل للثورة بغضاً شديداً ويعدها خدمة للكفار وتآمراً على الاسلام . انه كان بكتاشي العقيدة شديد التمسك بعثمانيته ، وقد اعتاد أثناء الثورة أن يرتقى منبر الحرم النبوي فيسب العرب ويسب الشريف حسين وجميع الاشراف .

انه ظل يقاوم الثورة ولم يستسلم لها كما استسلم لها القواد الاتراك في جدة ومكة والطائف . والغريب أنه ظل مصراً على عدم الأستسلام للثورة حتى بعد عقد الهدنة بين تركيا والحلفاء في ٣٠ تشرين الاول ١٩١٨ ، وقد تجاهل الاوامر الصادرة اليه من اسطنبول في وجوب الاستسلام ، ومنع من أن يعلم بها أحد من ضباط الحامية وجنودها ، واستمر على المقاومة .

أرسل المندوب السامي في مصر السر ريجنالد وينجيت كتاباً الى

---

(٥٥) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) — ج ٢ ص ١٥٧ .

(٥٦) لورنس (المصدر السابق) — ص ١٢٦ — ١٢٧ .

(٥٧) المظنون انه هو نفسه الذي تولى ولاية البصرة وكالة في عام ١٩٠٤ وأطلق عليه البصريون لقب «ابو الكواني» لصرامته فيمطاردة اللصوص.

فخري باشا يقول فيه : « ان الاتراك قد هزموا ، وأن الشام قد احتلت، وان مسؤولية الدماء بعد الآن ستقع عليك شخصياً ان لم تسلّم »٠٠ فأجابه فخري باشا ما نصه : « الى جناب الجنرال ريجنالد وينجيت بمصر : أنـا عثماني ، أنا محمدي ، أنا ابن بالي بك ، وأنا جندي ، وأرخ » ٠ (٥٨)

كان يحيط بالمدينة جيشان عربيان أحدهما بقيادة الأمير علي والآخر بقيادة الامير عبدالله ، وقد حاول هذان الجيشان القيام بنشاطات هجومية على المدينة دون جدوى ، وكتب الشريف حسين في ٢٢ كانون الاول ١٩١٨ الى المندوب السامي بمصر يقول فيه : انه مضطرب جداً ومسلوب الراحة تماماً حتى أنه لا يجد مناصاً من أن يعتزل منصبه ويتخلى عن مسؤولياته٠(٥٩)

أرسلت اسطنبول بايعاز من الانكليز ضابطاً تركياً مزوداً بأمر يؤكـد فيه على فخري باشا أن يستسلم والا" فانه سيعاقب عسكرياً ٠ وقد وصل الضابط الى معسكر الأمير علي فأرسله الأمير الى المدينة برفقـة ابراهيم الراوي وجنديين ٠ وقابل الضابط وفداً مرسلاً من قبل فخري باشا ، واتفق مع الوفد على شروط الاستسلام ٠ ولما عاد الوفد الى فخري باشا بالشروط التي تم الاتفاق عليها رفضها فخري باشا ثم اعتكف في الحجرة النبويـة وهدد باشعال النار في الاعتدة التي كانت مخزونة في المسـجد النبوي٠

ضاق ضباط الحامية ذرعاً بعناد رئيسهم فخري باشـا ، وفي صبـاح ١٠ كانون الثاني ١٩١٩ اضطروا الى الدخول عليه في الحجرة النبويـة وأمسكوا به يرجونه أن يركب السيارة التي أعدوها له في باب المسجد ٠ فركب فخري باشا السيارة مرغماً ، وسارت السيارة به متجهة نحو المعسكر العربي ٠ وكان في استقباله في الطريق ابراهيم الراوي وعبدالله المضايفي وعدد من الخيالة ٠ فلما أدى هؤلاء له التحية العسكرية لم يردهـا عليهم لشدة تأثره ٠ انه كان غاضباً من ضباطه الذين يعملون تحت امرته وأرغموه على عمل مخالف لرغبته ٠ (٦٠)

---

(٥٨) عبدالله بن الحسين (مذكراتي) ـ القدس ١٩٤٥ ـ ص ١٤٤ ٠
(٥٩) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص ٣٣٠ ٠
(٦٠) ابراهيم الراوي (المصدر السابق) ـ ص ١٢٨ ٠

وصل فخري باشا بالسيارة الى مقر الأمير عبدالله . ويقول الأمير في مذكراته : ان فخري باشا حياه عند وصوله تحية الدراويش بأن رفع يده الى صدره ثم جلس بعدئذٍ جلسة المقيت الغضيب ، وقد بادره الأمير عبدالله بالكلام قائلاً : اننا عرفناك شجاعاً في الحرب وأثناء الحصار واننا ليسرنا أن نراك صبوراً على هذه المصيبة مصيبة الاسر . ففرك فخري باشا يده وقال ما معناه : انه لا يعارض تشكيل دولة عربية . فقال له الامير عبدالله : « لقد عارضت وانتهت المعارضة » .

ثم التفت فخري باشا الى ابراهيم الراوي يسأله : « هل كنت معنا ؟ » أي هل كنت ضابطاً في الجيش العثماني ، وكأنه كان يعاتبه على انضمامه الى الثورة العربية . فأجابه الراوي : « كنت معكم الى أن اعلن صاحب الجلالة استقلال البلاد العربية فالتحقت بأمتي » . [61]

خرج فخري باشا بعدئذٍ مع الأمير عبدالله فركبا السيارة ، وأخذ الأمير يتبسط معه بالحديث بلباقته المعهودة، وقدم له فخري باشا ناظوره العسكري هدية له ، فأهداه الأمير عبدالله مقابل ذلك ساعة مذهبة ذات غطاء مغلف بالميناء الازرق وقد كتب على أحد وجهيها هذان البيتان :

لي خمسة أطفي بهم حر الجحيم الحاطمة
المصطفى والمرتضى وابناهما وفاطمة

وقد فرح فخري باشا بهذه الهدية غاية الفرح[62] ، والظاهر ان هذا البيت المكتوب على الساعة أثار عواطفه البكتاشية ومس أوتار قلبه ، ذلك لأن البكتاشيين يقدسون الخمسة « أهل العبا » تقديساً مفرطاً وقد جعلوا شعارهم كفاً مفتوحة اذ يرمزون أصابعها الخمسة الى اولئك الخمسة .

وعند وصول فخري باشا الى المعسكر العربي وجد سرية نظامية من راكبي البغال عددهم ٢٥٠ جندياً وهم مصطفون لاداء التحية العسكرية له ، فزرر فخري باشا معطفه ورد التحية عليهم بمثلها وقال بالتركية : «هرشي أولمش بتمش » أي كل شيء وقع وانتهى . ثم التقى بعدئذٍ بالأمير علي

---

(٦١) المصدر السابق ــ ص ١٤٨ .
(٦٢) عبدالله بن الحسين (المصدر السابق) ــ ص ١٤٩ .

وكان لقاؤهما مزيجاً من العتب والعداء والشيء الظاهر من البرود . [٦٣] وبعد شرب القهوة ذهبوا به الى خيمة أعدت له خاصة وكانت خيمة كبيرة من ذوات الاربعمائة رطل تكريماً له . [٦٤] وسأله الأمير عبدالله : « هـل يأمر الباشا أن نحضر اليه من يحب من الضباط الذين كان يألفهم » فأجـاب فخري باشا : « اترك هؤلاء الخائنين ، لا أريد أحداً منهم » . وفي اليـوم الثاني سافر فخري باشا بسيارته الى ينبع ومن هناك نقل بطرادة خاصـة الى المعتقل بمصر . [٦٥]

وفي اليوم نفسه ذهب الأمير عبدالله الى المدينة مع حاشية صغيرة ، ثم توجه بصحبة ابراهيم الراوي ومحمد حلمي الى مطعم الضباط التركي ، وهناك وجّه الامير الى الضباط هذا السؤال : « كيف كنتم تحاربوننا وأنتم تدعون لنا في الاوقات الخمسة بالصلاة بقولكم : اللهم صل على محمـد وعلى آل محمد ، من هم آل محمد ؟ ألسنا نحنُ ؟ » ، فأخذ الضباط الاتراك ينظر بعضهم الى بعض ويبتسمون . [٦٦]

ان هذه المحاورة على قصرها تعطينا صورة واضحة عن اختلاف وجهة النظر بين العرب والاتراك أثناء الثورة ، فالاتراك كانوا يعتقدون ان الحق معهم لانهم يمثلون الخلافة الاسلامية ، وأن العرب عصاة مارقون ، بينما كان العرب يعتقدون أنهم أولى بالاسلام وبالحق من الاتراك — وكل حزب بما لديهم فرحون !

---

(٦٣) المصدر السابق — ص ١٥١ .
(٦٤) ابراهيم الراوي (المصدر السابق) — ص ١٢٩ .
(٦٥) عبدالله بن الحسين (المصدر السابق) — ص ١٥١ .
(٦٦) ابراهيم الراوي (المصدر السابق) — ص ١٣٠ .

الفصل الثالث

احوال العراق اثناء الحرب

(نظرة عامة)

في صباح ٣ آب من عام ١٩١٤ فوجىء العراقيون بالطبول تدق على غير العادة وشاهدوا على الجدران اعلانات رسم فيها صورة مدفع وبندقية وقد كتب تحتها عبارة تركية : « سفر برلك وار ـ عسكر اولانلر سلاح باشنه » ، ومعناها : ان النفير العام قد أعلن وعلى الجنود أن يكونوا على أهبة الاستعداد بأسلحتهم .

كان القصد من هذا الاعلان البدء بالتعبئة العامة دون الاشتراك في الحرب ، اذ ان تركيا لم تدخل الحرب الا بعد ثلاثة أشهر كما ذكرناه في الفصل الاول . ولكن العامة في العراق لم يفهموا ذلك ولم يميزوا بين اعلان النفير والدخول في الحرب ، فساد الوجوم على الكثير منهم واعتبروا الامر من قبيل البلاء أنزله الله عليهم كما ينزل الطاعون عقاباً لهم على ذنوبهم .

كتب محمد رؤوف الشيخلي في مذكراته ، وكان يومذاك ضابطاً في بلدة الحي ، يقول : ان العامة فسروا عبارة « سفر برلك وار » بأنها تعني السفر الى بلدة « وان » في الاناضول ، فهم جعلوا الراء في « وار » نوناً . ولم يقتصر هذا الخطأ على العراق وحده بل ان العامة في الاناضول أيضاً قرأوا العبارة بانها تعني السفر الى وان . [1]

وقد ساعد على شيوع هذا الخطأ بين العامة اهتمام الحكومة بتحشيد جيوشها في جبهة قفقاسيا اذ هي أهملت أمر الدفاع عن العراق وركزت جهودها في تلك الجبهة النائية . وقد أشرنا سابقا الى السر الذي يكمن وراء هذا العمل حيث أن المسؤولين عن ادارة الحرب في تركيا ـ وعلى

---

(١) محمد رؤوف الشيخلي (مراحل الحياة) ـ البصرة ١٩٧٢ ـ ج ٢ ص ٣٢١ .

رأسهم وزير الحربية أنور باشا ـ كانوا يفكرون بالهجوم اكثر من تفكيرهم بالدفاع وهم انما ادخلوا الدولة في الحرب من أجل توسيع رقعتها لا من أجل الدفاع عنها •

الاخطاء المتقابلة :

لم يكن في العراق عند اعلان النفير العام سوى أربع فرق عسكرية وكان مقرها في الموصل وكركوك وبغداد والبصرة • وقد أوعزت القيادة العليا الى الفرقتين اللتين هما في الموصل وكركوك بالسفر الى بلاد الشام للمشاركة في حملة سيناء ، كما أوعزت الى الفرقة التي في بغداد بالسفر الى جبهة قفقاسيا • وكادت القيادة توعز الى الفرقة التي هي في البصرة بالسفر الى قفقاسيا أيضاً لولا ممانعة الوالي جاويد باشا •

يبدو ان القيادة العليا كانت تعتبر العراق من المناطق الحربية الثانوية، وقد بنت خطة الدفاع عنه على المتطوعين والعشائر ووحدات الدرك والحدود• وفي ٨ آب ١٩١٤ وصلت من اسطنبول برقية سرية الى بغداد تسأل عن امكانية تأليف قوة من العشائر لتوجيهها الى المحميات الانكليزية من أجل اثارة الناس فيها ،(٢) وهذا يدل على ان القيادة العليا لم تكتف باهمال أمر الدفاع عن العراق بل كانت تحلم أن تجعله قاعدة هجومية ضد الانكليز ، وكانت تظن ان العشائر في العراق قادرة على القيام بهذه المهمة •

وعلى أي حال فقد كانت القوات الموجودة في العراق عند اعلان الحرب في حالة مزرية • يقول شكري محمود نديم في كتابه « حرب العراق » ما نصه : « وقد كانت القوات التركية الموجودة في العراق بالاضافة الى قلتها ناقصة التدريب والعدة والعدد ، ولم تكن هناك أية خطط موضوعة لادامتها في الحرب ، وكانت اجراءات النفير ناقصة ونسبة الهروب عالية جداً • ولم تدرس القيادة التركية قضية الدفاع عن العراق ولم تعد ما يلزم لها من تحصينات وأسلحة دفاعية ولم تجر أية مناورات أو جولات أركان في العراق الجنوبي • ويبين المقدم الركن التركي مقبل بك في كتابه حرب

---

(٢) طه الهاشمي (حرب العراق) ـ بغداد ١٩٣٦ ـ ج ١ ص ٣١ •

العراق أن المقر العام التركي لم تتيسر لديه من خرائط العراق عند نشوب الحرب سوى نسخة واحدة من خريطة للعراق بمقياس (١/٠٠٠ر٥٠٠ر١) ، كما لم تتيسر سفن نهرية حربية سوى الباخرة مرمريس • أمـا سفن النقل فقد كان عددها قليلا جداً • وقد أدى نقص وسائط النقل ورداءة مستوى التدريب والتجهيز الى عدم حشد الاعداد الكافية في منطقة الخطر ، أي منطقة البصرة ، بالرغم من اطلاع القيادة التركية على وصول قوات بريطانيـة الى البحرين واحتمال الانزال في العراق ••• » [٣]

سوف نرى في فصول قادمة كيف ان القوات الانكليزية حـين غزت العراق لم تجد صعوبة في التغلغل فيه ، والظاهر ان الانكليز فوجئوا بمظاهر الضعف والانهيار السريع الذي شاهدوه في القوات التركية • ففـي أربعة وثلاثين يوماً استطاع الانكليز أن يحتلوا منطقة شط العرب كلها بما فيها البصرة ووصلوا القرنة • وقد غرهم ذلك فأخذوا يتمادون في توغلهم فـي الاراضي العراقية شيئاً فشيئاً • وكلما ازدادت هزائم الاتراك تجاههم ازدادوا هم من جانبهم في التوغل وفي توسيـع حركاتهم العسكرية • ولم تنته السنة الاولى من الحرب حتى كانوا على مقربة من بغداد ، وكادوا يحتلونها لولا الخطأ الذي وقعوا فيه من جراء غرورهم واستهانتهم بقـوة عدوهم • وكان الاتراك عندئذٍ قد بدأوا يتلافون خطأهم فجاءوا بامدادات كثيرة وأنزلـوا بالانكليز ضربة قاصمة •

كان من سوء حظ العراق أن تقع القيادة البريطانية في أخطاء قد لا تقل في سوء عواقبها عن أخطاء القيادة التركيـة • الواقع ان الانكليـز عندما أرسلوا حملتهم الى مصب شط العراق في البداية لم يكونوا يقصدون فتح العراق كله ، بل كان جل مقصدهم حماية حقول النفط في عبادان ، ولهذا كانت الحملة التي أرسلوها صغيرة جداً لا تزيد عن لواء مختلط واحد يبلغ عدده (٤٥٠٠) جندي ، ولو كان الجانب التركي متيقظاً لفشلت حركة الانزال حتماً وانتهت بكارثة •[٤]

---

(٣) شكري محمود نديم (حرب العراق) ــ بغداد ١٩٦٧ ــ ص ١٦ •
(٤) المصدر السابق ــ ص ١٨ •

معنى هذا أن الحملة الانكليزية كانت في بداية أمرها أصغر من ان تستطيع احتلال العراق ، وهي انما اندفعت في التوغل من جراء الانتصارات الاولى التي نالتها تجاه الاتراك . فكانت تلاحق الاتراك بعد كل موقعة ، وكان قائدها يلح على حكومته ، عقب كل نصر يناله ، أن تسمح له بالتقدم نحو بغداد.[٥] ولو أن الانكليز كانوا قد استعدوا منذ البداية استعدادا كافياً لسقطت بغداد في أيديهم خلال السنة الاولى ولربما سقطت الموصل أيضاً بعد مدة قصيرة .

خلاصة الامر أن سلسلة المعارك الطاحنة التي شهدها العراق خلال سنوات الحرب الاربع نشأت من جراء الاخطاء التي وقع فيها الاتراك والانكليز معاً . ولقد كانت أخطاء الاتراك هي السبب المباشر لأخطاء الانكليز ، فالاتراك أهملوا في البداية مقتضيات الدفاع عن العراق مما أغرى الانكليز على التوغل في العراق دون أن تكون لهم القوة الكافية . وكانت عاقبة هذه الاخطاء المتقابلة أن عانى أهل العراق طيلة سنوات الحرب الشيء الكثير من الويلات والكوارث . وقد ينطبق على العراق في تلك الحالة المثل المعروف : «بين حانه ومانه ضاعت لحانا !» .

بلاء التجنيد :

ذكرنا في الفصل الاول كيف أن الجنود الاتراك بدأوا يفرون من صفوف الجيش منذ أواخر عام ١٩١٦ ، وهنا يجب أن نذكر ان الجنود العراقيين سبقوا اولئك بمدة طويلة اذ هم بدأوا يفرون منذ يوم اعلان النفير العام وظلوا كذلك حتى نهاية الحرب . ان الجنود الاتراك قد اعتادوا على توالي الاجيال أن يقاتلوا في سبيل دولتهم وهم موقنون أنهم يجاهدون في سبيل الله . أما العراقيون فقد اعتادوا على معاداة الدولة وهم يعتبرون التجنيد كالضريبة يجب التهرب منه بكل وسيلة تقع في أيديهم .

من طريف ما يروى في هذا الشأن ان كلمة « سفر برلك » التركية

---

(٥) متى عقراوي (العراق الحديث) ـ ترجمة المؤلف ومجيد خدوري ـ بغداد ١٩٣٦ ـ ص ٣٠ .

التي تعني نفير الحرب تحولت على ألسنة العامة في بغداد الى كلمة أخرى مناقضة لها في المعنى وهي : «سفر علك» أي حرب الهرب ! والواقع ان هذه الكلمة أصبحت طيلة أيام الحرب شعاراً لكل الرجال الذين وقعت عليهم «قرعة» التجنيد ، فهم لم يكادوا يسمعون طبول النفير تدق في الشوارع حتى تركوا دكاكينهم وأعمالهم وذهبوا الى بيوتهم يختفون فيها ، وعندما صارت بيوتهم غير كافية لاخفائهم بدأوا يبحثون عن أماكن أخرى للاختفاء فيها ، وقد تنكر الكثير منهم بملابس النساء ، أو التجأوا الى العشائر والجبال .

صار الناس يتعاونون في مساعدة الذين يريدون الفرار وفي تضليل الباحثين عنهم من رجال الحكومة ، وعندما يسمع الناس عن شخص أخبر الحكومة عن أحد الفارين أو تعاون معها في القبض عليه يعدونه جاسوساً ويحتقرونه وينبذونه اجتماعياً .

وأخذت الحكومة تشتد في ملاحقة الفارين بمقدار ما يشتد الفارون في فرارهم . فكان رجال الدرك ــ أي الجندرمة ــ وجنود الانضباط العسكري يتعقبون الفارين في كل مكان ، يطرقون عليهم البيوت ويطاردونهم من فوق السطوح ومن خلال أشجار البساتين ، وحين يعجزون عن القبض على أحد منهم يلقون القبض على أبيه أو أخيه ولا يطلقون سراح أحد منهما الا بعد أن يسلم الفار نفسه . ولعل من المناسب أن أذكر أن والد كاتب هذه السطور كان من جملة الفارين عند اعلان النفير ولم يسلم نفسه الا بعد أن القوا القبض على أبيه الذي كان يومذاك قد تجاوز الثمانين من عمره .

وعندما كثر الفرار من صفوف الجيش أصدر أنور باشا وزير الحربية أمراً باعدام نصف الفارين المقبوض عليهم وسوق النصف الآخر الى ساحة القتال . [7] وفي أواخر شباط من عام ١٩١٥ جرى في بغداد أول اعدام من هذا القبيل وكان لرجل يهودي اسمه يامين بن يعقوب من محلة قنبر علي.

---

(٦) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) ــ بغداد ١٩٥٦ ــ ج ٨ ص ٢٥٧ .

(٧) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) ــ بغداد ١٩٢٥ ج ١ ص ١٣٤ .

وذكر المؤرخ عباس العزاوي : انه كان من بين الذين شهدوا الاعدام ورأى الجنود المكلفين باطلاق الرصاص على الرجل لم يضربوه في موضع قتال من بدنه وقد عوقبوا على ذلك بالرياضة حتى كادوا يهلكون •[٨] ثم أخذت مشاهد الاعدام تتتابع في بغداد حيناً بعد حين •

لم ينج من بلاء التجنيد سوى الذين كانوا يحملون رعويات أجنبية • وكان الكثير من سكان العتبات المقدسة قد استعدوا لمثل هذا اليوم منذ زمان طويل فحصلوا على الرعوية الايرانية ونجوا ، أما الذين ظلوا متمسكين برعويتهم العثمانية فقد نالهم الويل • أعرف شخصاً من أهل الكاظمية كانت قد عرضت عليه الرعوية الايرانية من قبل فرفضها ، وقد شكرته الحكومة العثمانية على فعله هذا ومنحته «فرماناً» تقديرياً ، وفرح هو بهذا «الفرمان»، ولم يدر أن ذلك سيكون بلاءاً عليه وعلى أولاده في يوم من الايام •

وقد نجا من بلاء التجنيد أبناء الاسر الغنية وأولي النفوذ ، فقد عين هؤلاء بتأثير الوساطة أو الرشوة في وظائف عسكرية بعيدة عن ساحات القتال كمخازن الجيش والمستشفيات وغيرها • أشار كامل الجادرچي في مذكراته الى أن أسرته بذلت جهوداً لتخليصه من دورة ضباط الاحتياط بحجة أن صحته لا تساعده على حمل السلاح ، فأدخل دورة صحية ليتخرج منها جندياً يخدم في المستشفيات،[٩] وقد تم له ذلك فنجا من أخطار الخدمة العسكرية المسلحة • ومن الممكن القول أن كثيرين من أمثال كامل الجادرچي نجوا من الموت بهذه الوسيلة •

ومما يلفت النظر أنه في الوقت الذي كان فيه العراقيون يفرون من التجنيد ذلك الفرار العجيب كانت الحكومة تدعي أنهم يقبلون على التجنيد بشوق وحماس بدافع حبهم الشديد للوطن • نشرت جريدة «صدى بابل» البغدادية في ١٣ أيلول ١٩١٤ مقالاً يبدو أنه موحى به من الحكومة ، هذا نصه :

« لما صدرت الأوامر السنية بالحشد العام استقبل العراقيون هذه

---

(٨) عباس العزاوي (المصدر السابق) ــ ج ٨ ص ٢٧٧ •

(٩) كامل الجادرچي (من اوراق كامل الجادرچي) ــ بيروت ١٩٧١ ص ٤٧ •

الاوامر بملء السرور والبشاشة حباً باقامة الوظائف الوطنيـــة لانهم يعلمون جيداً أن الوطن مقدس وواجب على كل فرد من أبنائه المخلصين الصادقين أن يقوموا بحق هذا الواجب الذي هو ضربة لازمة ولا مندوحة عن التأخر عن القيام باتمام هذه الوجيبة التي لا يعفى منها فرد ، وعليه فقد شمروا الساعد عن الحضور الى الدوائر الرسمية لقيد أسمائهم بحماسة ملية وطنية كأبنـــاء غيورين ، على أن منهم وهم المقتدرون من أدى البدل النقدي الاحتياطي بكل طيب خاطر وقرة عين ، ومنهم من أحصى نفســـه بين الافـــراد الذين يحملون السلاح للذب عن حياض الوطن فكنت ترى الافراد يتقاطرون كالسيل المنهمر الى دائرة الرديف بقلب مفعم من الحب نحو وطنهم العزيز ومناصرة لدولتهم العلية ايدها الله ، ولم يتخلف حتى الساعة أحد أو أشهر العصيان . وهـــذا مما يذكر للعراقيين في اخلاصهم لدولتهم وتفانيهم في حبها وحب وطنهم . وعليه فلم نقصد بهذه العبارة سوى أن نثني على غيرة أبناء الوطن الـــكرام ونحمد اخلاصهم لدولتهم التي تحرص على حفظ كيانهم وحقن دمائهم وصيانة أعراضهم ولا غرو اذا كان هذا الحب متبادلاً بين الدولة ورعيتها لأن الدولة كالام الحنون والرعية كالابناء المخلصين السريرة لهذه الأم الشريفة الجليلة يقابلونها باضعاف ما يمكنهم من العون وفاءً لما عليهم من الواجب » .

التفسخ الحكومي :

كان التفسخ سائداً في الدوائر الحكومية في العراق كما هو معروف ، فلما أعلن النفير العام كان ذلك سبباً في استفحال التفسخ واتساع نطاقه . فان التجنيد الاجباري ومصادرة الاموال من أيدي الناس باسم « التكاليف الحربية » قد استغلهما الموظفون والضباط لاستدرار الرشوات من النـــاس بوسائل شتى .

أعطانا محمد طاهر العمري في كتابه « مقدرات العـــراق السياسية » صورة واضحة للتفسخ الذي ساد الاجهزة الحكومية في العراق أثناء الحرب، وكان هو معاصراً لها وقد شهدها بنفسه فقال : ان الكثـــير مـــن الموظفين العسكريين والمدنيين اتخذوا حالة الحرب وسيلة لاستدرار المنافـــع بشتـــى اشكالها ، وقد ظهر من بينهم من اختلس وملأ جيوبه بالرشوات والهدايا عن

طريق الاستيلاء على الاموال والحيوانات تحت عنوان «التكاليف الحربية» ، وفيهم من ارتشى عن طريق معاملات التجنيد حيث يؤجل من يشاء بأنواع الحيل بينما هو يسوق الفقير الى ميدان القتال ، وكان ضباط التجنيد والاطباء يأخذون الرشوات لقاء معاملة كاذبة أو كشفه طبي مزيف . وقد سمعت من رجل موثوق أن أحد موظفي التجنيد بدّل شخصاً هارباً من الخدمة العسكرية بشخص آخر بريء وقد أعدم هذا رمياً بالرصاص عوضاً عن ذلك الشخص الهارب وهو يستغيث فلا يغاث . ولا تسأل عن موظفي الشرطة والدرك وعن اختلاساتهم من القرويين المساكين والكثير من أهل المدن اذ هم كانوا يحلبونهم حلب البقرة فلا يقضون حاجة لاحد الاّ بعد أن يرتشوا منه بكل ما يمكن . ولا يدخل شرطي أو دركي في قرية الا ويملأ جيوبه من الدراهم ، وهو يعلم أنه غير مسؤول عن سوء تصرفه لان رئيسه يفعل أكثر منه . وقد اشترك الكثير من الموظفين العسكريين والمدنيين مع بعض التجار فاحتكروا المواد الغذائية وغيرها وجنوا الارباح الطائلة وصار الفقراء ألعوبة بأيديهم . (١٠)

ويعطينا عبدالعزيز القصاب في مذكراته صورة أخرى عن التفسخ الحكومي ، وقد كان القصاب في السنة الاخيرة من الحرب قائمقاماً في قضاء الزيبار في المنطقة الشمالية ، فهو يقول : ان رجلاً كان يتولى القائمقامية قبله بالوكالة اسمه سامح بك ، فكان يذهب مع موظفيه وقوة من الدرك الى القرى لجمع «التكاليف الحربية» ، فكانوا يدخلون البيوت يجمعون ما يجدون فيها من الحبوب والسمن والعسل والدبس والزبيب ، ويضعون ذلك كله خارج القرية ، ثم يباشرون في بيع قسم منه الى أهل القرية نقداً ، وما يتبقى منه يرسلونه الى مخزن الحكومة في مركز القضاء بعد أن يأخذ الموظفون نصيبهم منه . وكان موسى كاظم مدير المال في مركز القضاء يتصرف بالمخزن مستغلاً أمية مأموره الذي كان في الثمانين من عمره . يقول القصاب ان المطلعين أخبروه بأن الموظفين هؤلاء أثروا ثراءاً فاحشاً من جراء الاعمال التي قاموا بها باسم «التكاليف الحربية» والمبايعات الاولى والثانية ، وجعلوا أهل القرى جميعاً محتاجين الى القوت حتى اضطروا

---

(١٠) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) — ج ١ ص ١٣١–١٣٤ .

الى أكل قشور جذوع الأشجار والبلوط يسلقونهـا ويشربون ماءها ، ثم انتشر بينهم مرض الانفلونزا وصار يفتك فيهم طيلة أربعة أشهر مات خلالها اكثر السكـان بسبب سوء التغذية وضعف المقاومة ، حتى لـم يبق هناك من يدفن الموتى فظلت الجثث مطروحة في أماكنها .

ويصف القصاب بعض أعمال موسى كاظم مدير المال ، فيقول : وصل في أحد الايام الى مركز القضاء ستون كرديا يحملون حصيلة « التكـاليف الحربية» فكان كل واحد منهم يحمل على ظهره أربعين كيلو من الحبوب ، وكانوا قد ساروا بأحمالهم ستة أيام قطعوا فيها جبلين مرتفعين ، ومات منهم أربعة في الطريق من شدة الارهاق . وتبين ان مدير المال اعتاد في السابق ان يخصص مبلغاً غير قليل من الليرات أجوراً لنقل الحبوب ، ولكنه لا يعطيها للحمالين بل يقتسمها هو والقائمقام السابق وأعضاء لجنة الصرف ، وكان المبلغ الذي خصصه في هذه المرة اثنتين وثلاثين ليرة ذهب ، وجاء بالقائمـة يريد من القصاب التوقيع عليها ، غير أن القصاب أخذ المبلغ ووزعه علـى الحمالين حتى الميتين منهم ، فقال له مدير المال متأسفاً : «والله يا بيك صرفت هذه الليرات في الهواء وذهبت حرام بلا لزوم ، ايش اعمل لكم ، امركم على كل حال مطاع» .

كتب القصاب الى مركز الولاية في الموصل تقريراً مفصلاً عما شاهده من مظاهر التفسخ في الموظفين وسوء الحالة التي وصل اليها القرويون من جراء ذلك ، وطلب ارسال لجنة للتحقيق ومحاكمة المجرمين ، وذكر في التقرير أنه منع الموظفين من الخروج الى القرى لجمع « التكاليف الحربية » لأن أهل القرى لـم يبق لديهم ما يعيشون به وان الحكومة هي التي يجب أن تعطيهم لا أن تأخذ منهم . ثم أعقب القصاب ذلك بتقرير آخـر ، ولكنـه لم يجد لتقريريه أي تأثير ، وسمع بعدئذٍ ان والي الموصل ممدوح بك كان يقول في مجلسه : «ان قائمقام الزيبـار شـديد على موظفيه لانهـم من غير العرب » .

ويحدثنا القصاب عن التفسخ في عقرة ، وكان قد أرسل اليها للتحقيق، فقد كان فيها رجل اسمه لطفي بك يشرف على المخزن العسكري فيها واعتاد أن يعطي وصولات بمقادير الحبوب المطلوبة من الزراع لقاء دراهـم يتفق

عليها معهم دون أن يتسلم منهم الحبوب ، وتبين من التحقيق الذي استمر عشرة أيام ان النقص في المخزن ينوف على عشرين ألف كيلو من الحنطة ، وثلاثة آلاف كيلو من الشعير ، وألف كيلو من الرز وبعض الحبوب الاخرى. وكان من نتيجة هذا التحقيق أن سيق لطفي بك مخفوراً الى الموصل وسجن فيها . وقد التقى به القصاب بعد سقوط الموصل فسأله عما جرى له ، فأجابه هذا وكانت بيده سبحة يلهو بها : « يا بيك الفلوس تخلص من الصلب » . (١١)

نصيب العراق :

الواقع ان البلاد العثمانية كلها قد عانت من ويلات الحرب مثلما عانى العراق ، ولكننا مع ذلك نستطيع أن نقول ان نصيب العراق من الويلات كان من بعض الوجوه أكبر من نصيب البلاد العثمانية الاخرى . نذكر في ما يلي أهم الاسباب التي أدت الى ذلك :

اولاً : ان الجهاز الحكومي في العراق كان أشد تفسخاً وفساداً مما كان عليه في أكثر البلاد العثمانية الاخرى ، وذلك لبعد العراق عن عاصمة الدولة من جهة ولانحطاط الاحوال الصحية والحضارية فيه من الجهة الاخرى ، فلم يكن يقبل العمل في العراق الا الموظفون المتفسخون او الذين لا يرجون لأنفسهم عملاً في مكان آخر . وكان بعض كبار الضباط والموظفين يتحملون العمل في العراق لمدة معينة طمعاً بكسب ثروة تريحهم في أيامهم المقبلة .

ثانيا : كان العراق في العهد العثماني تغلب عليه النزعة العشائرية والقيم البدوية ، ومن شأن هذه الصفة أنها تؤدي الى بغض الحكومة والنفرة من التعاون معها . لا ننكر ان هناك أقطاراً كانت أشد بداوة من العراق كنجد والحجاز واليمن ولكن هذه الاقطار لم تكن تابعةللدولة الا اسمياً اذ هي كانت تحكم نفسها بنفسها على طريقة المشيخات والامارات المحلية . أما العراق فمشكلته أنه كان عشائرياً ومحكوماً في آن واحد ، وكانت

---

(١١) عبدالعزيز القصاب (من ذكرياتي) — بيروت ١٩٦٢ — ص ١٧٨—١٨٦ .

الفجوة فيه بين الشعب والحكومة تتخذ مظاهر شتى وتؤدي الى كثير من المآسي والازمات •

ثالثاً : كان العراق خلال سنوات الحرب ميداناً لمعارك حربية شملت معظم مساحة العراق من مصب شط العرب جنوباً حتى الموصل وعانه شمالاً • ومن طبيعة المعارك الحربية أنها كالنار تحرق وتدمر • ولم يسلم من المعارك سوى منطقة الفرات الاوسط ولكن هذه المنطقة ابتليت بمعارك من نوع آخر هي المعارك العشائرية في الريف ، والمعارك المحلية في المدن ــ كما سنأتي اليه بتفصيل في فصل قادم •

رابعاً : كان الشعب العراقي من أشد الشعوب بغضاً للتجنيد الاجباري ، وقد حدثت عدة ثورات في العراق احتجاجاً على التجنيد عند تطبيقه منذ منتصف القرن التاسع عشر • ومرت على العراقيين تجربة مريرة في التجنيد في عام ١٨٧٧ حين سيق عشرة آلاف مجند منهم الى قفقاسيا فهلك اكثرهم من شدة البرد والجوع ، ومن هنا نشأت النوحية المشهورة في العراق : « أويلاخ يا دقة الغربية » • ثم جاءت في عام ١٩٠٤ تجربة مريرة أخرى حين هلك آلاف من المجندين في صحراء نجد وهي الكارثة التي اشتهرت في العراق باسم «دقة ابن رشيد » •[١٢] وعندما أعلن النفير العام في شهر آب ١٩١٤ وسيق المجندون في بغداد الى قفقاسيا أدرك الناس ان « دقة الغربية » ستحل بهم مرة أخرى • فكان النواح يسمع في كل بيت يصاب بالتجنيد ، ولا يكاد مختار المحلة يطرق الباب على بيت يدعو أحداً فيه الى التجنيد حتى يرتفع صوت العويل فيه وصراخ النساء••

والواقع ان « دقة الغربية » في عام ١٩١٤ لم تكن تقل في كثرة ضحاياها عن الدقتين السابقتين • فان معظم الذين ذهبوا اليها لم يعودوا ، وقد مات الكثير منهم من شدة الجوع والبرد ، أما الذين عادوا فكان البعض منهم مصابين بعاهات ظلت مصاحبة لهم حتى آخر حياتهم •

ولا بد في هذه المناسبة من ذكر بعض ذيول « دقة الغربية » في العراق، فقد ظل الناس سنوات عديدة بعد انتهاء الحرب يتوقعون أن يعود اليهم

---

١٢) انظر تفاصيل ذلك في الجزء الثالث من هذا الكتاب ــ الفصل الثاني •

أبناءهم الذين فقدوهم في ققفاسيا ، وكان سبب ذلك ان شائعات سرت بينهم مفادها أن بعض المفقودين قد وقعوا في أسر الروس ، وبقى أقرباؤهم يتوقعون عودتهم يوماً بعد يوم • أذكر ان الصحف البغدادية كانت بعد الحرب تنشر بين حين وآخر عرائض يطلب فيها اصحابها من الحكومة العراقية مساعدة الأسرى على العودة الى وطنهم • ولم تنفع تلك العرائض الا قليلاً لأن اكثر المفقودين كانوا قد هلكوا في جبهة القتال ، وكان من بين هؤلاء الهالكين ابن خالة كاتب هذه السطور !

طائرات فوق بغداد :

لم يكن البغداديون قبل الحرب قد شاهدوا أية طائرة ، وحين سمعوا بخبرها للمرة الاولى صاروا في دهشة لا يدرون أيصدقونه أم يكذبونه • ومن الطرائف التي تروى في هذا الصدد ان رجلاً من عقلائهم قيل له ان الافرنج اخترعوا عربة تطير في الهواء ، فسألهم : من أية مادة قد صنعت تلك العربة ؟ فأجابوه : أنها كغيرها من العربات مصنوعة من الخشب والحديد طبعاً • وعند هذا قال الرجل لهم : ان هذا أمر غير معقول • وأراد أن يبرهن لهم على صحة قوله فأشار الى مطرقة كانت بجانبه وقال : ان هذه مصنوعة من الخشب والحديد فهل يمكن أن تطير ؟! كلا وألف كلا ! ! !

ان أول ظهور للطائرة في سماء بغداد كان في ٥ تشرين الاول من عام ١٩١٥ ، ففي عصر ذلك اليوم شاهد الناس نقطة سوداء كالذبابة محلقة في السماء وهي تئز أزيزاً مرعباً • فانتشر الخوف بينهم ، وصعد «الاشقياء» ومغاوير المحلات الى المنائر وفوق السطوح العالية وأخذوا يرمونها برصاص مسدساتهم وبنادقهم بلا جدوى • وأصبحت الطائرة بعدئذ حديث الناس في كل مكان يتحدثون عنها في دهشة يخالطها الرعب •

وبعد عشرة أيام ظهرت في سماء بغداد طائرة أخرى ، وكان ذلك صباحاً ، ثم صار ظهور الطائرات يتوالى حيناً بعد حين حتى اعتاد الناس عليها وقل الخوف منها تدريجاً • لقد كان الانكليز حينذاك يقتربون من بغداد ، وكان الغرض من ارسال طائراتهم هو لاكتشاف مواقع الاتراك في جنوب بغداد والامدادات التي تصلهم من الشمال •

كان الاتراك آنذاك قد أعدوا مواقعهم الدفاعية في سلمان باك كماسنأتي اليه في فصل قادم • وفي ظهر ١٣ تشرين الثاني ١٩١٥ ظهرت طائـرة فـي سماء بغداد ثم هبطت قرب نهر ديالى بغية قطع خط التلغراف الممتـد بـين سلمان باك وبغداد ، وعند هبوطها ارتطم جنـاح منها بأحمد أعمدة التلغراف وأسرع بعض الخيالة من الاعراب فأسروا الطائرة والرجلين الذين كانا فيها• وقد قرر القائد التركي ارسال الطائرة مع الرجلين الى بغداد لعرضهـا على الناس • وخـرج البغداديـون يتفرجون على الطـائرة ويبصقـون علـى الرجلـين ••[13]

اعتبر البغداديون سقوط تلك الطائرة نصـراً باهراً مـن الله لجيـش المسلمين ، ونظم الشاعر جميل صدقي الزهاوي بعدئذٍ قصيدة طويلة أشار فيها الى سقوط الطائرة حيث قال :

وقالوا بدت طيـارة سـتصبها	قـذائف من صهواتهـا تنفجـر
أقلب طرفي في السماء فلا أرى	سوى نقطة سوداء تخفى وتظهر
نصبنـا اليها مدفعـاً فأصابهـا	وخرت على آلاتها تتكسـر[14]

وفي ١٢ كانون الثاني ١٩١٦ نشرت جريدة «صدى الاسلام» اعلاناً من قيادة المركز هذا نصه : « ان الطيارة التي غنمناها قبل بضعة أسابيع من الانكليز ستحلق في هذه الايام على البلدة وضواحيها • فلئلا يصدر خطـأ من أحد في شأنها أعلنا الكيفية ليطلع عليها العموم» • وقد كررت الجريدة نشر هذا الاعلان عدة مرات •

انقطع ظهور الطائرات في سـماء بغـداد بعـد هزيمة الانكليز فـي سلمان باك مدة طويلة تزيـد على السنة ، ثم بدأت بالظهور فـي شـهر كانون الثاني من عام ١٩١٧ وذلك عندما كانت القوات الانكليزية تعد العدة من جديد لاحتلال بغداد بقيادة الجنرال مود • ففي ظهر يوم ٢٠ من ذلـك الشهر ظهرت ثلاث طائرات فوق بغداد وألقت عليها سبع قنابل ، سـقطت أولاها على ثكنة المدفعية ـــ أي القلعة ـــ الواقعة في الميدان فقتلت فيهـا

---

(13) Russell Braddon (The Siege) — London 1969 — p. 92.

(١٤) جريدة «صدى الاسلام» في عددها الصادر في ٢٨ رجب ١٩٣٤ •

رجلاً وجرحت آخر ، وسقطت الثانية على المدرسة النعمانية قرب دائـرة البريد ، وسقطت الثالثة في النهر على مقربة من باخرة ألمانية كانت راسـية هنالك ، وسقطت الرابعة على محطة القطار في غربي بغداد ، وسقطت الخامسة على مقربة من القشلة وراء دار البلدية ـ أي أمانة العاصمة كما يسمونها الآن ـ فهدمت داراً لاحد تجار التبغ اسمه أيوب جلبي القلمجي ، وكسرت زجاج الدور المجاورة له . (١٥) وكان لسقوط هذه القنابل في بغداد أثـر شديد في أذهان الناس ، اذ كانت تلك أول مرة يشهد فيها أهل بغـــداد قنابل تنزل عليهم من السماء ، فصاروا يتراكضون لا يدرون أين يذهبـون وقد امتلأوا رعباً .

كان الالمان قد جاؤوا بطائرات من صنعهم لحماية بغداد من الطائرات الانكليزية ، وجعلوا مقرها وراء سكة الحديد قرب محطة الكاظمية . وصار أهل الكاظمية يخرجون عصراً للتفرج عليها وهي جاثمة على الارض هنالك .

وفي عصر أحد الايام حين كان عدد من الناس قد خرجوا للتفرج جاءت طائرات انكليزية من جهة الجنوب وأخذت تلقي قنابلها على محطة القطـار وما حولها ، وقد أصيب من جراء ذلك عدد من الجنود والاهالي . وتحركت الطائرات الالمانية فارتفعت في الجو لمطاردة الطائرات الانكليزية التي سرعان ما اختفت عن الانظار .

وفي ٨ آذار ١٩١٧ ـ أي قبل سقوط بغداد بثلاثة أيام ـ مرت في سماء بغداد طائرة انكليزية متجهة نحو الشمال بمحاذاة سكة الحديد ، ثم هبطت في منتصف الطريق ما بين الدجيل وبغداد ، وأسـرع طياروهـا فوضعوا كمية من الديناميت تحت السكة لكي تنفجر عند مرور القطـار عليها، وقد علمت الحكومة بالامر فأرسلت نفراً من خيالة الدرك الى الموضع، واستطاع هؤلاء الخيالة أن يزيلوا الديناميت قبل انفجاره . (١٦)

---

(١٥) عباس العزاوي (المصدر السابق) ـ ج ٨ ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥
عبدالكريم العلاف (بغداد القديمة) ـ بغداد ١٩٦٠ ـ ص ٢٤٢ .

(١٦) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) ـ ج ١ ص ١٢٥ .

ولما سقطت بغداد أصبح منظر الطائرات في سمائها أمراً مألوفاً اعتاد الناس على رؤيته في كل يوم ، ولم يعد يثير فيهم أي استغراب أو خوف . وقد ظهرت آنذاك مشكلة أخرى غير مشكلة الخوف من الطائرات ، فقد صارت الطائرات تطير أحياناً على مستوى منخفض قريب من سطوح الدور ، وأشيع أن الطيارين يمكنهم التطلع الى النساء في داخل الدور بوساطة مناظيرهم ، وهذا معناه انتهاك حرمة النساء . وقيل ان عبدالرحمن النقيب حذر نساء بيته من السير داخل الدار من غير عباءة خشية أن تمر احدى الطائرات فيقع نظر الطيار عليهن . (١٧)

كان الناس قبل سقوط بغداد يخشون قنابل الطائرات وأصبحوا بعد السقوط يخشون نظرات الطيارين !

الصحافة اثناء الحرب :

كانت بغداد عند اعلان النفير العام تصدر فيها عدة جرائد ومجلات منها جريدة « الرقيب » لصاحبها عبداللطيف ثنيان ، وجريدة « المصباح » لصاحبها عبدالحسين الازري ، وجريدة « صدى بابل » لصاحبها داود صليوه ، وجريدة « الزهور » لصاحبها محمد رشيد الصفار ، وجريدة « الرياض » لصاحبها سليمان الدخيل ، ومجلة « لغة العرب » لصاحبها الأب انستانس ماري الكرملي ، ومجلة « الرياحين » لصاحبها ابراهيم صالح شكر .

وحين احتل الانكليز البصرة أصدروا فيها نشرة يومية باللغتين العربية والانكليزية لتنقل للقراء برقيات وكالة رويتر وأخبار الحرب ، ثم تطورت هذه النشرة فأصبحت جريدة يومية باسم « الاوقات البصرية » وكانت تصدر بأربع لغات هي العربية والتركية والانكليزية والفارسية ، فكانت جريدة عجيبة . وهي كانت في الواقع بمثابة نشرة حربية هدفها خدمة مصالح الانكليز وترويج سياستهم ، حيث امتلأت أعمدتها بمدح الانكليز وذكر عدلهم وحبهم لنشر العلم والثقافة ، وبذم الاتراك وذكر

---

(١٧) صبيحة الشيخ داود (اول الطريق) ـ بغداد ١٩٥٨ ــ ص ٩٦ .

ظلمهم وجهلهم • وقد ساهم في تحريرها كتاب عراقيون تحت اشراف ضابط بريطاني يتقن العربية هو جون فلبي الذي اشتهر في السعودية فيما بعد باسم « الحاج عبدالله فلبي » • [18]

وفي ١٩ أيار ١٩١٥ وصل الى بغداد نور الدين بك ليتولى ولاية العراق وقيادة الجيش فيه ، وقد أمر هذا الوالي الجديد باغلاق جميع الصحف الموجودة في بغداد وبنفي أصحابها الى أماكن نائية كما سنأتي اليه في فصل قادم • وقرر اصدار جريدة خاصة بالحكومة لتكون قادرة على مصاولة جريدة « الاوقات البصرية » الانكليزية وكيل الصاع لها صاعين •

أطلق على الجريدة الجديدة اسم « صدى الاسلام » ونيطت ادارة سياستها برئيس بلدية بغداد رؤوف بك الچادرچي ، وصار يساهم في تحريرها من الاتراك الدكتور حكمت ثريا بك ، ومن العرب ابراهيم حلمي العمر وخيري الهنداوي وعطا الخطيب وعبدالرحمن البناء وجميل صدقي الزهاوي ومحمود الوادي وغيرهم •

صدر العدد الاول من جريدة « صدى الاسلام » في ٢٣ تموز ١٩١٥، وقد ذكرت الجريدة في هذا العدد خطتها وهي مكونة من ست نقاط هي : (١) احكام الرابطة بين المسلمين في مشارق الارض ومغاربها ، (٢) كشف النقاب عن رياء الانكليز وهتك أسرار دول الائتلاف ــ أي الحلفاء ــ التي استباحت حرمة البلاد الاسلامية ، (٣) نشر المقالات الدينية والوطنية التي تتأيد بها عرى الوفاق والوئام بين الاقوام الاسلامية من ترك وعرب وفرس وهنود ، (٤) دحض مفتريات الاعداء الذين يتقولون على الدين والقرآن والرسول والامة الاسلامية باطلاً ، (٥) خدمة الامة العراقية ، (٦) انتقاء الاخبار الصادقة عن مختلف جبهات الحرب • وظلت جريدة « صدى الاسلام » تواصل الصدور حتى سقوط بغداد في آذار ١٩١٧ • وقد أصدر الانكليز في بغداد بعد احتلالها جريدة تنطق بلسانهم وتلهج بمدحهم أطلقوا عليها اسم « العرب » ، وسوف نتحدث عن هذه الجريدة بتفصيل في فصل قادم •

---

(١٨) رفائيل بطي (الصحافة في العراق) ــ القاهرة ١٩٥٥ ــ ص ٤٣ •

كانت هناك وسيلة أخرى للاعلام في العهد التركي بالاضافة الى الجرائد ، وهي صدور أوراق مطبوعة تحمل الاخبار الحربية المستعجلة، حيث يحملها الباعة ويركضون بها في الاسواق لبيعها وهم يصيحون : « أجانص ، أجانص » ، وهذه اللفظة مأخوذة من الفرنسية وتعنى وكالة الانباء • وقد اعتادت الحكومة أن تصدر مثل هذه النشرات عقب المعارك الحربية ، وكثيراً ما كانت تكذب فيها فتقلب الهزيمة الى نصر عظيم • وكان الناس يصدقون بها في أول الامر ثم تبين لهم أخيراً ان المقصود بها الدعاية وليس نقل الاخبار •

التجارة اثناء الحرب :

كانت التجارة العراقية قبيل الحرب تعانى أزمة ، فقد تكدست البضائع في مخازن التجار دون أن تجد من يشتريها • وعندما أعلن النفير العام في ٣ آب ١٩١٤ تفاقمت الازمة وظهر عسر مالي فبلغت الفائدة على القروض ستين بالمائة لقاء رهن الذهب • وقد أعلنت الحكومة قانون تأجيل الديون (الموراتوريوم) تقليداً للدول الاوربية ، ولم يكن العراقيون يعهدون ذلك من قبل أو سمعوا به ، وقد ساعد المدينين من التجار على تأجيل الدفع أو تقسيط الديون •

ولما دخلت تركيا الحرب في تشرين الثاني ، انقلبت الازمة التجارية الى رخاء تجاري ورواج ، فان البضائع المكدسة في مخازن التجار أصبحت مطلوبة على أثر انقطاع الطرق البحرية ، وارتفعت أسعار البعض منها ارتفاعاً فاحشاً • فقد بلغ سعر السكر سبعة أضعاف ما كان عليه قبل الحرب ، وسعر الاقمشة القطنية أربعة أضعاف ، وارتفع سعر الحزمة من ورق السيكارة من ١٢ ليرة الى ٣٥٠ ليرة ، وسعر الصندوق من صبغ النيل من ٧ ليرات الى ٣٥٠ ليرة • وقس على ذلك ما سواه • (١٩)

أخذ تجار الشام وايران وتركيا يفدون الى بغداد ليشتروا البضائع الموجودة فيها ، وبدأت الصفقات التجارية تتتابع مرة بعد مرة ، وتنتقل

---

(١٩) يوسف زرق الله غنيمة (تجارة العراق قديما وحديثا) ــ بغداد ١٩٢٢ ــ ص ١٠٢ •

ملكية البضائع من تاجر الى آخر بسرعة ، وتراكمت الارباح في أيـــدي التجار . وكانت لليهود حصة الاسد من هذا الرواج العجيب لأن مقاليـد التجارة كانت بأيديهم كما كانت مخازنهم مشحونة بالبضائع . (٢٠)

اتخذت الحكومة سياسة الشدة تجاه المضاربين والمحتكرين وأنزلت بهم عقوبات قاسية ، ولكن الارباح الضخمة كانت تغري التجار على المجازفة فلم يعودوا يكترثون للعقوبة . وصار التجار ــ ولا سيما اليهود منهم ــ يتصلون بالمراكز التجارية في الدول المحاربة عن طريق الدول المحايــدة كسويسرا واليونان وأمريكا ، فكانوا يرسلون رسائلهم أو برقياتهم الــى تلك الدول دون أن يتركوا مجالا للرقيب في أن يرتاب فيهم ، ومن هناك تبعث رسائلهم الى لندن ومانجستر وباريس ومارسليا ، فتأتي البضــائع اليهم طروداً في البريد بما خف حمله وغلا ثمنه كالأدوية وورق الســيكارة والدانتيلا والمخرمات والعطور والخردوات والزخارف وأقمشة الحــرير وغيرهـــا . (٢١)

وحين احتل الانكليز بغداد تصاعد الرواج التجاري فيها الى الدرجة القصوى . فقد أخذ الانكليز يبذلون الاموال الطائلة لشراء ما تحتاج اليه قواتهم من مواد وخدمات . فبعد ما كان الاتراك يستخدمون طريقــة المصادرة للحصول على ما تحتاج اليه قواتهم صار الانكليز يدفعون ثمـن ما يأخذونه نقداً وبالاسعار التي يفرضها التجار . وقد حدث مثل هـــذا في منطقة البصرة منذ بداية الحرب . فظهر من جراء ذلك عدد كبير مــن أغنياء الحرب في العراق ، وتراكمت الثروات لدى الزراع ورؤســـاء العشائر على نطاق واسع ، مما كان له أثره في قيام ثورة العشرين ــ كمــا سنأتي اليه في الجزء الخامس من هذا الكتاب .

غــرق بغــداد :

في أواخر تشرين الثاني ١٩١٤ عندما كانت بغداد مشغولة بحركـــة

---

(٢٠) يوسف رزق الله غنيمة (نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق) ــ بغــداد ١٩٢٤ ــ ص ١٨٢ .

(٢١) يوسف رزق‌الله غنيمة (تجارة العراق) ــ ص ١١٧ .

الجهاد أصيبت بفيضان مدمر من جراء زيادة غير اعتيادية في نهر دجلة ، ولم يكن من المألوف أن يفيض دجلة في ذلك الوقت ، فكان ذلك بلاءً جديداً أضيف الى بلاء الحرب .

كانت حكومة بغداد قد تلقت قبل هذا برقيات من الموصل تنبيء بسقوط مطر غزير هنالك ، وان زيادة في النهر غير اعتيادية قادمة في الطريق الى بغداد ، فلم تعر الحكومة أي اهتمام للامر . (٢٢) ولعلها كانت مشغولة بأمور الحرب فأهملت أمر الفيضان . وفي منتصف الليل من مساء ٢٩ تشرين الثاني حدث ارتفاع مفاجيء في مستوى النهر ، وتدفقت المياه بسرعة عجيبة حيث أحاطت ببغداد من الجهة الشرقية حول سدة ناظم باشا ، ثم وجدت المياه ثغرة في الجزء الجنوبي من السدة فاخترقتها بزخم شديد نحو محلة باب الشيخ ومقبرة الشيخ عمر . وذكرت جريدة الزوراء أسماء المحلات التي اجتاحها الفيضان بعدئذٍ ، وهي: الفناهرة والسنك والمربعة والعوينة وقهوة شكر وفضوة عرب والـكولات وبني سعيد والطاطران وزين العابدين والشيخ سراج الدين وفرج الله والخالدية والجوبة والعزات طوالات والدركزلية وخان لاوند والمعدان وقهوة حورى . وقالت الجريدة أن اهل بغداد لم يشهدوا مثل هذا الفيضان قطعاً ، وقد تخرب فيه ما يقارب ألفين دار ، واستمر ثلاثة أيام بلياليها . (٢٣)

كانت الحكومة في النهار الذي سبق ليلة الفيضان قد اعتقلت أفراد الجالية البريطانية الذين كانوا يسكنون بغداد آنذاك وحجزتهم في دار القنصلية البريطانية ، وكان من بين هؤلاء المعتقلين مهندس كبير مختص بشؤون السدود والري ، وكان يعمل رئيساً للمهندسين في شركة جاكسون البريطانية التي شيدت سدة الهندية . فجاء اليه موظف حكومي وأيقظه من نومه واركبه عربة وذهب به الى موقع الفيضان ليفحصه ويقدم للحكومة المقترحات في شأنه . وكان جواب المهندس البريطاني : ان الامر قد انتهى ولا علاج له وأنهم جاؤوا اليه بعد فوات الاوان وقد كان الواجب

---

(22) Joseph Parfit (Marvellous Mesopotamia)—London — p. 231.

(٢٣) جريدة «الزوراء» في عددها الصادر في ١٥ محرم ١٣٣٣ هـ .

عليهم أن يتخذوا الاحتياطات اللازمة منذ وصلتهم الاخبار من الموصل بارتفاع الماء هنالك ... (٢٤)

كانت تلك ليلة ليلاء لم تشهد بغداد مثلها من قبل ، فقد استيقظ الاهالي من نومهم مذعورين على أصوات استغاثة تنطلق من المحلات المهددة بالغرق ، وانطلق الكثيرون نحو مصدر الاستغاثة للمعاونة على مكافحة الفيضان ، وصار الناس يقيمون السدود الموقتة في رؤوس الازقة لمنع المياه من التدفق فيها ، وكانت الطبول تدق تشجيعاً لهم على العمل . يحدثنا عبدالكريم العلاف عن مشاهداته ليلتئذ في محلة الفضل فيقول : « وقد رأيت المرحوم الشيخ سعيد النقشبندي شقيق العلامة الشيخ عبدالوهاب النائب واقفاً بين جموع النساء والاولاد المحتشدة وهو يحثهم على حمل التراب ووضعه على السد الذي أقيم ، وأذكر أنه ألقى خطبة ارتجالية لم أتمكن من ضبطها ، وقد بكى وأبكى الناس ، وحمل التراب بجبته ، ولما رآه الناس وهو يحمل التراب أستماتوا على السد ، والطبول تضرب ، والصراخ قائم ، والبكاء والعويل بالغان أشدهما ولكن (لا عاصم اليوم من أمر الله) فقد جرف الماء ذلك السد واندفق حتى وقف خلف مدرسة الفضل الابتدائية اليوم ... » (٢٥)

هجر الناس دورهم ، وهم يحملون أمتعتهم ، فغصت الازقة بهم وعلا ضجيجهم وصراخهم ، فلجأ بعضهم الى دور أقاربهم في المحلات التي سلمت من الغرق ، بينما لجأ آخرون الى الجوامع ، وصار جامع الشيخ عبدالقادر ممتلئاً بالناس على سعته حتى صعد الناس الى سطح الجامع ومأذنتيه . (٢٦)

كان جانب الكرخ قد سلم من الغرق ، ولهذا أخذ الكثير من سكان الرصافة يحاولون العبور الى ذلك الجانب مع أمتعتهم ، فارتفعت أجرة الحمالين كما ارتفعت اجرة وسائل العبور علماً بأن الجسر كان قد غرق في اليوم السابق . يقول الشيخ محمد رضا الشبيبي ، وكان في بغداد

---

(24) Joseph Parfit (op. cit.) — p. 231—232.

(٢٥) عبدالكريم العلاف (المصدر السابق) — ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

(٢٦) مصطفى الواعظ (الروض الازهر) — الموصل ١٩٤٨ — ص ٤٠٣ — ٤٠٤ .

ليلتئذٍ ، انه استأجر قفة واحــدة لمرة واحــدة بمجيديين ، وربما بلغت الاجرة جنيهاً . (٢٧)

استمرت زيادة النهر ثلاثة أيام ثم بدأت تخف . وأسرعت الحكومة فعزلت عزت بك الفارسي من رئاسة بلدية الرصافة ، وكأنها أرادت أن تجعل منه كبش الفداء حيث نسبت اليه بأنه كان قد أزال جزءاً من السدة التي تحمي الرصافة من الناحية الجنوبية . وقد حل رؤوف بك الچادرچي محل الفارسي في رئاسة البلدية وكالة .

بعثـــة الآلوســي :

عندما دخلت تركيا في الحرب أرادت أن تجتذب الى جانبها أمـير نجد عبدالعزيز بن سعود ، فارتأت أن تبعث اليه رجلاً من علماء الــدين له صلة حسنة به هو السيد محمود شكري الآلوسي. وفي ٢٨ تشرين الثاني ١٩١٤ غادر الآلوسي بغداد وبصحبته ابن عمه السيد علي علاء الــدين الآلوسي والواعظ المعروف الشيخ نعمان الاعظمي والضابط الحاج بكـر بك . وقد سافر الوفد الى الرياض عن طريق حلب ودمشق والمدينة ومكة، ومن مكة رحل الوفد الى الرياض على ظهور الابل ، وكان في استقبالـه هناك جمع حاشد من أهالي الرياض وأعيانها .

عندما بدأ الحوار مع ابن سعود في الرياض أخذ أعضاء الوفـــد يذكرون له كيف ان الدولة العثمانية المسلمة في حرب حياة أو موت مـع الكفار الذين يريدون القضاء عليها ، وأن الواجب الشرعي يقضي على ابن سعود وعلى المسلمين كافة الاخذ بناصرها والوقوف الى جانبها في هـــذه الحرب . وصار ابن سعود يجاري أعضاء الوفد ويماريهم بما عرف عنه من دهاء ولباقة . انهم لم يكونوا يعلمون بما كان بين ابن سعود والانكليز من صلة وثيقة ، وهو لم يعلن ذلك لهم طبعا بل تظاهر على العكس من ذلــك بانه من أشد الناس حرصاً على نصرة الدولة العثمانية ، وأنه يفديها بروحــه وأولاده وكل ما يملك ، ولولا بعض الموانع لما تأخر عن نصرتها ساعة واحدة.

---

(٢٧) من مذكرات محمد رضا الشبيبي ـ نقلا عن مجلة « البلاغ » الكاظمية ـ العدد الخامس ـ السنة الرابعة .

يصف محمد بهجت الاثري الحوار الذي جرى بين ابن سعود وأعضاء الوفد فيقول ما نصه : « وعقد الجانبان في ظلال الآصرة الاسلامية العامة وعلاقة الود الروحية الخاصة اجتماعات درست فيها مطالب الدولة التي يحملها الوفد ، والحالة الناشئة من هذه الحرب في البلاد العثمانية ، ولا سيما العراق ، في ضوء الحقائق وممكنات القدرة المجدية دون العواطف ، اذ كانت العواطف لا تغني وحدها في مواطن الجد والشدائد ، وانتهت بان شارك الأمير الوفد في هذا الشعور الاسلامي النبيل الذي حمله على قصده الى هذه الشقة القصية من الأرض ، وما ينبغي للمسلم من نصرة أخيه اذا ضامته الشدائد ، مؤكداً أن تدينه يأمره بذلك ويحضه عليه ، وسجاياه العربية تملي عليه نسيان ثاراته عند الدولة العثمانية في ساعة العسرة ، وأنه لن يصدر منه نحوها في محنتها الا الصفاء ، وود لو يتاح له أن ينضم اليها . لكن ما يراه من قوة أعدائها وضعفها المتمثل في عجزها عن امداد جيوشها فضلاً عن امداده بما يضمن له التغلب ، يفرض عليه التزام الحياد ، لأن دخوله في الحرب ينتهي الى تقويض امارته الصغيرة الناشئة ولا يفيد الدولة العثمانية شيئاً .

« واقتنع السيد الآلوسي بحجته ، ووثق بما اكده له من الحياد التام وعدم الانضمام الى الانكليز بوجه من الوجوه . فهذا الموقف — كما رآه السيد الآلوسي — هو نفسه فوز أيضاً للدولة لا شك في ذلك ، وهو اذا لم يستطع أن يجلب النفع لها فلا أقل من أن يضمن لها درء الضرر عنها ، ودرء الضرر ضرب من المنافع في حد ذاته » . (٢٨)

يبدو من هذا القول ان الآلوسي الذي شد الرحال الى الرياض من أجل اقناع ابن سعود بوجهة نظر الدولة العثمانية استطاع ابن سعود أن يقنعه بوجهة نظره . انه بعبارة اخرى انما ذهب لاجتذاب ابن سعود الى جانب الدولة العثمانية ولكن النتيجة كانت على الضد من ذلك حيث تمكن ابن سعود بدهائه أن يجتذب الآلوسي الى جانبه . ويخيل لي أن ارسال

---

(٢٨) محمد بهجة الاثري (محمود شكري الالوسي) — القاهرة ١٩٥٨ — ص ٩٣ — ٩٤ .

الآلوسي لمفاوضة ابن سعود كان كمثل ارسال ابي موسى الاشعري لمفاوضة عمرو بن العاص عقب معركة صفين .

يعلق خيري العمري على بعثة الآلوسي هذه فيقول : ان الآلوسي كان رجل علم أنفق عمره بين الكتب ولم يكن دبلوماسياً ، ولهذا اخفق في مهمته التي أرسل من أجلها الى ابن سعود ، وقد عاد بعد فشله الى تلاميذه يعلمهم ... (٢٩)

ومن الجدير بالذكر أن الآلوسي عندما مر بدمشق هو وأصحابه في طريق عودته الى بغداد أخذ خصومه يوغرون عليه صدر جمال باشا حيث قالوا له : ان الآلوسي هو الذي زين لابن سعود الامتناع عن الانضمام الى الدولة العثمانية ضد الانكليز وأوحى اليه بالتزام الحياد . وقد صمّ جمال باشا اذنه عن سماع هذه التهمة لما كان يعهده في الآلوسي من الصدق والاخلاص (٣٠)

وصل الآلوسي الى بغداد في ١٢ نيسان ١٩١٥ ، والظاهر ان حكومة بغداد لم تكن راضية عنه ، وظلت علاقته مع الحكومة غير حسنة حتى آخر أيام الاتراك في بغداد . والمظنون ان ابن سعود أراد أن يعوض للآلوسي عما حدث له من أجله فأبرق الى الانكليز على أثر سقوط بغداد يسألهم عن حالة الآلوسي ، فكان ذلك سبباً لاهتمام الانكليز بالآلوسي وأرادوه أن يتولى منصب الافتاء ، غير انه رفض . (٣١)

كان الاتراك قد ارسلوا محي‌الدين ابن عبدالرحمن النقيب الى افغانستان لنفس الغرض الذي أرسلوا له الآلوسي الى الرياض . وقد غادر محي الدين بغداد في ١٩ آذار ١٩١٥ . ثم عاد الى بغداد بعد مدة ، ولا ندري مبلغ نجاحه في مهمته . وأرجح الظن أنه كان كالآلوسي خائباً .

---

(٢٩) خيري امين العمري (شخصيات عراقية) بغداد ١٩٥٥ ـ ج ١ ص ١١ .
(٣٠) محمد بهجة الاثري (اعلام العراق) ـ القاهرة ١٩٤٥ هـ ـ ص ١٠٦ .
(٣١) محمد بهجة الاثري (محمود شكري الآلوسي) ـ ص ٩٦ ـ ٩٧ .

الفصل الرابع

بواكير الحرب في البصرة

عندما أعلنت تركيا حالة النفير العام في ٢ آب ١٩١٤ بدأت الاخبار تتسرب الى القناصل البريطانيين في البصرة وبوشهر والمحمرة بأن الاتراك مزمعون على دخول الحرب الى جانب ألمانيا قريبا وأنهم يعدون العدة لذلك . وفي شهر ايلول ابرقت وزارة الحربية التركية الى الامير عبدالعزيز بن سعود في الرياض تعلمه أنها أرسلت اليه الاسلحة والضباط لتدريب أتباعه البدو استعدادا لشن الهجمات المحلية على الانكليز أو على المتعاهدين معهم في سواحل الخليج ، وقد أرسل ابن سعود نسخ البرقيات التي وصلته الى المقيم الانكليزي في الخليج .(١)

وأرسلت دائرة الاستخبارات الانكليزية في بوشهر شاباً افغانياً الى البصرة ليتجسس لهم عن استعدادات الاتراك فيها ، وحين وصل الشاب الى البصرة تظاهر بأنه من المتحمسين لنصرة الاسلام والدولة العثمانية ، واتصل بالمسؤولين الاتراك يسألهم عن احتمال قيام حركة للجهاد في افغانستان ، فأجابه الاتراك : ان في النية ارسال جيش الى الهند عن طريق افغانستان وان من الممكن أن يساهم الشاب نفسه في اثارة الناس الى الجهاد هنالك . وقد سمح الاتراك للشاب بالتجول في المعسكرات التركية ، واستطاع هو أن يكتشف المواضع السرية للمدافع التي نصبها الاتراك بالتعاون مع الالمان على شواطىء شط العرب . ثم تسلل الشاب عائدا الى بوشهر قبل اعلان الحرب باسبوعين ، وكانت المعلومات التي جاء بها ذات قيمة كبيرة للانكليز نفعتهم عند انزال حملتهم في شط العرب بعدئذ . (٢)

وفي ٢٩ ايلول وصل الى شط العرب مركب حربي انكليزي اسمه

---

(1) Arnold Wilson (Loyalties) — London 1936 — vol. 1 , p. 6.

(2) Joseph Parfit (Marvellous Mesopotamia) — London — p. 87.

« اسبيكل » ، فألقى مراسيه تجاه قصر الشيخ خزعل في المحمرة قريباً مـن مصب نهر كارون • فاعترض قائد حامية البصرة صبحي بك على ذلك وكانت حجته أن المركب يرسو في المياه الاقليمية العثمانية • وفي يوم ٧ تشرين الاول ذهب ضابط تركي الى المركب وهو يحمل اليه خطاباً ينتهي بالعبارة التالية : « يرجى مغادرة شط العرب في غضون أربع وعشرين ساعة » • فأجابه قـائد المركب بأنه لا يستطيع مغادرة الشط الا باذن من وزارة الحربية البريطانيـة• ثم اتصل القائد بالوزارة فجاءه الامر منها بأن يدخل في نهر كارون مسافة نصف ميل ليكون في نطاق المياه الاقليمية الايرانية • وبعد اسبوع من ذلك أعلم صبحي بك القنصل البريطاني في البصرة بأن المركب يجب أن يغـادر شط العرب في غضون ثمانية أيام وان أية محاولة منه للمرور في الشط بعد انقضاء المدة المقررة ستجابه بالقوة المسلحة • وشرع الاتراك بعد تقديم هـذا الانذار يقومون ببعض الاستعدادات العسكرية التي كان بحارة المركب قادرين على رؤيتها بوضوح • فقد نصب الاتراك المدافع على ساحل الشط المقـابل للمحمرة وأخذت السفن التركية تمخر نحو الجنوب وهي مليئة بالجنود •

أرسل صبحي بك مذكرة الى الشيخ خزعل يطلب فيها السماح لجماعة كبيرة من الجنود الاتراك أن يذهبوا متنكرين الى المحمرة فيتخذوا مواقعهم سراً على سطوح البيوت المشرفة على المركب • وكانت خطة صبحي بك هي أن تبدأ المدافع المنصوبة على ساحل الشط بقصف المركب ، فاذا أجاب المركب على القصف فان الجنود الكامنين فوق سطوح البيوت سيفاجئون المركب باطلاق النار عليه ، وبذا قد تقع فيـه مذبحة غير مرتقبة ، فيأتي الجنود بعدئذ ويصعدون الى المركب حيث يقتلون كل من يتصدى لهـم فيه ويستولون عليـه • وختـم صبحي بك مذكرته الى الشـيخ خزعـل بقوله : « ان هذه فرصة ممتازة لشيخ المحمرة يمكن أن يقوم فيها بخدمة ثمينة للحكومة التركية » • وحين وصلت المذكرة الى الشيخ خزعل أرسلها الى قائد المركب [٣] ، على نحو ما فعل ابن سعود قبله •

وفي منتصف الليل من مساء ٣١ تشرين الاول تلقى قائد المركب برقية

---

(3) Barker (The Neglegited. War) — London 1967 — p. 36—37.

مفادها أن الحرب أعلنت على تركيا ، وأوعز اليه بأن يقوم بحماية المصالح والممتلكات البريطانية في المحمرة وعبادان ، وأن يطمئن الشيخ خزعل بشأن الاجراءات التي ستتخذ لهذا الغرض • وبعد يومين انساب المركب تحت جنح الظلام نحو شط العرب فألقى مراسيه تجاه قرية سيحان الواقعة على بعد ثلاثين ميلاً من الفاو ، ثم أرسل قائده رهطاً من جنوده الى الساحل لقطع خط التلغراف الممتد بين الفاو والبصرة • وفي ٦ تشرين الثاني انساب المركب نحو مصب شط العرب(٤) حيث التقى هناك بعد يومين بالحملة القادمة لغزو البصرة فساعدها بمدافعه — كما سنأتي اليه •

مفاوضة السيد طالب :

كان السيد طالب النقيب قبيل الحرب أقوى شخصية في منطقة البصرة ، وكان هو والشيخ خزعل والشيخ مبارك على صلة بالانكليز ويعملون على نشر الحركة القومية في العراق • وعند دخول تركيا الحرب كان الانكليز يأملون من السيد طالب أن يقف الى جانبهم على نحو ما فعل صاحباه ، ولكن أملهم هذا خاب •

كان بولارد يتولى القنصلية البريطانية في البصرة قبل الحرب ، وحين دخلت تركيا الحرب غادر هذا الرجل البصرة واتخذ مقره في المحمرة حيث نزل في دار الحاج ريّس ، ثم أرسل سراً الى السيد طالب يدعوه الى مقابلته في المحمرة • وقد استجاب السيد طالب لدعوته ، فركب زورقاً بخارياً أوصله الى مقر الشيخ خزعل في المحمرة ، ومن هناك ذهب بصحبة خزعل لمقابلة القنصل البريطاني بولارد •

لا نعلم على وجه اليقين ماذا كانت طبيعة المحادثة التي جرت بين السيد طالب والقنصل البريطاني ، فالمصادر الانكليزية تعطينا عنها صورة تختلف عن الصورة التي يرويها سليمان فيضي الذي كان يومذاك أمين سر السيد طالب وأحد أعوانه المخلصين • يقول سليمان فيضي في مذكراته : ان القنصل قدم للسيد طالب اقتراحاً خلاصته أن يقدم السيد طالب للانكليز

---

(4) Arnold Wilson (op. cit.) — vol 1, p. 8.

حميع المساعدات الفعلية لاحتلال البصرة مقابل تعهد الانكليز له بنصبه حاكماً عاماً في ولاية البصرة ، وتعيين موظفين عراقيين في جميع دوائرها ، وجعل اللغة العربية لغة رسمية فيها ، مع بعض الامتيازات الخاصة به وبأسرته • وقد طلب السيد طالب من القنصل مهلة للتفكير في الأمر ، وعاد الى البصرة • وبعد يومين ذهب الى المحمرة مرة ثانية وهو يحمل رده على مقترحات القنصل حيث قال له بصراحة : ان البلاد العربية ترغب في التخلص من نير الاستعمار التركي لكي تعيش مستقلة لا لتبتلي باستعمار جديد ، ولذلك فانه — أي السيد طالب — يتعهد باعلان الثورة على الاتراك مستعيناً بالضباط والجنود العرب وبالعشائر العراقية دون تدخل من الجيش الانكليزي ، وليس على الانكليز الا أن يمدوه بالسلاح والمال والطيارات والفنيين فقط • واذا تم اخراج الاتراك من البلاد تؤسس فيها دولة مستقلة دستورية تحت حماية الانكليز • ويقول سليمان فيضي : ان الحكومة البريطانية قابلت هذه المقترحات من السيد طالب بالرفض وأصرت على مقترحاتها الأولى • فأرسل السيد طالب رأيه النهائي يقول فيه : « اني لا أوافق على ذلك بتاتاً واني سأعاضد الترك مهما كلف الأمر » •(٥)

ان هذه الرواية التي أوردها سليمان فيضي في مذكراته لا يمكن أن تكون خالية من المبالغة على أي حال • فهو لا بد قد سمعها من السيد طالب ، وان من طبيعة من يتحدث عن نفسه أن يبالغ في ذكر الجانب المحمود من أفعاله وأقواله ويغض النظر عن الجانب المذموم منها • وقد ذكرت المس بيل صورة عن محادثة السيد طالب مع القنصل البريطاني يمكن اعتبارها الوجه الآخر منها • فهي تقول : ان السيد طالب تعهد لنا بأن يقوم بثورة عربية لقاء اعترافنا به أميراً في منطقته ، فأرسلنا اليه الرد بوساطة الشيخ خزعل أشرنا عليه أن يبقى في البصرة ويتعاون لترويج مصالحنا مع شيخ المحمرة وشيخ الكويت وابن سعود ، ووعدناه باعفائه من الرسوم الحكومية عن بساتين نخيله ، وبحمايته من الاتراك ، وبالمحافظة على

---

(٥) سليمان فيضي (في غمرة النضال) — بغداد ١٩٥٢ — ص ١٨٩—١٩٠ •

الامتيازات الوراثية له ولوالده النقيب . وهنا توقفت المفاوضات ...[٦]

لم تذكر المس بيل السبب الذي أدى الى توقف المفاوضات بينهم وبين السيد طالب ، ولكن ويلسون اشار الى السبب بصورة غير مباشرة حيث قال : ان السيد طالب أخذ يفاوضنا بوساطة شيخ المحمرة ولكن مطامحه كانت شخصية الى أبعد حد فلا تصلح أن تكون أساساً للبحث .[٧]

لعبـة السيد طالب :

في الوقت الذي انقطعت فيه المفاوضات بين السيد طالب والانكليز وصل الى علم السيد طالب ان الاتراك ينوون الفتك به ، فقد أخبره أحد أصدقائه بأن جاويد باشا أرسل رسالة سرية الى صبحي بك يأمره بها أن يداري السيد طالب ويتظاهر له بالود والامتنان ريثما تصل القوات التركية الى البصرة ليتم القاء القبض عليه .

يبدو أن السيد طالب أصبح في موقف حرج لا يدري ماذا يفعل ، فقد كان الاتراك يحقدون عليه وينوون الانتقام منه من جهة بينما كان الانكليز من الجهة الأخرى يطلبون منه القيام بمجازفة لا يعرف مغبتها . ومن الممكن القول ان السيد طالب لم يكن واثقاً كل الثقة من انتصار الانكليز في الحرب ، فأراد اتخاذ موقف الانتظار ليعرف أي جانب سينتصر فينضم اليه .

كان لدى السيد طالب شفرة تلغرافية خاصة به للمخابرة مع أنور باشا ، فقرر الاستفادة منها للذهاب الى ابن سعود والبقاء عنده فترة من الزمن ، ثم يرى رأيه بعدئذٍ فيما ينبغي أن يفعل . ولجأ السيد طالب من أجل ذلك الى حيلة بارعة ، حيث نراه يعد برقية مزيفة تبدو كأنها مرسلة اليه من أنور باشا في اسطنبول وفيها يطلب أنور باشا من السيد طالب أن يسافر الى نجد لاقناع ابن سعود بمعاونة الدولة العثمانية .

وأخذ السيد طالب بالتعاون مع نفر من أعوانه يمثلون أدوار المسرحية

---

(٦) المس بيل (فصول من تاريخ العراق الحديث) ــ ترجمة جعفر الخياط ــ بيروت ١٩٧١ ــ ص ٥ .

(7) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 1, p. 18.

بحيث تبدو كأنها طبيعية : فبينما كان السيد طالب جالساً في ديوانه في صباح أحد الايام دخل الخادم عليه وهو يحمل اليه البرقية المزيفة ، وتناول السيد طالب البرقية وفض غلافها أمام الحاضرين ثم ناولها الى المحامي عمر فوزي لكي يحل رموزها ويقرأها علناً . ولما قرأها المحامي أيقن الحاضرون كلهم بأنها برقية حقيقية من أنور باشا . وشاع خبر البرقية في البصرة ، وانطلت الحيلة على المسؤولين فيها وصدقوا بها تصديقاً لا شك فيه بحيث أن صبحي بك جاء الى السيد طالب وعرض عليه خدماته .

وفي عصر ٥ تشرين الثاني ١٩١٤ غادر السيد طالب البصرة ومعه أمين سره سليمان فيضي المحامي ، وقد خرج لتوديعه الوالي وقائد الحامية وجمع غفير من الأهلين والموظفين . وحين وصل السيد طالب الى منطقة «الرافضية» القريبة من الزبير حيث كانت ركائبه تنتظره انضم اليه عبدالوهاب المنديل والشيخ أحمد الابراهيم وعبدالكريم الدخيل وعبدالعزيز المكنزي والضابط توفيق الحموي ونحو أربعين رجلاً بين جمال وخادم وطباخ وسائس .

يروي سليمان فيضي في مذكراته : ان الانكليز أرسلوا الى السيد طالب قبل مغادرته « الرافضية » رسولاً يحمل رسالة سرية حيث يتعهدون له فيها أن يجعلوه حاكماً عاماً مدى الحياة على المنطقة التي يحتلونها من العراق مقابل التزامه الحياد أثناء الحرب ، فكان جواب السيد طالب : « اني أرفض كل اقتراح من هذا القبيل ، وقد عزمت على السفر الى نجد ، فابحثوا عمن يعينكم على استعمار بلاده ، واعلموا ان الذي لا يرضى بحكم الاتراك اخوانه في الدين حري به أن يأبى حكم الانجليز» .(٨) ولا ندري هل هذه تمثيلية أخرى من السيد طالب أم ان الانكليز فعلوا ذلك حقاً ؟!

وصل ركب السيد طالب الى الجهرة القريبة من الكويت في صباح ٧ تشرين الثاني ، فكان في استقباله هناك الشيخ جابر الصباح ولفيف من آل الصباح ووجهاء الكويت . ثم دخل الركب الى الكويت ، ونزل في

---

(٨) سليمان فيضي (المصدر السابق) ــ ص ١٩٢ .

قصر الأمير الشيخ مبارك الصباح • ويحدثنا سليمان فيضي في مذكراته عن المحاولات العديدة التي حاول بهـا القنصل البريطاني في الكويت الكولونيل كيرى اقناع السيد طالب بقبول الاقتراح الانكليزي الأخير ، وكيف قابل السيد طالب تلك المحاولات بالاصرار على الرفض • وقد قدم الانكليز في النهاية اقتراحاً من نوع آخر هو أن يؤخذ السيـد طالـب الى الباخرة الراسية قرب الفاو والتي كانت تحمل السر برسي كوكس فيبقى فيها مع كوكس ريثما يتم احتلال البصرة ، وعند هذا يدخل الرجلان الـى البصرة سوية فيكون السيد طالب حاكماً عاماً فيها بينما يكون كوكس الى جانبه ممثلاً للحكومة البريطانية • وقد رد السيد طالب على هذا المقترح الجديد قائلا : « انه لو جرى ذلك حقاً لكانت وصمـة شنيعة وجريمـة وطنية لا تغتفر »•

ويقول سليمان فيضي : ان شيخ الكويت اختلى بالسيد طالب فـي محاولة أخيرة لاقناعه ، وانه حين وجد السيد طالب مصراً على الرفض ألح اليه بأنه سيمنعه من مغادرة الكويت ، فقال له السيد طالب محتداً : «كنت الى الآن أدعوك بعمي ، أما الآن فأقول لك يا مبارك ، اذا منعتني من الخروج الى الكويت فأطلق من مسدسي هذا طلقتين تستقر الأولـى في رأسـك والثانية في رأسي » • فخرج الشيخ مبارك من الغرفة ونادى سليمـان فيضي قائلا له : «تعال احضر معنا وشوف رأي صاحبك المجنون !» •[9]

خرج السيد طالب مع ركبه من الكويت أخيراً متجهاً نحو بلدة بريدة التي كان الأمير ابن سعود فيها • وقد وصل الركب اليها فـي صباح ١٨ تشرين الثاني وكان في استقبالهم بعض أنجـال الأمير ووزرائه وزهاء ثلاثمائة فارس ، وحين وصلوا الى قصر الأمير كان الأمـير عند الباب لاستقبالهم ، فصعدوا الى القاعة الكبيرة ليشربوا القهوة •

امتلأت الفسحة امـام القصر بالجماهير ، وقام الفرسان السعوديون بعرض ألعابهم البارعة ، وطلب السيد طالب اذناً من الامير بالسماح لسليمان فيضي بالقاء كلمة على الجماهير المحتشدة وقام سليمان فألقى خطاباً ارتجالياً

---

(٩) المصدر السابق ـ ص ١٩٣ •

كمـا يلـي :ـ

« سيدي الامام الاعظم ، سادتي الحضار الكرام ـ السلام عليكم ورحمة الله ، وبعد فقد جئنا من البصرة نحمل اليكم تحيات أهلها ، ونعبر عن آمالهم الكبار بشهامتكم الاسلامية ونخوتكم العربية . لقد هاجم الانجليز البصرة بلد اخوانكم في الدين قاصدين احتلالها وفرض الرق والعبودية على سكانها ، وهذا لا شك مما لا ترضاه حميتكم الدينية . فالنجدة يا آل يعرب ، والنخوة النخوة يا بني عدنان وقحطان . أغيثوا من استجار بكم من اخوانكم وأبناء عمومتكم ، وادفعوا عنهم كيد الكائدين وبطش المستعمرين . ان المسلمين في مشارق الارض ومغاربها كالجسم الواحد اذا تألم منه عضو تألمت له سائر الاعضاء ، فأملي وطيد في أنكم ستتألمون لما أصاب اخوانكم أهل البصرة ، فتهبون لنصرتهم وتسارعون الى نجدتهم ، ان الله في عون المرء ما دام المرء في عون أخيه » .

وعندما وصل سليمان فيضي في خطابه الى هذا الحد نهض الامير ابن سعود وهتف بأعلى صوته : « لبيك .. لبيك ! » فقال سليمان فيضي : « جزاكم الله خيراً انه لا يضيع جزاء من أحسن عملاً والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » . (١٠)

لا حاجة بنا الى القول ان ابن سعود حين هتف « لبيك .. لبيك » انما فعل ذلك من باب الدهاء واللباقة السياسية ، فهو في حقيقة أمره يبغض الدولة العثمانية ولا يريد نصرتها ، وهو يعلم ان السيد طالب مثله في هذا الشعور تجاه الدولة . فكان كل من هذين الرجلين يظهر أمام الجمهور غير ما يبطن ، ولكن ابن سعود كان داهية بينما كان السيد طالب ذا كبرياء وقد تسيطر عليه العاطفة أحياناً فتدفعه الى غير مصلحته .

مكث السيد طالب وأصحابه في بريدة بضعة أيام ، وقد تظاهر ابن سعود خلال تلك الايام بكتابة بعض الرسائل الى الشريف حسين في مكة يستشيره في أمر معاونة الدولة العثمانية بحجة أنه يخشى أن يحتل الانكليز موانيه في الخليج وهو يريد من الشريف أن يرشده بحكمته في هذه القضية

---

(١٠) المصدر السابق ـ ص ١٩٥ .

الشائكة . ولم ينتظر ابن سعود وصول الجواب اليه من الشريف ، بل أعلن فجأة بأنه قرر السفر بجيشه الى العراق لانجاد الدولة العثمانية . وأسرع السيد طالب فأبرق الى أنور باشا وطلعت باشا في اسطنبول يبشرهما بقرار ابن سعود ويطلب منهما تجهيز جيشه بالمؤون والاسلحة .

وفي ٢٨ تشرين الثاني تحرك ابن سعود بجيشه نحو العراق ، ومعه السيد طالب وأصحابه ، فكان يسير في كل يوم أربع ساعات ثم يستريح في الخيام حتى اليوم التالي . وقد أدرك السيد طالب أن ابن سعود لم يكن جاداً في زحفه وأنه انما كان يقصد كسب الوقت ريثما تنجلي المعركة المتوقعة بين الاتراك والانكليز في منطقة البصرة .

وفي ٤ كانون الاول عندما وصلوا الى موضع يدعى « الزلفي » وصلتهم رسائل من البصرة تخبرهم باحتلال الانكليز لها ، فاجتمع ابن سعود مع السيد طالب وأصحابه وذكر لهم عقم المحاولة التي يحاولونها بعد هزيمة الجيش العثماني واقترح توقف الزحف في مكانه ، فوافقوا على اقتراحه. وعرض ابن سعود على السيد طالب أن يجعله أميراً على الاحساء فرفض السيد طالب هذا العرض شاكراً .

وتم الاتفاق أخيراً أن يسلم السيد طالب نفسه الى الانكليز بشرط أن ينقله هؤلاء الى بومبي ويضمنوا له حرية العيش والتنقل فيها . وكتب ابن سعود رسالة في ذلك الى السربرسي كوكس . وقد حمل سليمان فيضي الرسالة الى كوكس في البصرة . وفي ٩ كانون الثاني ١٩١٥ ركب السيد طالب من الكويت باخرة انكليزية أقلته الى بومبي . ووصف سليمان فيضي حالة السيد طالب في الكويت قبل ركوبه الباخرة فقال : « وجدت طالباً في هذا اللقاء غير طالب الذي عهدته من قبل ، فقد كانت معنوياته منهارة ، وقد ساورته الهموم وانتابته الوساوس ، فاختفت تلك القوة الكامنة وراء نظراته ، وتضاءلت تلك الصلابة المتناهية في شخصيته . فرثيت في سري لحاله ، وعصف بي الالم ، وتمنيت لو استطعت التسرية عنه ... » (١١)

(١١) المصدر السابق ــ ص ١٩٥ .

الحملة الانكليزية :

في ١٦ تشرين الاول ١٩١٤ — أي قبل دخول تركيا الحرب بخمسة عشر يوماً — تحركت من بومبي قافلة من البواخر وهي تقل حملة انكليزية تقدر بلواء واحد متجهة نحو الخليج العربي •

كانت الحملة بقيادة الجنرال ديلامين ، وكانت الاوامر السرية التي يحملها هذا القائد هي أن يذهب في أول الامر لحماية مصافي النفط وأنابيبه الموجودة في عبادان ، فاذا اعلنت الحرب بين تركيا وبريطانيا وجب عليه أن يعمل لاحتلال البصرة ، وعند هذا ستوافيه الامدادات اللازمة •

وصلت الحملة الى البحرين بعد سبعة أيام من مغادرتها بومبي ، ومكثت راقفة في مياه البحرين بضعة أيام في انتظار الاوامر من الهند • ولم يسمح ديلامين لجنوده بالنزول الى الشاطيء ، بل أمرهم بالبقاء في بواخرهم حرصاً على الكتمان • وقد علم ديلامين أثناء ذلك أن رجلاً ألمانياً في البحرين على وشك أن يرسل تقريرا الى القنصل الالماني في بوشهر يخبره بوصول الحملة الإنكليزية وعدد جنودها ، فأمر ديلامين بألقاء القبض على الرجل ومصادرة التقرير الذي أعده قبل أن يتمكن من ارساله • (١٢)

وفي ٣٠ تشرين الاول وصلت الى ديلامين برقية لاسلكية من الهند تخبره بتوتر الحالة في تركيا وقرب دخولها الحرب ، فأمر بالتحرك نحو الشمال • وفي ٢ تشرين الثاني وصلت الحملة قرب الكويت فأرسل ديلامين أحد ضباطه بزورق بخاري الى أمير الكويت ليستعلم منه عن وضع قلعة الفاو وعدد جنودها وما هو الموضع المناسب لانزال الجنود فيها • فكان جواب الامير : أن أفضل موضع لانزال الجنود هو الهور الواقع في الجهة الغربية من الفاو ، وقد عاد الضابط من الكويت بهذا الرأي الى ديلامين غير أن ديلامين لم يأخذ به لاعتبارات عسكرية ارتآها • (١٣)

وفي ٣ تشرين الثاني وصلت الحملة الى الحاجز الرملي الموجود في

---

(12) Barker (op. cit.) — p. 41.

(13) Moberly (The Campaign In Mesopotamia) — London 1927 — vol. 1, p. 106.

مصب شط العرب ، فكان في انتظارها هناك المركب الحربي « أودين » •
وفي صباح ٦ منه بدأ الهجوم على قلعة الفاو حيث أخذ المركب « أودين » يمطرها بقنابله فأسكت مدافعها الاربعة في خلال ساعة واحدة • وشاء القدر أن تصيب أحدى القنابل قائد الحامية اليمباشي برهان الدين فقتلته حالاً ، وكان ذلك سبباً في انهيار معنوية جنوده فأطلقوا سيقانهم للريح • لقد كان هذا القائد يسكن البصرة وجاء الى الفاو في هذا اليوم بالذات ليتولى عمله فكان أجله فيه • (١٤)

تم احتلال الفاو من غير صعوبة في الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والاربعين من عصر اليوم نفسه ، وفي اليوم التالي تحرك ديلامين بقواته صعداً في شط العرب بعد أن ترك سرية من جنده في الفاو لحمايتها • وحين وصل الى « السنية » ـــ وهي موضع يقع تجاه عبادان على بعد ستة عشر ميلاً من الفاو ـــ أمر بانزال الجنود فيها •

لم يصل خبر سقوط الفاو الى البصرة الا بعد مدة غير قصيرة ، وذلك لانقطاع خط التلغراف بين البلدتين • وقد وصل الخبر أخيراً بوساطة الموظفين الهاربين من الفاو ، فأسرع صبحي بك عند ذلك مرسلاً الى موقع السنية قوة تعدادها أربعمائة جندي بقيادة اليوزباشي سامي بك • وقد علم الشيخ خزعل أمير المحمرة بأمر ارسال هذه القوة فاخبر ديلامين به • وفي فجر ١١ تشرين الثاني قامت القوة التركية بهجوم على ديلامين ولكن هذا كان مستعداً لها بعد اخبار خزعل له بها ، فتكبد الاتراك في هذه المعركة ثمانين قتيلاً ، ثم انسحبوا الى موقع يقال له « سيحان » وهو يبعد عن السنية بأربعة أميال •

وفي ١٤ تشرين الثاني وصلت الى السنية سبع عشرة باخرة انكليزية محملة بالجنود ، فتم بذلك تكوين فرقة عسكرية كاملة • وقد جاء مع البواخر قائد أعلى رتبة من ديلامين هو الجنرال باريت ، فأصبح ديلامين تحت أمرته • ولم يكد باريت يتسلم القيادة حتى وصلته برقية من حكومة الهند هذا نصها : « ليكن هدفك البصرة ، فاذا رأيت بعد تبادل الرأي مع

---

(14) Barker (op. cit.) — p. 42.

ديلامين ان القوة التي لديك كافية فعليك بالتوجه اليها ... » (١٥)

معركـة كـوت الزين :

تقع قرية كوت الزين على الشاطىء الايمن من شط العرب مقـابل المحمرة تقريباً ، وكان الاتراك قد اتخذوا مواقعهم الى الجنوب منها على خط طويل محاذي للشاطىء يبلغ طوله زهاء ثلاثة أميال ، وحشدوا فيه حوالي أربعة آلاف وخمسمائة جندي . وفي ١٧ تشرين الثاني وقعت هناك معركة ضارية بين الانكليز والاتراك ، وهي المعركة التي عرفت في المصادر التركية باسم « معركة الساحل » .

لدينا مذكرات لضابط بغدادي كان من جملة الاسرى الذين وقعوا في قبضة الانكليز على أثر تلك المعركة ، هو محمد رؤوف السيد طه الشيخلي ، وهي مذكرات لا تخلو من أهمية تاريخية واجتماعية على الرغم من اسلوبها الركيك . وقد رأيت من المناسب هنا أن انقل شيئاً من هذه المذكرات بعد اجراء بعض التحوير على اسلوبها للتوضيح :

يقول الشيخلي : انه كان مع فوجه في البصرة في صباح ٩ تشرين الثاني ١٩١٤ عندما صدر الامر الى الفوج بالتحرك جنوباً لقتال الانكليز ، وكان الفوج مؤلفاً من أربع سرايا ، فتحركت سريتان منها براً ، أما السريتان الاخريان فنقلتا نهراً على سفن محلية مربوطة بباخرة ، وكان هو مع المنقولين في السفن . وعندما وصلوا الى محل يسمى قصر صالح بك ــ وهو في جنوب أبي الخصيب ــ جاءهم من يخبرهم أن العدو قريب وأنهم يجب أن ينزلوا الى الشاطىء حالا . فنزلوا الى الشاطىء دون أن يأخذوا معهم أمتعتهم ومعداتهم ، وصاروا يسيرون على أقدامهم بين البساتين متجهين جنوباً بمحاذاة شط العرب ، حتى وصلوا الى كوت الزين في المساء .

لم يكن لديهم في تلك الليلة أي طعام علماً بأنهم لم يأكلوا شيئاً منذ الصباح ، وقد استطاع بعض الجنود أن يحصلوا على شيء من الطعام خلسة من الفوج الذي وصل قبلهم . وهم كذلك لم تكن لديهم خيام يحتمون بها من برد الليل . يقول الشيخلي : ان أحد الجنود جاء يشكو

(15) Moberly (op. cit.) — vol. 1, p. 115.

اليه من شدة البرد قائلاً انه كان يستدفيء نهاراً بأشعة الشمس ، والآن بعد أن غابت الشمس ماذا يصنع ! •

وفي اليوم التالي أرسلوا بعض الجنود الى القرية للبحث عن طعام لهم ، فعادوا يحملون خصافتين من التمر الاسود المعروف هنالك باسم « سعادة » ، وصار الجنود يتلاقفون التمر كأنه اللؤلؤ • ثم واصلوا سيرهم عصراً ، ولم يكن لديهم خريطة يستهدون بها ، غير أن سامي بك عمل لهم تخطيطاً مستعيناً ببعض الافراد الذين يعرفون تلك الاراضي • ثم باتوا ليلتهم الثانية في أحد البساتين •

وفي اليوم الثالث بدأوا سيرهم من قبل الفجر حتى وصلوا الى موقع سيحان ، وكانوا قبيل وصولهم قد أرسلوا مفرزة من الجنود بقيادة ضابط اسمه تحسين افندي للتحرش بالعدو واختبار قوته ، فعادت المفرزة بعد أن قتل ضابطها ونصف جنودها ولم يعرفوا عن العدو سوى أنه أقوى منهم • ثم باتوا ليلتهم في البساتين ، وفي الصباح التالي وصلتهم اكياس من الطحين لطعامهم ، فتقاسموها بينهم بالحفنات • وأخذ الجنود يعجنون الطحين في كوفيات رؤوسهم من غير ملح ، ثم شووه على النار فوق أعواد التقطوها من البساتين •

صارت الاطعمة بعدئذٍ تصل اليهم وافرة من الغنم والرز والسمن ، كما وصلت اليهم القدور والقروانات ــ أي القصاع ــ فاخذوا يخبزون ويطبخون بعد جوع استمر خمسة أيام • وبينما هم في ذلك اذ وصل اليهم واعظ من رجال الدين من أجل تشجيعهم وحثهم على الثبات في القتال ، وبدأ يتلو عليهم الآيات والاحاديث الخاصة بذلك منها قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ، وقوله : « ان الله يحب الذين يحاربون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » ، وقول النبي : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » • فصار الجنود يتضاحكون حيث قالوا : ما هو الغرض من هذا الوعظ ونحن مستعدون للموت ولكن أين القوة ؟ ! •

مكثوا في بساتين سيحان ثلاث ليالي ، وكانت قوتهم قد بلغت هنالك ثلاثة أفواج ، ووصل اليهم ضابط برتبة مقدم لقيادتهم اسمه عادل بك • وفي

صباح ١٥ تشرين الثاني بدأ القتال بينهم وبين الانكليز •

كانوا في بداية المعركة يتراجعون من أمام الزحف الانكليزي شيئاً فشيئاً ، ثم صدر الامر اليهم أخيراً بالانسحاب الى كوت الزين وأن يحفروا خنادقهم فيها • وقد واجهتهم هناك مشكلة عويصة هي أنهم لا يملكون الادوات التي يحفرون بها الخنادق ، فشكوا أمرهم الى قائدهم عادل بك ، فأجابهم القائد مغتاظاً : : ان الارض رخوة يمكن حفرها بالقسطورة والقروانة وحتى بالاضافر • فشرع الجنود يحفرون طاعة لامر قائدهم طيلة النهار ، ولكنهم لم يتمكنوا الآ من حفر خنادق قليلة العمق تكفي للانبطاح فيها فقط ، وكان في نيتهم تعميق الخنادق في اليوم التالي غير أن العدو بدأ يتقدم نحوهم • فصدر الامر من عادل بك اليهم بأن يدافعوا عن خنادقهم « الانبطاحية » حتى النفس الاخير ، أما من ينهض منهم فالاعدام حاضر له طبعاً • وقد نشب عند ذلك قتال مرير تكبد الانكليز فيه خسائر فادحة لانهم كانوا يتقدمون في العراء مكشوفين على شكل « قدمات » يتلو بعضها بعضاً ، فكانت كل قدمة منهم تنبطح على الارض وتطلق الرصاص بينما كانت القدمة التي وراءها تتقدم الى الامام ، ثم تنبطح بدورها لتتقدم من ورائها قدمة أخرى ، وهكذا دواليك •••

وعندما وصل الزحف الانكليزي الى بعد ثلاثمائة متر منهم كان العتاد قد نفد لديهم ، كما نفد صبرهم أيضاً • ولما أصدر عادل بك أمره اليهم بأن يقاتلوا بالسلاح الابيض لم يطيعوا أمره وأخذوا يفرون ، ولكن فرارهم هذا كان كارثة عليهم لانهم حين خرجوا من خنادقهم صاروا عرضة لنيران العدو فهلك أكثرهم • أما من بقي منهم في الخنادق فقد وقع في أسر الانكليز ، وكان من بين الاسرى محمد رؤوف الشيخلي والقائد عادل بك ، فأخذ الانكليز سيف الشيخلي بينما أبقوا لعادل بك سيفه •

يروي الشيخلي : أنه بعد وقوعه في أسر الانكليز سأله أحد ضباطهم بلهجة التعجب : « هل أنت عربي ؟ ! » ، وكان يقصد من سؤاله أن يقول : اذا كنت عربياً فلماذا تقاتل من أجل الاتراك • فأجابه الشيخلي قائلا بأنه عثماني • وفي اليوم التالي جاء ضابط انكليزي آخر يتكلم التركية بذلاقة وتبين أنه بولارد الذي كان قنصلاً في البصرة ، وأخذ يناقش الشيخلي

ورفاقه من الضباط الاسرى حول دخول تركيا الحرب ، وأخذ يشرح لهم كيف كان من الأفضل لها أن تبقى على الحياد ، فجادله الاسرى في هذا الموضوع وكان رأيهم ان دخول تركيا الحرب أولى من وقوفها على الحياد .

ثم سيق الأسرى بعدئذٍ نحو باخرة راسية في شط العرب ، وقد مروا في طريقهم بالقائد الانكليزي الجنرال باريت فوجدوه جالساً على الارض فوق بطانيات فرشت له وبين يديه أوراق ودفاتر وخرائط كثيرة وهو منهمك في النظر فيها . ثم وصل الاسرى الى الباخرة حيث احتجزوا فيها عشرين يوماً وهي واقفة في الماء لا تتحرك . ثم نقلوا بعدئذٍ الى باخرة أخرى أبحرت بهم الى الهند . (١٦)

سقوط البصرة :

يمكن القول ان معركة كوت الزين هي التي قررت مصير البصرة ، فقد أخذت الاشاعات الانهزامية تنتشر في البصرة على أثر تلك المعركة . والظاهر ان عملاء الانكليز وجواسيسهم كان لهم دور مهم في هذا الشأن ، فكانوا يختلقون الاشاعات ويعملون على بثها بين الناس بمختلف الوسائل ، وكان الناس من جانبهم ميالين لتصديق تلك الاشاعات كما هي عادة الناس دائما في مثل تلك الظروف .

عقد صبحي بك قائد حامية البصرة اجتماعاً في مقر الولاية بالبصرة لدراسة الموقف واتخاذ القرار المناسب ، ولما كان الوالي غائباً فقد حضر مكانه القاضي الذي كان وكيلاً عنه . وبعد المداولة أجمع الرأي على ضرورة جلاء القوات التركية عن البصرة . وفي ٢١ تشرين الثاني ١٩١٤ تم اخلاء البصرة بعد أن أغرق الاتراك ثلاث بواخر في شط العرب لسد الطريق على الحملة الانكليزية القادمة .

ولم يكد غوغاء البلدة وأبناء العشائر القريبة يسمعون بنبأ اخلاء البصرة حتى تهافتوا على مخازن الكمرك ودوائر الحكومة ينهبونها ويشعلون

(١٦) محمد رؤوف الشيخلي (مراحل الحياة) ـ البصرة ١٩٧٢ ـ ج ٢ ص ٣٢٨ـ٣٥٠ .

النار فيها . وأصبحت البلدة كلها في خطر ، فمن طبيعة الغوغاء أنهم لا يقفون في اندفاعهم عند حد ، فهم بعد انتهائهم من نهب أملاك الحكومة قد يتجهون الى نهب الاسواق ثم البيوت ، وقد يعمدون بعد ذلك الى القتل وانتهاك الحرمات .

اتفق جماعة من وجهاء البصرة فركبوا زورقاً بخارياً وتوجهوا به نحو قائد الحملة البريطانية حيث طلبوا منه الاسراع في احتلال البصرة لانقاذ اهلها من خطر الغوغاء ، وقد استجاب الجنرال باريت لطلبهم فاوعز الى المركبين الحربيين « أودين » و « اسبيكل » بأن يتحركا نحو البصرة بأقصى سرعة ممكنة . وقد وصل المركبان الى مقربة من البصرة قبيل الغروب ، وكان الدخان يتصاعد من بعض أنحاء البلدة والغوغاء منهمكين في النهب. فأطلق المركبان بعض القنابل للارهاب مما كان له أثره في انقاذ البلدة . وفي اليوم التالي وصلت طلائع الحملة وأخذ جنودها يلقون القبض على أفراد من الغوغاء ، وشنقوهم حالاً ليجعلوهم عبرة لغيرهم ، فاستتب الأمن في البلدة !

وفي ٢٣ تشرين الثاني وصل الجنرال باريت الى البصرة على رأس قواته ومعه مستشاره السياسي السر برسي كوكس . وقد جرى احتفال أمام سراي الحكومة حضره وجهاء البلدة ، وألقى كوكس باسم القائد خطابا قال فيه : ان بريطانيا قد احتلت البصرة وهي في حرب مع الحكومة التركية لكنها ليس بينها وبين الاهالي أي عداء ، ولا تضمر أي سوء تجاههم ، ونحن نأمل أن تثبت لهم بأننا حماتهم وأصدقاؤهم، ولم يبق الآن من الادارةالتركية شيء في هذه المنطقة ، فقد رفع في محلها العلم البريطاني الذي سوف تتمتعون في ظله بمنافع الحرية والعدالة بالنسبة لشؤونكم الدينية والدنيوية معاً . وقد أصدرت الاوامر المشددة لجنودي المظفرة بأن يعاملوا السكان عموماً بصداقة وتقدير تامين عند قيامهم بالواجبات الملقاة على عاتقهم . وعليكم أنتم أن تعاملوهم بالمعاملة نفسها ... (١٧)

وختم الاحتفال برفع العلم البريطاني على السراي ، وأطلقت المراكب

(17) Moberly (op. cit.) — vol. 1, p. 131.

الحربية مدافعها تحية ، وهتف الحاضرون ثلاثاً بحياة جلالة الملك • (١٨)

احتــلال القرنــة :

كان صبحي بك قد انسحب مع فلول قواته الى القرنــة وهي ذات موقع عسكري مهم في ملتقى دجلة والفرات • وفي ٢٩ تشرين الثــاني أرسل الجنرال باريت الى القيادة العامة في الهند يخبرها أنه يرغب فــي احتلال القرنة لحماية البصرة من الجهة الشمالية كما يرغب في تأسيس موقع مستحكم في الشعيبة لحماية البصرة من الجهة الغربية • وفــي ٣ كانون الاول تلقى باريت من الهند قرار الموافقة على رغبته • (١٩)

أرسل باريت قوة بقيادة الكولونيل فريزر لمهاجمة المزيرعة وهــي قرية تقع في الجانب الشرقي من دجلة مقابل القرنة • وفي ٤ كانون الاول جرى الهجوم على المزيرعة وتم احتلالها غير أن فريزر قرر الانسحاب منها لعدم توفر حيوانات النقل لتموينه ، فعاد الى قواعده مساءاً ومعه ثمانيــة وسبعون أسيراً • (٢٠) وقد ظن الاتراك أنهم هزموا القوة الانكليزية في هذه المعركة ، فقوى ذلك من عزيمتهم ، وعادوا الى المزيرعة وهم فرحون •

أعد باريت قوة أكبر من الاولى لاحتلال المزيرعة تمهيداً لاحتــلال القرنة ، وجعلها بقيادة الجنرال فراي • وفي صباح ٧ كانون الاول تحركت القوة باتجاه المزيرعة تؤيدها المراكب الحربية من النهر • وأخذت القنابل تنهال على الاتراك من البر والنهر معاً ، فحلت الهزيمة بالاتراك • وصــار الكثير من جنودهم يرمون بأنفسهم الى النهر فراراً غير أنهم لم ينج منهم الا القليل من جراء انهمار النيران الانكليزية عليهم • ومن الجدير بالذكر ان والد كاتب هذه السطور كان من بين الجنود الذين ألقوا بأنفســـهم الى النهر ونجوا ، وقد ذهب هو والذين نجوا معه الى الجبايش والتجأوا

---

(18) Barker (op. cit) — p. 47.

(١٩) شكري محمود نديم (حرب العراق) — بغداد ١٩٦٧ — ص ٢٤ •

(20) Moberly (op. cit.) — vol. 1. p. 144.

الى الشيخ سالم الخيون رئيس بني أسد فحماهم وأكرمهم اكراماً ظلوا يلهجون بذكره زماناً طويلاً .

وفي ٨ كانون الاول بعد أن تم احتلال المزيرعة من قبل الانكليز أرسل الجنرال فراي نفراً من جنوده للبحث عن موضع مناسب لنصب جسر على دجلة . وقدتم العثور على الموضع المناسب على بعد ثلاثة أميال من شمال القرنة . وفي الساعة الحادية عشر والنصف قبل الظهر عبر دجلة سباحة ثلاثة من الجنود الهنود هم : غلام نبي ونور داود وغلام حيدر، (٢١) وكانوا يسحبون معهم سلسلة من الحديد ، فأوصلوها الى الضفة الغربية ، وكان هذا تمهيداً لنصب جسر من القوارب على النهر . وحين تم نصب الجسر عبرت عليه قوة انكليزية الى الجانب الغربي من النهر .

لم يعلم الاتراك بأمر نصب الجسر الا بعد اتمامه وعبور القوة الانكليزية عليه . وأدرك الاتراك عندئذ أنهم أصبحوا في القرنة مطوقين حيث انقطع عليهم خط الرجعة . وفي منتصف الليل شوهدت باخرة تركية تتحرك من القرنة ، وتبين أنها كانت تحمل صبحي بك واثنين من ضباطه وهم قادمون ليعرضوا استسلامهم للانكليز .

وفي الساعة الواحدة من بعد ظهر اليوم التالي ـ أي في ٩ كانون الاول ـ جرى الاستسلام بحضور الجنرال فراي والسر برسي كوكس . وقد أعاد فراي الى صبحي بك سيفه اعترافا بدفاعه المجيد عن القرنة . (٢٢) ولست أدري أي دفاع مجيد أبداه هذا القائد التركي ؟ !

عند دخول الجنود الانكليز الى القرنة أصيبوا بخيبة أمل مريرة ، فالقرنة حسب الاساطير الشائعة هي موضع الجنة التي عاش فيها آدم وحواء قبل سقوطهما الى الارض ، ولكن الجنود وجدوها في غاية القذارة معظم بيوتها من طين ، وتخترقها دروب ضيقة ملتوية ، وتكثر فيها البراغيث والذباب والبعوض . وقد نظم أحدهم بيتين من الشعر في هذه المناسبة قال فيهما : اذا كانت هذه هي أرض أبينا آدم وأمنا الحسناء حواء فلا لوم

---

(21) Ibid, vol. 1, p. 149.

(٢٢) ابراهيم الراوي (ذكريات) ـ بيروت ١٩٦٩ ـ ص ١٢ .

عليهما اذن حين عصيا ربهما وأخرجا من الجنة ، واذا كانت هذه هي الجنة فكيف تكون جهنم يا ترى ؟! ▪ (٢٣)

لم تنحصر مشكلة الجنود في هذا وحده بل واجهوا مشكلة أخرى هي أن أبناء العشائر المحيطة بالقرنة أخذوا يحاولون نهب المعسكر الانكليزي بشتى الطرق ، فكان الفرد منهم يجازف بحياته فيدخل المعسكر زاحفاً تحت الاسلاك الشائكة من أجل أن يسرق شيئاً ولو كان تافهاً ▪ (٢٤)

كان احتلال الانكليز للقرنة بداية احتكاكهم بالعشائر العراقية ، وكانت هذه العشائر لا تعرف الولاء لاية حكومة مهما كانت ، لا فرق في ذلك بين حكومة الاتراك القديمة او حكومة الانكليز الجديدة ، فكل حكومة هي في نظر العشائر عدوة يجب ان تنهب ويقتل رجالها بكل وسيلة ممكنة ▪ وكان الفرد العشائري يفتخر بغزواته ضد الحكومة وبكثرة غنائمه منها ، ويعد ذلك من علامات رجولته وشجاعته ▪ وقد عانى الانكليز من هذه النزعة العشائرية طيلة سنوات الحرب ، كما عانى منها الاتراك ، على نحو ما سنأتي عليه في فصول قادمة ▪

الغليان التجاري :

كانت البصرة خلال الاشهر الثلاثة التي سبقت الاحتلال الانكليزي تعاني كساداً شديداً ، وذلك من جراء اعلان النفير العام وتوقف النقل البحري، فظلت أكداس التمور في مخازنها دون أن يتمكن أصحابها من ارسالها الى الخارج كما اعتادوا عليه في صيف كل عام ▪ فلما جاء الاحتلال قفزت أسعار التمور وراجت التجارة وحدث تضخم نقدي لم تشهد البصرة له مثيلاً في تاريخها كله ▪ يقول ويلسون : ان الطلب ازداد على العمال فهرع العرب والفرس من أقاصي الارض ، وارتفعت الاسعار بحيث بيعت أرخص أنواع التمور في كانون الاول بأسعار تفوق أسعار أفضل التمور التي كانت تصدر الى أوربا قبل اعلان الحرب ، وأخذت النقود تتدفق بحرية ▪ (٢٥)

(23) Barker (op. cit.) — p. 63.
(24) Ibid, p. 61—63.
(25) Arnold Wilson (op. cit.) vol. 1, p. 15.

ووصف يوسف غنيمة في كتابه « تجارة العراق » حالة البصرة يومذاك فقال ما نصه : « ... ان البريطانيين دخلوا البصرة وبدخولهم انفتح مجال واسع للتجارة والاعمال اذ أنهم كانوا مسيطرين على البحار وبيدهم وبيد حلفائهم مقاليد الملاحة في البحر المتوسط وبحر الهند والبحر الاحمر وخليج فارس وغيرها مما كان يسهل سبل المتاجر والمضارب في البصرة مرفأ العراق الوحيد ... وقد كانت الحملة البريطانية في حاجة الى المؤون والامتعة والمشروبات والتبغ للتدخين ، ففتح عهد زاهر للمتاجرة ، وشرع التجار يستوردون بضاعات لم يكن لها سوق في العراق ، أو كان نطاق المتاجرة بها ضيقاً ، كالمشروبات الكحولية الاوربية على انواعها ، والحليب المركز في علب ، والبسكويت والشيكولات ، والعطريات وأدوات الزينة والحلاقة ، واللحوم المكبوسة في العلب ، وقناني المخللات والرواصير ، وانواع السيكارات الامريكية ، والصابون الافرنجي على اختلاف أنواعه وغيرها وغيرها . وكلنا يعرف درجة الترف الذي عاش فيه الجندي البريطاني في العراق فضلاً عن ضباط الجيش وامرائه ، وابتياعهم الحاجيات والكماليات بأسعار مرضية . ولم يقف طلب الجيش البريطاني عند هذا الحد بل كان يبتاع غلات البلاد والبضاعات الواردة اليها من حنطة وشعير ولحم وفاكهة وسمن وبقول ووقود وخشب وحديد وملاط وزجاج نوافذ وحصران وكل أدوات البناء ، وكان يستدعي المقاولين ويعهد اليهم بأشغال خطيرة كاقامة البيوت وانشاء الطرق وبناء المستشفيات والمآوي والملاجيء ، ويبتاع الادوات الكثيرة التي يحتاج اليها الجيش . لا بل انه كان يشغل العمال كالنجارين والحدادين والبنائين والعتالين وسواهم ، وينقدهم أجوراً عالية . وكان المال يسيل من قناة السياسة الى الشيوخ والقبائل العربية ...

« فكثرة المال وكثرة طلب البضاعات والمؤون والعمال من الجهة الواحدة ، وقلة البضاعات لاشتغال المعامل في اوربة والهند لسد مطاليب الجيوش الكثيرة وقلة وسائل النقل لاشتغال المراكب بنقل الجيوش ومعدات الحرب من الجهة الاخرى ، روجت تجارة البصرة أي رواج حتى أن البضاعة الواحدة كانت تباع مراراً قبل وصولها الى المرفأ ، وذلك بنقل بواليص الشحن من يد الى أخرى ، وكانت تخلف ربحاً طائلاً كل مرة بيعت فيها .

واذا وصلت البضاعة الى المدينة يبعت على الجيش دفعة واحدة ، او ابتاعها بياعو الاشتات وأصحاب الدكاكين ولم تلبث يومها حتى تنفد . وكـانت أسواق البصرة غاصة بأصحاب الاعمال والمستفيدين من العـرب والعجم ، وكان تجارها يبعثون بأموالهم الى الاهواز ومن هناك تتوغل في بلاد ايران ، ويبتاع عرب البدو مقادير وافرة من أنواع الامتعة والسلع وينقلونها الـى القبائل الرابضة على عدوات دجلة والفرات ، وربما نقلوها الى المناطق التـي كانت تحت سلطة الاتراك حتى بغداد وما فوقها . وكنا نسمع عن ذلـك الانقلاب الاقتصادي من الغرائب والعجائب ما يذهل الالباب ويحير العقول فنعد بشائر ذلك الاثراء والرفاه من الاحاديث الفرية أو من مخترعات الخيال وتنزلها منزلة أقاصيص ألف ليلة وليلة . كيف لا يكون ذلك وكان في تلـك الانباء شيء كثير من الحقائق وأكثر منه الغلو الذي خلقته مخيلة القوم أو نشأ من تناقل الاخبار من فم الى آخر ، ومن راويـة الى ثان ، فالتفت حولهـا الزوائـــد .. » (٢٦)

اتجـاه السـكان :

من الطبيعي أن ينقسم أهل البصرة تجاه الاحتلال الانكليزي الى فئتين: فئة ترضى به وأخرى تسخط عليه . فالذين انتفعوا من الاحتلال لابـد أن يرضوا به على وجه من الوجوه ، ويدخل في جملة هؤلاء الراضين التجـار والمقاولون والعمال وأصحاب الاملاك والبساتين . انهم جنوا أرباحاً طائلـة لم يكونوا يحلمون بها من قبل ، وصاروا يقارنون بين الاتراك والانكليز ــ أولئك يصادرون أموال الناس من غيرتعويض وهؤلاء يشترونها بالثمن الغالي.

وهناك أشخاص من شأنهم أن يستقبلوا اية حكومة جديدة تأتي اليهم بالترحيب ويتزلفوا اليها ويمدحوها ، وهؤلاء هـم الـذين يسـميهم العامة « أهل الجبب » ، فلقد قامت وجاهتهم الاجتماعية على أساس التقرب مـن الحكام ومجالستهم ، واذا حدث انقلاب في نظام الحكم وجاء حكام جـدد ذهبوا اليهم يفعلون معهم كما فعلوا مع البائدين ، . فهم قد اعتادوا على هذا

---

(٢٦) يوسف رزق الله غنيمة (تجارة العراق قديما وحديثا) ــ بغداد ١٩٢٢ ــ ص ١٢٣ــ١٢٦ .

السلوك لا يجدون فيه معرة وربما افتخروا به أمام الناس •

عندما وصل الجنرال باريت الى البصرة وبصحبته مستشاره السياسي السر برسي كوكس جاء الكثيرون من وجهاء البصرة للترحيب بهما وتهنئتهما بالنصر ، وقد تظاهر الوجهاء بالفرح وأبدوا اعجابهم بالعدالة البريطانية وأخذوا يدعون الله تعالى أن يجعل راية بريطانيا العظمى ترفرف على رؤوسهم دوماً • وفي اليوم الاول من كانون الثاني ١٩١٥ أرسل ستة من وجهاء البصرة الى الملك جورج الخامس برقية بمناسبة رأس السنة الجديدة يظهرون فيها امتنانهم لادخالهم تحت رعاية الراية البريطانية •

ولم تقتصر هذه الظاهرة على وجهاء البصرة بل شملت الكثيرين من روساء العشائر القريبة من البصرة أيضاً • ذكرت المس بيل : أن أول من اتصل بهم هو الشيخ ابراهيم رئيس قرية الزبير ، فقد كانت قرية الزبير من أسواق البدو يتجمعون فيها أحيانا ، ولهذا كان ديوان الشيخ ابراهيم كثيراً ما تتردد فيه أحاديث القبائل البدوية وشؤونها السياسية ، وقد استفاد الانكليز من ذلك فائدة كبيرة لان الشيخ ابراهيم صار بمثابة عين للسربرسي كوكس ينقل اليه أخبار القبائل • (٢٧)

وكان على رأس الشيوخ الذين تعاطفوا مع الانكليز الشيخ كباشي السعد رئيس قرية « النهيرات » القريبة من القرنة ، فقد كان هذا الرجل من أوائل الذين اتصلوا بالانكليز اذ صار يتراسل معهم منذ سقوط البصرة ، ولما وصل الانكليز الى قريته نال اعجابهم بما كان يملك من لباقة وشخصية ظريفة ، فقد كان بعقاله ذي اللفات الاربع وعباءته المكلبدة ولحيته المصبوغة بالحناء يخلب أبصارهم ، وأخذ يتحدث اليهم عن بعض طرائف التاريخ المحلي وأساطيره وتقاليده ، فصار نديماً لهم يطربون لحديثه ويستشيرونه في المشاكل التي تتصل بالامور الاجتماعية في منطقته •

وقد فعل مثل ذلك الحاج عذار رئيس قرية « الهارثة » التي تقع بين البصرة والقرنة ، فهذا الرجل كان قد شارك في معركة كوت الزين الى جانب

---

(٢٧) المس بيل (المصدر السابق) — ص ٩ •

(28) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 1, 20.

الاتراك وأصيب بجراح ثم وقع في أسر الانكليز ، وأراد الانكليز ابعاده مع الاسرى الى الهند غير ان الشيخ خزعل تشفع له فأطلقوا سراحه • وأخـــذ الحاج عذار يتقرب الى الانكليز وتولى وظيفة حكومية لديهم ، وكان بذلك أول رئيس عشائري يدخل في سلك الادارة الانكليزية في العراق • (٢٨)

وعلى النقيض من هذه الفئة المتعاطفة مع الانكليز نجد الفئة الاخـرى التي كانت ساخطة عليهم ، وهي تتمثل في رجال الدين ومن يتابعهم من الاتقياء والعوام ولا سيما الذين لم يجنوا مالاً في تلك الفترة • فهؤلاء كانوا يرون في الاحتلال الانكليزي خراب الدين وفساد الاخلاق • ان عادات الانكليز ونظمهم الاجتماعية قد أثارت استنكارهم فاعتبروها مؤدية الى عواقب وخيمة في الدين والدنيا • يقول ويلسون : ان اكثر السكان في البصرة لـم تكن نواياهم حسنة تجاهنا ، وكانوا يحنون للاتراك ويمتعضون مـن انتصارنا عليهم ، فهم قد تحاشوا أساليبنا واستنكروا عاداتنا الغريبة عليهم ، فالركبات العارية التي شاهدوها في جنودنا مثلاً كانت تغيظهم وتثير تقززهم • (٢٩)

خلاصة القول ان المجتمع البصري شهد عقب الاحتلال الانكليزي انقلاباً اجتماعيا واقتصادياً هائلاً ، وقد وصف سليمان فيضي هذا الانقلاب فـي مذكراته حيث قال مانصه :

« أدى انتقال الحكم من أيـدي العثمانيين الى الانجليز الى حـدوث تبدلات جوهرية في حياة الناس ، وفي القيم الاجتماعية والسياسية للافراد ، أو بالاحرى ان الاحتلال الانجليزي للبصرة كان بمثابة انقلاب حاسم فـي مختلف نواحي الحياة فيها • فحين عدتُ الى المدينة كان الكثير من أوصافها قـد تغير ، فبرزت الى الميدان طبقة جديدة من التجـار والمتعهدين والوجهاء بالغت في الترحيب بالمحتلين الجدد وربطت مصالحها بمصالحهم ، بينمـا ناوأ المستعمر اولئك الذين أعرضوا عن التمرغ على أعتابه وربأوا بأنفسهم من التهالك على نيل مرضاته » (٣٠)

---

(28) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 1, p. 20.

(29) Ibid, vol 1 , p. 35.

(٣٠) سليمان فيضي (المصدر السابق) ــ ص ٢٠٢ •

الفصل الخامس

حركة الجهاد

بدأت حركة الجهاد في العراق في ٩ تشرين الثاني ١٩١٤ عندما كانت البصرة مهددة بخطر الغزو الانكليزي ، فقد وصلت يومذاك برقية من البصرة الى علماء الدين في العتبات المقدسة ومختلف المدن العراقية جاء فيها ما نصه : « ثغر البصرة الكفار محيطون به ، الجميع تحت السلاح ، نخشى على باقي بلاد الاسلام ، ساعدونا بأمر العشائر بالدفاع » . وقد تليت هذه البرقيات على الناس في المساجد ، ونادى المنادون بها في الاسواق ، وأخذ الوعاظ والخطباء يلهبون مشاعر الناس بخطبهم الحماسية يؤكدون فيها ان الانكليز اذا احتلوا العراق فسيهدمون مساجده وعتباته المقدسة ويحرقون القرآن وينتهكون حرمات النساء ويذبحون الاطفال والشيوخ . وصدق الكثير من الناس بهذه الاقوال فشاع الرعب بينهم .

الجهاد في النجف :

أهم ما كان يخالج ذهن الحكومة يومذاك هو كيف يمكن تحريض الشيعة للانضمام الى حركة الجهاد ، وكان أول ما فكرت فيه الحكومة في هذا الشأن هو ارسال وفد الى النجف مؤلف من بعض الشخصيات المحترمة لمحادثة المجتهدين الكبار في هذا الامر . ومما يجدر ذكره أن الشيعة لا يجيزون الجهاد الا اذا كان بأمر أو موافقة من الامام المعصوم ، غير أنهم يجيزون الجهاد في حالة تعرض البلاد الاسلامية لخطر مهاجمة الكفار لها ، وهم عند ذلك يطلقون عليه اسم « الدفاع » .

تألف في بغداد وفد من محمد فاضل باشا الداغستاني وشوكت باشا والشيخ حميد الكليدار وآخرين ، وحين وصل هذا الوفد الى النجف استقبل بحفاوة بالغة ، ثم عقد اجتماع حافل في جامع الهندي حضره الكثير من العلماء والوجهاء ورؤساء العشائر ، وخطب فيه السيد محمد سعيد

الحبوبي ، والشيخ عبدالكريم الجزائري ، والشيخ جواد الجواهري ، حيث ذكروا وجوب مشاركة الحكومة المسلمة في دفع الكفار عن بلاد الاسلام ، ثم قام مبدر الفرعون رئيس آل فتلة فألقى كلمة قال فيها : « ان الاتـراك اخواننا في الدين وواجب علينا مساعدتهم في طرد الاعداء من بلادنا » . [1]

ذهب الشيخ حميد الكليدار الى الكوفة لمقابلة كبير المجتهدين السيد كاظم اليزدي ومحادثته في أمر الجهاد . ولم تكن علاقة السيد كاظم مـع الاتحاديين حسنة اذ هو كان من دعاة « الاستبداد » بينما هم كانوا من دعاة « المشروطية » ، [2] وقد سبق للاتحاديين ان هددوه بالنفي وأثاروا سخطه، ولكن الشيخ حميد الكليدار استطاع ان يقنعه بوجوب نسـيان عدائـه للاتحاديين باعتبار ان البلاد الاسلامية مهددة بخطر غزو الكفار لها ، فوافق اليزدي على ارسال ولده السيد محمد لينوب عنـه في استنهاض العشـائر للجهاد . وفي ١٦ كانون الاول ١٩١٤ صعد اليزدي المنبر في صحن النجف وخطب في الناس حاثاً لهم على الدفاع عن البلاد الاسلامية ، وأوجب على الغني العاجز بدناً أن يجهز من ماله الفقير القوي . فكان لكلامه صـدى رددته الاطراف . [3]

غادر النجف عدد من المجتهدين مـع أتباعهم متوجهين نحو جبهـة الحرب ، وصاروا ينزلون في المدن والعشائر الواقعة فـي طريقهم بغيـة تحريضهم على الجهاد . ذكر عبدالعزيز القصاب في مذكراته ، وكان يومذاك قائمقاماً في السماوة : ان السيد عبدالرزاق الحلو كان أول المجتهدين الذين وصلوا الى السماوة في طريقه الى ساحة الحرب ، وكان معه تسـعة مـن أتباعه ، فنصب خيامه على الشاطىء الشرقي من النهر . وبعـد يومين مـن وصوله وردته برقية من الوالي جاويد باشا الذي كان في البصرة يقول فيها ما نصه : « أتوسل اليك برسول الله وآل البيت وفاطمة الزهراء أن تسرعوا

---

(١) عبدالشهيد الياسري (البطولة فـي ثورة العشرين) ـ النجف ١٩٦٦ ـ ص ٦٨ ـ ٦٩ .
(٢) انظر الجزء الثالث من هذا الكتاب ـ الفصل الرابع .
(٣) من مذكرات رضا الشبيبي ، نقـلا عن مجلـة « البـلاغ » الكاظميـة ـ العـدد الخامس ـ السنة الرابعة .

في المجيء اليّ حيث أن البصرة مهددة ونحن في ضيق شديد » فلما قرأ السيد البرقيــة هتف قائلاً : « الله أكبر ! الله أكبر ! سمعنا وأطعنا ! » ، ونادى أصحابه فأمرهم بتقويض الخيام ووضعها في السفن حالاً • يقول عبدالعزيز القصاب : أنه نصح السيد بالتريث في الرحيل لشدة الريح غير أن السيد أصر على الرحيل وقال : « يا ولدي لقد وجبت عليّ الحركــة بناءاً على الخطاب الوارد لي وان تأخري يعد عصياناً » • ثم توجه نحــو أصحابه قائلا : « أسرعوا يا أولادي » •••

ويذكر القصاب : أنه بعد مغادرة السيد عبدالرزاق للسماوة بعشــرة أيام تقريباً أخذت تتوافد الى البلدة قوافل المجاهدين من الشامية وأبو صخير والنجف ، كما وصلت اليها قوافل المجاهدين الاكراد برئاسة الشيخ كاكا أحمد • ثم وصل السيد هادي مقوطر ومعه عدد غير قليل من المجاهدين • وقد شكّل أهل السماوة الغربيون سرية من المجاهدين برئاسة الشيخ بربوتي السلمان • ولذا أطلق أهل السماوة هوستهم المشهورة وهي :

ثلثــين الجنــــة لهادينــا وثلث لكاكا أحمد واصحابه

وشــويه وشــويه لبــربوتي (٤)

وتحكى حول هذه الهوسة نكتة طريفة هي أن الشيخ بربوتي السلمان امتعض عند سماعه الشطرين الاولين منها اذ وجد الجنة تقسم الى ثلاثــة أقسام فيأخذ السيد هادي مقوطر ثلثين منها ويأخذ الاكراد الثلث الباقــي دون أن يكون للشيخ بربوتي نصيب من الجنة ، ولهذا جاؤوا بالشــطر الثالث حيث اقتطعوا له شيئا من حصــة السيد هــادي وشيئا من حصــة الاكراد ترضية لــه •

كان السيد محمد سعيد الحبوبي أشد المجتهدين حماساً للجهــاد • وفي عصر ١٥ تشرين الثاني ١٩١٤ خرج الحبوبي من النجف في موكــب يصحبه جماعة من أصحابه ، وكان قد تقلد سيفه والطبول تدق أمامه • وبعد نزوله في كثير من المدن والعشائر وصل الناصرية في منتصف كانون الثاني

---

(٤) عبدالعزيز القصاب (من ذكرياتي) ــ بيروت ١٩٦٢ ــ ص ١٠٨ ــ ١١٢ •

١٩١٥ . وكان الحبوبي أثناء مكوثه في الناصرية دائب الحركة حيث صار يتجول بين العشائر المجاورة ، ويرسل أعوانه من شبان الطلبة كباقر الشبيبي وعلي الشرقي الى العشائر البعيدة ، لحثهم على الانضمام الى حركة الجهاد. وقد وضعت الحكومة تحت تصرفه أموالاً طائلة لينفقها في تجهيز العشائر فاجتمع اليه منهم خلق كثير . وفي ١٩ شباط غادر الحبوبي سوق الشيوخ متوجهاً نحو الشعيبة ، وتابعته العشائر تحملهم مئات السفن الشراعية وهي تمخر مياه بحيرة الحمار(٥) .

الجهاد في الكاظمية وبغداد :

كان الشيخ مهدي الخالصي أشد الناس حماساً للجهاد في الكاظمية ، وقد كتب في ذلك رسالة بعنوان «الحسام البتار في جهاد الكفار» نشرتها جريدة « صدى الاسلام » بعدئذٍ على حلقات متتابعة . ولم يكتف الخالصي بهذا بل أصدر حكماً أوجب فيه على المسلمين صرف جميع أموالهم في الجهاد حتى تزول غائلة الكفار ، ومن امتنع عن بذل ماله وجب أخذه منه كرهاً . وقد اتخذ خصوم الخالصي هذا الحكم ذريعة للتهجم عليه حيث اعتبروا فتواه تأييداً لما كان الاتراك يفعلونه من مصادرة لأموال الناس باسم « التكاليف الحربية » .

دعا الخالصي علماء الكاظمية للاجتماع في غرفة الكليدار في الصحن الكاظمي للمداولة في أمر الجهاد واصدار الحكم فيه . وقد اجتمع العلماء هناك واختلفوا ، فكان رأي البعض منهم أن محاربة الانكليز هي بمثابة القاء النفس الى التهلكة وذلك لما عندهم من استعداد وأسلحة قوية ليس للمسلمين ما يقابلها . وكان على رأس القائلين بهذا الرأي السيد حسن الصدر والشيخ عبدالحسين الاسدي . والظاهر ان اكثر الحاضرين كانوا على رأي آخر حيث حكموا بوجوب الجهاد للدفاع عن البلاد الاسلامية ، وكان على رأسهم السيد مهدي الحيدري الذي كان يعد في ذلك الحين كبير علماء الكاظمية ، وقد أشاع الخصوم عنه قائلين : « ان السيد مهدي بر تقي

---

(٥) من مذكرات محمد رضا الشبيبي ــ المصدر السابق .

لكن الخالصي أغواه فهما يسعيان في اراقة دمائنا ونهب اموالنا »[٦] .

أبرق السيد مهدي الحيدري الى علماء النجف وكربلاء وسامراء يخبرهم بأنه عازم على محاربة العدو الكافر مهما كلف الامر ، ثم أوعز بعقد اجتماع عام في الصحن الكاظمي ، ولما اجتمع الناس صعد السيد مهدي على منبر أعد له وأخذ يخطب فيهم يحضهم على الخروج للجهاد . ويقال انه أرتج عليه أثناء الخطابة لكبر سنه فصعد الشيخ حميد الكليدار على المنبر الى جانبه واعتذر عنه ثم أخذ يخطب بالنيابة عنه باللغات الثلاث : العربية والتركية والفارسية .

نصبت الخيام في ظاهر الكاظمية استعداداً للسفر ، وأمست الساحة القريبة من خان الكابولي زاخرة بالناس ، وكان الفرسان يتطاردون فيها وقد شهروا السيوف بأيديهم على طريقة الحروب القديمة . وكان للشيخ تقي الخالصي ــ وهو ابن أخي الشيخ مهدي ــ دور مهم في ذلك حيث كان يمتطي فرسه في تلك الساحة وهو يصول بها ويجول رافعاً صوته بالحداء البدوي وبالدعوة الى الجهاد .

وفي يوم ١٩ تشرين الثاني ١٩١٤ ــ وكان الاول من شهر محرم ١٣٣٣ هـ ــ تجمع جمهور من شبان الكاظمية يقدر عددهم بنحو مائتين ، فساروا الى بغداد في مظاهرة مشياً على الاقدام تتقدمهم الطبول وهم يهوسون ويهزجون . وعند وصولهم الى بغداد انضموا الى الجماهير الغفيرة المحتشدة في القلعة في باب المعظم ، وصعد بعض الخطباء يخطبون في الجماهير ويثيرون حماسهم للجهاد كان منهم عبدالرحمن الكيلاني وجميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي ومحمد الخالصي ومحمد علي قسام النجفي . ثم اطلقت المدافع وارتفعت الهتافات بحياة السلطان رشاد وسقوط الانكليز .

حدثني أحد الكاظميين الذين شاركوا في تلك المظاهرة : أنهم قبيل عودتهم الى الكاظمية مروا بمحلة تحت التكية وكانت مليئة باليهود فصاروا

---

(٦) نقلا عن كتاب مخطوط للشيخ محمد الخالصي عنوانه «بطل الأسلام» واني اشكر الشيخ هادي الخالصي لاعارته الكتاب لي .

يختطفون عمائم اليهود وطرابيشهم من على رؤسهم ، وعادوا الى الكاظمية وهم يحملون تلك العمائم والطرابيش ، فجاء اليهم في اليوم التـالي دلال يهودي يعرفونه اسمه صالح فاسترجعها منهم بعد أن دفع لهم فيها ثمناً قليلاً .

وفي خلال العشرة الاولى من محرم كانت المواكب الحسينية تهـزج بأهازيج الجهاد والدعوة لنصر الدولة العثمانية . تنقل فيما يلي نماذج من من تلك الاهازيج :

سـيد مهـدي ركـن الـدين
نمشـي للجهـاد ويـاه
نمشـي بقـوتك يا ديـن
نحـرق راس مـن عـاداه

يا طارش لانكلترا وفرانسا ولروسـها
ان ما تطيع لحكمنا بالسيف نقطع روسها

حيـدر يا عزنـا وسـور لنـا
بحلـق الفـاو يحـق طـوب لنـا

وكان البغداديون لا يقلون حماساً للجهاد عن الكاظميين ، وقد بـذل الحاج داود أبو التمن أموالا كثيرة على المجاهدين . يروي علي البازركان : أنه شهد الحاج داود جالساً في مسجده في محلة « صبابيغ الآل » وقـد وضع أكوام «المجيديات» أمامه وحوله المتطوعون للجهاد وهو يسألهم عن أفراد عائلاتهم ليدفع لهم ما يكفيهم ، فقال له علي البازركان وقد هـزه هذا الموقف : « يا حضرة الحاج داود جلبي ان مثلك مثل عثمـان بن عفـان رضي الله عنه حينما جهز جيش العسرة ووضع مبلغاً عظيماً من الدراهم فـي حجر النبي فقال النبي صلوات الله وسـلامه عليـه وهو يعبث بالدراهم : اللهم اغفر لعثمان ما تقدم من ذنبه وما تأخر »[٧] .

وفي اليوم العاشر من محرم وصل الى بغداد وفد من النجف كان قـد أرسله السيد كاظم اليزدي لدعوة العشائر الى الجهاد ، وكان الوفد مؤلفاً

---

(٧) علي آل بازركان (الوقائع الحقيقية) ــ بغداد ١٩٥٤ ــ ص ٥٠ــ٥١ .

من السيد محمد ابن السيد كاظم اليزدي ، والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء ، والسيد اسماعيل اليزدي ، وبعض الطلبة من الفرس والعرب . وقد أغلق كثير من أهل بغداد دكاكينهم بغية استقبال الوفد والاحتفاء به . وعند وصول الوفد الى جانب الكرخ كان النهر فائضاً الى الحد الاقصى ،والجسر غارقاً والمطر ينهمر بشدة ، فجيء بزورق بخاري لنقل الوفد الى جانب الرصافة . وقد نزل الوفد في ضيافة الحاج داود[8] .

وفي اليوم التالي ـــ وهو يوافق ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٤ ـــ كان موعد خروج السيد مهدي الحيدري ومن معه من مجاهدي الكاظمية متوجهين الى ساحة القتال ، وكان ذلك يوماً مشهوداً في الكاظمية حيث خرج أهل الكاظمية عن بكرة أبيهم لتوديع المجاهدين ، وارتفعت الاهازيج والهوسات الى عنان السماء . وهذه كانت احدى أهازيجهم :

حجـــة الاســلام طالـــع للجهـــاد

محصن بموسى بن جعفر والجواد[9]

وصادف أن كان جانب الرصافة يومذاك قد أصيب بالفيضان المدمر ـــ على نحو ما ذكرناه في فصل سابق ـــ فسار موكب المجاهدين نحو جانب الكرخ ، وكان عددهم زهاء ثلاثمائة ، وكانت تنتظرهم هناك باخرة اسمها « حميدية » ، فحملتهم كما حملت معهم مائتين من الفرسان العثمانيين وكثيراً من الذخيرة . وسارت الباخرة بهم باتجاه القرنة ، وقد وصلت الى مقربة منها بعد مسيرة استغرقت ستة أيام .

وبعد سفر هؤلاء المجاهدين وصل الى الكاظمية عدد من علماء النجف وكربلاء كان بينهم الشيخ فتح‌الله الاصفهاني الملقب بـ « شيخ الشريعة » ، والسيد علي التبريزي ، والسيد مصطفى الكاشاني ، والمرزا مهدي الخراساني ، والمرزا محمد رضا الشيرازي ، والشيخ حسن علي القطيفي ، وغيرهم . وقد تقرر خروجهم مع مجاهدي بغداد في يوم ٩ كانون الاول.

---

(٨) من مذكرات محمد رضا الشبيبي ـ المصدر السابق .

(٩) احمد الحسيني (الامام الثائر) ـــ النجف ١٣٨٦ هـ ـــ ص ٣٣ .

وفي عصر اليوم المعين كانت ضفاف دجلة على الجانبين قد امتلأت بالجماهير ، وكانت هناك باخرة اسمها « الموصل » راسية في جانب الرصافة، فركبها مجاهدو بغداد وكان على رأسهم الحاج داود ابو التمن والسيد صادق العطار والسيد عبدالكريم الحيدري • ثم عبرت الباخرة النهر نحو جانب الكرخ حيث كان ينتظرها علماء النجف وكربلاء قرب مكتب صغار الضباط • فحملتهم الباخرة وسارت بهم نحو القرنة بين تكبير الجماهير وتهليلهم •

توزيع الاموال :

تدعي المصادر الانكليزية أن علماء الدين الذين ساهموا في حركة الجهاد في العراق انما فعلوا ذلك تحت تأثير المبالغ الضخمة التي أعطيت لهم من قبل الالمان والاتراك • وينقل موبرلي عن مذكرة للدكتور زغماير ــ وهو مبعوث ألماني أسره الانكليز في ايران واستحوذوا على مذكراته ــ يذكر فيها أن مجتهداً كربلائياً قبض من الالمان مبلغ ألفي باون وسافر الى كرمنشاه لغرض الدعوة الى الجهاد هنالك(١٠) •

نحن لا ننكر ان الحكومة العثمانية قد وضعت تحت تصرف علماء الدين مبالغ ضخمة اثناء حركة الجهاد ، ولكننا مع ذلك يجب أن لا ننسى أنهم أنفقوا تلك المبالغ كلها على تجهيز المجاهدين بالاسلحة والاغذية ، أو على تشجيعهم وترغيبهم ، ولم يأخذوا لأنفسهم منها شيئاً • والمعروف عن كبار المجتهدين الذين قادوا حركة الجهاد ، كالسيد محمد سعيد الحبوبي والسيد مهدي الحيدري والشيخ مهدي الخالصي ، أنهم لم يكتفوا بانفاق المبالغ التي وضعت تحت تصرفهم على حركة الجهاد ، بل زادوا على ذلك فانفقوا من أموالهم الخاصة أو من الحقوق الشرعية التي كانت تقدم لهم • وقيل عن الحبوبي بوجه خاص انه كان غنياً له أملاك خاصة فرهنها لكي ينفق منها على المجاهدين •

ولكن هذا لا يمنع أن يكون في حاشية العلماء وصغار المعممين من

---

(10) Moberly (The Campaign In Mesopotamia) — London 1927 — vol. 1, p. 345.

أخذ المال لنفسه على صورة من الصور . وهذا أمر طبيعي لابد من وقوعه في مثل تلك الظروف . حدثني رجل أثق به أنه كان أثناء حركة الجهاد وسيطاً بين القنصل الالماني ببغداد وأحد المعممين حيث قبض المعمم من القنصل مبلغاً لا يستهان به من الليرات الذهب ، والمظنون أنه وزع جزءاً من المبلغ على المجاهدين ووضع الباقي في جيبه .

تغيير القيادة :

على أثر سقوط البصرة والقرنة وصلت الأوامر من اسطنبول بعزل جاويد باشا من منصبه . ويبدو ان القيادة التركية العليا اعتبرته المسؤول الاول عن الهزائم التي حلت بالقوات التركية في منطقة البصرة . أو لعلها أرادت أن تجعل منه كبش الفداء اذ هي نسيت أخطاءها ووضعت اللوم كله على عاتق جاويد باشا . ومما يجدر ذكره ان جاويد باشا لم يشأ أن يسكت عن هذه الاهانة عند وصوله الي اسطنبول ، فقد أصدر في عام ١٩١٦ كتاباً عنوانه «حرب العراق» أظهر فيه الأخطاء الفظيعة التي اقترفتها القيادة التركية العليا في العراق وأسهب في ذكر معائبها وطيش المسؤولين الكبار فيها .(١١)

كان جاويد باشا يجمع في يده زمام الأمور العسكرية والإدارية معاً ـ أي أنه كان والياً وقائداً للجيش في آن واحد ـ وقد ارتأت الحكومة بعد عزله أن تفصل بين الولاية والقيادة وتجعل لكل منهما رجلاً خاصاً بها على نحو ما كانت تفعل سابقاً، فعينت سليمان نظيف بك والياً، وسليمان عسكري بك قائداً . فوصل الأول منهما الى بغداد في ٥ كانون الثاني ١٩١٥ وكان الثاني قد وصل قبل ذلك .

كان سليمان عسكري بك عند اعلان الحرب في اسطنبول وكانت القيادة العليا تستشيره في أمور العراق لأنه كان قد خدم ضابطاً في العراق قبل الحرب ، وقد ظنت القيادة أنه سيستعيد للعراق ما فقده القائد السابق ، وربما زاد عليه فتحاً جديداً . يقول الضابط الركن محمد أمين زكي في وصف هذا القائد الجديد : إن ذهنه كان مشبعاً بفكرة قذف الانكليز في

---

(١١) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) ـ بغداد ١٩٥٦ ـ ج ٨ ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .

البحر وغزو الهند ، فهو كان يفكر بالهجوم أكثر من تفكيره بالدفاع ، وكانت القيادة العليا متأثرة بآرائه •[١٢]

عندما وصل سليمان عسكري بك الى بغداد خطب أمام جمع من الموظفين والأهالي قائلاً انه سوف يدحر الجيش الانكليزي ويرميه في البحر خلال مدة وجيزة وأنه سيسترجع القرنة والبصرة ويحتل سواحل الخليج •[١٣]

وكان أول عمل قام به في بغداد أنه أوعز بقتل القاضي الذي كان وكيلاً لوالي البصرة قبيل سقوطها اذ اتهمه بأنه سبب تسليمها للانكليز • وفي صباح أحد الايام وجد القاضي مقتولاً في فندق عبدالأحد ببغداد ، وكانت الى جانب جثته ورقة مكتوب عليها : « هذا جزاء من يسلم البلاد الى العدو» •

معركة الروطة :

وزع سليمان عسكري بك قواته النظامية وقوات المجاهدين معها الى ثلاث جبهات هي الشعيبة والقرنة وعربستان ، فهو كان يأمل أن يوجه الهجوم على الانكليز من هذه الجبهات الثلاث في وقت واحد لتلتقي في المحمرة بعد الانتصار عليهم • ولكن أمله هذا كان اقرب الى الخيال منه الى الواقع ، وقيل ان قيامه بتوزيع قواته الى ثلاث جبهات أضعفها جميعاً •

كانت القوة الرئيسة قد تحشدت في الجبهة الوسطى تجاه القرنة ، وكان يقودها سليمان عسكري نفسه ، وقد اتخذت مواقعها حول «الروطة» وهي قناة تقع في الجانب الشرقي من دجلة على بعد خمسة عشر كيلو متراً من شمال القرنة ، وكانت تؤازرها جماعات كثيرة من المجاهدين من العشائر وأهل المدن برئاسة السيد مهدي الحيدري •

وفي ١٨ كانون الثاني ١٩١٥ قدم القائد الانكليزي باريت من مقر قيادته في البصرة الى القرنة لدراسة الموقف ، وقد شعر أن الوضع لا يدعو الى الطمأنينة وأن الاتراك عازمون على أمر ما ، فأوعز باعداد قوة لمهاجمة

---

(12) Moberly (op. cit.) — Vol. 1, p. 345 .

(١٣) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) ـ بغداد ١٩٢٥ ج ١ ص ١٠٢ •

موقع الروطة بغية تلقين الاتراك درساً . وفي فجر اليوم العشرين من الشهر نفسه تحركت القوة الانكليزية من المزيرعة متوجهة نحو الروطة ، وكانت المراكب الحربية تساندها من النهر . وعند شروق الشمس بدأ قصف المدافع ينهال على القوات العثمانية من النهر والبر معاً ، وقد أبدى الجنود الاتراك والمجاهدون صموداً في مواجهة القصف الانكليزي الرهيب . وكان سليمان عسكري قد حضر المعركة بنفسه وأدارها بحماسته المعهودة ولم يكترث للخطر المحيط به ، فأصيب بشظية قنبلة في ساقه نقل على أثرها الى بغداد للمعالجة.

استمرت المعركة أربع ساعات ، وقد أدرك القائد الانكليزي ان ليس هناك أي أمل في احتلال الروطة بالقوة التي كانت معه ، فأصدر أمره بالانسحاب تحت حماية المدافع من المراكب النهرية.(١٤) وفي الساعة الثانية بعد الظهر كانت القوة الانكليزية قد عادت الى قواعدها في المزيرعة .

يمكن القول ان معركة الروطة على قصرها كانت ذات أهمية تاريخية غير قليلة ، اذ هي أصبحت موضع خلاف في التقييم بين الانكليز والاتراك. فالمصادر الانكليزية تدعي ان القصد من ارسال القوة الى الروطة لم يكن من أجل احتلالها ، وان الانسحاب منها كان مقرراً منذ البداية ، وان القوة نجحت في مقصدها حيث كانت خسائر الاتراك أضعاف خسائر الانكليز.(١٥) أما الاتراك فقد اعتبروا المعركة انتصاراً عظيماً لهم وهزيمة للانكليز ، وشاع بينهم ان الجنرال باريت قد عزل من منصبه من جراء فشله في تلك المعركة .(١٦)

ولعل من المناسب هنا ذكر وجهة نظر أخرى حول تلك المعركة هي وجهة نظر المجاهدين ، ولا سيما جماعة السيد مهدي الحيدري ، فهؤلاء كانوا يعتقدون اعتقاداً جازماً بأن السيد مهدي كان السبب الاكبر في انتصار الاتراك على الانكليز لأنه كان قد نصب خيامه قريباً من ساحة المعركة وظل صامداً فيها لا يبالي بقصف المدافع مما شجع المجاهدين والقوات العثمانية

---

(14) Barker (The Neglected War) — London 1967 — p. 65.
(15) Moberly (op. cit.) — vol. 1, p. 162.
(١٦) تحسين العسكري (الثورة العربية الكبرى) — بغداد ١٩٣٦ — ج ١ ص ٥٩ .

كلها أن تصمد معه وتهزم الانكليز شر هزيمة • وفيما يلي أنقل نبذة مما ورد في ترجمة السيد مهدي بقلم كاتب سيرته أحمد الحسيني ، وهذا نصها:

« ولما أسفر الصبح صلى السيد بأصحابه صلاة الفجر ثم خرج ولداه الكريمان السيد أسدالله والسيد أحمد ليستكشفا حقيقة المكان ، فبينما هما كذلك اذ لاحت لهما طلائع العدو ، وظهرت لهما بواخره النهرية ومدافعه ومعداته الحربية ، وقد بدأ — بقوة هائلة — بهجوم عنيف مفاجيء على المعسكر الاسلامي ، في ذلك الصباح الباكر ، بشكل رهيب لا قبل للجيش العثماني بصده أو رده ، لأنهم أقل عدة من العدو ••• ثم اشتبك الجيشان، وتلاقى الجمعان ، واحتدم القتال في ذلك اليوم من قبل طلوع الشمس الى ما بعد زوالها ••• وكانت خيام السيد وأصحابه متقدمة على الجيش العثماني بنصف فرسخ بحيث كانت قريبة من العدو ، وبمرأى منه ومشهد ، فوجه اليها مدافعه ، وجعلها هدفاً لقنابله وقذائفه ، فعرض بعض أصحابه عليه — قدس سره — أن يأذن بتقويض الخيام لأنها صارت غرضاً للرمي ، فلم يأذن لهم بذلك وقال : (ان معنويات الجيش كله ستنكسر اذا قوضتم خيامنا ، وربما ظنوا بأننا قد انسحبنا عن مراكزنا ، فتضعف عزيمتهم ، وتنهار قوتهم • بل يجب أن تبقى هذه الخيام قوة للجيش ، وراية للاسلام ، وهيبة للمسلمين ، ورهبة للكافرين) • ثم قام — رضوان الله عليه — بنفسه الشريفة، كأنه الليث الهصور وهو شيخ كبير قد تجاوز عمره الثمانين ، وتقلد سيفه ، وحمل قرآنه ، وندب أصحابه ، وحثهم على الثبات ، وحرضهم على القتال ، وأمرهم بالصمود ، ودعا لهم بالنصر على الاعداء ••• وصمد —أعلى الله مقامه — كالطود الأشم ، وصار يشجع الرجال ، ويثبت الأقدام من جهة ، ويصلي لله ، ويتضرع اليه ، ويطلب منه العون والنصر من الجهة الأخرى • ونهض أولاد السيد الثلاثة كأنهم الأسود الضواري •• فلم تمض على القتال الا ساعات حتى اندحر الكافرون اندحاراً فظيعاً بعد أن تكبدوا خسائر جسيمة في الارواح والسلاح والمعدات ، وتحطمت لهم باخرة حربية ، وقيل غرق لهم مركب آخر ، وقتل من جنودهم ما يناهز الألف أو الألفين على اختلاف الروايتين ، وجرح منهم أكثر من ذلك • وأما من قتل من جيش المسلمين فلم يتجاوز عددهم الأربعة عشر قتيلا ، وأما الجرحى فلم يبلغوا

الخمسين . والعجيب في هذه المعركة ان الله سبحانه سلم السيد وأصحابه جميعاً فلم يقتل منهم رجل واحد ، ولم يجرح منهم رجل واحد ، ولم يخرق لهم خباء واحد ، رغم أنهم في قلب المعركة وفي وسط الميدان !؟.. وعد الناس هذا الانتصار كرامة عظيمة للسيد العظيم ، واعتبروا ذلك من بركات وجوده وصموده في قلب المعركة ، وبفضل حكمته العالية ، وتدبيره السديد ، ودعائه الصادق ، وبطولته النادرة ، وثباته العجيب ، وانكشف للناس سر استخارته الصائبة [١٧] ، وظهر لهم أنه مؤيد ومسدد بعناية الهية خاصة . وكان بعض العسكريين يقولون بعد هذه المعركة : اننا لما اشتد الضغط علينا من العدو هممنا بالانسحاب ، ولكننا كنا كلما ننظر الى خيام السيد قائمة بمكانها تقوى عزيمتنا ، ويشتد بأسنا ،ونستحي من الانسحاب ونقول في أنفسنا : كيف ينسحب الجيش والسيد وأصحابه المجاهدون في الميدان ».[١٨]

ويروي أحمد الحسيني ان سليمان عسكري بك عندما كان راقداً في المستشفى ببغداد بعد المعركة دخل عليه أحد رجال الدين من الموظفين في الدولة عائداً له فلما وقع نظر القائد عليه قال له وهو يهز يديه مستنكراً من قعوده عن الجهاد : « أنت ها هنا ترفل بالراحة والطمأنينة والنعيم مع أنك تتقاضي راتباً ضخماً من الدولة طيلة عمرك ، وان الامام السيد مهدي السيد حيدر يحارب بنفسه الانكليز ــ على شيخوخته وعظمته ــ وهو الآن في الصفوف الأولى ، مع أنه لم يقبل من أموال الدولة قليلاً ولا كثيراً طيلة عمره » .[١٩]

الجهاد في عربستان :

كانت منطقة عربستان ــ وهي المنطقة التي أطلق الايرانيون عليها أخيراً

---

(١٧) كان السيد مهدي الحيدري قد اعتاد على الاستخارة في اموره بوساطة المسبحة او القرآن كما هي عادة الكثير من الناس في تلك الايام . وكان صمود السيد مهدي في هذه المعركة نتيجة استخارته بالقرآن وتبين اخيرا ان استخارته كانت صائبة ! .

(١٨) (حمد الحسيني (المصدر السابق) ــ ص ٣٩ ــ ٤٢ .

(١٩) المصدر السابق ــ ص ٤٣ ــ ٤٤ .

اسم خوزستان ـ ذات أهمية كبيرة للانكليز اذ هي كانت في تلك الايام المنطقة الوحيدة في الشرق الاوسط التي تحتوي على آبار ومصافي للنفط، وهذا هو الذي دفع الانكليز الى ارسال حملتهم العسكرية الاولى نحو شط العرب بقيادة الجنرال ديلامين ، فلقد كان الغرض الاصلي من ارسال تلك الحملة هو لحماية مرافق النفط في عربستان وليس لاحتلال البصرة ، على نحو ما ذكرناه في الفصل السابق •

كان الشيخ خزعل هو الحاكم المطلق في عربستان وان كان من الناحية الشكلية تابعاً للدولة الايرانية • وفي ٩ تشرين الثاني ١٩١٤ حين كانت البصرة مهددة بالغزو الانكليزي أرسل بعض علماء النجف الى الشيخ خزعل برقية هذا نصها : « باسم الشريعة المحمدية يجب عليك النهوض والقيام واتفاقكم مع المسلمين في مدافعة الكفار عن ثغر البصرة بالمال والنفس وبكل ما تقدرون عليه • وهذا حكم ديني لا يفرق بين الايراني والعثماني • جاهدوا بأموالكم وأنفسكم ينصركم الله بحوله وقوته • بلغ هذا الحكم لجميع العشائر • عرفونا سريعاً اقداماتكم » • وقد وقع هذه البرقية الشيخ فتح‌الله الاصفهاني ، والسيد مصطفى الكاشاني ، والمرزا مهدي الخراساني، والسيد علي التبريزي ، والشيخ محمد حسين المهدي • وفي اليوم نفسه أرسل السيد محمد ابن السيد كاظم اليزدي برقية مماثلة الى الشيخ خزعل •[٢٠]

لم يهتم الشيخ خزعل بهاتين البرقيتين ، وكان رأيه ان المجتهدين الذين أرسلوهما انما فعلوا ذلك تحت ضغط من الحكومة التركية ، وأنه بصفته من رعايا الدولة الايرانية يجب عليه أن يقف على الحياد •[٢١]

وكان للشيخ خزعل علاقة وثيقة جداً بأحد علماء النجف هو الشيخ عبدالكريم الجزائري ، اذ كان يعد من مقلديه ومن أشد الناس اخلاصاً له وطاعة لأمره ، ولهذا كتب الجزائري اليه يأمره بالاشتراك في الحرب

---

(٢٠) مصطفى عبد القادر النجار (التاريخ السياسي لامارة عربستان العربية) ـ القاهرة ١٩٧١ ـ ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣ •

(٢١) مس بيل (فصول من تاريخ العراق القريب) ـ ترجمة جعفر الخياط ـ بيروت ١٩٧١ ـ ص ٧ •

الى جانب الدولة العثمانية وبتجهيز حملة من العشائر لمساعدتها ، فأجـابه الشيخ خزعل يعتذر عن القيام بذلك ويشرح له موقفه من الانكليز حيـث يستحيل عليه القيام في وجههم •[٢٢] وقد تألم الجزائري من هذا الجـواب وسخط على الشيخ خزعل وقطع علاقته معه • ويقال ان الشيـخ خـزعل حاول بعد الحرب اعادة علاقته القديمة مع الجزائري ولكن الجزائري رد عليه قائلاً « فرّق ما بيني وبينك الاسلام ! »

وعندما قامت حركة الجهاد في العراق كان صداها في عربستان قوياً، حيث تحسست بها معظم العشائر العربية هناك • ويمكن تعليل ذلك بسببين: أولا : ان العشائر كانت تبغض الشيخ خزعل لشدته فـي جبايـة الضرائب ، ولهذا فهي انتهزت فرصة الجهاد للانتقام منه ، فقد كانت حركة الجهاد في نظر تلك العشائر كأنها ثورة عليه •

ثانيا : كان السيد عيسى كمالالدين كبير علماء عربستان في ذلـك الحين ، وهو نجفي من أسرة «كمالالدين» المعروفة ، وقد استجاب لدعـوة الجهاد بحماس على منوال ما استجاب لها زملاؤه علماء النجف ، وصـار يتجول في مدن عربستان وبين عشائرها يحضهم على الانضمام الى الدعوة ، فأحدث فيهم تأثيراً غير قليل[٢٣] •

وفي أواخر كانون الثاني ١٩١٥ وصلت من العمارة قوة تركية بقيادة توفيق بك الخالدي ، فعسكرت على ضفاف نهر الكرخة على بعد عشرين ميلاً من بلدة الأهواز غرباً ، ثم جاء على أثرها مجاهـــدون كثيرون من العشائر العراقية كبني لام برئاسة غضبان البنية ، وبني طرف برئاسة عوفي بن مهاوي وعاصي بن شرهان ، وربيعة برئاسة عناية بن ماجد ، والرزقـان برئاسة قاسم بن علي • وكان في صحبة المجاهدين عدد من علمـاء الدين كالشيخ مهدي الخالصي وابنه الشيخ محمد ، والسيد محمد بن السيـد

---

(٢٢) جعفر الخليلي (هكذا عرفتهم) — بغداد ١٩٦٣ — ج١ ص ٣٧٣-٣٧٤ •
(٢٣) حسين خلف الشيخ خزعل (تاريخ الكويت السياسي) بيروت ١٩٦٥ ج ٤ ص ٣٢ •

كاظم اليزدي ، والشيخ عبدالكريم الجزائري ، بالاضافة الى السيد عيسى كمال الدين .

وكان لمجيء هؤلاء المجاهدين أثره في عشائر عربستان . ففي ٥ شباط أعلنت عشيرة الباوية التي تسكن الى الشرق من بلدة الاهواز انضامها الى حركة الجهاد، وقطعت أنابيب النفط وأشعلت النار فيها كما نهبت مخازن الشركة . وفي ٢٥ شباط ثارت عشيرة بني كعب على الشيخ خزعل حيث اتهمته بأنه حليف لبريطانيا ضد الدولة العثمانية المسلمة . وقد سيطرت هذه العشيرة على بلدة الفلاحية ونصبت عليها حاكماً من العلويين اسمه جابر السيد مشعل .[٢٤]

تحرج الوضع في المنطقة بالنسبة للانكليز ، واعترف الشيخ خزعل انه فقد سيطرته على العشائر .[٢٥] وقد استطاع الشيخ خزعل أخيراً من جمع قواته ، فأرسل قسما منها بقيادة حنظل ابن أخيه نحو عشيرة الباوية فدحرها ، كما أرسل القسم الآخر بقيادة ابنه الاكبر جاسب نحو عشيرة بني كعب فأنزل بها هزيمة منكرة .

وكان الجنرال باريت قد أرسل الى بلدة الاهواز قوة بقيادة الجنرال روبنصون ، وقد وصلت هذه القوة اليها في ١٥ شباط . وفي ظهر ٢ آذار تحرك روبنصون على رأس جنوده قاصداً ضرب القوة التركية التي كانت معسكرة في موضع يقال له « الغدير » تحت قيادة توفيق بك الخالدي . وقبل أن تشرق الشمس في اليوم التالي كان روبنصون قد وصل على بعد أربعة أميال من معسكر الاتراك، وأمر باطلاق مدافعه عليهم . ولكنه فوجيء بجموع من العشائر تنهال عليه من الجانبين . انه كان ينوي مباغتة القوة التركية ولكن العشائر هي التي باغتته . ونشب من جراء ذلك قتال عنيف تكبد فيه الفريقان خسائر فادحة . وشاع الارتباك في القوة الانكليزية ، ولم تتمكن من الانسحاب الا بصعوبة . وقد غنمت العشائر منها غنائم كثيرة كان من جملتها مدفعان أحدهما صحراوي والآخر جبلي .[٢٦]

---

(٢٤) المصدر السابق — بيروت ١٩٦٢ — ج ٢ ص ٢٥٨ .

(25) Moberly (op. cit.) — vol. 1, p. 167.

(٢٦) طه الهاشمي (حرب العراق) — بغداد ١٩٣٦ — ج ١ ص ١١٨—١١٩ .

اقترف الاتراك أثناء المعركة غلطة ساعدت القوة الانكليزية على النجاة، فقد أخذ الاتراك لشدة حماسهم يقذفون قنابلهم على العشائر التي كانت تقاتل معهم • (٢٧) ومهما يكن الحال فان أفراد العشائر أبدوا في تلك المعركة شجاعة أذهلت الانكليز • يقول موبرلي في وصفهم : ان لهم مقدرة فائقة على السرعة في التنقل والحركة ، ففرسانهم يسبقون فرساننا دائماً، أما المشاة منهم فان رشاقة أقدامهم تمكنهم من مصاولة أفراسنا ، وقد شهد ذلك ضابط هندي كان يمتطي مهراً من أمهار البولو اذ وجد أن أفراد العشائر في جريهم على أقدامهم كانوا أسرع منه ، ولولا تدخل مدفعيتنا لما استطاع الهرب منهم (٢٨) •

وعلى أثر انتهاء المعركة أعلن غضبان البنية رئيس بني لام جائزة بمبلغ من الليرات الذهب يدفعها لكل من يأتي له برأس رجل بريطاني أو هندي • وقد أدى هذا الاعلان بأفراد العشائر الى حز رأس كل جريح يقع في أيديهم طمعاً بالجائزة • ويروي ويلسون حادثة طريفة وقعت بسبب ذلك خلاصتها أن جريحاً بريطانياً أحاط به بعض أفراد العشائر وأفهموه عن طريق الاشارة أنه يجب أن يستعد لقطع رقبته ، فطلب منهم مهلة ليخلع حذاءه ، وظنوا أنه يريد أن يصلي ، ولكنه غافلهم وقذف حذاءه في وجوههم ، فأطبقوا عليه وقتلوه • (٢٩) •

أثر الجهاد في الكويت :

كان بين الشيخ خزعل والشيخ مبارك الصباح أمير الكويت صداقة متينة جداً ، وكثيرا ما كان أحدهما يزور الآخر في مقر امارته ويقضي معه أياماً • واتفق أثناء استفحال حركة الجهاد في عربستان أن كان الشيخ مبارك في زيارة صديقه في المحمرة ، فأراد ان يساعده في محنته ، فكتب الى ولده الشيخ جابر في الكويت يطلب منه ارسال قوة من حملة السلاح الكويتيين

---

(27) Barker (op. cit) — p. 67.

(28) Moberly (op. cit.) — vol. 1, p. 185.

(29) Arnold Wilson (Loyalties — Mesopotamia) — London 1936, Vol. 1, P. 29.

ليشد بهم أزر الشيخ خزعل ويرهب العشائر الثائرة عليه •

كان في الكويت يومذاك اثنان من رجال الدين يحرضان الناس على الجهاد لنصرة الدولة العثمانية هما : محمد الشنقيطي وحافظ وهبة • وعندما تلا الشيخ جابر رسالة والده على أهل الكويت امتنعوا عن تلبية طلبه ، وجاء أفراد منهم وهم يحملون مسدساتهم تحت ثيابهم وقالوا لجابر : « لا نسمع لقولك ولا نطيع حتى وان أمرت بقتلنا ،فخيرلنا أن نموت على الاسلام من أن نموت على الكفر •••» •

أخبر الشيخ جابر والده بما جرى • فتملكت الشيخ مبارك سورة من الغضب الشديد ، وكتب الى ولده يتوعد الذين حرضوا الكويتيين على عصيان أمره ويقول انه سينزل بهم العقاب الصارم حالما يعود الى الكويت • وقد خشي أهل الكويت مغبة هذا التهديد فأرسلوا الى الشيخ مبارك وفداً منهم ليعتذروا له ، ولما قابله الوفد أغلظ لهم القول وأسمعهم تأنيباً قارصاً وقال لهم : « ان أخي خزعل ليس في حاجة اليكم ، وها انكم تشاهدون بأعينكم القوة الكبيرة المتجمعة لديه ، واني لم أرد منكم رجالاً للاشتراك بالقتال ولكنني أردت سفناً لنقل ما يجب نقله من حلاله وأمواله الى الكويت اذا اقتضت الضرورة ، فعليه ارجعوا من حيث أتيتم وبادروا بارسال ما يمكنكم من السفن بأسرع ما يمكن » • وعندما عاد الوفد الى الكويت تم تجهيز ست سفن كبيرة فيها مائة وثمانون رجلاً ، وقد رابطت هذه السفن أمام قصر الشيخ خزعل فيالفيلية مدة تقارب الشهرين ثم عادت الى الكويت•

ولما عاد الشيخ مبارك الى الكويت أخيراً استدعى اليه محمد الشنقيطي وحافظ وهبة ، وقد حضر الاجتماع معهم المعتمد السياسي البريطاني في الكويت الكولونيل كري • فقال الشيخ مبارك يخاطب الرجلين : « أنا مسلم عثماني أغار على ديني وعلى دولتي ولا أحب من يمسها بسوء غير أني اتفقت مع الانكليز على أمر فيه نفع لي ولبلدي ، ولهذا لا أرضى بالطعن فيهم وان كنت لا أحبهم وديني غير دينهم » •

أخذ الشيخ مبارك بعد هذا يتتبع المحرضين على العصيان فعاقب بعضاً

منهم ، وعفا عن بعض ، كما فر من الكويت آخرون • وكان من جملة الفارين من الكويت محمد الشنقيطي حيث التحق بالمجاهدين في معركة الشعيبة •(٢٨)

معركة الشعيبة :

ان الشعيبة تقع على بعد تسعة أميال من الجنوب الشرقي للبصرة ، وكانت في ذلك الحين تحتوي على قلعة قديمة وبضع دور واسعة ابتناها بعض أغنياء البصرة لتكون مصائف لهم • وقد أدرك الجنرال باريت أهمية هذا الموقع لحماية البصرة فاهتم بتحصينه بالخنادق والاسلاك الشائكة وأكياس الرمل •

وكان الاتراك من جانبهم قد عزموا على مهاجمة البصرة من هذه الجهة• فحشدوا في أدغال البرجسية الواقعة على بعد ستة أميال من الجنوب الشرقي للشعيبة جيشاً كبيراً مؤلفاً من قوات نظامية يبلغ عددها زهاء ستة آلاف جندي ، ومن مجاهدين معظمهم من العشائر قدّر عددهم حسب المصادر التركية بعشرين ألفاً ، وقدّره آخرون بخمسين ألفاً•(٢٩)

وصل القائد التركي سليمان عسكري بك الى الموقع في ٩ آذار١٩١٥، وكان لا يزال يشكو من ساقه فكان يفتش قواته وهو محمول على نقالة صحية • وقد وضع خطته على أن تتولى القوات النظامية الهجوم من القلب ، ويتولى المجاهدون الهجوم من الجناحين الأيسر والأيمن •

كان رأي بعض قادة المجاهدين المتمرسين في الحروب كعجمي السعدون وغيره أن الهجوم المباشر على موقع الشعيبة المحصن غير مجدي بل يجب الاكتفاء بمحاصرته وشن الغارات عليه وقطع خطوط مواصلاته •(٣٠) ويقال أن الضباط الألمان أشاروا على سليمان عسكري بك بمثل هذا الرأي أيضا ولكن عناده وغروره منعاه من الاستماع الى نصائحهم •(٣١)

---

(٢٨) حسين خلف الشيخ خزعل (المصدر السابق) — بيروت ١٩٦٢ — ج ٣ ص ٢٥٦ — ٢٦٠ •

(٢٩) شكري محمود نديم (حرب العراق) — بغداد ١٩٦٧ — ص ٣٠ •

(٣٠) المصدر السابق — ص ٣١ •

(٣١) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) — ج ١ ص ١٠٦ •

كان الفيضان في ربيع تلك السنة شديداً ، وقد حدث انكسار في بعض السدود فغمرت المياه الأرض الواقعة بين البصرة والشعيبة مما اضطر القيادة الانكليزية الى استخدام الزوارق المحلية في النقل • وقد اتضح للانكليز أخيراً ان أصحاب الزوارق لا يعتمد عليهم عند اشتداد المعارك اذ هم يطلقون سيقانهم للريح حالما ينطلق هدير المدافع ، وقد اضطر الانكليز الى استخدام جنودهم لتجديف الزوارق بدلاً عنهم •(٣٢)

وفي الصباح الباكر من يوم ١٢ نيسان ١٩١٥ بدأ الهجوم التركي على الموقع الانكليزي ، وقد أبدى الجنود الاتراك في القتال بسالة نادرة ، وكذلك أبدى بعض المجاهدين ، فهلك من الفئتين عدد كبير ، غير أنهم لم يستطيعوا زحزحة العدو من خنادقه •

وكان الشيخ عجمي السعدون من أعظم المقاتلين أثراً في تلك المعركة • يقول عنه شكري محمود نديم ما نصه : « كان عجمي باشا السعدون أبرز قادة المجاهدين وغدا اسمه مضرب الامثال في الشجاعة والشهامة وحيكت حول أعماله أساطير كثيرة لا تزال تتناقل جيلاً بعد جيل • فقد كان يهاجم المفارز البريطانية ولا سيما الخيالة منها فينقض عليها على رأس فرسانه المتفكيين المنتشرين بمسافات متباعدة لتجنب تأثير نار المدافع البريطانية ، وكان هؤلاء الفرسان يتجمعون في لحظة الهجوم باشارة من عجمي فيهجمون بسرعة البرق الخاطف فيوقعون بالبريطانيين خسائر فادحة ثم يقودهم عجمي بسرعة مذهلة الى حيث تبتلعهم الصحراء •••»(٣٣)

استمرت المعركة يومين دون أن تبدو أية بادرة للغلبة من أحد الفريقين على الآخر • وفي اليوم الثالث وصل الى الشعيبة الجنرال مليس ، وكان قد قدم تواً من مصر ، فتولى قيادة القوات الانكليزية • والمعروف عن هذا القائد أنه شجاع الى حد الطيش ، فأصدر أوامره الى الجنود بالخروج من الخنادق والشروع بالهجوم على القوات التركية • ونشب عند ذلك قتال ضاري بالسلاح الابيض كانت فيه الحراب تلمع وهي ملطخة بالدماء من خلال

---

(32) Moberly (op. cit.) — vol. 1, p. 205.

(٣٣) شكري محمود نديم (المصدر السابق) — ص ٣١ •

غبار كثيف خانق .

ويروي برادون : ان الهنود المسلمين الذين كانوا يقاتلون في صفوف القوات الانكليزية لم يطيعوا أمر قائدهم بالهجوم ، ذلك لأن دعوة الجهاد كانت قد أثرت فيهم بحيث جعلتهم يعتقدون أن أرض العراق مقدسة لا يجوز تدنيسها بالهجوم ، واضطر الضباط الانكليز أن ينخزوا أولئك الجنود بسيوفهم ليدفعوهم نحو الخروج من الخنادق والمشاركة في القتال مع الآخرين. (٣٤)

واستمر القتال طيلة ذلك اليوم ، وكان النصر فيه معلقاً على شعرة يناله من يبدي من الصمود قدراً أكبر . وكاد الجنرال مليس يصدر أمره الى جنوده بالانسحاب غير انه أجّل ذلك ريثما يتم نقل جرحاه الى المؤخرة ، وهنا تدخل القدر حيث أدى الى انسحاب الاتراك من المعركة بدلاً من الانكليز .

كان الجنرال مليس قد أرسل الى سرية النقل لكي تأتي بسرعة بكل ما لديها من عجلات وبغال بغية نقل الجرحى ، وحين قدمت العجلات والبغال مسرعة أثارت غباراً كثيفاً ، فظن الأتراك ان هذا الغبار هو من جراء نجدة كبيرة وصلت الى الانكليز من البصرة ، فكان ذلك بالنسبة للاتراك بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير ، فانهارت عزيمتهم ، وحلت بهم الهزيمة. (٣٥)

كانت أولى بوادر الهزيمة قد ظهرت في صفوف العشائر ، ثم تلاهم الجنود النظاميون اذ هم أخذوا ينسحبون بلا نظام نحو أدغال البرجسية . ولم يصمد في ساحة القتال سوى ثلة من الفدائيين الاتراك ، وكان عددهم سبعة وأربعين رجلاً ، فقد ربطوا ركبهم بالحبال ، وقرروا اما أن ينتصروا أو يموتوا على أرض المعركة . وقد قتلوا جميعاً فلم ينج منهم أحد . (٣٦)

كان السيد محسن الحكيم قد حضر معركة الشعيبة لأنه كان أمين سر السيد محمد سعيد الحبوبي ، وقد وصف الهزيمة التي حلت بالمجاهدين فيها

---

(34) Russell Braddon (The Siege) — London 1969 — p. 25.

(35) Ibid. p. 25 — 26.

(٣٦) عبدالعزيز القصاب (المصدر السابق) — ص ١١٨ .

فقال : انه لم يعرف الخوف في حياته الا مرة واحدة هي في ذلك اليوم حين كانت القنابل تنفجر بين الخيام ، وهرب المجاهدون اذ أشيع بينهم أن القائد سليمان عسكري قتل هو وضباطه جميعاً ، فانتشرت الفوضى بين العشائر واختل النظام ، وقد ثبت السيد الحبوبي مع ثلة من صحبه فلم يهربوا مع الهاربين ، ثم استقر رأيهم أخيراً أن يرسلوا السيد محسن الحكيم الى خيمة القائد ليستوضح جلية الخبر . وحاول السيد محسن الحصول على فرس ليمتطيها فلم يتمكن من ذلك لأن كل واحد من المجاهدين كان محتاجاً الى فرسه للنجاة بنفسه من هول المعركة ، واستطاع السيد أخيراً أن يحصل على فرس ، وحين ذهب بها الى خيمة القائد وجده مكباً على أوراقه ، واتضح أن الاشاعة كانت غلطة أو خديعة أدت الى الهزيمة .(٣٧)

يروي باركر : ان سليمان عسكري شعر بأن العار الذي لحق به هو أكبر مما يمكن تحمله ، فجمع الضباط حوله وهو لا يزال في نقالته وأعلن لهم : أن الهزيمة كلها كانت من جراء خيانة العشائر ، وأنه لن يستطيع أن يحارب مرة أخرى . ثم أطلق نار مسدسه على نفسه . انها كانت نهاية مفجعة لرجل شجاع .(٣٨)

ويقال ان طلائع الانكليز وصلت الى خيمة القائد المنتحر عقب انتحاره مباشرة ، فأدى الجنود الانكليز لجثمانه التحية العسكرية وأبلغوا قائدهم بذلك ، فجاء القائد وحياه ثم أمر بدفنه في احتفال عسكري مهيب .(٣٩)

عوامل الهزيمة :

كانت خسائر الانكليز في معركة الشعيبة التي دامت ثلاثة أيام زهاء ألف ومائتين بين قتيل وجريح ، أما خسائر الأتراك فكانت ضعف ذلك العدد ، وتقدر خسائر المجاهدين بثلاثة آلاف . وكان عدد الاسرى الذين وقعوا في أيدي الانكليز ينوف على السبعمائة ، فسيقوا الى البصرة .

---

(٣٧) أحمد الحسيني (الامام الحكيم) ـ النجف ١٣٨٤ هـ ـ ص ٧٦ـ٧٧ .

(38) Barker (op. cit) — p. 75.

(٣٩) مجلة الاسرار البيروتية ـ في عددها الصادر في ٣ أيار ١٩٣٨ .

وقد اشتهرت معركة الشعيبةعند الانكليز باسم «معجزة الشعيبة»،[٤٠] وهم يعتقدون ان انتصارهم فيها أنقذهم من عواقب وخيمة فلو أنهم كانوا قد انكسروا فيها لما تمكنت قواتهم من القيام بانسحاب منتظم الى البصرة لوجود مياه الفيضان والأوحال الواسعة بينهم وبين البصرة ، ولربما أدى ذلك بهم الى هزيمة منكرة .

حاول المؤرخون والنقاد العسكريون دراسة العوامل التي أدت الى هزيمة الاتراك في الشعيبة ننقل فيما يلي أهمها :

أولاً : ان القائد التركي سليمان عسكري بك ظل تحت المعالجة الطبية ببغداد زهاء شهرين ، وقد أرسلت القيادة التركية العليا قائداً آخر ليحل محله غير أنه رفض ذلك وأصر على قيادة المعركة بنفسه بالرغم من مرضه .[٤١] ثم ذهب أخيراً الى الشعيبة وهو محمول على نقالة صحية كما رأينا . وكانت نتيجة هذا التأخير أن الانكليز زادوا من قوة تحصينهم لمواقعهم وأمدوها بالجنود والاعتدة والمؤن الكافية .

ثانياً : ان العشائر المشاركة في الجهاد بدأت تمل وتتذمر من طول الانتظار ، ثم صار رؤساء العشائر أخيراً ينذرون القيادة بالانسحاب والعودة الى مواطنهم بدعوى ان العشب سوف ينفد ويصعب عليهم بعدئذٍ اعاشة خيلهم ودوابهم ، وقد ترك بعضهم الموقع فعلاً وعادوا الى مواطنهم .[٤٢]

ثالثاً : كانت القوات التركية تحارب بأسلحة قديمة بالية ويعوزها كل ما يحتاج اليه الجيش عادة من وسائط عسكرية ، فكانت مواد الاعاشة مفقودة وظل الجنود ثلاثة أيام بلياليها وهم يقاتلون دون أن يصل اليهم طعام أو ماء حتى ان الضباط كانوا يجبرون السقاة الذين يحملون قرب الماء على التقدم الى الامام تحت نار الرشاشات لارواء الجنود الذين كاد العطش يقتلهم قبل

---

(40) Barker (op. cit.) — p. 75.

(41) Ibid. p. 67.

(٤٢) طه الهاشمي (المصدر السابق) — ج ١ ص ١٣٤ .

أن يقتلهم الرصاص .[٤٣]

رابعاً : كان جواسيس الانكليز منبثين في صفوف المجاهديـن ينقلون أخبارهم الى العدو أو ينشرون بينهم الاكاذيب والاشاعات المرجفة . وكـان بعض هؤلاء الجواسيس يتنكر بزي رجال العشائر ، بينما كان البعض الآخر يتنكر بزي رجال الدين . وقد استفاد الانكليز من وضع بلدة الزبير التي كانت يومذاك شبه مستقلة ولها رئيس خاص بها هو الشيخ ابراهيم ، فاتخذوا منها مركزاً لاستخباراتهم وأعانهم الشيخ ابراهيم في ذلك معونة كبيرة .[٤٤]

ولعب الضابط الانكليزي ليجمن دوراً مهماً في هذا الشأن[٤٥] اذ كان يحسن النطق باللهجة البدوية فتنكر بزي البدو وصار يخالط أهـل الزبير ويرتاد دواوينهم ومقاهيهم ، واستطاع بذلك ان يقدم تقارير دقيقة عن أحوال القوات التركية والمجاهدين ، وربما اتصل بالبعض منهم سراً ودبّر معهـم أمراً .

قد يضيف بعض النقاد العسكريين الى هذه العوامل الأربعة عاملاً خامساً يتصل بشخصية القائد التركي سليمان عسكري بك ، ففـي رأيهم أن هذا القائد بالرغم من حماسه واخلاصه لم يكـن كفؤاً تجاه القادة الانكليز . وقد أشار الى ذلك الضابط الركن محمد أمين زكي في تقرير له الى القيـادة التركية العليا حيث قال : ان معركة الشعيبة كانت كأنها مباراة بين الجهل والمعرفة ، فقد كان الجهل والمناورات العتيقة من جهة بينما كانت المهارة وخبرة السنين الطويلة التي يملكها فراي ومليس وديلامين من الجهة الاخرى ..[٤٦]

يخيل لي ان هذا الحكم على سليمان عسكري قاسي جداً ، فقد رأينا النصر في معركة الشعيبة متوقفاً على شعرة ولولا الغبار الذي أثارته العجلات والبغال الانكليزية من غير قصد لربما كان النصر قد تم للاتراك . ولو حدث هذا لكان حكم التاريخ على سليمان عسـكري مناقضاً للحكم الذي صدر

---

(٤٣) علي جودت الايوبي (ذكريات) — بيروت ١٩٦٧ — ص ٣٣ .

(٤٤) مس بيل (المصدر السابق) — ص ٩ .

(45) Arnold Wilson (op. cit) — vol. 1. p. 35.

(46) Moberly (op. cit.) — vol. 1, p. 254.

فعلاً ، ولربما صار الرجل فى نظر المؤرخين من أعظم القواد وأبعدهم نظراً، وعندئذٍ قد يأتي المؤرخون ليذكروا لنا العوامل التي أدت الى هزيمة الانكليز في الشعيبة .

الاحتفال بالنصر الموهوم :

حدث في بغداد والبصرة أثناء معركة الشعيبة مثلما حدث في دمشق وبيروت عقب محاولة الاتراك عبور قناة السويس من احتفال بالنصر الموهوم .

ففي ١٤ نيسان ــ وهو اليوم الذي حلت فيه الهزيمة بالاتراك في الشعيبة ــ انتشر في بغداد خبر سار كأنه البشرى مفاده ان القوات العثمانية قد انتصرت على الانكليز واسترجعت البصرة منهم . وقد اهتزت بغداد لهذا الخبر ، فأطلقت المدافع ابتهاجاً به ، وخرجت مظاهرة في شوارع بغداد تتقدمها الموسيقى وترفرف فوقها الاعلام ، فذهبت الى دار القنصلية الألمانية حيث تبودلت التهاني على استرجاع البصرة .(٤٧) وفي مساء ذلك اليوم امتلأ صحن الكاظمية بالناس وهم يهزجون بأهازيج النصر على الكفار ،وأعطى رئيس بلدية الكاظمية السيد جعفر عطيفة ليرة ذهب لمن بشره بالخبر .

وقد حدث مثل هذا فى البصرة ، حيث انتشرت بين الناس اشاعة مفادها ان الجيش العثماني على وشك أن يدخل البلدة منتصراً ، فهرعوا لاستقباله في باب الزبير ، وكان بعضهم قد أعد خطاب ترحيب ليلقيه بين يدي القائد الظافر سليمان عسكري بك . وعندما دخل الأسرى الاتراك الى البصرة ظن الناس أنهم الجنود المنتصرون ، فانطلقت صيحات الفرح عالية بين الجمهور . ولم يفطن الناس الى خطئهم الا عندما وبخهم عريف تركي كان بين الاسرى، فخيم عليهم الوجوم . ثم انطلق عويل امرأة كانت واقفة مع أخريات على سطح احدى الدور اذ صرخت تقول : «ياربي الى متى هذا النصر للكفار الى متى ؟» . وسرعان ما تجاوبت معها أصوات الكثيرات من النساء ، وصار العويل يسري من سطح الى آخر .(٤٨)

---

(47) Joseph Parfit (Marvellous Mesopotamia) — London — p. 99.

(48) Arnold Wilson (op. cit) — vol. 1, p. 35.

الداغستاني في عربستان :

كانت القوات التركية في عربستان ــ كما أسلفنا ــ تحت قيادة توفيق بك الخالدي ، وكانت قد عسكرت مع المجاهدين في «الغدير» الذي يقع على بعد عشرة أميال غرب بلدة الاهواز . وفي أواسط شهر آذار ١٩١٥ وصل الى الغدير محمد فاضل باشا الداغستاني ليحل محل الخالدي في القيادة ، وأصبح الخالدي ضابط ركن له .(٤٩)

وفي ٣ نيسان وصلت الى الداغستاني نجدة قوية مؤلفة من ثلاثة أفواج مشاة ومدفعين جبليين . وكان الواجب الذي نيط بالداغستاني هو مهاجمة الاهواز وأنابيب النفط لتخفيف الضغط على الشعيبة . وقد قام الداغستاني بالهجوم على الاهواز مرتين : أولاهما في ١١ نيسان ، والأخرى في اليوم التالي له . وقد أخفق في كلتا المرتين لانتشار الفوضى والتذمر بين العشائر التابعة له .

يعزو البعض سبب انتشار الفوضى والتذمر بين العشائر آنذاك الى سوء ادارة القائد السابق توفيق بك الخالدي ، فقد وصلت اليه من القيادة مبالغ كبيرة من الليرات لتوزيعها على العشائر ، وكان الشيخ مهدي الخالصي قد حذره من مغبة توزيعها ، ولكنه أصر وكلف السيد محمد اليزدي بأمر توزيعها ، ولم يكد اليزدي يفعل ذلك حتى بدأ اختلاف الكلمة يظهر بين رؤساء العشائر حيث صار كل واحد منهم يحسب نصيبه من المال أقل من نصيب غيره ، كما صار أفراد العشائر يتذمرون من رؤسائهم ويتهمونهم بأنهم احتجزوا المال لأنفسهم دون أن يعطوهم منه شيئاً . وقد أشار أفراد العشائر الى هذا المعنى في هوساتهم حيث قالوا : « يا سيد محمد ما انطونا ! » و «يا سيد محمد ضموهن ! » .(٥٠)

وعلى أي حال فقدتلقى الداغستاني على أثر معركة الشعيبة أمراً من القيادة بالانسحاب من الغدير والتوجه نحو العمارة ، فترك الداغستاني في الغدير قوة ضعيفة مؤلفة من عشرين بغّالاً وانسحب ببقية قواته . وحين

---

(٤٩) طه الهاشمي (المصدر السابق) ــ ج ١ ص ١١٩ .
(٥٠) محمد الخالصي في كتابه المخطوط المشار اليه سابقا .

وصل الى نهر الكرخة لم يكن لديه سوى أربعة قوارب للعبور ، ولهـذا استغرق عبور النهر أربعة أيام •[٥١] وظل الداغستاني يواصل سـيره علـى رأس قواته حتى وصل الى العمارة في ٣ حزيران ، أي أنه امضى في السـير ما يقارب خمسة واربعين يوماً ، وذلك لوعورة الطـريق وقلة ما لديه من وسائط النقل •

وكان وصول الداغستاني الى العمارة في نفس اليوم الذي سقطـت فيه تلك البلدة في أيدي الانكليز ، فتبعثرت قواته ، واضطر هو ومن بقـي معه أن يتوجهوا نحو الكوت • ولو أن الداغستاني كان قد وصل العمارة قبل يوم واحد لربما أدى ذلك الى صمود حاميتها تجاه الانكليـز وعدم سقوطهـا • ويقـال ان القائد التركي الجـديد نورالدين بك غضب على الداغستاني من جراء ذلك وأهانه دون أن يراعي شخيوخته وحرمته •

انتقام في عربستان :

في ١٩ نيسان ١٩١٥ ـ أي بعد انتهاء معركة الشعيبة بخمسة أيام ـ وصلت برقية من لندن الى نائب الملك في الهند جاء فيها : « ••• ان مشكلة النفط أصبحت خطيرة ، وان امارة البحر قلقة تريد اصلاحاً سريعاً لأنابيب النفط في عربستان • ولما كان انتصار الشعيبة قد أزال الخطر عن البصرة من جهة الغرب فان الحكومة ترحب بالتحرك ضدالعدو من جهة نهر كارون •• ان التأثير المعنوي لانتصار الشعيبة اذا أعقبه هجوم ناجح من الاهواز فسوف ينهي كراهية العرب لنا ويضمن سلامة أنابيب النفط في المستقبل •••»[٥٢] •

وفي ٢٢ نيسان تحرك من البصرة رتل مؤلف من تسعة آلاف رجـل ، وتسعة آلاف بغل ، بقيادة الجنرال غورنج • واتخذوا طريقهم نحو الاهواز عن طريق النهر والبر معاً •ولم يجد الرتل أية مقاومة جدية فـي طريقه لأن القوات التركية كانت قد انسحبت مع المجاهدين نحو العمارة كما ذكرنا آنفاً•

ولما لم يجد الجنرال غورنج أمامه من يحاربه من الأتراك اتجه نحـو

---

(٥١) طه الهاشمي (المصدر السابق) ـ ج ١ ص ١٥٣ •

(52) Moberly (op. cit) — vol. 1, p. 222.

عشيرة بني طرف بغية الانتقام منها لكي يجعلها عبرة لغيرها اذ هي كانت قد قتلت قبل مدة قصيرة أربعة ضباط بريطانيين كان أحدهم برتبة ميجر — أي رائد — وقد اعتبر الانكليز هذا العمل منها «غدراً» .

كان في صحبة الرتل ضابط اشتهر في العراق بعدئذٍ هو أرنولد ويلسون ، وكان هذا الضابط يتقن العربية والفارسية وقد تجول قبل الحرب في أنحاء عربستان وحل ضيفاً على الشيخ عاصي بن شرهان وعوفي بن مهاوي، من رؤساء بني طرف ، فكان يعرف المنطقة معرفة دقيقة ووضع لها خرائط مفصلة .

كان مركز بني طرف في قرية «خفاجية» التي تقع على الضفة الغربية من نهر الكرخة ، وكانت مؤلفة من عدة مجاميع من بيوت طينية تمتد على النهر الى مسافة أربعة أميال تقريباً . وفي ١٣ أيار أطبق الانكليز على القرية من الجانبين ، وكان دليلهم اليها ويلسون ، فأمطروها بوابل من قنابل المدافع ورصاص الرشاشات . واستمرت المعركة ثلاثة أيام قاتل فيها بنو طرف ببسالة . وقد وصف ويلسون ما حل بالقرية من جراء القصف فقال : ان المدافع التي كانت على الضفة المقابلة من النهر أخذت تصب حممها على بيوت القصب فأشعلت فيها النار ،كما احترق عدد من الخيول والجواميس التي كانت قد تركها أصحابها . ويقدر ويلسون خسارة بني طرف في المعركة بألف رأس من الماشية وكل ذخيرتهم من الحنطة ، بالاضافة الى ما حل بقرية خفاجية من تدمير هائل .

ويبدي ويلسون أسفه لأنه شاهد أشخاصاً من بني طرف يعرفهم وقد أصبحوا طعمة للنار ، كما شاهد أشخاصاً آخرين كان يعدهم من أصدقائه وهم مذبوحون ذبح النعاج . ان ويلسون يحاول تبرئة بني طرف من تهمة « الغدر » التي ألصقتها بهم القيادة ، ولكنه مع ذلك يقول عنهم انهم لا يستحقون العطف والرحمة من جراء مافعلوا بالجنود الجرحى ولأنهم تعاونوا مع الاتراك .

ويروي ويلسون حادثاً مثيراً حدث في آخر المعركة هو أن خمسين رجلاً من بني طرف ظلوا يقاومون الانكليز وهم متحصنون في بيت من طين متين

البناء ، فتقدم ويلسون نحو البيت يناديهم طالباً منهم الاستسلام حيث قال لهم : «اخرجوا ولكم الحظ والبخت» . فانطلقت عليه رصاصة من جهتهم جعلته يسرع الى خندق ليحتمي به ، وعند هذا أخذ الجنود يطلقون النيران على البيت حتى جعلوه شعلة من نار ، ثم هجموا عليه بالحراب فقتلوا فريقاً من الذين كانوا فيه وأسروا فريقاً . وجاؤوا بالاسرى وكان عددهم أحد عشر رجلاً فأجلسوهم على الأرض في حالة تبعث على الأسى بينما كان الجنود يحيطون بهم وحرابهم تقطر دماً .

عرف ويلسون أحد اولئك الأسرى ، وهو قهواتي الشيخ عاصي بن شرهان ، وسرعان ما رفع هذا الأسير صوته ينادي ويلسون ويقول له يعاتبه : « لماذا يا مستر ويلسون عملت بنا هذا العمل ؟ انك أنت الذي قدت هؤلاء الرجال الى هنا.وهل لهذا الغرض جئتنا وأكلت زادنا وتجولت في أهوارنا وأعددت الخرائط ؟ انه كان الغدر ، الغدر في قلبك والأكاذيب على لسانك . والآن دماء اخوتنا على رأسك . الله يسامحك ! » . يقول ويلسون انه لم ير نفعاً في مجادلة الرجل ففي مثل هذه الظروف لا بد أن تكون هناك وجهتان مختلفتان للنظر .

ثم يقول ويلسون : ان العقوبة التي أنزلناها ببني طرفه كانت درساً قاسياً لها ولغيرها من العشائر القاطنة على ضفاف دجلة الى الجنوب من العمارة ، فان انعدام المقاومة العشائرية في تلك المنطقة بعد اسبوعين من ذلك يعزى بعض سببه من غير شك الى ما وقع لخفاجية من تدمير . ان هذاالدرس لم يغب عن أذهان العشائر سريعاً ولهذا لم تقع بيننا وبين ألبو محمد اية مشكلة سواء كان ذلك ابان الحملة أو بعدها .

وقام ويلسون بعدئذٍ بجولة استطلاعية على رأس سرية من الخيالة باتجاه العمارة . وقد شاهد أثناء الطريق جماعة من بني طرف يتراوح عددهم بين المائتين والثلاثمائة وهم يمشون على أقدامهم باتجاه خفاجية ، وكان يمشي في مقدمتهم رجلان ممتطيان جواديهما تبين أن أحدهما هو الشيخ عاصي بعينه والثاني عالم ديني ذو عمامة بيضاء . ولم يكد الشيخ عاصي يلمح شبح ويلسون من بعيد حتى هتف به سائلاً « انت ويلسون ؟ » فلما

رد عليه هذا بالايجاب استدار الشيخ نحو أبناء عشيرته وصرخ فيهم صرخة سرعان ما أعقبها الرصاص منهمراً على ويلسون وأصحابه بغير نظام • وقد تمكن هؤلاء من النجاة باحتمائهم ببعض التلال القريبة •

واستطاع ويلسون بعدئذٍ أن يقود أصحابه في طرق وعرة تحت جنح الظلام ، حتى وصل بهم الى قرية «بسيتين» • فخرج اليهم منها رجلان كان أحدهما سيداً والثاني عالماً دينياً ، وأخذ هذان الرجلان يتزلفان لويلسون على الطريقة المعتادة في الشرق ، فمدحا الشيخ خزعل والحكومة الايرانية،وأشادا بعدالة بريطانيا ، وذما الشيخ عاصي حيث وصفاه بالظلم والخيانة ، وقالا ان خفاجية نالت جزاءها العادل •

طلب ويلسون من الرجلين تجهيز جنوده بالمواد الغذائية، فقالا ان أهل القرية أناس فقراء وهم يطلبون نقوداً عن المواد المطلوبة منهم • ولما كان ويلسون لا يحمل معه نقوداً كافية فقد اتفق مع أهل القرية على اعطائهم حوالة على البصرة أو الاهواز بدلاً من النقود • وقد رضي أهل القرية بذلك ، وعند هذا أخذت المواد الغذائية تنهال على الجنود انهيالاً وفيراً من السمك والتمر والبط والدجاج والبيض والاغنام والماعز • وقد ذبح أهل القرية لهم كذلك جواميس هرمة ، وسمع ويلسون رجلاً منهم يقول لجاموسته أثناء ذبحها : «ان موتك شرعي يا عزيزتي ،فسأشتري بثمن جلدك ولحمك بندقية . سأكون رجلاً» •(٥٣)

(53) Arnold Wilson (op. cit) — vol. 1, p. 43 — 46.

الفصل السادس

تتابع الانتصارات الانكليزيـة

على أثر انتحار سليمان عسكري بك في الشعيبة قررت الحكومة العثمانية العودة الى النظام الذي كانت عليه في بداية الحرب وهو جمع الأمور الادارية والعسكرية في يد رجل واحد ، فعزلت الوالي سليمان نظيف بك وعينت مكانه نورالدين بك ليكون والياً وقائداً للجيش في آن واحد .

ان نورالدين بك هو ابن المشير ابراهيم باشا والي طرابلس الغرب سابقاً ، وكان عند تعيينه في العراق في الواحدة والأربعين من عمره،والمعروف عنه انه كان قائداً محنكاً ذا ثقافة عسكرية عالية ،وكان بالاضافة الى ذلك صارماً شديد القسوة لا يبالي أن يأمر بقتل الانسان لأقل هفوة تبدر منه .

وصل نورالدين بك الى بغداد في ١٩ أيار ١٩١٥ ، وبعد أن درس الموقف العسكري التفت نحو الجرائد التي كانت تصدر في العراق يومذاك فوجدها على خلاف ما كان يتوقع منها اذ هي كانت في نظره غير حريصة على تأييد الدولة بمقالاتها وأخبارها كما ينبغي. فأصدر أمره حالاً باغلاق تلك الصحف وبنفي أصحابها الى أماكن نائية . فكان من نصيب الأب أنستاس ماري الكرملي والحاج عبدالحسين الازري وداود صليوه النفي الى الاناضول ، وعبداللطيف ثنيان وابراهيم صالح شكر النفي الى الموصل، وقد تمكن سليمان الدخيل من الهرب الى ابن سعود قبل القاء القبض عليه. ولم يسلم من النفي سوى محمد رشيد الصفار صاحب جريدة « الزهور » لأنه كان شديد الولاء للدولة يؤيدها في جريدته تأييداً قوياً . (١)

والتفت نورالدين بك بعدئذٍ نحو اليهود والنصارى ، فهو كان يخشى منهم ويعتبرهم رتلاً خامساً للانكليز ، وأراد أن يفعل بهم مثلما فعلت حكومة اسطنبول بالأرمن . ويروى أنه استدعى اليه رجلين من أهل الرأي ليستشيرهما في هذا الأمر هما : الشيخ نعمان الاعظمي وفؤاد

---

(١) رفائيل بطي (الصحافة في العراق) ـ القاهرة ١٩٥٥ ـ ص ٣٩ـ٤٠ .

بك الدفتري . وقد انبرى الاعظمي يدافع عن اليهود والنصارى ، وأثبت للقائد أن ليس هناك أي خطر منهم على الوضع العسكري . وقد أيد الدفتري هذا الرأي أيضا .[2] والظاهر أن نورالدين بك لم يقتنع بهذا الرأي اقتناعاً تاماً حيث وجدناه يأمر بنفي نفر من وجهاء اليهود والنصارى الى الموصل[3] .

طونزند وحليم بك :

كانت الحملة الانكليزية في بداية الأمر تتألف من فرقة واحدة هي الفرقة السادسة بقيادة الجنرال باريت على نحو ما ذكرناه سابقاً . وقد قررت الحكومة الانكليزية أخيراً جعل الحملة بقوة فرقتين حيث أضافت الى الفرقة السادسة فرقة أخرى هي الفرقة الثانية عشر وعينت لهما قائداً عاماً هو الجنرال نكسون . وقد وصل هذا القائد الجديد الى البصرة في ٩ نيسان ١٩١٥ أي قبل معركة الشعيبة بثلاثة أيام . وعند وصوله قدم الجنرال باريت استقالته معتذراً باعتلال صحته ، ثم عاد الى الهند .

عينت الحكومة الانكليزية الجنرال طونزند قائداً للفرقة السادسة بدلاً من باريت ، وكان هذا القائد الجديد يعمل في الجيش الشمالي في الهند ، وهو يحدثنا في مذكراته عن كيفية تبليغه بخبر التعيين فيقول : انه بينما كان يتناول طعام العشاء في نادي راولبندي في ليلة من ليالي نيسان ١٩١٥ وصلته برقية من وزير الحربية يخبره فيها بأنه عيّن قائداً للفرقة السادسة في العراق خلفاً للجنرال باريت ، فكان فرحه بذلك عظيماً ، وقد سافر بعدئذٍ الى كراجي بالقطار ومن هناك ركب باخرة متوجهة الى البصرة فوصلها في ظهر ٢٣ نيسان . وقابل رئيسه الجنرال نكسون فور وصوله حيث أطلعه هذا على الموقف العسكري والمهمة التي نيطت به .[4]

كان طونزند عند تعيينه لمنصبه الجديد في الرابعة والخمسين من عمره ،

---

(٢) محمد صالح السهروردي (لب الالباب) ـ بغداد ١٩٣٣ ـ ج٢ ص ٣٨٨ .
(٣) يوسف رزق الله غنيمة (تاريخ يهود العراق) ـ بغداد ١٩٢٤ ـ ص١٨١ .
(٤) تشارلس طونزند (محاربتي في العراق) ـ ترجمة عبدالمسيح وزير ـ بغداد ١٩٢٣ ـ ص ٥٠ـ٥١ .

وقد نال رتبة «ميجر جنرال» ــ أي لواء ــ قبل ذلك بأربع سنوات ، وكان يطمح أن ينال الترقية الى رتبة «لفتننت جنرال» ــ أي فريق ــ قريباً . انه كان من أسرة ارستقراطية اذ كان جده لورداً ، والمعروف أنه كان شديد الطموح دؤوباً لا يهدأ في سبيل طموحه . وكان أيضاً كثير القراءة في التاريخ العسكري ومولعاً بنابليون واعتاد أن يقارن خططه بخطط نابليون ، (٥) وكان بعض مرؤوسيه حين ينزعجون منه يتهكمون عليه بقولهم انه يحاول تقليد نابليون في حركاته .(٦)

كان الاتراك يومذاك متمركزين في مواقع لهم الى الشمال من القرنة، وكان قائدهم هناك ضابط اسمه حليم بك ، والمعروف عن هذا القائد أنه كان ضعيف الكفاءة متفسخاً . وصفه عثمان خلوصي بك في مذكراته قائلاً ما نصه : «الاميرألاي حليم بك رجل أناني يعتقد أنه لم يوفد الى العراق ــ ذلك البلد البعيد ــ الا ليؤمن لنفسه مستقبلاً باهراً ، ولكن ليس بالدفاع المجيد عن الوطن وادراك الفوز بل بالخيانة . ولهذا رأيناه منذ تولى مقدرات الفرقة في الجبهة يعمل على مطاردة القبائل بضغط وشدة للحصول على الحبوب . ومن المؤسف ــ وهو ما نرويه للحقيقة والتاريخ ــ ان هذا القائد لم يكن يحاول تأمين حاجات الجيش بل المتاجرة بالحبوب وجمع ثروة طائلة . وقد نجح في ذلك، وأكدت لنا الاخبار الراهنة أنه أرسل مع قريب له عشرين ألفاً من الليرات الذهبية في شهر آذار ، ثم عاد وأرسل مثلها في نيسان . وهذه الأموال هي نواة الثروة الفاحشة التي يتمتع بها الرجل في الوقت الحاضر . ولم تقف مساعي هذا القائد عند هذا الحد بل عمد الى الاتفاق سراً مع القائد الانكليزي طوزند على الخيانة فتناول مبلغاً من المال يقال انه زاد على عشرين الفاً من الليرات الذهبية في مقابل تدبير خطة التراجع التي وقعت في صفوف العثمانيين ...» (٧)

ان من سوء حظ الاتراك في جبهة القرنة أن يكون قائدهم من هذا

(5) Russell Braddon (The Siege) — London 1969 — p. 27—33.

(6) Ronald Millar (Kut) — London 1969 — p. 21—22.

(٧) مجلة الاسرار البيروتية في عددها الصادر في ١٢ تموز ١٩٣٨ .

الطراز الواطيء بينما قائد الفرقة الانكليزية المقابلة لهم من طراز طونزند !

معركة الزوارق :

كان طونزند في مساء اليوم الأول من وصوله الى البصرة قد ركب زورقاً بخارياً سريعاً حيث توجه به الى القرنة بغية دراسة الموقف العسكري فيها • وفي صباح اليوم التالي صعد طونزند برجاً خشبياً أعد لـه هناك ، فوجد المياه محيطة بالقرنة من جميع نواحيها على مد البصر وذلك لشدة الفيضان في تلك السنة ، وكان الاتراك قد اتخذوا مواقعهم على تلول متفرقة هنا وهناك كأنهم في جزائر صغيرة •

عاد طونزند الى البصرة عصراً ، وانكب على وضع خطته ، وهو يقول في مذكراته : ان مياه الفيضان كانت تحول بينه وبين القيام بالمناورات الحربية مهما كان نوعها ، ولهذا وضع خطته على أن تقوم فرقته بالهجوم المباشر على موقع العدو بينما تقوم الفرقة الثانية عشرة بالالتفاف حول العدو من جهة عربستان اذ تحاول الوصول من هناك الى العمارة فتهدد العدو بقطع طريق الرجعة عليه وتضطره الى الانسحاب العاجل • وقد استحسن نكسون هذه الخطة غير أنه وجد فيها عيباً هو أنها تؤدي الى خرق حياد ايران •[٨] فترك طونزند هذه الخطة وأخذ يفكر في وضع خطة أخرى ••

الواقع ان هذه الحجة التي تذرع بها نكسون في انتقاد خطة طونزند تدعو الى الاستغراب ، ففي نفس الوقت الذي كان فيه نكسون يخشى من خرق حياد ايران نرى قواته تهاجم قرية خفاجية التي كانت تابعة لايران وتدمرها تدميراً • ويخيل لي أن نكسون كان لديه سبب آخر خفي يدعوه الى انتقاد خطة طونزند ، ولعله لم يحب ان يعلن هذا السبب فتظاهر بالغيرة على حياد ايران •

وضع طونزند خطة أخرى على أساس استخدام الزوارق المحلية — أي الابلام — في مهاجمة المواقع التركية • فحشد زهاء خمسمائة زورق ، وأعد في كل زورق عشرة جنود ، كما أعد سبعة مراكب حربية كانت ثلاثة

---

(٨) تشارلس طونزند (المصدر السابق) — ص ٥٨ •

منها كبيرة نسبياً هي « اسبيكل » و « كليو » و « أودن » ، والاخرى صغيرة هي « كوميت » و « شيطان » و « سمانة » و « لويس بلي » .

كان المفروض في القائد التركي العام نور الدين بك أن يأتي الى الجبهة بنفسه على نحو ما فعل سلفه المرحوم سليمان عسكري بك ، ولكنه لم يفعل لسبب لا نعرفه ، وآثر أن يجعل مقره في الكوت . وقيل انه قرر سحب القوات التركية الموجودة في جبهة القرنة الى الوراء نظراً للظروف غير الملائمة لها من الناحية العسكرية ولكن قائد الجبهة حليم بك اعتذر عن تنفيذ ذلك بقلة وسائل النقل النهرية المتوفرة لديه ، ومكث في محله . (٩) ولا ندري هل فعل حليم بك ذلك عن حسن نية أم لسبب آخر !

وفي فجر ٣١ أيار بدأ الهجوم الانكليزي على المواقع التركية ، حيث تحركت الزوارق والمراكب نحوها وأخذت تصب عليها النيران بشكل لم يسبق ان حدث مثله في تاريخ العراق . (١٠) أضف الى ذلك ان طائرات ثلاث جاءت من البصرة وأخذت تحوم في سماء المعركة ، وكانت تلك أول مرة يشاهد العراقيون فيها طائرة في السماء ، فاشتد الرعب منها في قلوب الاتراك والمجاهدين الذين كانوا يقاتلون معهم . وقد بلغ تأثير الطائرات في نفوس العشائر أنهم أطلقوا عندئذٍ هوستهم المشهورة : « متعجب خالق له بعيره » . (١١)

وفي صباح اليوم التالي ألقت احدى الطائرات رسالة الى الجنرال طونزند تخبره بأن الاتراك ينسحبون من مواقعهم . وقد أبدى طونزند دهشته من هذا الانسحاب المفاجيء ، وهو يقول في مذكراته : ان المواقع التركية كانت منيعة جدا بسبب فيضان النهر ، وكانت الكفة راجحة الى جانب الاتراك ، واعتقد كل الاعتقاد أني لو كنت في محل القائد التركي لكسرت القوات الانكليزية شر كسرة وكبدتها خسارة فادحة . ونحن لم

---

(٩) شكري محمود نديم (حرب العراق) ــ بغداد ١٩٦٧ ــ ص ٤٠ .

(10) Barker (The Neglected war) — London 1967 — p. 86.

(١١) تحسين العسكري (الثورة العربية الكبرى) ــ بغداد ١٩٣٦ ج ١ ص ٧٠ .

يتم لنا الفوز في تلك المعركة الا" لان القائد التركي حليم بك كان جباناً لا يملك مثقال ذرة من الحزم ، فلما استولينا على مواضعه الامامية لاذ بالفرار بدلاً من الثبات في وجهنا . (١٢)

هنا نود ان نتساءل : هل كان انسحاب حليم بك بسبب جبنه وقلة حزمه كما يقول طوتزند ، أم كان بسبب المبلغ الضخم من الليرات الذي وصله من طوتزند سراً كما يقول عثمان خلوصي بك ؟ علم ذلك عند الله !

البلاغات الرسمية :

ان معركة الزوارق التي تحدثنا عنها آنفاً نالت شهرة عالمية في حينها ، وأخذت الصحف تتحدث عنها اذ هي كانت نادرة في تاريخ الحروب ، وقد سماها اللورد كرو في مجلس اللوردين بلندن بـ « الحملة البرمائية » ، وأطلقت عليها الصحف البريطانية اسم « سباق زوارق طوتزند » .

وعلى أي حال فقد كان انسحاب الاتراك عقب تلك المعركة غير منظم تسوده الفوضى ، فقد ركب بعضهم في المراكب والسفن المحلية والزوارق، بينما سار البعض الآخر مشياً على الاقدام . وكانت المراكب الانكليزية تتعقبهم بشدة وترميهم بالقنابل ، فهلك منهم الكثيرون ووقع في الاسر منهم بضع مئات .

ومن الجدير بالذكر أنه في الوقت الذي أصيبت فيه القوات التركية بتلك الهزيمة الشنعاء كانت البلاغات العسكرية تصدر ببغداد وهي تنوه بالانتصارات التي نالتها تلك القوات في حربها ضد الانكليز . فقد صدر بعد ثلاثة أيام من المعركة بلاغ هذا نصه : « وردت برقية من قائد القوات العثمانية المظفرة في الجبهة العراقية تدل على أن القوات الانكليزية حاولت مراراً متعددة احتلال مراكزنا الامامية الا" أنها فشلت نهائياً ورُدت على أعقابها » . ثم صدر في اليوم نفسه بلاغ آخر يقول : ان العدو اضطر الى التقهقر ، ولم تعلم خسائره حتى الآن ولكن المظنون أنها كثيرة جداً . وفي اليوم التالي صدر بلاغ ثالث هذا نصه : « ان العدو

---

(١٢) تشارلس طوتزند (المصدر السابق) ــ ص ٥٦ ــ ٥٧ .

الذي دحرناه ورددناه بنجاح في غربي القرنة في جوار قلعة النجم ، كما ورد في بلاغ أمس ، جاء بنجدات أخرى وابتدأ في الساعة العاشرة ليلاً بالهجوم على مراكزنا . واستمرت المعركة حامية الوطيس حتى الساعة الثانية بعد الظهر وانتهت بانكسار العدو وتشتيته وخصوصاً عند جناحنا الايمن . وكان العدو قد شحن جنودا ومدافع ورشاشات في الزوارق التي تقوى على الانتقال في المجاري المسماة (اهوارا) والتي تصب في الفرات شرقي قلعة النجم ، واندس العدو خلف جناحنا الايمن محاولا الاحاطة بنا الا" ان ما أظهره جنودنا ومجاهدونا في هذا الجناح من الثبات اضطر العدو الى الانهزام التام وتراجع مشتتاً مقهورا حتى ان الانكليز الذين لم يتمكنوا من العودة الى الزوارق فروا تاركين في النهر سلاحهم ومدفعين رشاشين . وقد نزل بالعدو في هذه المعركة خسارة تزيد على ألف قتيل وجريح ، وبين القتلى قائد انكليزي برتبة ميجر وضابطان » . ثم صدرت بعدئذ ثلاثة بلاغات أخرى خلال مدة قصيرة وهي تنحو مثل هذا المنحى . (١٣)

يبدو أن الاتراك ارادوا بهذه البلاغات المتعاقبة ترسيخ « الكذبة » في أذهان الناس . وهذا يذكرنا باسلوب الدعاية الذي اتبعه غوبلز في الحرب العالمية الثانية حيث كان شعاره : « اكذب واكذب ثم اكذب حتى يصدقك الناس » .

سقوط العمارة :

كان طوتزند قد قرر عقب انتصاره في معركة الزوارق أن يستغل هذا الانتصار الى الدرجة القصوى وبكل وسيلة متيسرة لديه ، فأوعز الى اسطوله النهري المؤلف من سبعة مراكب أن يطارد الاتراك المنسحبين بأقصى سرعة ممكنة ، كما قرر أن يذهب بنفسه مع الاسطول تاركاً قواته وراءه ، وكان قصده من ذلك الوصول الى العمارة قبل أن يتمكن الاتراك من تحضير وسائل الدفاع فيها . انها كانت مجازفة عسكرية مليئة بالخطر ،

---

(١٣) مجلة الاسرار البيروتية في عددها الصادر في ١٢ تموز ١٩٣٨ .

ولكن طوتزند صمم على القيام بها دون اهتمام بأي شيء آخر • ومن يدري فربما كان متفقاً على ذلك سراً مع حليم بك •

كان طوتزند قد جعل مقره في المركب « اسبيكل » ، وحين وجد هذا المركب بطيئاً في سيره انتقــل الى مركب آخر أصغر منــه وأسرع ، هو « كوميــت » • ولم يكن يرافقه سوى ثلاثين بحاراً واثني عشــر جنــدياً وستة ضباط فقط • وقد رافقه أيضاً السر برسي كوكس لمساعدته في التفاهم مع أهل القرى والمدن المتوقع احتلالها •

وفي الساعة الثالثة والنصف من عصر ٢ حزيران ١٩١٥ وصل اسطول طوتزند الى بلدة قلعة صالح ، وكانت الاعلام البيض ترفرف على جميــع بيوت البلدة • وشوهد زورق قادماً من البلدة وهو يحمل رؤساءها لمقابلة طوتزند ، واغتنم طوتزند الفرصة ليؤثر فيهم نفسياً فقال لهم : « كونوا بأمان ليس هنــاك من يعتدي عليكم ما دمتم أعلنتم خضوعكم واستسلامكم • وهناك خمسة عشر ألفاً من جنودنا ستصل طلائعها في هــذا المساء او فــي صباح غد على أبعد تقدير ، وهذه القوات بحاجة ماسة الى القوت وعلف حيواناتها ، فعليكم أن تعملوا منذ الآن على تلبيتنا فــي ما نطلب منكم • وكونوا على ثقة وطيدة بأن قواتنا هذه وان كانت قــادرة على امتــلاك ما تحتاجه فوراً غير أنها لا تستولى على شيء قبل دفع ثمنه نقدا • فلسنا نريد أن نتبع خطة الاتراك فى امتلاك ما لدى الاهلين عنوة ونحن لا نضمر للاهلين العداء • اننا نعتبركم كأخوان لنا ، ونحن لم نخض هذه الحــرب الطاحنة الا من أجل انقاذكم والعمل واياكم يدا واحدة » • (١٤)

الواقع ان قوات طوتزند كانت وراءه بمسافة بعيدة وهي لم تكن بهذا العدد الذي ذكره طوتزند ، وهي كذلك لم تكن بحاجة الى قوت وعلف ، ولكن طوتزند انما قال ذلك لرؤساء قلعة صالح بقصد الخداع والحيلــة ، فهو كان يعلم بأنهم سينقلون الخبر الى الأتراك بسرعة وسيؤدي ذلــك الى انهيار عزيمة الاتراك • وقد نجحت الحيلة فعلاً !

وسار الاسطول نحو العمارة ، فكان يشاهد الاعلام البيض منصوبة

---

(١٤) مجلة الاسرار البيروتية في عددها الصادر في ٢٦ تموز ١٩٣٨

في جميع القرى التي يمر بها ، وكان الرجال والنساءوالاطفال الذين يعملون في الحقول يلوحون بأيديهم له • ولما وصل الاسطول الى مسافة اثنى عشر ميلاً من العمارة ارتأى طونزند التوقف لأنه كان معتقداً كل الاعتقاد ان الاتراك سيقاتلون للدفاع عنها • وقد جرت محاورة بينه وبين أحد ضباطه الكابتن «نن» ، فقد كان هذا الضابط يلح على المغامرة باقتحام العمارة واحتلالها ، بينما كان طونزند يريد التريث لوثوقه من أن الاتراك سيدافعون عن البلدة • وبعد ساعة من هذهالمحاورة طرأ تغير على تفكير طونزند حيث قرر أن يجرب حظه ويتقدم نحو العمارة على سبيل المجازفة•

الواقع ان حليم بك كان قبل وصول اسطول طونزند الى العمارة قد أصدر أوامره للدفاع عنها ، وقد كان في مقدوره أن ينجح في الدفاععنها لو أنه كان مصمماً على ذلك اذ كان لديه فوج تركي فدائي هو الفوج الذي يسمى بـ «اطفائية اسطنبول» وهو مشهور ببسالته وقوة صموده في القتال • أضف الى ذلك أن قوات الداغستاني التي انسحبت من عربستان كانت على وشك الوصول الى العمارة وكان عددها يناهز الألفين • أما طونزند فكانت قواته بعيدة وراءه بمسافة يستغرق قطعها أربعاً وعشرين ساعة ، وكان في مقدور حليم بك أن يأسر طونزند ومرافقيه القليلين بسهولة قبل أن تصل قواته اليه •

ومهما يكن الحال فقد قرر حليم بك فجأة أن يستسلم للانكليز • وفي عصر ٣ حزيران عندما كان اسطول طونزند قد وصلتجاه دائرة الكمرك في العمارة ، شوهد زورق قادماً من البلدة ، وتبين أنهيحمل القائد حليم بك ومعه متصرفه العمارة عاصم بك وعدد من الضباط كباراً وصغاراً • انهم جاؤوا لمقابلة طونزند بغية الاستسلام له • وأراد طونزند أن يكرر نفس الحيلة التي فعلها مع رؤساء قلعة صالح من قبل ، فقال للمتصرف : ان وراءه قوة عسكرية تعدادها خمسة عشر ألف جندي وهي ستصل بعد وقت قصير وسوف تكون بحاجة الى أطعمة • فأجاب المتصرف وقد انطلت عليه الحيلة : ان لديه مقادير كبيرة من البقسماط • وأراد طونزند أن يقوي تأثير الحيلة في قلوب الاتراك ،فصار يبدي تذمره بحجة أن مقادير البقسماط على كثرتها لا تكفي لاطعام قواته

الكثيرة التي هي على وشك الوصول ، وألح على المتصرف أن يقوم حـالاً بجمع الاغنام من البلدة .(١٥)

وبعد أن وثق طوتزند من نجاح حيلته أرسل ضابطاً صغيراً مع جنديين الى الثكنة في البلدة لأسر الفوج الفدائي الذي كان تعداده ستمائة جندي. وحين وصل الضابط والجنديان الى الثكنة استسلم الفوج كله لهم . فكان منظراً عجيباً حيث كان ثلاثة رجال يسوقون فوجاً فدائياً ، فأخرجوه مـن الثكنة ثم ساروا به الى رصيف النهر وأركبوه جنيبة كبيرة . وكان طوتزند يخشى أن يفطن الفوج الى الحيلة فيتمرد على آسريه الثلاثة ، ولهذا أوعـز بأن تتحرك الجنيبة التي تحمل الفوج الى وسط النهر وتقف هناك لكي تكون تحت رحمة المدافع المسلطة عليها من المراكب .

وصادف في تلك الساعة وصول قوات الداغستاني الى العمارة قادمة من عربستان فأطلق المركب «شيطان» عليها قنابله ، فاستسلمت طلائع تلك القوات للانكليز بينما هرب الباقون نحو الشمال بلا نظام ، ولكن بعـض هؤلاء الهاربين عادوا فاستسلموا للانكليز يحدوهم الخوف من أعـراب بني لام .(١٦)

وفي صباح ٤ حزيران أخذ بعض سكان العمـارة ينهبـون بيوت الضباط الاتراك ودوائـر الحكومة والمستشفيـات ومستودعات الاطعمة وغيرها ، فكان منظرهم وهم يحملون منهوباتهم على شاطئ النهر كأنهم أسراب النمل . وبدأت طلقات الرصاص تسمع من داخل البلدة . فأصدر طوتزند أمره الى المركب «كوميت» بأن يطلق النار على الناهبين الذيـن كانوا يركضون على ضفة النهر ، فسقط منهم أربعة أو خمسة أشخاص بينما أخذ الباقون يرمون المنهوبات من أيديهم ويهربون لا يلوون على شيء وهم يطأون بعضهم بعضاً .(١٧) .

---

(١٥) تشارلس طوتزند (المصدر السابق) ــ ص ٩٥ .

(16) Arnold Wilson (Loyalties — Mesopotamia) - London 1936 - vol. 1, p. 48.

(١٧) تشارلس طوتزند (المصدر السابق) ــ ص ٩٧ .

كان مجموع الأسرى الذين وقعوا في أيدي الانكليز فيواقعة العمارة يقارب الالفين . ثم وصل الجنرال نكسون الى العمارة فهنأ طونزند تهنئة حارة على هذا النصر الرائع الذي ناله من غير خسارة . ويقول باركـر : ان هذا الانتصار هو الذي بعث الثقة المفرطة في قلوب القواد البريطانيين مما شجعهم على القيام بمغامرات أخرى تلك المغامرات التي انتهت بكوارث سلمان باك والكوت .[١٨]

قصـة ذات مغـزى :

حدثت للضابط العراقي تحسين العسـكري ، على أثـر سـقوط العمارة ، قصة جديرة بالذكر هنا لما فيها من مغزى اجتماعي ، وهو قد سجلها في مذكراته ،[١٩] ننقل فيما يلي ملخصاً لها :

كان تحسين العسكري من بين ضباط القوات التركية التي استسلمت في العمارة ، ولكنه لم يسلم نفسه مع بقية الضباط بل آثر الهـرب من الانكليز ، ولهذا تنكر بالملابس الاهلية وذهب يمشي في أزقة العمارة على غير هدى . وبينما هو سائر في الازقة شاهد زميـلاً له بغـدادياً ببزته الرسمية اسمه «برقي شوقي» واتفق الاثنان على الالتجاء الى أحد البيوت للاختفاء فيه ، ووقع اختيارهما على دار فطرقا بابها ، فخرجت اليهما امرأة تبين أنها يهودية ، فادخلتهما الى الدار . وهنـاك في الـدار غيّر الضابط برقي رأيه وقرر الاستسلام للانكليز ثم انطلق خارجـاً . أمـا تحسـين العسكري فقد قرر الالتجاء الى الشيخ عريبي رئيس عشيرة ألبو محمد ، وأرسل اليه أحداً من أهل الدار يخبره بأمره ، فأرسل الشيخ عريبي اليـه عبداً من عبيده لاصطحابه الى داره .

من الجدير بالذكر أن الشيخ عريبي كان قد شارك في حركة الجهاد على رأس عشيرته في القرنة، وكان قبل هذا قد حصل على لقب « باشا » من الحكومة التركية ، ولكنه عند عودته الى العمارة اغتنم أول فرصـة

---

(18) Barker (op. cit) — p. 90.

(١٩) تحسين العسكري (المصدر السابق) ــ ج ١ ص ٧٥ ــ ٧٩ .

أتيحت له لمراسلة السر برسي كوكس والتفاهم معه . ولما سقطت العمارة في ٣ حزيران سعى الشيخ عريبي لتجديد صلته بالانكليز وتوثيقها حيث نراه في صباح اليوم التالي يذهب لزيارة طوتزند وكوكس في مركبهما في النهر ، وفي عصر ذلك اليوم جاء كوكس لردالزيارة للشيخ عريبي في داره .

وعند وصول كوكس الى الدار لم يكن الشيخ عريبي فيه بل كان ابنه محمد ومعه الشيخ مجيد الخليفة ، وكان العسكري جالساً معهما في غرفة مطلة على الشارع . ويدعي العسكري : أنه حين لمح كوكس قادماً في الشارع توترت أعصابه فتناول مسدسه يريد قتل كوكس به ، ولكن الرجلين أمسكا بيده واختطفا المسدس منه .

ولما علم الشيخ عريبي بالأمر أخيراً قرر التخلص من العسكري لكي لا يورطه مع الانكليز في مشكلة هو في غنى عنها ، فاستحصل له من كوكس وثيقة مرور باسم مستعار ، ثم ساعده على الخروج من العمارة والذهاب الى مركز العشيرة في قرية «مسيعيدة» .

غادر العسكري العمارة في ٥ حزيران حيث ركب زورقاً وسار به شمالاً . وعلى بعد عشرة كيلومترات من العمارة شاهد على الشاطىء ضابطاً بغدادياً اسمه حسني الشواف ، وكانت العشائر قد سلبته كلما عليه ولم يتركوا له سوى ثوب رث ، فأركبه معه في الزورق ، واستمر على السير حتى وصل هو ورفيقه الى قرية «المسيعيدة» فنزلا في مضيف الشيخ عريبي .

كانت الشيخة عريبة أخت الشيخ عريبي هي التي تقوم مقام أخيها أثناء غيابه في ادارة شؤون المضيف ، وقد رحبت الشيخة بالرجلين اللذين نزلا عندها وهيأت لهما كل وسائل الراحة . وقد مكث الرجلان في المضيف حتى اليوم التالي ، ومن غرائب الصدف انهما بينما كانا جالسين في المضيف اذ شاهدا كوكس نفسه يدخل المضيف وبصحبته الشيخ عريبي .

كان الغرض من مجيء كوكس هو لزيارة المضيف ، ولما أتم كوكس شرب القهوة التفت بشكل مفاجىء نحو الشيخ عريبي واخته يسألهما : هل صحيح أن عندكما ضباطاً من الاتراك مختبئين ؟! فجفل الشيخ عريبي من هذا السؤال ، ووثب على قدميه قائماً ، وأخذ يقسم

بالأيمان المغلظة على أن الخبر غير صحيح وأنه لا بد أن يكون وشاية من أعدائه للتنكيل به . فتضاحك كوكس كأنه يريد أن يهدىء من روع الشيخ عريبي . ثم حضر الطعام فانقطع عن الموضوع .

وقد عاد كوكس الى العمارة عقب تناول الطعام . أما العسكري والشواف فقد غادرا المضيف حيث ركبا زورقهما متوجهين به نحو الكوت.

سقوط الناصرية :

على أثر احتلال العمارة قرر الجنرال نكسون أن يحتل الناصرية لكي يتم بذلك السيطرة على ولاية البصرة كلها بألويتها الثلاثة . وقد ناط هذه المهمة بالجنرال غورنج وكان هذا القائد قد عاد تواً من حملته الانتقامية في عربستان .

ان التحريات التي قام بها غورنج دلت على أن الطريق الافضل للوصول الى الناصرية هو التحرك من القرنة عبر الفرات ثم اجتياز بحيرة الحمار الى جدول عكيكة ومنه الى سوق الشيوخ فالناصرية .

وفي فجر ٢٧ حزيران ١٩١٥ تحركت الحملة الانكليزية من القرنة وكانت مؤلفة من مراكب حربية وبواخر تحمل الجنود وعدد من الزوارق والجنائب . وكان منظر المركبين « اسبيكل » و « أودن » وهما يمخران بحيرة الحمار بصواريهما العالية يملأ القلوب رعباً . (٢٠)

وصلت طلائع الحملة الى صدر جدول عكيكة في الساعة الواحدة والنصف من عصر ذلك اليوم ، فوجدت هناك سدة متينة الصنع كانت العشائر قد صنعتها لرفع مستوى الماء في الجدول قوامها أحجار وأخشاب وسفن قديمة . فحاول الانكليز تدمير السدة بقصفها بالقنابل ولكن القصف لم يؤثر فيها شيئاً ، واضطروا أخيراً الى نسفها بالديناميت . وقد بذلوا في ذلك جهوداً مضنية استغرقت ستاً وثلاثين ساعة .

وبعد نجاح الانكليز في اجتياز سدة عكيكة توجهوا نحو بلدة سوق الشيوخ فاحتلوها في ٦ تموز . وقد وصل الى البلدة عقب احتلالها السر

(20) Arnold Wilson (op. cit) — vol. 1, 52—53.

برسي كوكس الذي كان الأعراب يسمونه « سبّوزي كوكز » ، [٢١] فجرت بحضوره حفلة رفع العلم البريطاني على سراي الحكومة .

وبعد احتلال سوق الشيوخ توجهت القوات الانكليزية نحو الناصرية . ويبدو أن الانكليز كانوا يظنون أنهم سوف يحتلون الناصرية بمثل السهولة التي احتلوا بها العمارة ، ثم اتضح لهم أخيراً أن ظنهم هذا لم يكن على صواب .

كان قائد القوات التركية في الناصرية ضابطاً بغدادياً اسمه أحمد بك أوراق ، وهو من طراز يختلف كل الاختلاف عن طراز حليم بك ، اذ كان رجلاً باسلاً مخلصاً لدولته عليماً بقواعد الحرب ، وقد عبأ قواته للدفاع عن الناصرية تعبئة جديرة بالثناء . ولما تقدمت القوات الانكليزية نحو الناصرية وجدت مقاومة عنيفة على طول الطريق اليها ، وكانت تلك أول مرة يجابه الانكليز فيها مثل هذه المقاومة العنيفة في العراق .

طلب الجنرال غورنج الامدادات من البصرة غير مرة ، ولم يتمكن من الوصول الى الناصرية الا بعد جهد جهيد ، وقد تم له احتلالها في ٢٤ تموز ، غير أنه لم يوفق الى تأسير جميع القوات التركية التي كانت فيها فقد أفلت القسم الاكبر منها متجهاً الى الشطرة ومنها التحق بالقوات الرئيسة التي كانت تتجمع في الكوت بأمرة القائد العام نورالدين بك .

كانت خسائر الاتراك تقارب الألفين بين قتيل وجريح ، وخمسة عشر مدفعاً ، ونحو ألف من الأسرى . أما الانكليز فكانت خسائرهم زهاء خمسمائة قتيل وجريح. وقد اعتبرت معركة الناصرية نصراً عسكرياً للجنرال غورنج ، غير أنها كانت غلطة سوقية بالنسبة للجنرال نكسون . فلقد كان من الأفضل لنكسون أن يركز كل قواته على دجلة باتجاه الكوت وبغداد بدلاً من بعثرة قسم منها في الناصرية . ان احتلال الناصرية لم يخدم أي غرض عسكري هام ، وكان القائد الانكليزي العام في الهند قد اعترض على القيام به منذ البداية . [٢٢]

---

(21) Barker (op. cit.) — p. 92—94.

(22) George Buchanan (The Tragedy of Mesopotamia) — London 1938 — p. 17—18.

فرار ضباط عراقيين :

كان في الناصرية قبل سقوطها بيد الانكليز كثير من الضباط العراقيين، وكانوا فئتين : احداهما متمسكة بعثمانيتها وترى وجوب الاستمرار في القتال الى جانب الاتراك ضد الانكليز «الكفار» ، أما الفئة الاخرى فكانت على الضد من ذلك تؤمن بالقومية العربية وترى أن الدولة العثمانية تعاني الآن سكرات الموت بعد الهزائم المنكرة التي حلت بها ويجب على العرب أن يغتنموا هذه الفرصة للاتصال بالانكليز والتعاون معهم في سبيل تأسيس دولة عربية مستقلة • وفي ٢٧ حزيران قرر ثلاثة ضباط من هذه الفئة الاخيرة أن يهربوا الى الخطوط الانكليزية ، وهم : مولود مخلص وعبدالله الدليمي وعلي جودت الأيوبي •

ليس لدينا علم عن كيفية هرب الضابطين الاولين ، أما الثالث وهو علي جودت الايوبي فقد سجل قصة هروبه في مذكراته [٢٣] ، نلخصها فيما يلي لأهميتها :

كان الأيوبي في معية القائد أحمد بك أوراق عندما كان هذا يقوم بجولة في النهر مع سرية من الجنود على ظهر باخرة ، ولما وصلوا الى سدة عكيكة وجدوا هناك الشيخ عجمي السعدون في حالة استعداد مع عشائره لخوض المعركة ، وقد طلب عجمي مقداراً من العتاد فأوعز أحمد بك الى الايوبي بتجهيز العتاد له • وبينما كان الايوبي مشغولاً بذلك انصبت عليهم القنابل الانكليزية مما اضطر أحمد بك وجنوده الى الانسحاب بالباخرة على عجل ، حيث تركوا وراءهم الايوبي مع نفر من الجنود ، وعند هذا انثالت العشائر على الايوبي وجنوده تريد سلب بنادقهم • يقول الايوبي انهم صاروا اذ ذاك بين نارين : نار الانكليز من جانب ونار العشائر من الجانب الآخر • فاضطر الايوبي أن يرمي بنفسه الى جدول للاحتماء به ، ولما هدأ اطلاق النار خرج من الجدول وصار يمشي متجهاً نحو سوق الشيوخ•

وصف الايوبي المشاكل التي واجهها أثناء سيره في طريق سوق الشيوخ اذ كان أفراد العشائر يحاولون نهبه مرة بعد مرة ، وذكر كيف أنه في

(٢٣) علي جودت (ذكريات) ــ بيروت ١٩٦٧ ــ ص ٣٤ ــ ٣٨ •

احدى المرات جوبه برجلين يصوبان بندقيتيهما عليه ، وصرخ أحدهما به « سلّم ياولد ! » ، فاستنجد الايوبي بأحدهما على طريقة الدخالة العشائرية قائلاً : « أنا بوجهك ياولد ! » ، فوافق الرجل على قبول دخالته بشرط أن يرمي له الايوبي سلاحه فوراً . وبعد أن أعطاه الايوبي سلاحه أخذ أحد الرجلين يفتشه ، فأدرك الايوبي مقصد الرجل من التفتيش فقدم له محفظة نقوده التي كانت تحتوي على خمس ليرات مع مجيدي واحد . ثم صار الايوبي يتوسل الى الرجل لكي يرجع له شيئاً من نقوده لأنه لا يملك غيرها ، وأخذ يلح في التوسل ، فأعطاه الرجل المجيدي ثم دفعه بكلمات بذيئة ليتخلص من الحاحه . يقول الايوبي انه كان يحمل عددا كبيرا من الليرات الذهبية مخفية في هميانه وهو انما ألح في طلب نقود قليلة من الرجل لكي يحمله على الاعتقاد بأنه لا يملك غيرها . وقد نجحت الحيلة .

وحين وصل الايوبي الى بلدة سوق الشيوخ وجدها في هرج ومرج ، فبات ليلته تلك عند رجل من شرطة الدرك اسمه « علي الحشاش » ، وفي الصباح خرج الايوبي ليتمشى في السوق فوجدها قد احتلها الانكليز ورأى ثلة من الجنود يتقدمهم كوكس وويلسون ومعهم الشيخ فرهود المغشغش ، فاستوقفه الجنود وسأله أحدهم بالعربية : هل أنت ضابط ؟ فانبرى الشيخ فرهود يجيب عنه وهو يضحك قائلا : « نعم ضابط واسمه علي جودت » . فألقى الجنود القبض عليه ، وسيق الى البصرة حيث التقى فيها بزميليه مولود مخلص وعبدالله الدليمي .

مكث الثلاثة في البصرة سنة واحدة تقريباً ، ولم يذكر الايوبي في مذكراته تفاصيل ما جرى لهم في البصرة ، ولكن مجلة « الاسرار » البيروتية ذكرت شيئاً من ذلك نقلاً عن مولود مخلص فيما يبدو ، وخلاصته أن كوكس عامل اولئك الثلاثة معاملة ممتازة وقال لهم انه لا يعتبرهم أسرى بل ضيوفاً عليه ، ثم أرسلهم الى العمارة لمقابلة الجنرال نكسون الذي كان فيها آنذاك ، وعندما قابلوا نكسون عرضوا عليه اقتراحاً بتأليف قوة من المتطوعين العراقيين تقاتل الى جانب القوات الانكليزية لقاء تصريح من القائد العام بالمساعدة على تحقيق الاستقلال الذي يصبو اليه العرب ،

فكان رد نكسون عليهم أنه لا يملك السلطة التي تخوله أن يفعل ذلك ولكنه على أي حال مستعد أن يقبلهم ضباطاً في الجيش الانكليزي ووعدهم بالرتب العالية والوظائف التي يرغبون فيها ، فقال له مولود مخلص : انهم يسعون لهدف وطني وليس لنيل الرتب والوظائف فأجابه نكسون قائلاً : ان انضمامكم الى صفوفنا هو في حد ذاته عمل وطني لاننا لم نعلن الحرب الا من اجل تحرير الشعوب المستضعفة . فلم يقبل الثلاثة بهذا الجواب وظلوا مصرين على اقتراحهم الاول ، وعند هذا قدم نكسون اليهم انذاراً نهائياً قال فيه : ان عليهم ان يقبلوا الوظائف التي عرضت عليهم والا فانه يعتبرهم عثمانيين ويعاملهم معاملة الاسرى . وحين وجدهم يرفضون انذاره أمر باعادتهم الى البصرة ومعاملتهم كبقية الاسرى الذين كانوا معتقلين هناك . (٢٤)

يواجهنا هنا سؤال : لماذا قابلهم نكسون بهذه المقابلة الخشنة ، ولماذا لم يستجب لمطاليبهم ، مع العلم ان ذلك سيشجع ضباطاً آخرين على الهرب من خطوط الاتراك والانضمام الى الانكليز ؟

لكي نستطيع الجواب على هذا السؤال يجب أن نذكر ان السياسة البريطانية يومذاك كانت منقسمة تجاه العرب الى مدرستين متضادتين في الرأي هما : مدرسة القاهرة ومدرسة الهند . فلقد كانت مدرسة القاهرة تضم اولئك الرجال الذين كانوا يعملون فيما يسمى بـ « المكتب العربي » في القاهرة من أمثال مكماهون وستورز وسايكس وكلايتون ووينجيت وهوغارت ولورنس وكورنواليس وغيرهم ، وكانت السياسة التي يتبعونها هي العمل على تشجيع الدعوة القومية بين العرب والتعاون معهم لمقاومة الدعوة الدينية التي كان الاتراك يلتزمونها . أما مدرسة الهند فكانت تضم الضباط الذين كانوا يشرفون على الحملة البريطانية في العراق ، وكان رأيهم ان القوات البريطانية قادرة أن تفتح العراق من غير حاجة الى معونة العرب ، وان معونة العرب قد تضر بريطانيا اكثر مما تنفعها لانها تجعل العرب بعد الحرب يغالون في مطاليبهم الوطنية فيؤدي ذلك الى تعقيد

---

(٢٤) مجلة الاسرار البيروتية في عددها الصادر في ٣ تشرين الاول ١٩٣٨ .

التسوية النهائية للوضع السياسي في العراق •

ولا حاجة بنا الى القول بأن الجنرال نكسون كان من اتباع مدرسة الهند ، وهذا قد يفسر لنا سر رفضه لمطاليب الضباط العراقيين • ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن اتباع هذه المدرسة تراجعوا عن موقفهم هذا فيما بعد لا سيما حين حلت بهم الهزائم في الكوت ثم انتصرت مدرسة القاهرة بثورة الشريف حسين في الحجاز • يقول علي جودت الايوبي في مذكراته : ان حاكم البصرة العسكري استدعاهم على أثر اعلان الشريف ثورته وسألهم قائلا : هل أنتم مستعدون للذهاب الى أي قطر عربي ينادي بالاستقلال ؟ فكان جوابهم : نعم ! فابرق الحاكم الى مكة برغبتهم هذه ، وعاد الجواب منها مرحباً بهم فسافروا اليها ••• (٢٥)

مؤامرة في الناصرية :

ان هرب الضباط العراقيين الثلاثة أثار خوف القائد التركي نور الدين بك فأوعز الى رجال استخباراته بتشديد الرقابة على الضباط العراقيين الآخرين الموجودين في الجبهة ، وأوصى بأن لا يعطى هؤلاء الضباط مراكز ذات مسؤولية في الجيش خشية أن يستميلهم الانكليز فيصاب الجيش من ذلك بالضرر الكبير • وأرسل نور الدين بك الى القيادة العليا في اسطنبول تقريراً يلفت نظرها الى موقف الضباط العراقيين وخوفه منهم ويطلب منها تقليل عددهم في الجبهة العراقية واستبدال ضباط أتراك بهم على أن يرسل الضباط العرب الى جبهة قفقاسيا أو الى منطقة تركية أخرى • (٢٦)

يبدو أن خوف نور الدين بك كان في محله ، فقد كان الضباط العراقيون في الناصرية مصممين على شيء ، وقد شجعهم هرب زملائهم الثلاثة فقرروا الاحتذاء بهم ، غير أنهم ارتأوا أن يتصلوا بالانكليز قبل الهرب لكي يضمنوا بذلك مصيرهم • وفي ١٤ تموز عندما كانت الناصرية مهددة بزحف القوات الانكليزية عليها اجتمع نفر منهم سراً في دار

---

(٢٥) علي جودت (المصدر السابق) — ص ٣٨ •

(٢٦) مجلة الاسرار البيروتية في عددها الصادر في ٣١ تشرين الاول ١٩٣٨ •

يوسف العزاوي وكان فيهم بالاضافة الى صاحب الدار: تحسين العسكري، تحسين علي ، عبدالرحمن الاعظمي ، صـادق الشيخلي ، اسماعيل نامق ، يوسف حنظل ، عيسى الوتري ، توفيق وهبي ، رشدي القبطان ، رمـزي فتاح ، خلف خيري • وكان فيهم كذلك ضباط سوريون كصادق الجندي وتوفيق الحموي • وقد بدأ يوسف العزاوي الحديث فقال ما نصه :

« ترون ايها السادة أن الموقف بات خطراً للغاية فالحكومة العثمانية أهملت أمر البلاد كل الاهمال ، وهي بدلاً من أن تنصفنا وتساعدنا فـي هذه الاحوال الحرجة أرهقت شعبنا واستبدت عليه ••• وقد كان فـي امكاننا لو أنصفونا أن لا نثور عليهم ولكنهم أحرجونا فأخرجونا • ان الجيش العثماني لم يتمكن الى الآن من الثبات في أي معركة من المعـارك تجاه الانكليز ، والقوات الانكليزية تتقدم في البلاد محتلة ••• وهـــذا معناه خلاصنا من نير أجنبي ضعيف ووقوعنا تحت نير أجنبي قوي • فعلينا اذن ان نعالج الموقف بدقة وان نتخذ تدابير من شأنها تحقيق الهـــدف الذي نسعى اليه » •

وبعد أن انتهى العزاوي من كلمته هذه حدثت مناقشة طويلة بيـن الحاضرين قرروا على أثرها ان الوقت حان لاعلان الثورة العراقية والدخول في مفاوضات سرية مع الانكليز للحصول على مساعدتهم في نيل استقلال العراق • وقد ارتأى الحاضرون ان قائد الموقع أحمد بك اوراق وضابط ركنه عادل بك يُخشى منهما ويجب اعتقالهما ، وعهدوا بأمر اعتقالهما الى اثنين منهم هما توفيق وهبي ورمزي فتاح • وقرر الحاضرون كذلك وجوب ارسال يوسف العزاوي الى الشيخ عجمي السعدون والشيخ خيون العبيد لمفاتحتهما في موضوع الثورة واقناعهما بالاشتراك فيها •

ذهب العزاوي عقب انتهـاء الاجتماع الى مضـارب الشيخ عجمي السعدون لمفاتحته في الامر ، ومما يجدر ذكره في هذا الشأن ان الانكليز كانوا قد اتصلوا بالشيخ عجمي قبل عدة أشهر محاولين استمالته اليهم ، وكان جوابه لهم : أنه يخشى أن تنحط سمعته اذا تخلى عن الاتراك من غير

سبب ، وانه سوف يجد سبباً يبرر تركه لهم .[٢٧] والظاهر أنه وجد السبب المبرر عندما جاء اليه العزاوي يعرض عليه اقتراح الضباط العراقيين، فقد قال له انه لم يكن يستطيع الانفصال عن الاتراك من غير سبب وجيه أما اذا تعهد الانكليز باستقلال العراق فانه أول من ينظم الى الحركة . وقد تم الاتفاق بينهما أخيراً على ارسال مندوب من الشيخ عجمي الى الجنرال غورنج لهذا الغرض .

حين قابل مندوب الشيخ عجمي الجنرال غورنج كان جواب هذا القائد يشبه جواب نكسون للضباط الثلاثة من قبل وهو أنه لا يملك أية سلطة تخوله اعطاء وعد حول استقلال العراق . ثم قال غورنج ان كل ما يستطيع أن يفعله في هذا الامر هو أن يعترف للشيخ عجمي بسيادته على عشائر المنتفق وأن يساعده بمبلغ مائتي ألف روبية تدفع له حالاً علاوة على منحه ما يحتاج من مرتبات وأسلحة وضباط للتدريب . ولما علم الشيخ عجمي بهذا الجواب قال : « انني أحقر نفسي اذا رددت عليه ».

حاول الانكليز بعد هذا ان يستميلوا الشيخ عجمي اليهم بأن زادوا له المبلغ فجعلوه ربع مليون روبية . وأرسلوا اليه صديقاً له من وجهاء البصرة هو أحمد الصانع ليقنعه فلم يوفق . وفي ٢١ تموز ــ أي قبل سقوط الناصرية بثلاثة ايام ــ عاد يوسف العزاوي الى أصحابه وأخبرهم بنتائج المحادثات التي أجراها ثم قال لهم : « كنا نعتقد ان الانكليز في أعمالهم في العراق لا يقصدون فتوحات جديدة وانما هدفهم اسعاف البلاد العربية وتحريرها من العثمانيين ولكن المحادثات التي قمت بها دلتني على أن هؤلاء لا يقصدون تحريرنا ، ولهذا أرى من الواجب العدول عن القرار الذي اتخذناه والعمل بجانب العثمانيين الى آخر نسمة من حياتنا » . وقد وافق أصحابه على رايه ، وألغيت المقررات السابقة التي اتخذت لاعلان الثورة .[٢٨]

---

(٢٧) مس بيل (فصول من تاريخ العراق القريب) ــ ترجمة جعفر الخياط ــ بيروت ١٩٧١ ــ ص ١١ ــ ١٢ .

(٢٨) مجلة الاسرار البيروتية في عددها الصادر في ٢٤ تشرين الاول ١٩٣٨ .

معركة السن :

كان الجنرال طوتزند قد أصيب بضربة شمس بعد أيام قليلة من احتلاله للعمارة ، فنقل الى الهند للمعالجة ، وعندما تم شفاؤه عاد الى العمارة فوصلها في صباح ٢٨ آب ١٩١٥ .

كان طوتزند قد نيطت به عند عودته مهمة التقدم نحو الكوت بغية احتلالها . وبعد أن درس طوتزند مواقع الاتراك وضع خطته استنادا الى قواعد نابليون الذي كان طوتزند مولعاً به ، وكان من جملة تلك القواعد أنه يجب توجيه القوة الكبرى من الجيش ضد أضعف نقطة من خطوط العدو . وقد قرر طوتزند تطبيق هذه القاعدة في مهاجمة مواقع الاتراك التي كانوا قد أعدوها على ضفتي نهر دجلة الى الشرق من الكوت للدفاع عنها .

كانت مواقع الاتراك قد ارتكزت على موضعين أحدهما يقع على الضفة اليمنى من نهر دجلة وهو عبارة عن خط من التلول يبلغ امتداده خمسة أميال ويسمى « السن » ، والثاني يقع على الضفة اليسرى من النهر وهو عبارة عن برزخ يقع بين شاطىء النهر والاهوار الممتدة الى الشمال منه . وكانت خطة طوتزند هي أن يتظاهر بالهجوم على القوات التركية المستحكمة على الضفة اليمنى وراء تلول السن بينما هو يرسل قوته الكبرى تحت جنح الظلام الى الضفة الاخرى من النهر لتقوم بحركة التفاف واسعة من وراء الاهوار بغية تطويق القوات المرجودة هنالك .

وفي صباح ٢٧ ايلول بدأ طوتزند هجومه حسب الخطة «النابليونية» التي وضعها ، وكانوا قد أعدوا له برجاً ليصعد عليه فيراقب المعركة من فوقه . وصادف أن كان الجنرال نكسون قد وصل الى ساحة المعركة في تلك الساعة فصعد الى البرج أيضاً . ويقول طوتزند في مذكراته : انه أخذ يدير المعركة من فوق البرج دون اهتمام بالجنرال نكسون الذي كان بجانبه ، وظل نكسون ساكتاً أثناء المعركة فلم يتدخل في الاوامر التي كان طوتزند يصدرها . (٢٩)

---

(٢٩) تشارلس طوتزند (المصدر السابق) — ص ١٦٧ .

أراد طونزند خداع الاتراك وايهامهم بأن قواته تتحرك كلها باتجاه تلول السن ، ولهذا أعد عجلات كثيرة وجعلها تتحرك في تلك الجهة فأثارت غباراً كثيفاً ، مما جعل نور الدين بك تنطلي عليه الحيلة فأخذ يركز معظم قواته على مواقع السن ، تاركاً المواقع الاخرى على الضفة اليسرى من النهر ضعيفة نسبياً .

حدث أثناء المعركة حادث كاد يؤدي الى فشل خطة طونزند ، وهو أن عريفاً هندياً مسلماً هرب من الخطوط الانكليزية ومعه ثلاثة جنود والتحقوا بالاتراك بدافع من ضميرهم الديني ، وأخبروا نور الدين بك بسر الخطة . وقد اهتم نور الدين بالأمر وعقد مع كبار ضباطه مجلساً حربياً للمداولة في الامر ، ولكن المجلس قرر بعد المداولة أن فرار الجنود اليهم ليس سوى مكيدة حربية يقصد بها الخداع . وكان ذلك من حسن حظ طونزند حيث سارت خطته على النحو الذي أراده لها دون أن يفطن لها الاتراك .

كانت نتيجة المعركة انتصارا باهرا لطونزند ، حيث بدأت القوات التركية تنسحب شمالاً بعد أن خسرت ١٧٠٠ قتيل وجريح ، و ١١٠٠ أسير، و ١٤ مدفعاً . أما الانكليز فكان مجموع خسائرهم ١٢٠٠ قتيل وجريح . (٣٠)

وهنا لابد لنا من أن نذكر أن نورالدين بك وان كان قد هزم في هذه المعركة غير أنه لم ينكسر ، وهناك فرق كبير بين الهزيمة والانكسار. فقد استطاع أن يسحب معظم قواته بنظام الى موقع سلمان باك وهو موقع حصين كان قد أعد من قبل للدفاع عن بغداد .

كان المفروض في طونزند بعد أن انتصر في معركة السن أن يطارد القوات التركية مطاردة عنيفة بغية أسرها كلها أو تحطيمها ، ولكنه أخفق في ذلك . ويعزى السبب في اخفاقه هذا الى عاملين : أولهما ما أبداه نورالدين بك من حذق وهمة في ادارة قواته عند انسحابها وكذلك ما أبدته

---

(٣٠) شكري محمود نديم (المصدر السابق) ــ ص ٤٨ .

قواته من بسالة عظيمة في تعويق الحركات الانكليزية[٣١] • أما العامل الثاني في اخفاق طونزند فيعود الى قلة وسائل النقل لديه • يقول ويلسون في التعليق على ذلك : ان طونزند لو كانت لديه وسائل النقل الكافية ، البرية والنهرية ، لتمكن من أسر القوات التركية كلها ولربما استطاع بعدئذٍ أن يدخل بغداد من غير مقاومة ، ولكان ذلك نقطة تحول حاسمة في حرب العراق • [٣٢]

ومن طريف ما يذكر في هذا الصدد أن الخيالة من السيك والهندوس الذين أوعز اليهم بمطاردة القوات التركية المنسحبة ابدوا احجاماً وقلة اكتراث ، ولما سأل طونزند آمرهم عن سبب ذلك أجاب : انه لم يتمكن من نقل أواني الطبخ معه نظراً لعدم تيسر وسائط النقل وان جنوده يأنفون من استعمال أواني الطبخ العربية التي يعثرون عليها فى القرى لاعداد طعامهم • ويقول طونزند في مذكراته تعليقاً على ذلك : « فلو انضمت الى قوتي في تلك الاثناء كتيبة خيالة بريطانية واحدة لتمكنت من تكبيد الترك خسارة فادحة ابان تراجعهم • ولكنهم تراجعوا من غير أن يلحق بهم اذى ، وكل ذلك من أجل أواني الطبخ فتأمل ! » • [٣٣]

يمكن القول على أي حال ان الانتصار الانكليزي في معركة السن على الرغم من نقصه هذا قد أضاف هالة جديدة الى سمعة طونزند ، فصار اسمه مشهوراً ، ولقبه بعضهم بـ « بطل سباق الزوارق » ، كما لقبه آخرون بـ « بارون بغداد » باعتبار أنه سيفتح بغداد قريباً ويصبح الحاكم فيها • وأخذت الصحف البريطانية تتحدث عنه بزهو وفخار •

سلوك العشائر :

كان للانتصارات الانكليزية المتوالية التي تحدثنا عنها تأثير مهم في سلوك العشائر العراقية ، فقد صارت هذه العشائر واثقة كل الوثوق بأن

---

(٣١) تحسين العسكري (المصدر السابق) — ج ١ ص ٩١ — ٩٢ •

(32) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 1, 82.

(٣٣) تشارلس طونزند (المصدر السابق) — ص ١٧٤ — ١٧٥ •

الاتراك لا يرجى لهم خير وان الانكليز غالبون دائماً • وبدأت الاشاعات والاساطير تنتشر بين العشائر بوجه خاص وبين سكان العراق كله بوجه عام حول قوة الانكليز وعلومهم العجيبة وأسلحتهم الهائلة وثروتهم التي لا تحد • وكان عملاء الانكليز وجواسيسهم المنتشرون في أنحاء العراق يدأبون على بث مثل تلك الاشاعات والاساطير بين الناس ويحلفون بالله على صحتها •

يروي تحسين العسكري في مذكراته قصة تدل على مبلغ تأثير تلك الاشاعات في أذهان العشائر ، وقد وقعت تلك القصة أثناء انسحاب الاتراك من معركة السن نحو سلمان باك ، وكان تحسين يومذاك منسحباً كذلك وهو برفقة زميله يوسف حنظل ومعهما دليل ريفي اسمه « غراب » ، وصارا يتحدثان مع غراب فسألاه عن رأيه في حالة الجيشين المتحاربين فأجابهما بلهجته الريفية قائلاً : « يا خوي هذه مكتوبة لكم تظلون تطاردون للوراء » • فاغتاظ يوسف حنظل من جواب غراب ووبخه عليه ، فقال غراب تلطيفاً لغضبه : « يابيك لا تزعل ، الله ذكرها بالقرآن » ، يشير بذلك الى سورة الروم وما فيها من ذكر لمغلوبيتهم علماً بأن العشائر العراقية كانت تطلق على الاتراك اسم « الروم » • ثم أضاف غراب الى ذلك قائلاً بما معناه ان الاتراك مغلوبون حسب منطوق القرآن ، ولا فائدة من المقاومة مطلقاً • فصرخ به يوسف حنظل وأسكته • (٣٤)

ان هذه الفكرة التي سيطرت على أذهان العشائر جعلتهم يستهينون بالحكومة التركية ويحاولون ايذاءها ونهب جنودها بكل وسيلة تقع في أيديهم • وأدركت الحكومة عندئذٍ ان حركة الجهاد كانت طلاءاً ظاهرياً لدى أفراد العشائر ، وأنهم انما اندفعوا في الجهاد في البداية تحت تأثير الحماس الوقتي الذي أثاره فيهم رجال الدين ، فلما زال الحماس عادت العشائر الى سيرتها الاولى في سلوكها المعادي للحكومة • ان العداء العميق بين العشائر والحكومة الذي دام عدة قرون لا يمكن أن يزول بتأثير فورة حماسية موقتة •

---

(٣٤) تحسين العسكري (المصدر السابق) ــ ج ١ ص ١٣٣ •

يروى ابراهيم الراوي في مذكراته : أن عشيرة بني لام التي شاركت في الجهاد في عربستان برئاسة غضبان البنية أخذت بعدئذ تسلب الضباط والجنود المنسحبين كل ما كانوا يملكون . (٣٥)

ويروى الضابط التركي عثمان مظهر بك : انه كان قبيل معركة الزوارق في القرنة مكلفاً باستمالة العشائر الساكنة هناك ، فاستدعى اليها رؤساءها وخطب فيهم حيث ذكر لهم كيف أن الدولة العثمانية لا تريد الا الدفاع عنهم ودرء خطر الاعداء عنهم ، وأن الانكليز طامعون ببلادهم منذ عشرات السنين ، ولهذا أصبح من الواجب الوطني عليهم أن يهبوا للدفاع عن بلادهم حتى آخر نسمة من حياتهم . ثم وزع الضابط عليهم الاموال ، فوعدوه خيراً وقاموا بالهوسات الحماسية تأييداً له . ولكنهم لم يكادوا يشاهدون الطائرات الانكليزية تحلق في الجو حتى تفرقوا عنه من غير أن يطلقوا رصاصة واحدة ، ثم اختفوا وراء الادغال يراقبون الموقف ، ولما رأوا الاتراك ينهزمون انقلبوا عليهم وأخذوا يرمونهم بالرصاص من وراءهم . (٣٦)

المعروف عن بعض العشائر التي شاركت في معركة الشعيبة أنها لم تكد تلمح بوادر الهزيمة في جانب الاتراك حتى انثالت عليهم نهباً وقتلاً . ومن الطرائف التي تروى في هذا الصدد أن احدى العشائر قالت في هوسة لها آنذاك : « خلينا الجنة لهادينا » ، (٣٧) تقصد بذلك أنها تركت الجنة كلها للسيد هادي مقوطر الذي كان قد حصل على ثلثي الجنة في هوسة سابقة .

ألصق الاتراك عقب معركة الشعيبة تهمة الخيانة بالعرب ، ومن هنا جاءت عبارتهم المشهورة التي صار الناس يرددونها بعدهم كثيراً وهي : « عرب خيانت ! » . وقد جرت في تلك الآونة محاورة عنيفة بين الضابط أحمد بك أوراق وبدر الرميض رئيس عشيرة بني مالك ، فقد قال هذا

---

(٣٥) ابراهيم الراوي (ذكريات) ـ بيروت ١٩٦٩ ـ ص ١٣ .
(٣٦) مجلة الاسرار البيروتية ـ في عددها الصادر في ٢٦ تموز ١٩٣٨ .
(٣٧) عبدالشهيد الياسري (البطولة في ثورة العشرين) ـ النجف ١٩٦٦ ـ ص ٧٦ .

الضابط بحضور جمع من العشائر : « اننا لو فتحنا الشعيبة والبصرة يبقى علينا واجب ثاني هو فتح العراق وخاصة الفرات أولاً وعشائر شط دجلة ثانياً ، لأنهم خونة » . فأجابه بدر الرميض قائلاً : « أنتم الخونة للاسلام ! وتحزبكم ضد العرب كاف لمصداق قولي ! وأنتم أولى بالحرب والقتال ممن نحارب ، ولولا فتوى علمائنا لما وجدتمونا في هذه الساحات التي نقاتل فيها » . (٣٨)

ان هذه المحاورة تدل على العداء العميق الذي كان قائماً بين العشائر والحكومة التركية . وهذا العداء كان قد ستر عليه طلاء خفيف أثناء حركة الجهاد ـ كما أشرنا اليه آنفاً ـ وسرعان ما أزيح عنه الطلاء وعاد الفريقان الى عدائهم القديم . فهي اذن ليست قضية خيانة انما هي قضية عداء قديم تنوسي فترة قصيرة من الزمن لظروف طارئة ثم عاد أخيراً الى وضعه الاول .

هناك قصة يتداولها الرواة كثيراً في هذا الشأن خلاصتها أن جماعة من أبناء العشائر شاهدوا ذات مرة جندياً تركياً مجروحاً فأحاطوا به يسألونه بالاشارة عما عنده من النقود ، فأشار الجندي بيده الى فمه وكان يقصد أنه أنفق نقوده كلها في شراء الطعام له لشدة الجوع ، ولكنهم ظنوا أنه بلع نقوده ، فشقوا بطنه فلم يجدوا فيها شيئاً . ان هذه القصة لا ندري مبلغ صحتها ، وربما كانت من المبالغات التي يولع الناس بذكرها في مثل هذه الظروف ، انما هي على أي حال غير مستبعدة في ضوء ما نعرف من طبيعة العداء القديم بين العشائر العراقية وجنود الحكومة التركية . فالجنود كانوا فيما مضى يقسون كثيراً على أفراد العشائر ولا يشعرون ازاءهم بأي عطف أو رحمة ، ولابد أن تنتهز العشائر فرصة الهزائم التي حلت بالجنود في الحرب لكي تنتقم منهم أبشع الانتقام .

حب الغنيمة :

الواقع ان أفراد العشائر لم يقتصر نهبهم على الجنود الاتراك فقط

---

(٣٨) فريق مزهر آل فرعون (الحقائق الناصعة) ـ بغداد ١٩٥٢ ـ ج ١ ص ٤٠ .

بل تعدوهم الى رجال الدين والسادة الذين كانوا يجاهدون معهم ، ولكنهم كانوا ينهبونهم ويحترمونهم في آن واحد . وقد رويت في ذلك عدة قصص طريفة .

يروى عبدالعزيز القصاب في مذكراته قصة من هذا القبيل خلاصتها : ان المجتهد السيد عبدالرزاق الحلو الذي خرج مع أتباعه للجهاد في نواحي القرنة لم يبق معه من اتباعه بعد الهزيمة سوى أربعة رجال ، فأخذ يتنقل بهم من قرية الى قرية ، وحين قارب احدى القرى خرج اليه بعض سكانها وكانوا من مقلديه وطلبوا منه أن ينزل عن بغلته ليأخذوها اذ قالوا له : « شيخنا بدلاً من أن يأخذ أهل القرية التي أمامنا حوائجك وامتعتك وهم أعداء لنا ، فالاولى بها نحن أصحابك » . ثم استحوذوا بالفعل على بغلته وما معه من امتعة ، كما سلبوا أصحابه الاربعة ، واضطر السيد أن يسير على قدميه ماشياً بالرغم من شيخوخته ومرضه ... (٣٩)

ويروى كذلك أن جماعة من العشائريين هجموا على خيمة مجتهد كبير بغية نهبها ، فوجدوا فيها المجتهد يصلي على سجادة ثمينة فأشاروا عليه أن ينتهي من صلاته بسرعة لأنهم يريدون أخذ السجادة من تحته ، ولما لامهم المجتهد على هذا أجابوه بكل احترام : « شيخنا لا تطولها ، اذا نحن لم نأخذها أخذها غيرنا . »

ان هذه القصة والتي قبلها تذكرنا بما حدث في كربلا على أثر مقتل الحسين بن علي حين أقبل رجل من أهل الكوفة على صبية من أهل بيت الحسين فأخذ ينتزع خلخالها من قدمها وهو يبكي ، فلما سألته الصبية عن سبب بكائه أجاب بأنه يبكي للمصيبة التي حلت بأهل البيت ولكنه مع ذلك مضطر أن يستلب الخلخال منها قبل أن يستلبه رجل آخر .

ان الدافع الذي يدفع الفرد العشائري نحو هذا السلوك تجاه رجال دينه هو حبه للنهب والغنيمة ، وهو يختلف في ذلك بعض الشيء عن سلوكه تجاه جنود الحكومة اذ هو كان ينهبهم تحت تأثير دافعين هما الانتقام والنهب معاً .

---

(٣٩) عبدالعزيز القصاب (من ذكرياتي) — بيروت ١٩٦٢ — ص ١٠٨ — ١١٠ .

ومن الممكن القول ان العشائر عندما تحمست للجهاد في البداية انما كانت تأمل ان تفوز فيه بالنهب والغنيمة علاوة على الفوز بالجنة التي وعدهم بها رجال الدين . ولما اتضح للعشائر أخيراً ان الجهاد لا غنيمة فيه ، وان الحكومة مغلوبة لا فائدة ترجى منها ، انقلبوا على اعقابهم وأخذوا ينهبون كل شيء تقع عليه أيديهم للتعويض عما فات .

يجب أن لا ننسى ان العشائر العراقية ورثت من البداوة هذا الميل الشديد للنهب والغنيمة . فقيمة الغنيمة عند البدوي لا تنحصر في نطاقها المادي المحسوس بل ان لها قيمة أخرى اكبر من ذلك كثيراً ، هي القيمة المعنوية التي ينالها الغانم بين عشيرته ويتباهى بها على الاقران . ان الغنيمة في نظر العشيرة دليل على شجاعة صاحبها ومقدرته على الغزو ولا يمتنع عن النهب سوى الجبان الضعيف .

يقول حافظ وهبه في كتابه « جزيرة العرب في القرن العشرين » في وصف بدو الصحراء : انهم لا هم لهم الا النهب والسلب وقطع الطريق، ويعد هذا العمل في نظرهم من المفاخر ، ولسان حالهم يقول « المال مال الله ، يوم لي ويوم لك ، نصبح فقراء ونمسي أغنياء ، ونصبح أغنياء ونمسي فقراء » ، واذا حالف البدو أميراً ثم بدرت منه بوادر الهزيمة كانوا أول الناهبين له ، وحجتهم في ذلك أنه ما دام حليفهم منهوباً ، أو مأخوذا كما يقولون ، فهم أولى به . وقد جرى مثل هذا كثيراً في العراق في الحرب الاولى مما أدى الى استغراب الانكليز لانهم لم يفهموا كيف ينهب الصديق صديقه ، ولكن البداوة لا تعرف غير النهب والسلب ، والغنيمة فيها مقدمة على كل شيء ... (٤٠)

يعزو حافظ وهبة هذه الخصلة في البدو الى كونهم مجبولين على الرياء والنفاق وقلة الاخلاص . وهذا رأي لا نميل الى الاخذ به ، فالواقع ان البدو من اكثر الناس اتصافاً بالصراحة وبعداً عن الرياء والنفاق ، ولكن مشكلتهم أن النهب لايدخل تحت مفهوم الرياء والنفاق عندهم . فالمال

---

(٤٠) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) ــ القاهرة ١٩٤٦ ــ ج ١ ص ١٠١ ، ٢٧٥ .

في نظر البدو هو كما قال حافظ وهبة مال الله ، وليس لاحد حق ثابت فيه، انما من حق كل من يملك المقدرة للحصول عليه • ومن هنا جاء في بعض أمثالهم المعروفة قولهم : « الحلال ماجل باليد » و « الحق بالسيف والعاجز يريد شهود » •

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان الفرد البدوي في الوقت الذي هو فيه شديد الميل الى النهب والغنيمة نراه كذلك شديد الحرص على القيام بواجبات الدخالة والضيافة وحماية الجار وما أشبه ، وقد لا يتردد البدوي أن يضحي بنفسه او بمصلحته من أجل دخيله أو ضيفه أو جاره • وقد ورثت العشائر العراقية هذه الخصال من البداوة الى حد ما ، ولهذا رأيناهم ينهبون كل انسان خارج العشيرة انما هم في داخلها أولو مروءة ونجدة وكرم •

ان قصة الشيخ عريبي التي ذكرناها آنفاً تدل على ذلك بوضوح ، فهذا الشيخ بدل ولاءه من جانب الاتراك الى جانب الانكليز بسرعة وبلا خجل ، غير أنه كان في الوقت نفسه شديد الحرص على المحافظة على قواعد « الدخالة » اذ وجدناه يحمي الضابط العثماني الذي دخل عليه ولم يفرط فيه على الرغم مما قد ينتج عن ذلك من اثارة لغضب الانكليز عليه •

ان هذه القصة تصور لنا الشخصية العشائرية من كلا جانبيها السلبي والايجابي • ولعلني لا أغالي اذا قلت ان معظم أبناء العشائر في العراق — سواء منهم الرؤساء أو الافراد العاديون — هم على هذه الشاكلة ، اذ هم لا يخجلون ان يبدلوا ولاءهم من جانب الى آخر ، او ينهبوا من كان حليفهم بالامس • فهذا أمر قد اعتادوا عليه ولا يجدون فيه ما يعيبهم ، انما هم يستنكرون كل الاستنكار خرق قواعد الدخالة او غيرها من القيم الاجتماعية التي ورثوها من أسلافهم البدو •

يروي علي آل بازركان : ان الضابط سعيد الدايني جاء الى داره ببغداد في تموز ١٩١٦ وهو في حالة يرثى لها اذ كان ممزق الثياب أصفر اللون كأنه قد نهض تواً من قبر ، وقص عليه ما كانت تقترفه عشائر دجلة من أعمال وحشية نحو الجنود من سلب وبقر للبطون ، وهو انما نجا منهم

بأعجوبة حيث أدعى أنه ابن رئيس عشيرة الداينية وقد بعثه أبوه لمواجهة رئيس عشيرة زبيد ◦ (٤١)

ان القارىء لهذه القصة قد يمتعض مما فعله أفراد العشائر بالجنود من سلب وقتل ولكنه يجب أن يذكر في الوقت نفسه كيف نجا سعيد الدايني بادعائه أنه ابن رئيس عشيرة ◦ وهذا أمر لم يكن نادر الحدوث في تلك الايام وقد نجا به الكثيرون ◦

حدثني أحد الجنود العراقيين من الذين فروا من القوات التركية في احدى معارك الجنوب ، فقال : انهم كانوا اذا نزلوا في طريقهم عند عشيرة من العشائر رحبت بهم العشيرة وبذلت لهم الطعام وألبستهم الملابس التي كانوا في حاجة اليها ، ولكنهم لا يكادون يخرجون من العشيرة ، ويبتعدون عنها قليلاً ، حتى يأتي اليهم بعض المسلحين من نفس العشيرة ، أو من عشائر أخرى قريبة ، فيسلبوهم جميع الملابس التي كانوا قد حصلوا عليها ◦ وقد حدث هذا لهم مرة بعد مرة ◦ وحين عادوا الى بيوتهم لم يكن عليهم سوى ملابس رثة ممزقة ◦

ان المعايير الخلقية نسبية ، فما نعتبره قبيحاً قد يعتبره غيرنا حسناً ◦ ونحن اذ نريد أن نصدر حكماً على أخلاق فئة من الناس ينبغي أن ننظر اليهم من خلال معاييرهم لا من خلال معاييرنا ! ◦

---

(٤١) علي آل بازركان (الوقائع الحقيقية) ـ بغداد ١٩٥٤ ـ ص ٥٣ـ٥٤ ◦

الفصل السابع

العصيان في الفرات الاوسط

مرت بالفرات الاوسط على أثر معركة الشعيبة فترة أمدها سنتان تقريباً هي ما يمكن تسميتها بـ « فترة العصيان » ، وهي فترة تميزت بميل المدن فيها الى اعلان العصيان على الحكومة وادارة أمورها بوساطة رؤسائها المحليين على الطريقة العشائرية •

الواقع ان جميع المدن العراقية كانت ترغب في اعلان العصيان على الحكومة غير أنها لم تكن قادرة عليه ، أو هي كانت تتحين الفرصة له فلم تجدها ، فاقتصر العصيان على مدن الفرات الاوسط وحدها • ويمكن تعليل ذلك بسببين :

أولا : ان الحكومة التركية كانت آنذاك مشغولة بمعارك دجلة مما اضطرها الى سحب معظم جنودها الذين كانوا في منطقة الفرات الاوسط الى هنالك ، فحصل بذلك فراغ نسبي في تلك المنطقة شجع أهل المدن فيها على اعلان عصيانهم •

ثانياً : ان أولى المدن التي أعلنت العصيان هي النجف ثم تلتها كربلا ، وقد صبرت الحكومة على هاتين المدينتين لقدسيتهما ، أو هي خشيت أن تنتقم منهما فيتخذ الانكليز ذلك ذريعة للدعاية ضدها في ايران والاقطار الاسلامية الاخرى • وقد أدى نجاح هاتين المدينتين في العصيان الى اقتداء بعض المدن القريبة بهما •

وأرجو من القاري أن يعذرني في وصف تلك الفترة بـ « العصيان » بدلاً من « الثورة » • فقد جاريت في ذلك الاصطلاح العام الذي جرى على ألسنة العراقيين أثناء الحرب اذ كانوا يطلقون على تلك الحركات اسم « العصيان » • والمظنون أن لعلماء الدين يداً في نشر هذا الاصطلاح بين الناس ، فقد ظل هؤلاء العلماء يؤيدون الحكومة في حربها ضد « الكفار » ، واعتبروا كل ثورة عليها عصياناً •

عصيان النجف :

ظهرت بواكير العصيان في النجف منذ شهر آذار ١٩١٥ ، عندما تكاثر عدد الفارين من الجندية فيها . وأخذ نشاط هؤلاء الفارين يستفحل شيئاً فشيئاً بمرور الايام . وقد نشروا في البلدة ذات يوم أوراقاً مكتوباً فيها أن محاربة الحكومة العثمانية أولى من محاربة المشركين ، فأبرق القائمقام بالخبر الى والي بغداد ، فأرسل الوالي الى النجف قوة عسكرية كبيرة بقيادة ضابط عراقي اسمه عزت بك ، وعند وصول هذا الضابط الى البلدة أعلن على الاهالي وجوب تسليم الفارين أنفسهم خلال ثلاثة أيام وألاّ فهو سيتخذ الاجراءات الرادعة ضدهم . ولما انتهت المدة أخذ رجال الدرك يتعقبون الفارين بشدة ، ويكبسون الدور عليهم ليلاً ونهاراً ، وربما قتلوا الممتنعين منهم وتعرضوا بالنساء . (١)

ويقال ان رجال الدرك كانوا أثناء بحثهم عن الفارين في البيوت يتحسسون أجساد النساء مخافة أن يكون أحد الفارين قد تنكر بزي امرأة فأرسلت احدى النساء رسالتين ملطختين بالسواد احداهما الى الحاج عطية أبو قلل رئيس محلة العمارة ، والثانية الى الحاج سعد الحاج راضي رئيس محلة المشراق ، تشكو فيهما من انتهاك الشرف الذي أصابها . (٢)

وفي الوقت الذي كان فيه التذمر ينمو بين النجفيين على هذا النحو كان قائمقام النجف حقي بهيج بك يقوم بأعمال تزيد من تذمرهم . فلقد كان هذا القائمقام من طراز أولئك الافندية المتحمسين الذين يريدون أن يفرضوا التمدن على الناس فرضاً رغم آنافهم . انه بعبارة اخرى كان مخلصاً في عمله ولكن عمله لا يناسب الوقت . وصفه الكاتب النجفي المعروف جعفر الخليلي بقوله : انه شاب اسطنبولي على جانب من الادراك والحزم والثقافة الحديثة ، فأراد ان ينهض بالبلدة على الرغم من عدم ملائمة الظروف بسبب الحرب وفقدان الوسائل اللازمة . فهو قد اهتم بنظافة البلدة وشدد

---

(١) من مذكرات محمد رضا الشبيبي ــ نقلا عن مجلة « البلاغ » الكاظمية ــ العدد السابع ــ السنة الرابعة .

(٢) مجيد الموسوي (الحاج عطية أبو كلل الطائي) ــ بغداد ــ ص ١٠١ .

في ذلك تشديداً امتعض منه الذين اعتادوا على التسيب والفوضى ، وحين وجد الصحن الشريف مملوءاً بالباعة والدلالين وهم يعرضون بضائعهم فيه أمر باخراجهم من الصحن تنزيهاً له فكان لهذا الامر أثره في نفوس المنتفعين من الصحن وتلقوه بتذمر شديد . ومر ذات يوم بالصحن فشاهد بعض الباعة قد عادوا اليه فركل أحدهم بقدمه وبعثر معروضاته وكان بينها شيء من الترب الحسينية والسبح ، فأشيع بين الناس ان القائمقام سحق الترب والسبح بقدميه استهتاراً بقدسيتها ، فهاجت البلدة وماجت ... (٣)

ومن أعماله التي اثارت نقمة الاهالي عليه أنه شيد مدرسة حديثة خارج السور قريباً من سكة الترامواي ، وقد أقتضى البناء ازالة بعض القبور ، فأتخذ الناقمون ذلك ذريعة ضده وأشاعوا عليه أنه هتك حرمة الاموات ، وغضب العامة من ذلك وصاروا يسبونه ويتقولون عليه .

بدأت حركة العصيان في ليلة ٢٢ أيار ١٩١٥ اذ هاجمت جماعة من الفارين سور النجف من جهة محلة المشراق ، ثم دخلوا البلدة عنوة وأخذوا يطلقون الرصاص في الهواء مما أيقظ الآمنين من أهل البلدة وأرعبهم . وفي الصباح التالي انضم الى الفارين كثير من اهل البلدة ، كما انضم اليهم عدد من الفارين الذين كانوا خارج البلدة ، وصاروا يهاجمون ثكنات الحكومة ودورها ومخافرها . واستمرت المعركة ثلاثة ايام سقط فيها من جنود الحكومة وضباطها زهاء عشرين بين جريح وقتيل ، كما سقط من الاهالي عدد أقل من ذلك كان بعضهم من النساء والاطفال الذين أصيبوا برصاص تائه .

كان القسم الاكبر من الجنود قد تحصنوا في بناية « الشيلان » . وهي بناية فخمة ذات أسوار عالية تشرف على واجهة كبيرة من البلدة ، وكان في مقدور هؤلاء الجنود المقاومة لمدة طويلة حتى يأتيهم المدد من الحكومة، وقد اعتمدوا على الآبار في ماء شربهم ، ولكن النجفيين استطاعوا ان يتسللوا الى تلك الآبار من البيوت المجاورة ، من خلال ممرات يعرفونها ، وصاروا يقطعون حبال الدلاء التي يستقي بها الجنود ، مما اضطر الجنود

---

(٣) نقلا عن مقالة مخطوطة لجعفر الخليلي ، وقد اعارني أياها مشكورا .

الى الاستسلام أخيراً • وقد استسلم آمرهم أيضاً ومعه القائمقام وبقية الموظفين ، فسيقوا جميعاً الى دار السيد محمد حسن الكليدار ، ومن هناك دبّر أمر تسفيرهم الى طويريج بحماية عمران الحاج سعدون رئيس بني حسن • وشوهد الاطفال وهم يهرلون وراءهم ويهزجون : « قلنا لك سلّم يا يهودي ! » • (٤)

وانتهز الغوغاء الفرصة فانثالوا على دار البلدية ودور الموظفين ومختلف دوائر الحكومة فانتهبوها ومزقوا سجلاتها ثم أضرموا النار فيها ، وكانت المدرسة التي شيدها القائمقام من جملة ما انتهبوه وأحرقوه • وأتلفوا آلات البرق ، كما انثالت العشائر على أعمدة البرق الممتدة الى الكوفة وأبو صخير فاقتلعوها •

وعند هذا تولى حكم البلدة رؤساء المحلات كل في محلته على الطريقة العشائرية ، ونادى المنادي من قبلهم في الشوارع والاسواق بأمر الناس بفتح دكاكينهم على أن يحافظوا على مستوى الاسعار السابق • وأمر الرؤساء باعادة تنوير البلدة بالفوانيس وكنس الشوارع ، ورتبوا رجالاً لجباية الرسوم والضرائب ولكنهم أمروا بتخفيضها الى النصف • (٥)

لم تشأ الحكومة الانتقام من النجف في تلك الظروف الحربية الحرجة، وارتأت أن تعالج الامر بالحكمة ، فأرسلت الى النجف وفداً للمفاوضة برئاسة نوري بك مدير تحريرات الديوانية ، وكان من أعضائه الحاج عباس العلي رئيس الكوت ، وعبدالرزاق المنير من وجهاء البصرة ، ومحمد العصيمي الزبيري • وقد نزل الوفد في دار الكليدار ثم عقد مؤتمراً حضره عدد من العلماء والوجهاء والتجار كما حضره رؤساء المحلات الاربع •

أخذ أعضاء الوفد يتحدثون الى أهل النجف عن الدولة العثمانية المسلمة التي هي في حرب حياة او موت مع الكفرة الغزاة ، وكيف أن الواجب الديني يقضي على جميع المسلمين بالتعاون معها • فأجابهم النجفيون بانهم لم تكن لهم رغبة في العصيان ولكن الحكومة هي التي اضطرتهم الى

---

(٤) المصدر السابق •

(٥) . من مذكرات محمد رضا الشبيبي ـ نقلا عن مجلة « البلاغ » الكاظمية ـ العدد السادس ـ السنة الرابعة •

الخروج عن طاعتها لما قامت به من الاعمال الوحشية وانتهاك حرمات النساء وهتك الاعراض ، وخاصة ما قام به القائمقام حقي يهيج بك . فطلب الوفد من أهل النجف اعادة المنهوبات الى الحكومة ، فأجاب الحاج عطية بأن المنهوبات لا يمكن اعادتها لانها تفرقت بين العشائر الذين هم حول النجف . (٦)

وتم الاتفاق أخيراً على أن يعود الى النجف جهاز اداري مؤلف من قائمقام ومدير مال وأمين صندوق فقط مع قليل من الجنود . ومعنى هذا أن تكون عودة الحكومة الى النجف رمزية لمجرد المحافظة على هيبة الحكومة أمام سكان المنطقة . وقد عينت الحكومة قائمقاماً جديداً للنجف اسمه رمضان أفندي وهو رجل عسكري يعرفه أهل النجف ويحبونه . وفي صباح ١٤ آب خرج جمهور كبير من أهل النجف الى الكوفة ومعهم الرايات لاستقبال القائمقام الجديد ، ثم عادوا قبيل الغروب ومعهم القائمقام فاستقبل في البلدة بالهتاف والزغاريد .

لم يكن للقائمقام الجديد أي شأن في حكم البلدة أو نفوذ يعتد به ، فكانت النجف مستقلة يحكمها رؤساء المحلات . وقد نال أهل النجف في تلك الفترة منافع جزيلة ، اذ انفتح طريق التجارة لهم مع البصرة فأخذ تجارهم يحملون الى هنالك الحبوب والاسمان ويعودون منها بالبضائع المختلفة من صنع الهند وانكلترا . وأصبحت النجف بذلك مركزاً تجارياً مهما ، ووفد اليها تجار بغداد وغيرهم يطلبون منها البضائع النادرة . وكسب تجار النجف بذلك أموالاً وفيرة ، كما كسب رؤساؤها الاموال من الضرائب التي فرضوها على الصادرات والواردات .

وصارت النجف كذلك سوقاً عظيماً للاسلحة النارية ، فكانت البنادق الانكليزية والالمانية تجلب اليها بكثرة عجيبة ، ومن أراد شراء شيء منها أو بيعه قصد النجف . يقول الشيخ محمد رضا الشبيبي في وصف أهل النجف أثناء تلك الفترة : انهم اعتادوا على التظاهر في المآتم والاعراس والاجتماعات على طريقة العشائر حيث يخرجون مسلحين معطعطين وهم

---

(٦) مجيد الموسوي (المصدر السابق) — ص ١٠٦ — ١٠٧ .

يطلقون النيران، حتى اعتادت الآذان على صفير الرصاص فلا يفزع منه أحد وقلما ينقضي يوم دون أن تطلق فيه مئات ، وأحياناً ألوف ، من العيارات النارية • (٧)

وكذلك صارت النجف ملجأً يلوذ به كل فار من الجندية من أنحاء العراق • وظهر في بغداد رجل اسمه « علوان خرمة » اتخذ حرفة تهريب الفارين الى النجف لقاء مبلغ معين ، وكان يتقاسم هذا المبلغ مع درك المخافر في الطريق • ولهذا امتلأت النجف بالفارين من مختلف المدن العراقية ، وقد عامل أهل النجف هؤلاء اللاجئين اليهم بما عرف عنهم من الشهامة وروح الضيافة • وكان والد كاتب هذه السطور من بين أولئك الفارين اللاجئين •

وقد اغتنم عملاء الانكليز تلك الفرصة فاندسوا في النجف يحبذون لرؤسائها الاتصال بالانكليز لينالوا منهم الخير العميم حسب زعمهم • ذكرت المس بيل : أن الحاج عطية أبو قلل اتصل بالسر برسي كوكس بالبصرة حيث أرسل اليه رسولاً مقترحاً عليه التحاق النجف والعشائر المحيطة بها بالانكليز لقاء احترامهم للعتبات المقدسة وعدم التعرض لها، وكان السيد كاظم اليزدي يؤازر الحاج عطية في اتصاله هذا ، فأجابه كوكس بأن أشار الى البيانات التي أصدرها الانكليز في بداية الحرب كدليل على أنهم ليسوا في خصام مع العرب ولا مع الاسلام ، وأشار كوكس كذلك الى أن السلطة العسكرية الانكليزية عاملت رجال الدين الذين وقعوا في يدها بكل تسامح ورأفة ، ثم سأل كوكس الرسول عما اذا كانت النجف تعاني الضيق والضنك وعن الخطوات التي يمكن اتخاذها لاسعافها • (٨)

العصيان في كربلا :

ان نجاح النجف في عصيانها جعل سمعتها ترتفع في الفرات الاوسط ارتفاعاً عظيماً ، وصار النجفيون يفتخرون بما فعلوا واتخذوه دليلاً على

---

(٧) نقلا عن مذكرات الشبيبي المخطوطة ، وانني اشكر ولده اسعد الشبيبي لاعارتي اياها ، وهي مذكرات قيمة جدا ارجو ان تنشر قريبا •

(٨) مس بيل (فصول من تاريخ العراق الحديث) ــ ترجمة جعفر الخياط ــ بيروت ١٩٧١ ــ ص ٩٦ •

شجاعتهم ورجولتهم، وقد أدى ذلك ببعض المدن الى محاولة الاقتداء بالنجف في العصيــان .

كانت كربلاء أول مدينة حاولت الاقتداء بالنجف ، فقد شعر رؤساؤها بأنهم قادرون أن يفعلوا مثلما فعل رؤساء النجف وكأنهم قالوا بلسان الحال: « هل أن أهل النجف خير منا أو اكثر رجولة وشجاعة ؟ ! » .

كان الفارون من الجندية هم الذين بدأوا العصيان في كربلا على نحو ما وقع في النجف . وقد انتهزوا الفرصة في مساء ٢٧ حزيران ١٩١٥ ، وهو يوافق زيارة منتصف شعبان والاحتفال بمولد صاحب الزمان ، فهاجموا دار الحكومة وكان فيها نحو أربعين جنــدياً ، وقــد آثر هؤلاء الجنــود الاستسلام لهم بعد مناوشة قصيرة . وعند هذا انثال الغوغاء على دار البلدية ودائرة البريد والبرق والمدارس الرسمية وغيرها ، فانتهبوها وأضرموا النار فيها ، ثم أخرجوا السجناء ، كما انتهبوا المستشفى الحسيني وكان يعتبــر من المستشفيات الجيدة في ذلك الوقت وقد تم الفراغ من انشــائه فــي العام الماضي .

ولم يقف الامر عند هذا الحد بل هجم أفراد من العشائر على المحلة الجديدة ، وهي المحلة التي أنشأها مدحت باشــا وكان يسكنها الايرانيون في الغالب ، فنهبوا فيها نحو مائتي بيت ، واضطر سكان المحلة الى هجرها والانتقال الى المحلات الاخرى في كربلا القديمة . وفي اليوم الثاني مــن الحركة اختلف زعماؤها فيما بينهم اذ تنازعوا على اقتسام المنهوبات ، فجرى بينهم قتال في الحرم الحسيني ، وسقط منهم عدد من القتلى والجرحى.[٩]

كان الشيخ محمد علي كمونة وأخوه الاصغر فخري كمونة هما اللذان تزعما حركة العصيان في كربلا ، فكان محمد علي العقل المدبر للحركة بينما كان فخري قائدها العسكري . وقد ارتأت الحكومــة أن تعالج عصيــان كربلا بالحكمة على منوال ما عالجت به عصيان النجف ، وتوسط العلمــاء والوجهاء بين الحكومة وآل كمونة ، وقام مبعوث كربلا الحاج عبد المهدي

---

(٩) من مذكرات الشبيبي ــ نقلا عن مجلة « البلاغ » الكاظمية ــ العــدد السادس ــ السنة الرابعة .

الحافظ بدور مهم في الوساطة بين الفريقين . وقد ارسلت الحكومة بعد اتمام المصالحة متصرفاً جديداً الى كربلا كردي الاصل اسمه حمزة بك . وفي ٢٦ ايلول ١٩١٥ نشرت جريدة « صدى الاسلام » ببغداد بياناً بعنوان « احتفال عظيم في كربلا » هذا نصه :

« اجتمع السادات والعلماء والموظفون والاشراف والاهلون في كربلا يتقدمهم حضرة صدر العلماء السيد اسماعيل وهو من أجلة المجتهدين وأفاضلهم ، فسار بهم برفقة عطوفة متصرف اللواء الى سيد الشهداء الامام الحسين بن سيدنا علي المرتضى وحفيد الرسول الأعظم السعيد ، فتقرب بحماس وشوق نحو المرقد المبارك وهناك تناول سيفاً مرصعاً تاريخياً من موقعه الخاص وكان محفوظاً ومعلقاً في القبة المباركة ، وجرده من غمده وأراه للحاضرين وقال : خذوا هذا السيف من حضرة سيد الشهداء وقبلوه وقدموه الى حضرة القائد العام نور الدين بك أفندي المدافع الغيور عن الخطة العراقية التي تحتوي على هذه الروضة الطاهرة وكثير من العتبات المقدسة . فأن مولانا سيد الشهداء يود مناصرة الحكومة العثمانية حامية ديننا المبين ومطهرة هذه الاراضي المقدسة من أدران الاعداء . ايها المسلمون هذا سيف الاسلام الصارم قد جرد من غمده . فثقوا بلطف الباري من أن النصر حليف الاسلام . وبعد أن تلا دعاء بليغاً تألفت لجنة برئاسة جواد زين الدين أفندي مهمتها ايصال ذلك السيف البتار الى دار الحرب وتسلمه الى حضرة القائد المحترم نورالدين بك افندي . وكانت المظاهرات بالغة مبلغا عظيما من الهياج الديني لا يوصف . وهذه المظاهرات التي هي بشائر القيام العام ضد العدو قد أثرت في الجيش تأثيرا كبيرا » . (١٠)

يبدو أن مما ساعد على اتمام الصلح في كربلا هو انتشار حمى الملاريا فيها . فقد أتخذت تلك الحمى حينذاك شكل الوباء ، وصارت تستفحل يوماً بعد يوماً ، فانشغل الناس بها عن السياسة ومكايداتها . وقد اشار الشيخ محمد رضا الشبيبي في مذكراته المخطوطة الى وصف الحالة

---

(١٠) جريدة « صدى الاسلام » ـ في عددها الصادر في ١٦ ذي القعدة ١٣٣٣ هـ .

الصحية في كربلا وكان قد مر بها في طريقه الى النجف في ١٣ كانون الثاني ١٩١٦ ، فقال ما نصه :

« ... فوجدنا جوها كدرا ، ومناخها وبيلاً ، والمستنقعات الخبيثة الرائحة محيطةبها، ورأينا وجوه أهلها حائلة كأنها وجوه الاموات، فاين يمر الغريب يستوحش لتلك المناظر الكاسفة ، حتى البساتين لانها استحالت مستنقعات . وقد قال أحد سكانها انـه قـد أحصينا من أصيب بالحمى فلم يعرف أحد سلم فيها الا واحد فقط ... وتقدر الوفيات بربع أهـل البلدة او اكثر من ذلك . وقد سُد آنئذٍ نهر الحسينية خوفا من زيـادة تبطح المياه ... » .

والغريب ان البرد اشتد في تلك السنة الى درجة يندر أن يكون لهـا مثيل في السنوات السابقة ، وقد نزل الثلج أيضاً وهو أمر لا عهد للناس به منذ زمن بعيد . ذكرت جريدة « الزوراء » : ان الثلج سقط ببغداد في صباح ٢٢ كانون الثاني ١٩١٦ ، واستمر سقوطه أربع ساعات . (١١) ويقول الشبيبي في مذكراته المخطوطة ان سقوط الثلج في كربلاء كان اكثر ممـا في غيرها ، فأدى ذلك الى زيادة الوفيات فيها .

ومما يلفت النظر ان نشاط عملاء الانكليز وجواسيسهم لـم يفتر في كربلا اثناء تلك الايام الوبيلة . جاء فـي مذكرات حسام الدين نظمي بك الذي كان يرأس مصلحة مقاومة الجاسوسية فى العـراق : ان الانكليز أرسـلوا آنذاك الى كربلا جاسوسا خطيراً منهم اسـمه « ادكار وود » ، وأخذ هذا الجاسوس يسعى مع أعوانه لالقاء بذور الفتنة في تلك البلدة المقدسة . وقد اضطر حسام الدين أن يرسل الى كربلا جاسوسة تركيـة قديرة هي صدبرك كمـال خانم لمكافحة دسائس ادكـار وود . وكانت صدبرك قبل هذا تحترف الرقص في بغداد باسم « جهان خانم » ، وعندما وصلت الى كربلا استأجرت فيها داراً لسكناها ، فعلم بها ادكـار وود ودبر خطة للقضاء عليها : ففي ذات يوم جاء اليهـا رجـل عراقي مـن أعـوان ادكار وود اسـمه عبده بن جوزي مدعياً أنه مرسل اليها من رئيسها حسام

---

(١١) جريدة « الزوراء » ـ في عددها الصادر في ٢٦ رمضان ١٣٣٤ .

الدين ، وأعطاها كلمة السر ، فوثقت به ورافقته الى خارج كربلا ، وكـان ينوي القاءها في تهلكة ، غير أنها نجت بأعجوبة . وقد تمكن الاتراك اخيراً من القاء القبض على عبده بن جوزي ، فحكمت المحكمة العسكرية عليـه بالاعدام شنقاً ، وتم تنفيذ حكم الاعدام فيه ببغداد في صباح ١ تشرين الاول ١٩١٥ ، وصدر بذلك بلاغ رسمي . (١٢)

وذكرت المس بيل : ان رئيس كربلا الشيخ محمد علي كمونة اتصـل سراً بالسر برسي كوكس منذ تشرين الاول ١٩١٥ طالباً من الانكليز أن يتعهدوا له بتنصيبه حاكماً وراثياً مستقلاً في ولاية مقدسـة تمتـد من سامراء الى النجف ، وكانت القوات الانكليزية حينذاك مشغولة بالزحف نحو بغداد ، فأرسل كوكس اليه رداً ودياً لا لون له مع هدية مالية صغيرة أثارت امتنانه ، ثم تُرك الامر على هذه الحالة موقتاً لان انسحاب القوات الانكليزية من سلمان باك بدل الموقف السياسي بأجمعه ، ولكن الانكليز ظلوا على اتصال بالشيخ محمد علي كمونه ، وواصلوا ارسـال المال اليـه من وقت لآخر ليساعده على الاحتفاظ بأتباعه والتمسك بموقفـه فـي كـــربلا . (١٣)

ومهما كان الحال ، فقد نشبت الفتنة في كربلا من جديد في شـهر أيار ١٩١٦ ، وكانت فتنة عارمة سفكت فيها دماء كثيرة من الجانبين ـــ كما سنأتي اليه في فصل قادم .

العصيان في الحلة :

كانت الحلة ثالث مدينة عراقية تعلن العصيان على الحكومة ، وقـد بدأ العصيان فيها في ٢٣ آب ١٩١٥ أي بعد ثلاثة أشهر من بدء عصيـان النجف . ومن الممكن القول ان الحلة كانت تتحفز للعصيان منذ علمـت بعصيان النجف ، ذلك لان الموظفين والجنود الذين طردهم أهـل النجف كانوا قد وصلوا الى الحلة مشياً على الاقدام وهم في حالة يرثى لها مـن

---

(١٢) نقلا عن مجلة « الاسرار » البيروتية ـــ في اعدادها ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤ ، عام ١٩٣٨ .

(١٣) المس بيل (المصدر السابق) ـــ ص ٩٦ .

الاعياء والجوع والعرى ، فأحاط بهم بعض الحليين يسألونهم عن شأنهم فأجابهم هؤلاء بما جرى عليهم في النجف من اذلال وانتهاب ، فكان هـذا النبأ مشجعاً لأهل الحلة على أن يفعلوا مثلما فعل اخوانهم في النجف(١٤) .

انطلقت شرارة العصيان في الحلة عندما كان أحد جنود الدرك يطارد بعض الفارين من الجندية فيها ، وقد قـتل الدركي اثناء المطاردة ، فأراد القائمقام القبض على القاتل فامتنع هذا مستعيناً بقومه . وقد توتر الوضع في الحلة من جراء ذلك ، وتبودل الرصاص بين الاهالي وجنود الحكومة . وأسرع عاكف بك قائد القوات التركية في الفرات ، وكان معسكرا فـي الكفل ، فدخل بقواته الحلة ، واستدعى اليه المختارين والرؤساء طالبـاً منهم تسليم جميع الفارين من الجندية وأعطاهم مهلة امدها أربع وعشرون ساعة فقط . وفي ٢٧ آب نشبت معركة دامية بين القوات التركية وأهـل الحلة استمرت يومين ، واشتركت فيها العشائر المجاورة كاليسار وخفاجـة وآل فتلة ، وكانت العشائر لا تقصد غير النهب طبعا ولكنها تكبدت خسائر كبيرة نسبياً حيث سقط منها نحو مائة رجل بين جريح وقتيل . (١٥)

يحدثنا يوسف كركوش الحلي عن الحادثة وكان قد شهدها بنفسـه في عهد طفولته فيقول :

« اني مررت عصر ذلك اليوم في الشارع العام ... فشاهدت الناس في حيرة واضطراب وهم مدججون بالسلاح ، فلما جن الليل ونام النـاس وهدأت الاصوات فرق عاكف عسكره في طرقات الحلة وسورها ودوائر الحكومة ، وجعل بعضاً من الجنود على منارة الجامع الكبير لارتفاعها على دور البلد ... ولما أصبح الصباح صادف أني خرجت لقضاء بعض الشؤون فلما انتهيت الى رأس الدرب الذي فيـه دارنا رأيت جنوداً مـن الاتراك راكبين خيولهم مدججين بالسلاح ، فلم يتعرضوا بي لاني كنت يومئـذ طفلاً صغيراً . ومشيت في طريقي حتى وصلت الى الشارع العام ...

---

(١٤) يوسف كركوش (تاريخ الحلة) ـ النجف ١٩٦٥ ـ ج ١ ص ١٦٢ .
(١٥) نقلا عن مقالة لاسعد الشبيبي في مجلة الثقافة الجديدة ـ في عددها الصادر في شباط ١٩٧٠ .

فرأيت الجنود على طول ذلك الشارع وهم يتكلمون بلسانهم التركي ، وعند ذلك ذعرت ورجعت الى دارنا وأخبرت والدي بالذي رأيت فوضع يده على جبهته وقال : (لقد هلكنا) • وبينما نحن في هذا ومثله اذ سمعنا طلقة نارية دوت في سوق المنتخب ، وما هي الا ثوان حتى صار أزيز الرصاص يشق الآذان ، واشتبك القتال بين أهل الحلة وعسكر عاكف المنتشر في الطرقات • وكان الخبر قد وصل الى الاعراب فتهيأوا للزحف على الحلة كي ينهبوا ويسلبوا ، فصار هجومهم على النقطة التي كانت بالقرب من تل الرماد الذي يعرف بالجبل ، فقتل الاعراب بعض من كان في النقطة ، والبعض الآخر من الجند فروا هاربين حيث رأوا أن لا طاقة لهم على محاربة أهل الحلة والاعراب ، وقتل أكثرهم أثناء فرارهم وانتثرت جثثهم على طول سوق العلاوي والاسواق الاخرى المتصلة الى القشلة • ثم دخل الاعراب الحلة ينهبون ويسلبون أسلحة العسكر وملابسه ، واشتركوا مع أهل الحلة في مكافحة العسكر وقد قضوا على أكثريته حيث كان متفرقاً في أنحاء البلد ، ولم تستعص الا النقطة التي كانت في باب النجف فانها بقيت الى ما بعد الزوال ••• وقد قتل من أهل الحلة أثناء حصارهم لهذه النقطة رجال وأصيب آخرون • وقد ابدى الجنود في هذه النقطة عناداً شديداً ، وقد أعطاهم أهل الحلة الامان ان سلموا ، وكلموهم من أماكن قريبة بحيث يسمعون كلامهم بأن لا فائدة من المقاومة•• وكانوا يكلموهم بعدة لغات ، بالتركي والكردي والعربي • وأخيراً اقتحم أهل محلة الجامعين النقطة بطريقة حربية ، وقتلوا من كان فيها ودفنوهم بجوار السور قرب هذه النقطة ••• » (١٦)

ويقول يوسف كركوش : ان نجدة عسكرية وصلت من السدة في مساء ذلك اليوم فأحاط بها الحليون والعشائر يرقبون الليل للهجوم عليها، فخاف عاكف بك من العاقبة وطلب السلم من أهل الحلة ، وتم الاتفاق أخيراً بين الفريقين بتوسط من السيد محمد علي القزويني • وأصبحت الحلة منذ ذلك الحين خالية من أية سلطة حكومية ، وأخذ الحليون يعقدون المحالفات

---

(١٦) يوسف كركوش (المصدر السابق) — ج ١ ص ١٦٤ •

فيما بينهم ، وينشئون المعاقل والحصون على رأس كل درب ، وأصلحوا ما تهدم من سور البلدة وبنوا فيه الاستحكامات المنيعة • وكانت الخصومات التي تقع بين الافراد او الجماعات تحل بطريقة التحكيم في دواوين الحلة • ويعلق يوسف كركوش على ذلك بقوله : « وبالجملة كانت حكومة الحلة اذ ذاك كحكومة جمهورية اقتضتها طبيعة الظروف ، وقد برهنت الحوادث اذ ذاك ان الشعب العراقي ومن بينهم أهل الحلة ذكي يحب النظام وينسى خلافاته ويدرك المصلحة المشتركة ويميز بين الصالح والطالح من الرجال • ويمكن الاستنتاج أنه مستعد للحكم الجمهوري اذا أتيحت له الفرص » • (١٧)

ان هذه الحادثة التي ذكرناها عرفت باسم « واقعة عاكف الاولى » وهي انما سميت بذلك تمييزاً لها عن واقعة ثانية جرت في خريف ١٩١٦ ، وهي الواقعة التي استطاع عاكف بك بها أن ينتقم من الحلة انتقاماً فظيعاً على نحو ما سوف نذكره في فصل قادم •

العصيان في السماوة :

جرى العصيان في السماوة على نمط يختلف عما جرى عليه في المدن الثلاث التي سبقتها ، فأهل السماوة لم يكادوا يعلنون عصيانهم على الحكومة ويطردونها من بلدتهم حتى ندموا على ما فعلوا وأرسلوا اليها يطلبون منها العودة والغفران • ويخيل لي ان السبب في ذلك هو ان أهل السماوة كانوا منقسمين الى محلتين متعاديتين هما : محلة « الغربي » ويرأسها الشيخ رباط السلمان ، ومحلة « الشرقي » ويرأسها السيد طفّار ، والمعروف عن هاتين المحلتين ان العداء بينهما شديد جداً بحيث يصعب استتباب السلام بينهما فترة طويلة ، وكثيرا ما ينشب القتال بينهما لاتفه الاسباب • ولهذا فان غياب سلطة الحكومة في السماوة يؤدي الى استفحال الفوضى فيها بشكل لا يطاق • أضف الى ذلك أن أحد الرئيسين وهو السيد طفار كان ميالاً للانكليز بينما كان الرئيس الثاني ميالاً

---

(١٧) المصدر السابق ــ ج ١ ص ١٦٤ ــ ١٦٥ •

للاتراك ، فاذا نجح أحدهما في حركة حاول الثاني مقاومة حركته والسعي لتفتيتها . وهذا هو ما وقع فعلاً في السماوة عقب اعلان العصيان فيها .

كان عبدالعزيز القصاب قائمقاماً في السماوة في تلك الفترة كما أشرنا اليه في فصل سابق ، وهو يحدثنا في مذكراته عن حالة السماوة قبيل سقوط الناصرية في ٢٥ تموز ١٩١٥ فيقول ما نصه :

« ... كنا خلال الحرب فيها — أي في الناصرية — نسمع دوي المدافع عندما يكون الهواء شرقياً . وكان أهل السماوة حينذاك في سكون تام وأمن عام لم تحدث منهم حركة تخل بالامن ... وكان حينذاك رؤساء الشرقيين والغربيين يجيئونني كل يوم عصرا يشربون القهوة في داري ولا يذهبون الى بيوتهم الا مساءاً . وكانت المحبة والصداقة فيما بيننا متينة جداً ، وكان السيد طفار بنوع خاص لا يفارقني يأتيني صباحاً في دائرة الحكومة ومساءاً في داري ، وأصبحت صداقته معي وثيقة اكثر من أي وقت مضى ، وان الحوادث المؤسفة التي حدثت في خلال الحرب في الحلة والنجف وكربلا لم تؤثر على وضعية السماوة وأمنها وسكونها ، وكان السيد طفار ينتقد هذه الحركات عند سماعه لها بشدة متناهية » . (١٨)

استمرت الحالة هادئة في السماوة حتى يوم ٢٨ تموز حين وصل الخبر الى القائمقام بسقوط الناصرية وبوصول بعض الزوارق الانكليزية الى ناحية الخضرَ متجهة نحو السماوة . وفي مساء ذلك اليوم استدعى القائمقام اليه رئيس البلدية والمفتي ورؤساء المحلات ، وأخبرهم بقرب وصول الزوارق الانكليزية الى السماوة ، وسألهم : هل أنتم مستعدون للدفاع عنْ البلدة والجهاد في سبيل الوطن ؟ . فكان جوابهم انهم متفقون معه في الحياة والموت ، وقالوا ما دامت الحرب قد أصبحت في عقر دارهم فان الجنة صارت تحت أقدامهم . وأخذوا يرددون مثل هذه الكلمات مرة بعد مرة ، فشكرهم القائمقام وشجعهم . ولكي يتأكد من أقوالهم جاء لهم بالقرآن وطلب منهم أن يحلفوا به ، فحلف كل من السيد طفار ورباط السلمان مؤيدين أقوالهم بحماسة كبيرة . ثم تناول القائمقام عصا السيد

---

(١٨) عبدالعزيز القصاب (من ذكرياتي) — بيروت ١٩٦٢ — ص ١٢١ — ١٢٢ .

طفار ، وقال للرئيسين : « هذه عصا العباس أطلب منكما الحلف بهـا » . فأمسكوا بالعصا وحلفوا بها واحداً بعد الآخر وقرروا أنهم يحيون معـه ويموتون معه .

وبعد الغروب بنصف ساعة تجمهر حوالي أربعمائة مسلح من أهـل السماوة أمام دار الحكومة بالقرب من رأس الجسر ، وأخذوا يهوسون ، وخرج القائمقام يهوس معهم فرفعوه على أيديهم وأخذوا يدورون به وهم يطلقون الهوسات المختلفة . واستمرت الهوسات بعد هذا حتى السـاعة الثالثة بعد الغروب . وقد سجل القائمقام في مذكراته نماذج من هوساتهم وهذه بعضها : « أبواب الجنـة مفتوحة لنـا » ، « نرضي الله وتتنومس بيها » ، « تتسابق للموت عليها » ، « يا سيد جدك يرعانا » ، « يا بيج للفاو نتبعك » ، « بها السوق الله يبيع جنانه » ، « الثاية بحيدر منصوبـة » ، « تسجيه من مرنا الماذاقه » ، « ذنب حيتنا أعظم من طولها » ، « يا مشـاور خلها لراعيها » . (١٩)

تم الاتفاق في تلك الليلة على أن يخرج أهل السماوة في صبـاح اليوم التالي للدفاع عن بلدتهم تجاه الزوارق الانكليزية ، وظل القائمقام ساهراً مع بعض أصحابه جالسين على شاطىء النهر ، وكانت الليلة مقمرة اذ هي كانت ليلة السابع عشر من رمضان . وفي ساعة متأخرة من الليل جاء اليه قائد الدرك يخبره بأن جنوده وعددهم تسعون هربوا كلهم ولـم يبق منهم سوى اثنين أحدهما ابن عمه والآخر من أقاربه . وقبـل بزوغ الفجر لاحظ القائمقام جمهوراً غفيراً من أهل السماوة يخرجون من السوق في الجانب الآخر من النهر ويتوجهون نحو مخزن الاعاشة العسكري الواقع على النهر ، فحطموا بابه ونهبوا مافيه من أطعمة مختلفة ، ثم تحولوا بعدئذ الى سراي الحكومة للعيث فيه ، ثم عبروا الجسر بغية نهب دور الموظفين .

وكان قد عبر في الوقت نفسه ثلاثون مسلحاً في سفينة متجهين بهـا نحو الثكنة العسكرية التي كان قد تحصن فيها خمسة عشر دركياً مـع قائدهم ، وتظاهر أولئك بأنهم اخوان جاؤوا للمساعدة ، فلما دخلوا الثكنة

---

(١٩) المصدر السابق ــ ص ١٢٤ ، ١٤١ .

وثبوا على الدرك فانتزعوا بنادقهم منهم ، وكادوا يقتلون القائد لو لم ينقذه بعض الرجال والنساء من عشيرة ألبو جامل •

وحين أتم جمهور السماوة نهب دور الموظفين توجهوا نحو دار القائمقام ، فوقعت مناوشة بالرصاص بينهم وبين حراس الدار استمرت ثلاثة ساعات • وتقدم رجل من بين الجمهور يطلب الامان بغية مفاوضة القائمقام ، وعندما دخل عليه في الدار قال له : « ان زوارق الانكليز دخلت السماوة وحكّمت علينا السيد طفار وان الجماهير لا يرغبون بالاساءة اليكم والى الموظفين ويطلبون خروجكم من السماوة » • وبعد أخذ و رد تم الاتفاق على خروج القائمقام والموظفين من البلدة بسلام •

وصف القائمقام في مذكراته ما شاهده أثناء خروجه مع الموظفين من البلدة فقال : « ••• رأينا أهالي السماوة رجالاً ونساءاً واقفين على جانبي الجسر والجميع ملوثة وجوههم وألبستهم بالطحين الذي نهبوه من المنزل، وكانت لحاهم ووجوههم وعمائمهم وسيدياتهم بيضاء من الطحين ، وهم يبكون ويضربون على رؤوسهم ويقولون (لقد أخطأنا وقصرنا معك ياسيد أنت أحسنت الينا ولم تعمل سوءاً معنا فنرجوك الصفح) وكانت دموعهم تجري على غبار الطحين الذي على وجوههم • فتذكرت حينذاك شهادة سيدنا الحسين عليه السلام كيف قتله العراقيون وبكوا عليه ••• »[٢٠]

ومن طريف ما حدث بعد خروج القائمقام أن سرية من الخيالة الاتراك يبلغ عددهم مائة وثمانين جندياً دخلوا السماوة وهم لا يعلمون بما جرى فيها ، فلما توسطوا السوق الكبير هجم عليهم أهل البلدة وسلبوا منهم خيولهم وأسلحتهم وأجهزتهم ، وخرج هؤلاء من البلدة عراة ليس عليهم سوى خرق بالية •

ركب القائمقام ومن معه من الموظفين ونسائهم سفينة أوصلتهم الى الرميثة ، فنزل هو في دائرة الحكومة الصغيرة بينما نزل الموظفون ونساءهم في الحسينية • وجرت مخابرة تلغرافية بينه وبين القائد العام نور الدين بك الذي كان يومذاك في الكوت ، فقال القائد يخاطب القائمقام : « يظهر أنك

---

(٢٠) المصدر السابق — ص ١٢٩ •

متوهم فهذه الزوارق التي وصلت للسماوة هي زوارق حكومتنا وليست زوارق انكليزية فتركـكم القضاء جريمة تعاقبون عليها بالاعدام » ، فأجابه القائمقام : « اذا كان اعدامي مقرراً لديكم فأصدروا أمركم بمجيئي لبغداد وأتلقى العقاب » • وبينما كانت المخابرة تجري بينهما اذ دخل على دائرة البرق رجل عريان تماماً وعلى عورته خرقة بالية • وتبين أنه قائد الخيالة الذين سلبهم أهل السماوة ، ثم دخل رجل ثاني مثله ، وأخـذ الرجـلان يتحدثان الى القائد العام بالتلغراف عما جرى لهم • وعند هذا اعتذر القائد للقائمقام عن كلامه السابق •

قرر القائمقام أن يرسل النساء والاطفال مع الموظفين الذين لا لزوم لهم الى الديوانية • وحين رحل هؤلاء ووصلوا الى عشيرة الاقرع خرج عليهم بعض أفراد العشيرة فسلبوهم كل ما عندهم وما عليهم حتى السراويل التي تستر عوراتهم • وكان عبدالمجيد ابن القائمقام معهم وله من العمـر ست سنوات ، فرفض أن يخلع عنه سرواله الذي يستر عورته ، فأخذوا يهددونه بالخناجر وكادوا يقتلونه ، فعمد هو الى تمزيق السروال من أحد جوانبه قائلا لهم : شوفوا هذا عتيق ومشقوق ! فتركوه •

وعندما وصلوا الى مشارف الديوانية أرسلوا أحد أصحاب الكرود اليها لاخبار الحكومة بأمرهم ، فخرج المتصرف بنفسه اليهم ومعه عدد كبير من الناس • واضطرت النساء اللواتي كن عاريات الى دفن أنفسهن فـي الرمال لكي لا يراهن أحـد من القادمين لاستقبالهم ، وكـان بين هؤلاء القادمين نساء فألبسن العاريات ما يسترهن •

ويقول القائمقام : ان السماوة أصبحت بعد خروجه منها بلا حاكـم يحكمها ، ولهذا عادت المعارك بين الشرقيين والغربيين من سكانها علـى دأبهم القديم ، وأخذ رؤساء السماوة وتجارها يراجعونه في الرميثة مرة بعد مرة يرجون منه العودة اليها • وقد عاد هو الى البلدة أخيراً فاستقبل فيها بترحاب من قبل أهلها وساداتها وعلمائها وحتى نسائها • (٢١)

---

(٢١) المصدر السابق — ص ١٣٣ — ١٣٤ •

وضع الديوانية :

لم يقتصر العصيان على المدن الاربع التي ذكرناها بل شمل كذلك الكوفة والشامية وطويريج وغيرها ، وربما صح القول ان مـدن الفـرات الاوسط أصبحت كلها عاصية على درجات متفاوتة • ولكننـا نستطيع أن نستثني من ذلك مدينة واحدة هي الديوانية ، فلقد ظلت هذه المدينة هادئة طيلة أيام الحرب وكانت علاقة الاهالي بالموظفين حسنة •

وصف اسماعيل الواعظ وضع الديوانية خـلال أيام الحرب ، وكان مفتياً فيها ، فقال : ان الحق يقال ، والساكت عن الحق شيطان أخرس ، ان أهل الديوانية عاملوا الموظفين معاملة حسنة حتى آخر دقيقة من بقائهم في البلدة، فكانوا على العكس من أهالي البلدان الاخرى ككربلا والنجف والشامية الذين نهبوا الموظفين وآذوهم وحقروهم • وعندما سقطت بغداد بيد الانكليز جاءني رؤساء الديوانية واستشاروني قائلين انهم يريـدون أن يكلموا المتصرف ومدراء الدوائر بأنهم يعتبرونهم كالسابق أولياء الامور فلا حذر ولا خوف عليهم • وبهذا حصلت الطمأنينة في قلوب الموظفـين وصار الباعة يعطوهم السلع بالدين اذا أرادوا ، وظلت الحكومة في لواء الديوانية على هذا المنوال ثلاثة أشهر بعد سقوط بغداد • (٢٢)

يبدو أن السبب في هذا الوضع الشاذ الذي تميزت به الديوانية يعود الى شخصية المتصرف عزت بك الذي عينته الحكومة فيها منـذ بدايـة الحرب • فالمعروف عن هذا الرجل أنه كان مجاملاً كيّساً يعرف عادات القوم ويُعرف كيف يجاريهم فيها ويوثق صلاته بهم • وقد وصفه الحاج وداي العطية في كتابه « تاريخ الديوانية » بقوله : انه أدهى متصـرف عرفته الديوانية ، وقد قوبل من قبل أهلها بالاكبار والاحترام نظرا لما رأوا فيه من مقدرة واستعداد أداري وعسكري • (٢٣)

كان عزت بك يتقن اللغة العربية ، وقد اعتاد أن يقضي عصر كل يوم

---

(٢٢) مصطفى نور الـدين الواعظ (الروض الازهر) ـ الموصـل ١٩٤٨ ـ ص ٤٥٥ •

(٢٣) الحاج وداي العطية (تاريخ الديوانية) ـ النجف ١٩٥٤ ـ ص ٩٧ •

من أيام الاسبوع في بيت أحد وجهاء الديوانية بغية الاطـلاع على آراء الناس من جهة ، واجتذاب قلوبهم اليه من الجهة الاخرى • ويعترف المفتي اسماعيل الواعظ أن هذا السلوك من المتصرف لم يكن يعجبه لان العادة جرت في زمن الاتراك أن تكون معاملة الحكومة للعشائر بالقوة والقهر ، أما عزت بك فكان بخلاف ذلك يعامل العشائر باللطف والملاينة ، ولم يجاره المفتي في هذه السياسة مما أدى الى تشوء العداء بينهما ، ولهـذا حُرم المفتي من المأموريات الموقتة التي كانت تدر عليه مبالغ من المـال ، ولـم يُكلف المفتي بمثل هذه المأموريات الا مرة واحدة وكانت بلا عوض• (٢٤)

يخيل لي ان عزت بك تمكن بهذه الطريقة أن يمنع من ظهور العصيان في الديوانية ، فهو سار في أهل الديوانية سيرة صديق لا حاكم حيـث تركهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم حسب تقاليدهم العشائرية ، ولم يتدخل في أمورهم الا عند الضرورة القصوى • انه بعبارة أخرى تفادى العصيان في الديوانية بأن أعطى أهلها ما يطلبونه من العصيان وهـو أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ، وكأنه كان بذلك يطبق المبدأ القائل : « اذا كنت مأكول الطعام فرحب » •

ظل عزت بك يسير على هذه الطريقة طيلة بقائه في الديوانية ، ولـم يقع أثناء ذلك ما يعكر الهدوء سوى مرة واحدة هي في ١٧ آب ١٩١٦ عندما جاء الضابط الانكليزي ليجمن الى الديوانية بغية التجسس والاتصال سراً ببعض رؤساء العشائر لاستمالتهم الى الانكليز •

وخلاصة القصة ان ليجمن كان متنكرا بزي درويش ايراني ويدعي أنه قادم من طهران لزيارة العتبات المقدسة وهو انما يمر بالديوانية فـي طريقه الى النجف • وقد استطاع عزت بك أن يكتشف أمره ، لانه كان قد وصلته من بغداد قبل مدة صورة ليجمن وصور جميع الجواسيس الانكليز الخطرين الذين يعملون في العراق ، فأمر باعتقاله • ولم يكد خبر اعتقاله ينتشر في البلدة حتى هب أعوان الانكليز فيها لانقاذه ، وأخذوا يذيعون بين الناس ان المتصرف حبس زائراً شيعياً مسكيناً وأمر بضربه ضرباً مبرحاً•

---

(٢٤) مصطفى نورالدين الواعظ (المصدر السابق) ــ ص ٤٤٨

وتجمهر الناس يحملون السلاح وصاروا يشتمون المتصرف الذي كانوا يحبونه بالامس ويريدون الفتك به .

تمكن عزت بك أن يهدىء الحالة بما كان لديه من صلات حسنة مع رؤساء البلدة ، وأرسل يستدعي اليه العالم الديني الشيخ حسين ، وخاطبه قائلا :

« يا شيخ حسين ، يظن أهل الديوانية بانني قد عذبت مسلماً جعفرياً، انني أقدر أهل الديوانية ووطنيتهم الصادقة الا" انني آسف لاعتقادهم بأني قد عذبت مسلماً ، كما اني في الوقت ذاته أعلم مبلغ الدعاية السيئة التي بثها دعاة السوء بين المسلمين وجعلوهم شيعاً ليستفيدوا من تفرقتهم ، اذ كل قوم تفرقوا ضعفوا، وهذا هو الذي أضعف الاسلام... ان الشخص الذي سجنته ليس بمسلم ، وحتى ليس بشرقي انما هو ضابط انكليزي خطير ... قدم الديوانية خصيصاً وقضى ليلتين في دار (س ...) الذي جعله واسطة لاغراء الشيخ مخيف بالدراهم المرسلة معه من قائد الحملة البريطانية نكسون ، فاذا تسنى له الاستيلاء على افكار الشيخ مخيف فانه يستميل الشيخ مظهر ، واذا استمال هذين الشخصين فسيكون الفرات بأجمعه بقبضة يده ... ولكنني أريد أن تفهموا ان الانكليز مثلهم كمثل شخص عنده بقرة حلوب يستفيد من حليبها لغذائه ويبيع منه أيضاً ، ولكنه بدلاً من أن يغذيها فهو يأخذ الحليب منها ويدعها جائعة لتضعف ، ثم اذا نفد حليبها عمد الى ذبحها للاستفادة مما بقي من لحمها ومن ثمن جلدها . هذا هو شأن الانكليز في مستعمراتهم . وأكبر دليل على هذا هو وضع البلاد الهندية الآن » . (٢٥)

سيق ليجمن أخيراً الى الحلة بخفارة رجال من الدرك ، ولكن (س ...) تمكن من انقاذه في الطريق بمساعدة نفر من أعوانه من عشيرة ألبو صالح . والمظنون ان رجال الدرك أخذوا رشوة من (س ...) وسلموا ليجمن اليه ، وقد أعدم هؤلاء الدرك جزاء اهمالهم .

مكث ليجمن في عشيرة ألبو صالح ثلاثة أيام ، ثم سافر الى الشامية

---

(٢٥) الحاج وداي العطية (المصدر السابق) — ص ١٠٤ — ١٠٥ .

وحل ضيفاً على رجل يهودي فيها ، وقد أرسله هذا الى ناحية خضر الدراجي بحراسة ثلاثة رجال من عشيرة الخزاعل ، ومن هناك ذهب ليجمن الى الناصرية . اما (س ...) الذي أنقذ ليجمن من الاعتقال فقد كافأه الانكليز بعد احتلالهم الديوانية بأن جعلوه رئيساً للبلدية في أوائل عام ١٩١٨ . (٢٦)

من معالم الفوضى :

ان تضاؤل السلطة الحكومية في مجتمع عشائري كالمجتمع العراقي لابد أن يؤدي الى استفحال الفوضى وتشوب المعارك بين العصبيات المختلفة التي يتكون منها المجتمع . وهذا هو ما حدث فعلاً في الفرات الاوسط أثناء فترة العصيان .

من أهم الظواهر الاجتماعية التي لوحظت هناك في تلك الفترة استفحال النزاع بين المحلات في داخل كل بلدة ، ولكنه نزاع سرعان ما يختفي عندما يهدد المدينة خطر عام يأتيها من الخارج ، وترى أهل البلدة حينئذ قد اتحدوا كلهم ونسوا عداواتهم القديمة وتكتلوا تحت راية واحدة لدفع الخطر العام الذي يهددهم . ولا يكاد الخطر يزول عنهم حتى يعودوا الى التنازع من جديد .

خذ مثلا ما حدث في الديوانية أثناء تلك الفترة ، وقد أعطانا المفتي اسماعيل الواعظ عنها صورة واضحة حيث قال ما نصه :

« كان زمن الحرب زمن فتنة وسلب ونهب واضطراب ، فمن وقت اعلان الحرب الى وقت الاحتلال كنا في الديوانية بحالة يرثى لها ، ولا سيما في السنة الثالثة ، فقد كنا اذا أمسينا لا تؤمن الصباح واذا أصبحنا لا تؤمن المساء ، وكانت البلدة منقسمة الى تسعة أفخاذ يطلقون عليها (نقطة شبّات) ، ولما لم تكن الحكومة وقتئذٍ مسيطرة على الاهالي كان يتع أحياناً بين هؤلاء الافخاذ مناوشات قتالية . ففي يوم جمعة وقعت بين آل جودة وبين آل الحاج محيسن . فهجم هؤلاء على آل جودة وقتلوا محمداً ومهدياً ابني الملا جودة ، وحال ذلك القتال بيننا وبين صلاة الجمعة

---

(٢٦) المصدر السابق ـ ص ١٣٩ ، ١٩٠ .

لان الرمي متصل في الازقة ، وبعدئذٍ هجم آل الملا جودة على آل الحاج محيسن وقتلوا منهم وجرحوا ، وهكذا دواليك .

« ووقعت واقعة أخرى وهي أن عبدالحسين بن الحاج حمزة وُجد مقتولاً في اليوسفية ، واتهم صديقه غريب من آل الحاج محيسن ، وصار الهرج في قصبة الديوانية ، واتفقوا على أن يؤدي اليمين بالعباس المتهم غريب فحلف ، وبينما هو آمن يبيع ويشتري في حانوته اذ جاءه اخوة عبدالحسين وهما ابراهيم وشندل فأطلقا عليه الرصاص وقتلاه .

« وأخرى : وهي ان ابن قاله الكردي ـ وهذا رجل كردي الاصل اسمه عبدالقادر سني المذهب تزوج شيعية فاستشيع وسكن الدغارة ـ بينما كان جالساً هو وصديق له في المقهى وكانت بيدهما بندقية انكليزية فيناولها واحد للآخر ويلعبان بها اذ خرجت منها رصاصة قتلت الثاني ، وفر ابن قاله واختفى في بيت خالته زوجة محمد أفندي السالم ... فهجمت أهل الديوانية على بيت محمد أفندي السالم يريدون قتل ابن قاله، فجاءني محمد افندي وبيّن لي المسألة وأنها خطأ ، وأراد أن أحميه من أهل الديوانية فأخذته الى بيتي ، وكانت دار محمد أفندي جاري بيت بيت. ولما رأت الاهالي أنه صار بحماي كفوا عنه . وفي تلك الليلة سيّرته بواسطة محمد الحاج محيسن الى الدغارة . وقد اضطربت الحالة حتى أن الخزاعل قامت تهجم على الديوانية ، غير أن أهل الديوانية رجال أقوياء وان كانوا متفرقين لعداوة بينهم الا أنهم يد واحدة على من ناوأهم ، فاتفقوا على ردع العشائر اذا هجمت على الديوانية ... » . (٢٧)

ان هذا الذي رأيناه في الديوانية حدث مثله في النجف ، فان معارك الزقرت والشمرت قد اشتدت في النجف أثناء فترة العصيان . يروي محمد رضا الشبيبي في مذكراته قصة احدى تلك المعارك فيقول : في غروب يوم الخميس ٥ ذي القعدة ١٣٣٣ هـ ـ وهو يوافق ١٤ ايلول ١٩١٥ م ـ تنابث فتيان من آل شربة من محلة الحويش مع فتيان من آل جريو من محلة البراق ، وتبادلوا اطلاق الرصاص في المسلخ خارج البلدة ، وتراكض

---

(٢٧) مصطفى نور الدين الواعظ (المصدر السابق) ـ ص ٤٥٤ ـ ٤٥٥ .

الناس الى داخل السور فاتصل الرمي بهم ، واضطربت البلـدة وأقفلت الاسواق وفزع العامة الى أسلحتهم وترتبوا في حدودهم ، وبعد ساعة أو اقل هدأت المعركة ، وكان قد جرح فيها الحاج حسون شربة زعيم أسرته جرحاً بليغاً وجرح ابنه أيضاً ، كما جرح أثنان من آل جريو . وظلت البلدة في قلق حتى يوم ٨ ذي القعدة حيث اجتمع رؤساء المحلات في دار السيد محمد حسن الكليدار ، وبعد أخذ ورد توادع أهل البراق والحويش الى شهر على أن يعضد أهـل الحويش أهـل العمارة ويعضد أهـل البراق أهـل المشـراق ... (٢٨)

ويروي الشبيبي قصة أخرى حدثت بعد ذلك بمدة قصيرة ، وفيهـا تناسى النجفيون عداواتهم المحلية واتحدوا تجـاه العشائر المحيطة بهم . وخلاصة القصة : ان جماعة من عشيرة شمر البدويـة جاؤوا الى النجف للاكتيال . وفي ١ ذي الحجة وقعت مشاجرة حول البركة خارج السـور بين أحد البدو ونفر من ألبو عامر أحلاف النجفيين ، فقتل البدوي وعقر بعيره ، ودوى الرصاص .. فهب النجفيون من داخل السـور للنجـدة ووقعت مناوشة شديدة بالرصاص بين الفريقين أسفرت عن مقتل أربعـة من البدو وواحد من النجفيين مع جرح آخـر . وكـان النجفيون يرمون الرصاص من وراء معاقلهم ومن فوق شرفات السور مما أدى الى هـرب البدو . وانثال عوام النجف عند هذا على أحمال البدو وأمتعتهم فنهبوها ، واستمر النهب حتى الساعة الثانية بعد الغروب ، وكان المنهوب شيئاً كثيراً قدرت قيمته بخمسة عشر ألف ليرة من الحبوب والامتعة . وحين سـمعت العشائر القريبة بالحادثة أسرعت تريد غزو النجف . وفي عصر ٢ ذي الحجة هجم فرسان من آل شبل على النجف فردهم النجفيون على أعقابهم بعـد أن قتلوا اثنين منهم ، ثم هجم من بعدهم رجال من الخزاعل من آل البراك، واستطاع النجفيون ردهم كذلك . وفي ٣ منه انقطع الطريق بين النجف والكوفة والجعارة حيث صار فرسان آل براك يعتـدون على كل نجفي

---

(٢٨) من مذكرات محمد رضا الشبيبي ــ نقلا عن مجلة « البلاغ » الكاظمية ــ العدد السادس ــ السنة الرابعة .

يجدونه في الطريق ، وقد قتل من جراء ذلك نجفي واحد وجرد خمسة من أسلحتهم . وفي اليوم التالي قتل نجفي آخر في طريق الجعارة ، فخرج النجفيون في طلب الفرسان . وفي ١١ ذي الحجة كانت جماعة من النجفيين في موضع في الصحراء يقال له « القصور » فوثب عليهم فريق من عشيرة شمر كانوا هناك فقتلوا واحداً منهم وجرحوا اثنين ، وأخذوا دوابهم ... (٢٩)

يمكن القول بوجه عام ان مدن الفرات الاوسط كلها كانت تعيش في مثل هذه الحالة ، اذ يتنازع سكانها فيما بينهم حتى اذا جاءهم خطر عام اتحدوا ضده . وهذا يذكرنا بالمبدأ البدوي القائل : « أنا وأخي على ابن عمي ، وأنا وابن عمي على الغريب » .

مما يجدر ذكره عن أهل الحلة انهم امتازوا خلال فترة العصيان بكونهم اكثر تكاتفاً واتحاداً فيما بينهم من غيرهم . ويعزى سبب ذلك الى أن الحلة كانت مهددة اكثر من غيرها بخطر غزو العشائر لها ، وذلك على أثر انشاء سدة الهندية حيث جاءت العشائر من المناطق البعيدة تبغي الحصول على الاراضي التي أحيتها السدة في منطقة الحلة ، فتكاثرت العشائر هنالك وتزاحمت وأخذ يغزو بعضها بعضاً ، كما أخذت تغزو الحلة نفسها . وقد استمرت هذه الحالة الى أيام الحرب . يحدثنا يوسف كركوش الحلي عن وضع الحلة خلال فترة العصيان فيقول ما نصه :

« صار الحليون ــ بعد ثورتهم ــ يحملون السلاح ليحفظوا أنفسهم وأموالهم من هجوم القبائل والاعراب على بلدتهم لانها كانت مهددة ، فبينما كان الناس في الاسواق يبيعون ويشترون اذ جاءهم نبأ أن الجبور أو خفاجة أو غيرها من الاعراب المجاورين للحلة يريدون الهجوم على الحلة ، فيرتبك الناس ويغلقون دكاكينهم ويتأهبون لكفاحهم ، ثم ينكشف كذب ذلك النبأ . وقد شاهدت ذلك مراراً » . (٣٠)

ولكن هذا على كل حال لم يمنع من وقوع معارك محلية صغيرة في

---

(٢٩) المصدر السابق ــ العدد السابع .
(٣٠) يوسف كركوش (المصدر السابق) ــ ج ١ ص ١٦٢ .

الحلة في بعض الاحيان ، كتلك التي نشبت بين محلة جبران ومحلة المهدية، وقد استمرت هذه المعركة عدة ساعات ، فأغلقت فيها الاسواق ، وسقط عدد من الجرحى والقتلى ، ولم تهدأ الا بعد توسط عقلاء الحلة وسعيهم للصلح بين المحلتين .

واقعة الكوفة :

تعد واقعة الكوفة من أشهر معارك الفرات الاوسط خلال تلك الفترة ، وقد وقعت بين أهل النجف وعشيرة بني حسن ، وهي تعطينا صورة واضحة للوضع الاجتماعي الذي كان سائداً هنالك .

كان سبب الواقعة هو التنافس على حكم الكوفة بين النجفيين وبني حسن ، فرؤساء النجف يعدون الكوفة تابعة لهم لان اكثر أهلها منهم وهم أحق من غيرهم بالسيطرة عليها وجباية الرسوم منها . أما عشيرة بني حسن فكانت مجاورة للكوفة وهي تحسب نفسها أقوى من النجفيين وأحق منهم بالسيطرة على الكوفة .

وفي ٩ كانون الاول ١٩١٥ انطلقت شرارة الفتنة بين الفريقين ، اذ وقعت مناوشة بالرصاص بينهما في سوق الكوفة ، ويقال في تعليل ذلك ان بني حسن اتهموا أحد النجفيين وهو محمد أبو شبَع الذي كان يلتزم الحراسة في الكوفة بأنه يغازل نساءهم ويتحرش بهن عند مجيئهن للتسوق في الكوفة . وقد استمر تبادل الرصاص بين الفريقين برهة من الزمن ، ثم التجأ نفر من بني حسن الى خان على ضفة النهر، فتسور عليهم النجفيون ونقبوا الجدران ، واضطروهم على التسليم ، وخرج هؤلاء من الخان بعد أن اخذوا « الامان » من النجفيين ، ولكنهم عندما كانوا يعبرون الجسر في طريقهم الى أهليهم أطلق عليهم الرصاص نفر من النجفيين لم يكونوا يعرفون عن « الامان » شيئاً . (٣١) وبهذا انقطع كل أمل بالصلح بين الفريقين ، وأخذ كل منهما يتأهب للحرب بكل ما لديه من سلاح وقوة .

صمم الحاج عطية أبو قلل أن يبدأ الحرب بنفسه فأعد جماعة من

---

(٣١) نقلا عن مذكرات الشبيبي المخطوطة .

أتباعه المسلحين ، وسار هو على رأسهم ، فركبوا عربات الترامواي متوجهين بها نحو الكوفة . وحين علم بنو حسن بالامر أسرع فريق منهم الى سكة الترامواي في منتصف الطريق قاصدين قلع بعض القضبان منها لمنع النجفيين من الوصول الى أهدافهم . فنشبت مناوشة بالرصاص بين الفريقين سقط فيها بعض القتلى والجرحى ، ولم يؤثر ذلك على سير العربات .

وعندما وصل الحاج عطية وصحبه الى الكوفة اتخذ مقره في دار السيد حسين كمونة ، ثم انضم اليه رؤساء النجف الآخرون مع أتباعهم. وأرسل الحاج عطية رسله الى العشائر المتحالفة مع أهل النجف يطلب منهم النجدة لحرب بني حسن فجاءت الامدادات من تلك العشائر بكامل عدتها الحربية وأصبحت الكوفة بذلك زاخرة بالمقاتلين الاشداء وهم مستعدون للمعركة الكبرى .

وصل الى الكوفة السيد محمد حسن الكليدار وهو راكب فرسه في محاولة للتوسط بين الفريقين وانهاء النزاع سلماً . فذهب الى معسكر بني حسن خارج الكوفة وقابل رؤساءهم غير أنهم رفضوا وساطته وقالوا ان الكوفة تقع في أراضيهم وليس للنجفيين أي حق فيها ، وطلبوا تخليتها من كل نجفي ساكن فيها. وعاد الكليدار الى الحاج عطية يخبره بالامر.[٣٢]

نشبت المعركة بعد ذلك . وكانت معركة دامية عنيفة استمرت عشرين يوما سقط فيها الكثير من الجرحى والقتلى . وقد استعمل النجفيون في المعركة مدفعاً قديماً كانوا قد استحوذوا عليه من مخلفات الاتراك ، فنقلوه بعربة من عربات الترامواي ووضعوه على شاطىء النهر . وكان المكلف باستعمال المدفع رجل زنجي اسمه الحاج اقبال ، وقد جاء هذا بكرات حديدية من تلك التي يستعملها باعة التبغ ، وصار يضع الواحدة بعد الاخرى في فوهة المدفع بعد ملئه بالبارود ، ثم يشعله بشيء من سعف النخيل ، فتنطلق الكرة منه تجاه بني حسن المعسكرين في الجهة المقابلة من النهر . وقد سقطت الكرة الاولى في وسط النهر ، وسقطت الثانية أبعد

---

(٣٢) مجيد الموسوي (المصدر السابق) ـ ص ٧٠ ـ ٧١ .

من ذلك قليلاً •• وأخذ بنو حسن يتضاحكون سخرية بالمدفع وبصاحبه الحاج اقبال ، فكان الحاج اقبال يرد على سخريتهم بالشتائم البذيئة • ثم سقطت الكرة الثالثة على بني حسن وأوقعت بهم بعض الخسائر فانقلب ضحكهم الى عياط • (٣٣)

يدعي النجفيون ان المعركة انتهت بانتصارهم اذ قام كاظم صبي رئيس محلة البراق مع جماعة من اتباعه بحركة التفاف بارعة من جهة جامع السهلة ، مما أدى الى انتصار النجفيين وانخذال بني حسن • فكانت خسائر بني حسن زهاء خمسين قتيلا ، أما النجفيون فلم يخسروا سوى اثني عشر قتيلا • وأخذت نساء بني حسن يعيّرن رجالهن بهذه النوحية :

هاكم شيلنا وذبو حداريكم
شوفوا أهل الطماطة شعملوا بيكم

ومعنى هذا ان رجال بني حسن ينبغي أن يلبسوا ملابس النساء لهزيمتهم تجاه أهل الطماطة أي الحضر •

ويقال ان بني حسن أعادوا الكرة على النجفيين فكسروهم وطردوهم من الكوفة ، وأصبحت الكوفة بعدئذ خاضعة لرئيس بني حسن علوان الحاج سعدون • وقد عين هذا أحد عبيده واسمه « طرخان » ليحكم البلدة بالنيابة عنه ويجبي منها الرسوم • (٣٤)

الاتاوة وما يقابلها :

شهدت منطقة الفرات الاوسط في فترة العصيان ظاهرة اجتماعية أخرى بالاضافة الى ظاهرة المعارك المحلية ، وهي فرض « الخاوة » ـ أي الاتاوة ـ على المسافرين والتجار •

لا يخفى أن الاتاوة هي من جملة القيم التي ورثها المجتمع العراقي عن البداوة ، وكلما تضاءلت سلطة الحكومة في منطقة منه استفحلت فيها الاتاوة ، فهي بمثابة ضريبة يدفعها الانسان للشخص القوي المسيطر على

---

(٣٣) حدثني بذلك احد المسنين من أهل النجف •
(٣٤) نقلا عن جعفر الخليلي •

المنطقة ثمناً لحمايته • والواقع ان الشخص القوي في المجتمع العشائري يفتخر بقدرته على فرض الاتاوة على الناس كمثل ما يفتخر بقدرته على الغزو والنهب ، فكلا الامرين دليل على الرجولة والشجاعة في ذلك المجتمع •

كانت عشائر الفرات الاوسط اثناء فترة العصيان تفرض الاتاوة على كل من يمر بديرتها من المسافرين والتجار نهراً أو براً • يقال ان بقعة على شاطىء الفرات طولها عشرون ميلاً كانت في تلك الفترة تخضع لنفوذ سبع عشائر ، فكان المسافر في النهر مضطراً أن يدفع الاتاوة لتلك العشائر الواحدة بعد الاخرى • (٣٥)

وهنا يجب أن لا ننسى أن ظاهرة الاتاوة تقابلها عند العشائر ظاهرة أخرى مقابلة لها هي التي تتمثل في قيم الضيافة والدخالة والوجه والشهامة وما أشبه • فبينما كانت العشائر تفرض الاتاوة على المسافرين ، وتفتخر بذلك ، نراها في الوقت نفسه تحرص كل الحرص على حماية الضيف والدخيل وأي قاصد لها في حاجة • يروي علي الشرقي : أنه كان في عام ١٩١٥ منحدرا في زورق من السماوة الى الناصرية ، ولما وصل الى عشيرة عبس وجدهم يتقاتلون ، وكانت هناك جموع منهم على جانبي النهر يتبادلون الرصاص ، وكان سبب القتال أن مغوارا من مغاوير العشيرة اسمه ناصر قد قتل في اليوم السابق فهب اقرباؤه لاخذ ثاره من قاتليه • يقول الشرقي : انه ذهب دون علم منه الى بيت تبين أنه بيت القتيل ، ولما أراد الخروج منه لحقه ابن القتيل وهو طفل في العاشرة من عمره يطلب منه البقاء في البيت ليشرب القهوة ويتناول شيئاً من الطعام ، وكانت جدة الطفل تشجعه على ذلك تريد منه أن يكون خليفة أبيه في بيته لخدمة الضيوف • ولما أتم الشرقي الاكل وشرب القهوة قامت الجدة ومعها الطفل وخرجت الى أبناء عشيرتها المتحاربين وهي تلوح بطرف عباءتها صائحة فيهم : « يا معشر عبس أنا أم ناصر وهذا ولده نريد أن نجتاز بضيف ناصر

---

(35) Thomas Lyell (The Ins and outs of Mesopotamia) — London 1923 — p. 223 — 224.

الطريق ، فالوجه الوجه ياعبس ، عطلوا سلاحكم قليلاً ،أريد ذلك من العدو والصديق » • فنكس الجميع سلاحهم • وسكت أزيز الرصاص وارتفعت الأصوات « تفضلي تفضلي » ، ومع بعض الاصوات نشيج وبكاء • ويعلق الشرقي على ذلك قائلا : « فأكبرت تلك الشيم وخشعت لتلك التقاليد ، ولما اجتاز الزورق مواقع الخطر أوقفته وقدمت فروض الشكر ، وقبلت وجه الصبي ودعوت له بالمستقبل الحسن والحياة الكريمة » • (٣٦)

الاتاوة في المدن :

لم تكن الاتاوة منحصرة في نطاق العشائر فقط بل كانت موجودة في المدن أيضاً ولكن على شاكلة أخرى تنسجم مع ظروف المدينة • فالمدينة ليست كالعشيرة تقع على طريق المسافرين ، بل هي سوق تعيش على التجارة والمهن في الغالب • ولهذا فان الاتاوة فيها تفرض على بعض سكانها من التجار والمياسير من أصحاب المهن •

حدثني رجل أثق به بقصة لها دلالتها في هذا الشأن خلاصتها : أن رجلاً موسراً من أهل كربلا اسمه الحاج حبيب أبو الاكفان كان يتعاطى التجارة بالحبوب في تلك الفترة ، وقد علم فخري كمونة بأنه يجني من تجارته أرباحاً وفيرة فاستدعاه اليه وفرض عليه أتاوة قدرها مائة ليرة ذهب، ولما تردد الرجل في دفع المبلغ أمر فخري جلاوزته بانزاله في السرداب وضربه ضرباً مبرحاً حتى يدفع ، واضطر الرجل أن يدفع المبلغ بعد أن نال من الضرب ما فيه الكفاية • وبعد مرور مدة علم فخري أن ارباح الرجل في ازدياد ففرض عليه الاتاوة مرة أخرى ، واضطر الرجل الى دفعها صابرا • ثم قرر الرجل أخيراً أن يهاجر الى النجف ظناً منه أن الوضع هناك خير مما هو في كربلا •

نزل الرجل في النجف في محلة العمارة ، ولم يكد يستقر به المقام فيها حتى جاءه رسول من الحاج عطية أبو قلل يقول له ان الحاج عنده

---

(٣٦) علي الشرقي (الاحلام) — بغداد ١٩٦٣ — ص ١١٤ — ١١٥ •

مقدار من الحنطة يريد بيعها له ، وعرض عليه سعراً أعلى من سعر السوق ، فاضطر الرجل الى شراء الحنطة بالسعر المفروض عليه • وشاءت الصدفة أن يرتفع سعر الحنطة بعدئذٍ ارتفاعا فاحشا ، فعاد رسول الحاج عطيه يطلب منه اعادة الحنطة الى الحاج لحاجته اليها • ولم يكد الرجل يعيد الحنطـة حتى هبط سعر الحنطة الى مثل ما كان عليه سابقا • وعند هذا قال الحاج عطية : « ليس لنا نصيب مع هذا الرجل اتركوه » •

ان الاتاوة في المدن قد تتخذ في بعض الاحيان شكل قرض لا يُدفع، ذلك أن رئيس المحلة قد يستدعي اليه التاجر الساكن في محلته ويطلب منه مبلغاً معيناً من المال بحجة أنه قرض سيدفعه له بعد حين انما هو في الواقع لن يدفعه • والتاجر يعرف ذلك ولكنه يشعر بأن المبلغ هـو بمثـابة ثمن لحمايته ، فاذا امتنع التاجر عن الدفع صار عرضة للسرقة أو الاعتداء مـن قبل جلاوزة رئيس المحلة وأتباعه المسلحين •

لم يكن فرض الاتاوة منحصراً في طبقة الرؤساء فقط ، بل كـان يستعمله أيضاً كل رجل يشعر أنه قوي يستطيع أن يفرض ارادتـه علـى غيره • فترى هذا الرجل يبحث عن بعض صغار التجـار مـن البقـالين والعطارين ليأخذ منهم ما يحتاج اليه بحجة أنه قرض ، وهم لا يرفضون طلبه الا" اذا شعروا بأنهم أكفاء له في القوة بأنفسهم او بعشيرتهم •

يشير الشيخ محمد رضا الشبيبي الى ما يشبه ذلك فـي مذكراتـه المخطوطة عندما يتطرق الى وضع المجتمع النجفي في فترة العصيان ، اذ يقول ما نصه : « من جملة ما لاحظناه من أحوالهم ان كثيرا من ذوي المهن والحرف والتجارة والزراعة منهم تركوا أعمالهم وعولوا في الارتزاق على السلاح والقوة وتأليف العصابات » •

ويعطينا جعفر الخليلي صورة أخرى لوضع النجف مكملة لما ذكره الشبيبي ، فيقول : ان كثيرا من حملة السلاح من النجفيين كانوا يطرقـون البيوت عند منتصف الليل ويفرضون علـى أصحابها الاتاوات ، وكثيرا ما كان الرجل منهم يمر بدكان أحد البزازين فيأخذ منه ما يريد من القماش بلا ثمن ويتناقل الناس حول هذا الموضوع حكايات كثيرة • ويقول الخليلي أنه يعرف شرذمة من حملة السـلاح طرقت بيت السيد هاشم زيني بعـد

منتصف الليل وفرضت عليه أتاوة قدرها مائة ليرة عثمانية يدفعها حالاً ، فدفعها ، وفي الصباح شاع الخبر ولقي بعض الاهتمام من الرؤساء وقام الحاج عطية بالتحقيق . (٣٧) ويرجح في ظني ان الرؤساء انما اهتموا بالامر لانهم لم يحبوا أن يشاركهم أحد في فرض الاتاوة على الناس .

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان الذين يفرضون الاتاوة على الناس انما ينفقونها على ضيوفهم أو من يلوذ بهم من الاتباع ، فهم في هذا كالبدوي الذي اعتاد أن يكون نهاباً وهاباً . خذ مثلا الحاج عطية أبو قلل فانه كان مضرب المثل في سعة مضيفه وكثرة البذل فيه . يروى عنه أنه كان في أيام الزيارات حين يزدحم صحن النجف بالزوار يقف بنفسه في وسطهم ويصيح بأعلا صوته : يازوار الامير تعالوا الى مضيف خادم الامير ــ يقصد نفسه ــ فستجدون فيه الراحة والطعام على الرحب والسعة . (٣٨)

ويمكن ان نقول مثل هذا عن كاظم صبي رئيس محلة البراق . يصفه الشيخ محمد رضا الشبيبي بقوله : انه كان رئيس عصابة معروفة في منطقة الفرات وله فعائل كثيرة من مهاجمات القرى والبلدان وقطع الطرق صيرته من مشاهير أنجاد العراق ، وقد اشتهر في السخاء والفتوة وله في النجف مضيف هو مخزن الجنود الذي أخذه منهم بعد مهاجمته اياه في بداية العصيان . ويقول الشبيبي أيضاً : أن النجفيين بوجه عام كانوا في فترة العصيان قد اعتادوا على اتخاذ المطابخ العامة ودور الضيافات على نحو ما عند أهل البادية . (٣٩)

استدراك :

الواقع ان هذا النمط من السلوك الذي رأيناه واضحاً في الفرات الاوسط خلال فترة العصيان ، لم يكن شاذاً او نادراً في المناطق الاخرى من العراق . وربما صح القول انه كان من الظواهر المألوفة في المجتمع

---

(٣٧) نقلا عن مقالة الخليلي المخطوطة .
(٣٨) حميد عيسى حبيبان (حقائق ناصعة) ــ النجف ١٩٧٠ ــ ص ٤٣ .
(٣٩) نقلا عن مذكرات الشبيبي المخطوطة .

العراقي كله طيلة العهد العثماني ، غير أنه ازداد استفحالاً في الفرات الاوسط من جراء تضاؤل السلطة الحكومية خلال تلك الفترة •

فالمعروف عن السيد طالب النقيب مثلاً أنه كان يمارس هذا النمط من السلوك في البصرة علناً فلا يخفيه او يداري فيه • فهو كان يستدعي اليه كبار التجار ، ولا سيما الذميين منهم ، ويطلب منهم قرضا كبيرا ويعطيهم عنه سنداً مذيلاً بتوقيعه ، وكانوا يدركون أنهم لا يستطيعون مطالبته بالسند ابدا • ومن الطرائف التي تروى أن أحد الذميين اجترأ ذات يوم وطالب السيد طالب بقيمة سندٍ له عليه ، فغضب السيد طالب منه وأمره بأن يبلع السند حالاً ويشرب فوقه الماء ، وقد فعل التاجر ما أمره به السيد طالب • ولما استدعاه السيد طالب مرة أخرى طالبا منه قرضا جديدا أخذ التاجر يتوسل اليه راجيا ان يكتب السند في هذه المرة على صفحة قمر الدين لكي يسهل بعدئذٍ بلعه •

ومما يلفت النظر ان هذا النمط من السلوك كان يعد في نظر الناس من مفاخر السيد طالب ومن علامات نفوذه وقوته ، وكان الناس يتحدثون باعجاب عن الافاعيل التي يقوم بها من هذا القبيل ، ثم يتحدثون بعدئذٍ عن مبلغ سخائه ومروءته التي لا تحد • يقول آيرلند في وصف السيد طالب : « كان سخاؤه وتصدقه على الفقراء مضرب الامثال ، غير أنه كان بوضعه هذا أشبه بـ (روبن هود) • حيث أنه لم يكن ثريا ، ولذا فان ما كان يحتاجه من المال لتمشية مصالحه واعاشة حاشيته كثيرا ما كان يجبي عنوة ويبتز من أثرياء العرب القاطنين في العراق الجنوبي » • (٤٠)

ومما له صلة بهذا الموضوع أن كثيرا من الاشخاص في العهد العثماني كانت لديهم رغبة نفسية عميقة في أكل الديون التي عليهم ، أو المماطلة فيها على الاقل ، مع أنهم يملكون القدرة على أدائها ، وهم قد اعتادوا على ذلك بحيث لا يجدون فيها عيباً ، وربما افتخروا بها أحيانا • ومن الممكن القول ان هذه العادة تستمد جذورها النفسية من مفهوم

---

(٤٠) فيليب آيرلند (العراق — دراسة في تطوره السياسي) — ترجمة جعفر خياط — بيروت ١٩٤٩ — ص ١٧٧ •

الاتاوة ، فالمبتلى بهذه العادة يشعر كأن أداءه الدين يعتبر دليلا على ضعفه تجاه الدائن ، ولعله يتصور ان أكل مال الناس يتضمن معنى الغلبة عليهم • ولهذا نرى بعض الاشخاص قد يتباهون بأنهم قادرون على استيفاء ديونهم من الناس دون ان يتمكن الناس من استيفاء ديونهم منهم • فهي اذن قضية مغالبة !

الملاحظ ان شيئاً من هذه العادة لا يزال باقيا لدى بعض الناس حتى يومنا هذا ، فالفرد منهم قد يكون متدينا كثير العبادة والتهجد ، او يكون ذا ثروة لا بأس بها ، ولكنه يحب أن يأكل الديون الصغيرة التي يأخذها من البقال او القصاب او الحمال • ومنهم من يأكل مثل هذه الديون الصغيرة بينما هو ينفق أضعافها على ولائمه ومظاهر سخائه في شتى المناسبات •

الفصـــل الثـــامن

معركـــة ســـلمان بـــاك

والعلـــم الحيـــدري الشريف

تعد معركة سلمان باك من أعظم معارك الحرب في العراق من حيث أهمية نتائجها ، أو لعلها أعظم المعارك جميعاً • انها جرت بعد انقضاء سنة واحدة على بداية الغزو الانكليزي للعراق ، وهي السنة التي عانى الاتراك فيها الهزائم المتتابعة ، ثم حدثت معركة سلمان باك أخيراً فكانت أول معركة وقف الجيش التركي فيها موقف الند للند تجاه الجيش الانكليزي وصارعه ثم غلبـــه •

ان معركة سلمان باك كانت بمثابة البداية للطور الثاني مـــن حـــرب العراق وهو الطور الذي تحول فيه الجيش التركي من موقف الدفاع الى موقف الهجوم وأخذ يكيل للجيش البريطاني الضربات القاصمة طيلة خمسة اشهر حتى انتهى الامر أخيراً باستسلام القوات الانكليزية في الكوت ذلك الاستسلام المخزي الذي هبط بهيبة بريطانيا الى الحضيض •

بين نكسون وطونزند :

حدث قبل معركة سلمان باك خلاف شديد فـــي الرأي بين الجنرال طونزند ورئيسه الجنرال نكسون • فالمعروف عن نكسون أنـــه كـــان متسرعا يحب المجازفة ، وحين رأى الانتصارات المتتابعة التي نالتها القوات الانكليزية في العراق أصبح واثقاً بأنها قادرة على الاســـتمرار فـــي نيـــل الانتصارات دون أن يتمكن الاتراك من الوقوف في وجهها الى أن تصـــل الى بغداد ، وعندئذٍ ستسقط هذه المدينة التاريخية المشهورة في يد القوات الانكليزية كما تسقط الثمرة الناضجة • وكان يؤيد نكسون في هـــذا الاتجاه مستشاره السياسي السر برسي كوكس ، فقد كان هذا الرجل يعتقد أن فتح بغداد له من الاهمية السياسية ما يشبه الاهمية الناتجة عن فتـــح

اسـطنبول . (١)

أما طونزند فكان له رأي آخر ، ففي ٣ تشرين الاول ١٩١٥ أرسـل من العزيزية برقية مطولة الى نكسون قال فيها : ان الاتراك قد تحصنوا في موقع سلمان باك ، وهناك احتمال أن تصل اليهم نجدات قوية من الاناضول وهم قادرون أن يخرجونا من بغداد في حالة دخولنا اليها ، يضاف الى ذلك أن خطوط مواصلاتنا الى الخليج طويلة تقرب من أربعمائة ميل ، وأن مياه دجلة قد انخفضت فجأة مما جعل سير مراكبنا بطيئاً شاقاً محفوفاً بالاخطـار ، فاذا تراجعنا انثالت العشائر المعادية علينا حيث يتحول عداؤهم لنا الى ثورة علينا عند سماعهم خبر تراجعنا . واذا أردنا احتلال بغداد فالضرورة المطلقة تحتم علينا أن يكون زحفنا مؤلفاً من فرقتين أو من فرقة واحدة تعضدهـا بالقرب منها فرقة أخرى كاملة ، أما اذا أقدمنا على احتلال بغداد بغير هذه الصورة تعرضنا للاخطار الشديدة . (٢)

لقـد أثبتت الحوادث فيمـا بعـد صـواب رأي طونزند ، ولـكن نكسون لم يأخذ بهذا الرأي ، وظل متمسكاً برأيه السابق . يقول باركر في وصف نكسون : انه لم يكن من معيار القواد العظام أمثال نلسون أو دريك ، بل كان متفائلاً الى أقصى حد ، وكان تفاؤله هو الـذي جعـل طونزند يزحف نحو بغداد من غير قوة كافية . ان التجربة السابقة التـي حصل عليها نكسون في العراق جعلته واثقاً من أن أقل ضغط بوجه علـى الاتراك يؤدي الى هزيمتهم ، فلقد كان مؤمناً ببسـالة الجنود الانكليز والهنود ويعتبر الجندي التركي من الدرجة الثانية ، ثم تبين له بعد فـوات الاوان أنه كان مخطئاً وأن الجندي التركي ليس كما كان يتصوره . (٣)

توترت العلاقة بين طونزند ونكسون من جراء خلافهم في هذا الرأي . يقول طونزند في مذكراته : ان أصـول الضبط العسكري لا تجيز لــه

(1) Russell Braddon (The Siege) — London 1969 — p. 66.

(٢) تشارلس طونزند (محاربتي في العراق) ـ ترجمة عبدالمسيح وزيـر ـ بغداد ١٩٢٣ ـ ص ١٧٧ .

(3) Barker (The Neglected War) — London 1967 — p. 200—201.

الاحتجاج على رئيسه ، كما لا تجيز له الاستقالة ، فكان الواجب يقضي عليه اذن أن ينفذ أوامر رئيسه بكل ما في وسعه على الرغم من مناقضته لرأيه • [٤] ويبدو ان الحكومة البريطانية كانت تميل الى رأي نكسون في الزحف العاجل على بغداد ، يحدوها الى ذلك ما كانت تعانيه جيوشها في الدردنيل وفرنسا من هزائم ، فكانت الحكومة البريطانية ترغب أن تنال نصراً باهرا في العراق تعوض به عن تلك الهزائم ، وتراءت بغداد لها كأنها جائزة ذات بريق خلاب يبهر العيون • [٥]

وفي ٢٦ تشرين الاول ١٩١٥ تلقى طونزند من نكسون امرا بالزحف نحو بغداد بعد الاستعداد الكافي له • وفي ٢ تشرين الثاني وقف رئيس الوزارة البريطانية المستر اسكويث في مجلس العموم يقول : « ان قوات الجنرال نكسون على مقربة من بغداد ، ولست أعتقد ان الحرب شهدت في جميع ميادينها مثل هذه السلسلة من العمليات العسكرية التي صممت بعناية وتفذت بذكاء بحيث نأمل منها ان تثمر أعظم نجاح » • [٦]

يخيل لي أن موقف الانكليز والاتراك قبيل معركة سلمان باك يشبه من بعض الوجوه موقف الارنب والسلحفاة في قصة الاطفال المعروفة ، فقد كانت الارنب واثقة كل الثقة من سرعة جريها ولم تكن تتصور ان السلحفاة تستطيع ان تغلبها في السباق بأي حال من الاحوال ، فنامت مطمئنة ، بينما كانت السلحفاة تزحف دائبة نحو هدفها حتى انتهى السباق أخيراً بفوز السلحفاة وفشل الارنب •

الاستعداد للمعركة :

تقع قرية سلمان باك على بعد عشرين كيلو مترا من جنوب بغداد وهي تضم مرقد الصحابي المعروف سلمان الفارسي الذي كان العوام يعتبرونه حلاق النبي ويطلقون عليه لقب « پاك » أي الطاهر •

---

(٤) تشارلس طونزند (المصدر السابق) ــ ص ١٨٠ ــ ١٨١ •

(5) Arnold Wilson (Loyalties — Mesapotamia) — London 1936 — vol. 1, p. 82.

(6) Ibid, vol. 1, p. 83.

كان القائد التركي نور الدين بك قد اتخذ خطوطه الدفاعية في موضع قريب من طاق كسرى الى الجنوب من قرية سلمان باك ، وهو انما اختار هذا الموضع لانه مليء بالاطلال والروابي التي هي من بقايا مدينة «المدائن» الساسانية القديمة ، وهذه الروابي تصلح لأن يتحصن الجنود خلفها فيصعب على العدو التغلب عليها • وكان للنهر في غرب تلك الروابي عطفة كأنها زاوية حادة تحمي الجنود من ورائهم • أضف الى ذلك ان الموضع يسهل تموينه لقربه من بغداد كما يسهل وصول الامدادات القادمة اليه من الاناضول •

والواقع ان نورالدين بك كان قد اهتم بتحصين هذا الموضع منذ تسلمه القيادة في بغداد قبل بضعة أشهر ، وكان قد أوعز بتشكيل لجنة من الضباط البغداديين المتقاعدين وناط بهم مهمة اعداد وسائل الدفاع فيه، وقد استعان هؤلاء الضباط بالاهالي وبعض الوحدات المحلية ، فتم حفر الخنادق ووضع الاسلاك الشائكة فيه حسب القواعد الفنية • فلما وصلت القوات التركية المنسحبة اليه أخيرا ، على أثر انسحابها من معركة السن ، وجدته مهيئاً فاستحكمت فيه •

نشط نورالدين بك في تدريب جنوده وتجديد لباسهم وتنظيم شؤونهم ، وعندما لاحظ كثرة الفارين بينهم أصدر أمره باعدام بضعة أفراد منهم لكي يلقي الرعب في قلوب الآخرين • (٧)

وبينما هو كذلك بدأت النجدات القوية التي أرسلت من الاناضول تصل اليه تدريجاً ، وهي مؤلفة من الجنود الاتراك الذين عرفوا بالبسالة وقوة الصمود وكان على رأسهم خليل بك عم وزير الحربية أنور باشا وهو الذي تولى القيادة بعدئذ اثناء حصار الكوت •

وصل خليل بك الى بغداد بالقطار وكان يشكو من ألم في بطنه من جراء التهاب الزائدة الدودية ، فرقد في المستشفى • أما جنوده فقد وصلوا بعده بالاكلاك عن طريق النهر • ونزلوا بالقرب من الكاظمية ، ومن هناك

---

(٧) تحسين العسكري (الثورة العربية الكبرى) — بغداد ١٩٣٦ — ج ١ ص ٩٦ — ٩٧ •

ساروا مشياً على الاقدام الى سلمان باك • حدثني أحد المسنين من أهل الكاظمية وهو من الذين شاهدوا وصولهم اليها فقال : ان منادي الحكومة الحاج هادي الخوجة أخذ ينادي في أسواق الكاظمية يطلب من الاهالي الخروج الى النهر لاستقبال القوات التركية القادمة ، ولما خرج الناس وجدوا الاكلاك تملأ النهر بشكل يثير الدهشة لكثرتها وهي مليئة بالجنود ، ثم نزل الجنود منها وأخذوا يسيرون صفوفاً خلال البساتين تتقدمهم الموسيقى بأنغامها المشجية • فارتفعت أصوات الناس بالهتاف كما ارتفعت زغردة النساء تحميساً لهم •

وطبع الاتراك في احدى مطابع بغداد منشورات باللغات الهندية بغية نشرها خلسة بين الجنود المسلمين في القوات الانكليزية • فكانت تلك المنشورات تحرض اولئك الجنود على الفرار من صفوف « الكفار » وعلى الانضمام الى صفوف العثمانيين اخوانهم في الدين ، وذكرت لهم اسم الصحابي سلمان باك وأنه مدفون في نفس الموضع الذي جاءوا للقتال فيه •

ويبدو ان هذه المنشورات أثرت في بعض الجنود بعض التأثير ، فقد أطلق أحدهم النار على حارسه وفر هاربا • واضطر طونزند أن يعيد الى العمارة فوج البنجابيين العشرين مخافة أن يفعلوا مثلما فعل هذا الجندي ، وأحل محلهم فوجاً آخر كان قد أرسل اليه من العمارة ، ولم يكتف طونزند بذلك بل أصدر أوامر مشددة منع بها ذكر اسم « سلمان باك » بين الجنود ، وامر ايضا بتبديل جميع الخرائط العسكرية حيث حذف منها اسم « سلمان باك » ووضع بدلاً عنه الاسم الفارسي القديم « طيسفون » • (٨)

معركة سلمان باك :

بدأ القتال في سلمان باك في ٢٢ تشرين الثاني ، فكان قتالاً ضارياً طاحناً يشبه المجزرة • وصف ويلسون قتال اليوم الاول من الجانب الانكليزي فقال : انه كان مذبحة رهيبة حيث اشتبك فيها جنود الفريقين

---

(8) Ronald Millar (kut) — London 1969 — p. 15.

بدأ بيد حتى النهاية ، وشـوهدت جثث القتلى من البريطانيين والهنـود مختلطة بجثث الاتراك ، وكل من سار في المقدمة ظل بلا طعام ، وكـان الجرحى كثيرين والترتيبات الصحية سيئة على العادة ، وكانت نسبة القتلى بين الضباط عالية ، لذلك تعسر الضبط والربط وصعبت السيطرة • وجاءت الليلة التالية فكانت ليلة ليلاء أطبق على الجميع فيها أسى وشقاء ، فلقـد جمع الجرحى ووضعوا في عربات لا نوابض لعجلاتها تجرها البغـال ، وكانت تتعالى منهم الصرخات من جراء سيرها على الارض الوعرة فتبعث الرعب في قلوب زملائهم الباقين ، وكثير منهم كان يعاني من ظمأ دام طوال اليوم ، وكان برد الليل ينفذ الى عظامهم فيثير ألماً على ألم • ان مستشفيات الميدان الاربع كانت تقوم على تقديم الخدمة الطبية لاربعمائة جريح ، لكنها قامت على خدمة أربعة أضعاف ذلك العدد في ذلك اليوم عينه • وقـد شغلنا طوال يومين في نقل الضحايا الى البواخر الراسية ، فحشروا علـى ظهورها كما يحشر القطيع •••[٩]

لا حاجة بنا الى القول ان الاتراك كانوا يعانون من الشقاء أشـد مما عاناه الانكليز ، فاذا كانت التدابير التموينية والصحية عنـد الانكليز سيئة حسبما وصفه ويلسون فلابد أن تكون عند الاتراك أسوأ أضعافاً • ولكن الذي خفف الامر على الاتراك هو أن بغداد كانت قريبة منهم ، وان الكثير من خاناتها ودورها الكبيرة قد حجزت لتكون مستشفيات للجرحى، وانبرى الكثيرون من أهل بغـداد لنقـل الجرحى ومسـاعدتهم بدافـع النخوة ، كما انهالت التبرعات عليهم من بعض الاثرياء والاسر المعروفـة • ذكرت جريدة « صدى الاسلام » في عددها الصادر في ١٩ محرم ١٣٣٤ هـ الموافق ٢٧ تشرين الثاني ١٩١٥ م ـ تقول : ان الاسبوع الماضي كان مـن الايام المشهورة في حماس الاهلين لمساعدة الجرحى وتأمين حاجاتهم مـن ملبوس ومأكول ومشروب • ثم نشرت الجريدة في عدد لاحق أسماء بعض المتبرعين للجرحى : فعقيلة الميرلوا مظهر باشا تبرعت بخمسمائة قرش ، كما تبرع آل الباچچي بمقادير من الخبز والجبن والخيار ، وتبرع ألبير أفندي

---

(9) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 1, p. 85—86.

بكمية وافرة من البقسماط ، وقدمت سيدتان من آل الباچچي قرشين لكل جريح يداً بيد •

دام القتال في سلمان باك ثلاثة أيام ، وكان النصر في اليوم الاول في جانب الانكليز حيث اضطر الاتراك فيه الى الانسحاب نحو خطوطهم الدفاعية الثانية ، ولكن الاتراك أعادوا الكرة في اليوم الثاني فاستعادوا خطوطهم الاولى • وقد اشتد القتال في اليوم الثالث فكان سجالاً اذ لم يحصل الفريقان منه الا على زيادة في عدد الضحايا • ووصل الحال بالقائدين الانكليزي والتركي في ذلك اليوم الى حد ان كلاً منهما كان يائساً من الانتصار وكان على وشك الايعاز الى قواته بالانسحاب من المعركة •

وفي منتصف الليل ورد الى نورالدين بك خبر غير صحيح مفاده أن الانكليز أرسلوا قوة باتجاه نهر ديالى للاحاطة بقواته ، فصدق نورالدين بك بالخبر وانتابه اضطراب شديد بحيث أصدر اوامره الى قواته بالانسحاب نحو ديالى • وفي الساعة الرابعة من فجر اليوم التالي بدأت القوات التركية تنسحب فعلاً • ولكن نور الدين استدرك الامر بسرعة حالما تبين له عدم صحة الخبر ، فأمر القطعات المنسحبة بالعودة الى مواقعها الاصلية •

وهنا لعب القدر لعبته على نحو ما فعل بالشعيبة ولكن في الجانب المضاد، ذلك أن طونزند حين أعلمته الطائرات بحركة القطعات التركية العائدة الى مواقعها ظن أنها نجدات جديدة وصلت الى الاتراك ، فقرر تقديم وقت انسحابه الذي كان قد قرره من قبل • (١٠)

يدعي خليل بك في حديث أدلى به بعد مدة أن الفضل الاكبر في انتصار الاتراك في المعركة يعود اليه وحده ، ذلك أنه عندما كان طريح الفراش في المستشفى ببغداد علم بأن نور الدين بك قرر الانسحاب الى ما وراء ديالى ، فنهض من الفراش متحاملاً على نفسه وذهب الى نورالدين يكلمه بشدة في وجوب الصمود وعدم الانسحاب • ويضيف خليل بك

---

(١٠) شكري محمود نديم (حرب العراق) ـ بغداد ١٩٦٧ ـ ص ٦٨ ـ ٦٩ •

الى ذلك قائلاً : ان نورالدين كان في ذلك الوقت ـ كشأنه في كل وقت ـ متردداً ، ولولا كلامه القوي معه لما قرر الصمود ومواصلة الهجوم . (١١)

مهما كان الحال فان معركة سلمان باك تشبه معركة الشعيبة من حيث ان النصر فيها كان معلقاً على شعرة ، وقد ذهب الجنرال طونزند ضحية لتلك الشعرة كمثل ما ذهب سليمان عسكري بك قبله .

أكاد اعتقد ان طونزند كان من أقدر القواد وأغزرهم علماً ولكنه ظهر في ظروف لم تكن من صنعه فأساءت اليه وحطت من قيمته ، فلو كان هذا الرجل يقود فرقتين بدلا من فرقة واحدة لكان في مقدوره الانتصار على الاتراك بسهولة ، ولربما دخل بغداد فاتحاً حيث ينصب له فيها تمثال بدلا من تمثال مود الذي نصب اخيراً . ولكن القدر له أحكامه !

لعلني لا أغالي اذ قلت ان كثيرا من أحداث التاريخ الكبرى هي من طراز معركة سلمان باك أو معركة الشعيبة اذ يتوقف مصيرها على قوة أعصاب رجل واحد ، أو حدوث صدفة مفاجئة ، أو غير ذلك من الامور التي قد تكون تافهة في حد ذاتها ولكنها هائلة في عواقبها .

الانسحاب الى الكوت :

يروي برادون أن طونزند حين قرر الانسحاب أمر خادمه « بوغيز » بأن يعد له مائدة الطعام عند طاق كسرى ، فأسرع الخادم الى العجلة الخاصة بالقائد فتناول منها المائدة السفرية مع الكرسي الخاص بها ، ونصبهما في ظل الطاق ، وأعد الطعام المؤلف من اللحم المعلب وقارورة ماء فيشي ، ثم وقف قريبا من طونزند ينتظر فراغه من الاكل . (١٢)

لست أدري لماذا فعل طونزند ذلك . وربما كان ذلك من نزوات العبقرية فيه حيث أراد أن يتمتع بالاكل تحت ظل أثر تاريخي مشهور ، وكأنه كان يستوحي منه شيئاً من عبر التاريخ ! .

شرعت القوات الانكليزية بالانسحاب من مواقعها في سلمان باك

(11) Sandes (In Kut and Captivity) — London 1920 — p. 89—90.

(12) Russell Braddon (op. cit.) — p. 100.

في الساعة السابعة والنصف من مساء ٢٥ تشرين الثاني مستفيدة من ظلام الليل • والغريب ان الاتراك لم يعلموا بالانسحاب الا في الصباح التالي، فقد جاءهم آنذاك بعض الخيالة العشائريين وهم يحملون معهم الكثير من البنادق الانكليزية وقالوا انهم وجدوها مطروحة في الخنادق الى جانب القتلى • (١٣) وعند هذا أصدر نورالدين بك أمره الى قواته بمطاردة القوات الانكليزية المنسحبة •

ظلت القوات الانكليزية تواصل انسحابها باتجاه الكوت طيلة ثمانية أيام ، وكانت القوات التركية تطاردها من ورائها مطاردة عنيفة لا هوادة فيها • ولم يقع في تلك الايام الثمانية ما يستحق الذكر سوى ما جرى في موضع يسمى « أم الطبول » يقع على بعد سبعة أميال جنوب العزيزية •(١٤)

والواقع ان الذي حدث في ذلك الموضع يعد أمراً عجيباً ليس له مثيل في الحروب الحديثة ، (١٥) وهو يدل على ما لدى طوتزند من مهارة عسكرية • وخلاصة الحادث ان القوات الانكليزية كانت قد خيمت في أم الطبول في مساء ٣٠ تشرين الثاني بغية الاستراحة بعد مسيرة شاقة ، وعلى أثر ذلك جاءت القوات التركية فخيمت على بعد ميل واحد منها وهي لا تدري أنها على تلك المسافة القصيرة من مخيم القوات الانكليزية • يقول تحسين العسكري في مذكراته : ان نور الدين بك نصب صيوانه في مقدمة جيشه خلافاً للقواعد الحربية وعلق فوقه المصابيح الملونة اشارة الى انه مقر القيادة العامة ، ثم نام في الصيوان نومة هنيئة بكل ارتياح•(١٦)

أما طوتزند فلم ينم تلك الليلة بل جمع ضباطه وعبأ قواته وأعد مدافعه ومراكبه استعدادا لمباغتة المخيم التركي بالقصف الشديد حالما ينبلج نور الصباح • ولم يكد ينبلج النور في الساعة السادسة والدقيقة الخمسين

---

(١٣) تحسين العسكري (المصدر السابق) — ج ١ ص ١٠٠ •

(١٤) يوجد في العراق موضعان باسم « أم الطبول » أحدهما يقع في غرب بغداد والآخر هو هذا الذي يقع في جنوب العزيزية .

(15) Ronald Miller (op. cit.) — p. 49.

(١٦) تحسين العسكري (المصدر السابق) — ج ١ ص ١٠١ — ١٠٢ •

حتى انطلقت القنابل مرة واحدة على المخيم التركي من المدافع البرية والنهرية معاً فأثارت فيه غباراً هائلاً ، وتساقطت الخيم كما انطلقت الخيول راكضة في كل اتجاه ، وسقط المئات من الجرحى والقتلى . (١٧) وكان من بين القتلى قائد الفيلق الثامن عشر ، ومن بين الجرحى اثنان من قواد الفرق . (١٨) واستيقظ نور الدين بك من نومه مذعورا فشاهد قواته فلولاً تتقهقر بصورة مريبة تاركة مدافعها . (١٩) ومن الممكن القول ان طونزند لو كانت لديه القوات الكافية لتمكن من مواصلة هجومه وأسر القوات التركية كلها أو قسم كبير منها .

بعد انتهاء معركة أم الطبول أمر طونزند قواته بمواصلة الانسحاب نحو الكوت . وفي ٢ كانون الاول وصلت القوات الانكليزية الى مقربة من الكوت ، فأبرق طونزند من هناك الى نكسون في البصرة يخبره بأن قواته منهوكة جدا وأنه لذلك قرر التوقف في الكوت فأجابه نكسون بالموافقة على ما يرتأيه حسب مقتضيات الموقف العسكري لديه .

يعتبر توقف طونزند في الكوت من الاخطاء الكبرى التي تورط بها هذا القائد في حياته العسكرية ، وهذا دليل على أن الانسان مهما كان حاذقاً فلا بد من وقوعه في الخطأ في بعض الاحيان .

ان الكوت تقع في داخل منعطف من منعطفات دجلة تشبه حدوة الحصان حيث يحيط بها الماء من نواحي ثلاث ، ويبلغ عرض المنعطف ميلاً واحداً وطوله ميلان . وهي بذلك يسهل تطويقها وتضييق الخناق عليها ، فاذا أغلق العدو فتحة المنعطف بالخنادق والاسلاك الشائكة أصبحت قوات الكوت فيما يشبه المصيدة كأنها جرذي

كان طونزند مستهيناً بقوة الاتراك وواثقاً من التغلب عليهم بعد وصول النجدات اليه ، فلا داعي للقلق في نظره اذن . وكان طونزند بالاضافة الى ذلك يعتبر الكوت ذات موقع سوقي مهم اذ هي تسيطر على

---

(17) Sandes (op. cit.) — p. 97—98.

(18) Ronald Millar (op. cit.) — p. 52.

(١٩) تحسين العسكري (المصدر السابق) — ج ١ ص ١٠٢ .

مدخل نهر الغراف فاذا انسحبت القوات الانكليزية منها فانه يخشى أن يتمكن الاتراك من تهديد الناصرية والبصرة عن طريق ذلك النهر •

اقترح آمر موقع الكوت الجنرال رمينجتن أن يكون توقف القوات الانكليزية في موضع السن الذي يقع على بعد سبعة أميال جنوب الكوت، فرفض طونزند الاخذ بهذا الاقتراح • وقد أثبتت الايام بعد نظر هذا القائد النابه • (٢٠)

المارشال غولتز :

في ٢٣ ايلول ١٩١٥ عينت الحكومة التركية القائد الالماني فون در غولتز قائدا عاما للجيش السادس الذي يشمل مجاله العراق وايران ، وكان هذا القائد يومذاك في الثانية والسبعين من عمره برتبة « فيلد مارشال » ، ويعتبر من عظماء القواد في أوربا •

وصل المارشال غولتز الى بغداد في ٦ كانون الاول ١٩١٥ وكان بصحبته ثلاثون ضابطاً ألمانياً ، فجرى له استقبال فخم ، واصطف تلاميذ المدارس الرسمية يحيونه ، وخصصت لسكناه دار القنصلية الانكليزية الواقعة على النهر • وقد صارت له شهرة في بغداد حيث أطلق عليه العامة اسم « قليچ باشا » ، وقيل انه كان لوطياً ويتناقل البغداديون في ذلك حكايات لا يستحسن ذكرها •

وضعت تحت تصرف غولتز سيارة خاصة ، وقد سافر بها الى جبهة الكوت لدراسة الموقف العسكري فيها ، فالتقى هناك بالقائد التركي نور الدين بك ، ووقع بينهما خلاف في الرأي حول الخطة العسكرية التي يجب اتباعها في تلك الجبهة • فقد كان نور الدين يرى وجوب مهاجمة الكوت واحتلالها لكي يتفرغ بعدئذٍ لمواجهة حملة الانقاذ الانكليزية المتوقع قدومها من البصرة قريباً ، أما غولتز فكان رأيه أن لا جدوى من مهاجمة الكوت بل ينبغي تطويقها وتشديد الحصار عليها حتى تستسلم تحت وطأة الجوع •

---

(٢٠) شكري محمود نديم (المصدر السابق) — ص ٧٤ •

عاد غولتز الى بغـــداد ومنها ذهب الى كرمانشاه فوصلها فـي ٣٠ كانون الاول ، ثم عاد الى بغداد وذهب الى الكوت مرة أخرى . وكـان نورالدين أثناء غياب غولتز قد قام بعدة هجمات على الكوت باءت بالفشل وتكبدت قواته خسائر فادحة . وحين وصل غولتز الى الـكوت للمـرة الثانية وشاهد نتائج الهجمات الفاشلة عليهـا اشـتد الخلاف بينـه وبين نور الـدين .

يقال ان نور الدين كان منذ البداية غير راضي عن تعيين غولتز لقيادة الجيش السادس . وكان اعتراضه قائماً على مبدأ أنه لا يجوز تعيين قائـد غير مسلم لقوات مجاهدة تدعي أنها تقاتل في سبيل الدين . (٢١) وعندما اشتد الخلاف بين القائدين اخيرا قررت القيادة العليا في اسطنبول الاخذ برأي غولتز وأمرت بنقل نور الدين الى جبهة قفقاسيا . وقد غادر نورالدين بغداد بعد منحه وسام الحرب الذهبي مكافأة له على خدماته السابقة ، (٢٢) وحل محله في قيادة الجبهة خليل بك .

اتبع خليل بك خطة غولتز في حصار الكوت ونجح فيهـا نجاحـاً عظيماً . وفي اوائل آذار وصل الأمر من اسطنبول بتعيين خليل بك والياً على بغداد وبترقيته الى رتبة « أمير لواء » ، فصار منذ ذلك الحين يلقـب « باشا » حسبما جرت عليه التقاليد العسكرية التركية . وقد مدحه احد الشعراء في تلك المناسبة بقصيدة كان هذا آخر بيت فيها :

يأتي الخليل على يديه مؤكداً   أرخ (تعود البصرة الفيحاء)(٢٤)

١٣٣٤ هـ

وفي ٩ نيسان ١٩١٦ أصيب غولتز وهو في مقـره ببغـداد بمرض التيفوس ثم مات بعد عشرة ايام . وشاء القدر أن يتم استسلام القـوات الانكليزية في الكوت بعد أيام معدودة من موت غولتز ، فهو لم يتمتـع

---

(٢١) شكري محمود نديم (المصدر السابق) ــ ص ٧٨ .
(٢٢) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) ــ بغداد ١٩٥٦ ــ ج ٨ ص ٢٨٧ .
(٢٣) محمد أمين العمري (حرب العراق) ــ بغداد ١٩٣٥ ــ ج ١ ص ١١٤ .
(٢٤) عباس العزاوي (المصدر السابق) ــ ج ٨ ص ٢٩١ .

بمشهد هذا النصر الذي وضع هو خطته • وقد أشاع الناس في بغـداد كما هي عادتهم دائماً : أن الاتراك دسوا له السم • [٢٥]

وجرى لجنازة غولتز في بغداد تشييع مهيب ، ودفن بصورة موقتـة في موضع على نهر دجلة قرب الباب الشرقي يسمى « السن » وهو الآن تحت امتداد الجسر الحديدي الجديد • [٢٦] وبعد عشرين يوما نقل جثمانه الى اسطنبول • وقد صادف أن وصل الجثمان الى اسطنبول في نفس القطار الذي وصل به طونزند بعد استسلامه في الكوت • وفي ٢٤ حزيران جرى تشييع عسكري فخم لجثمان غولتز ، وتم دفنه في طرابيه • [٢٧]

رُفع خليل باشا للمرة الثانية حيث حل محل المارشال غولتز في قيادة الجيش السادس ، ولعل لصلة القرابة بينه وبين وزير الحربية أثرا في هذا الترفيع السريع • وقد أصبح خليل باشا عندئذٍ السيد المطلق في العراق وجزء كبير من ايران ، وسنرى في فصل قادم مبلغ الغرور الذي سيطر على خليل باشا من جراء ذلك والعواقب التي نتجت عنه •

حركة الجهاد الثانية :

من الجدير بالذكر في صدد النصر العظيم الذي نالـه الاتراك فـي الكوت أنه كان أكبر جدا مما كانوا يتوقعونه ، ولعلهم ما كانوا يتوقعون نصرا على أي حال ، فهم كانوا بعد الهزائم المنكرة التي تتابعت عليهم قبلئذٍ قد سيطر عليهم التشاؤم وفقدوا الامل بأي نصر قريب • وقد بلغ التشاؤم بين الاتراك أقصاه في ايلول وتشرين الاول ١٩١٥ عنـدما كانت قـوات طونزند تزحف نحو الكوت مستهدفة بغداد • يقول الشيخ محمد رضا الشبيبي في مذكراته : ان طيارة انكليزية حلقت في سماء بغداد في ليلـة ٢٣ ايلول وأرسلت عمودا شعاعيا أضاء المدينة ، فأدى ذلك في الايام التالية الى توقف المصرف العثماني عن الدفع ، وسقطت الاوراق المالية ، وحمـل

---

(25) Barker (op. cit) — p. 282.

(٢٦) عباس العزاوي (المصدر السابق) — ج ٨ ص ٢٩٢ •

(٢٧) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) — بغداد ١٩٢٥ — ج ١ ص ١١٦ •

التجار بضائعهم وأمتعتهم الى بيوتهم ، وهجر المصطافون ضفاف دجلة ، واقتربت عشائر الدليم وزوبع وشمر طوقة من بغداد ، وفكرت الحكومة بنقل دوائرها ومخازنها الى سامراء ، ووضعت يدها على الحبوب والاسمان • (٢٨)

ومن طريف ما يذكر في هذا الشأن أن العوام في بغداد انتشرت بينهم أهازيج تهكمية للسخرية بالسلطان رشاد وقواته العسكرية ، كان هذا بعضها :

رشاد يابن البومة عساكرك مهزومة
رشاد يابن الخايبة عساكرك هالسايبة

وفي هذا الوقت العصيب خطر لبعض المسؤولين أن يلجأوا الى دعوة الجهاد مرة أخرى عساها تنفع في الدفاع عن بغداد • انهم كانوا كالغريق يحاول الامساك بأي شيء أملاً بالنجاة • ولكن المسؤولين ارتأوا أن تكون دعوة الجهاد في هذا المرة تحت شعار جديد هو « العلم الحيدري الشريف » •

كانت حركة الجهاد الاولى التي قامت في أواخر عام ١٩١٤ ذات صبغة اسلامية عامة ، أما الآن فقد قررت الحكومة أن تجعلها ذات صبغة شيعية • وأخذت الحكومة تستخدم شتى الوسائل لبث الدعاية للعلم الحيدري في المناطق الشيعية ، وصار دعاتها يتجولون في تلك المناطق قائلين : انه علم لا يغلبه غالب ، وان صاحبه حيدر الكرار انتصر به في جميع الحروب التي خاضها ضد الكفار ، ولابد أن ينتصر العلم الآن أيضاً !

وأرسلت الحكومة محمد فاضل باشا الداغستاني ومعه عدد من الخيالة لمرافقة العلم الحيدري عند نقله الى بغداد • وقد وضعت الحكومة تحت تصرف الداغستاني مبالغ ضخمة من الليرات الذهب بغية توزيعها على العشائر التي يمر بها في طريقه الى النجف • وصار الداغستاني يتنقل من عشيرة الى اخرى في منطقة الفرات الاوسط حيث أعطى كل رئيس

---

(٢٨) من مذكرات الشبيبي ــ نقلا عن مجلة « البلاغ » الكاظمية ــ العدد السابع ــ السنة الرابعة •

منهم مبلغا من الليرات حسب مكانته وقوة عشيرته .

وأخذت العشائر تتحرك نحو البغيلة الواقعة على دجلة للمشاركة في مقاومة القوات الانكليزية الزاحفة نحو بغداد . وحدثت أثناء ذلك حادثة جديرة بالذكر هنا ، خلاصتها ان بعض عشائر عفج والدغارة وكان عددهم ثلاثة آلاف رجل رفضوا الذهاب الى الجهاد ، وكانت حجتهم في الرفض أن الداغستاني حرمهم من العطاء بينما هو اعطى غيرهم ، وقال أحد رؤسائهم وهو الحاج حمزة من عشيرة البحاحثة : ان الداغستاني يوزع الاصفر الرنان على عشائر الشامية ونحن حرمنا منه ، فهل نحن أولاد الجارية ؟!» وعندما وصل الخبر الى متصرف الديوانية اهتم بالامر وأرسل اليهم وفدا مؤلفاً من مفتي الديوانية السيد اسماعيل الواعظ ، والقاضي، ومدير التحريرات نوري بك . وذهب الوفد الى مضيف صكب الكربول شيخ عشيرة السعيد حيث كان الرافضون مجتمعين ، وقام المفتي خطيباً فيهم يحاول استرضاءهم اذ قال لهم : ان الحكومة تعتبرهم من حزبها وانصارها ولهذا فهي لم تعطهم شيئاً من المال اعتمادا على اخلاصهم للحكومة وحبهم لها . وذكر المفتي لهم : أن الحكومة فعلت ذلك على منوال ما فعل النبي (صلعم) بالانصار بعد واقعة هوازن حيث حرمهم من الغنائم وأعطاها الى المؤلفة قلوبهم أي الى المسلمين الجدد الذين لم يدخل الايمان الى قلوبهم بغية اجتذابهم الى الايمان . فلما سمع القوم هذا الكلام تحمسوا وأعلنوا انضمامهم الى حركة الجهاد ... (٢٩)

وفد حكومي :

شكلت الحكومة وفداً من شخصيات محترمة لحضور اخراج العلم الحيدري من موضعه فوق الضريح العلوي في النجف . وقد تألف الوفد من : فؤاد بك الدفتري ، والميرلوا مظهر باشا ، وحكمت بك سليمان ، والقائد عزت باشا ، وقاضي بغداد ، وشكري بك من أعيان الحلة .

وصل الوفد الى النجف في مساء الجمعة ٢٩ تشرين الاول ١٩١٥ ،

---

(٢٩) مصطفى الواعظ (الروض الازهر) ـ الموصل ١٩٤٨ ـ ص ٤٥٢ـ٤٥٣.

ونزل في ضيافة السيد محمد حسن الكليدار . وقد احتفى بالوفد اعيان النجف وعلماؤها ، وأقيمت لـه اجتماعـات كبيرة ألقيت فيهـا الخطب والقصـائد .

حل شهر محرم بعد وصول الوفـد بأحـد عشـر يوماً ، فأصبحت مجالس التعزية الحسينية مجالا لالقاء القصائد المحرضة على الجهاد تحت ظل العلم الحيدري الشريف ، وكان العلم قد أطلق عليه هناك اسم « راية أمير المؤمنين » .

شهدت النجف آنذاك نزاعاً خفياً بين علماء الدين والرؤساء المحليين، فالعلماء أيدوا دعوة الجهاد في هذه المرة كمثل ما أيدوها في المرة السابقة ، وتحمسوا لها ، وأخذوا يستعدون للرحيل مع العلم الحيدري الى جبهـة القتال ، أما الرؤساء المحليون وأتباعهم من حملة السلاح فكانوا يعـادون الحكومة وكل حركة تقوم لتأييدها مهما كان لونها ، ولهذا أخذوا يعرقلون دعوة الجهاد ويبثون حولها الدعاية السيئة .

تعين اليوم الخامس من محرم موعدا لاخراج العلم الحيدري مـن موضعه والرحيل به الى ساحة الجهاد . وخشي الرؤساء أن يفلت الزمـام من أيديهم فأعلنوا أنهم سينضمون الى حركة الجهاد ولكنهم طلبوا تأجيل موعد الرحيل لمدة اسبوع واحد ، فأجيبوا الى طلبهم .

وفي الثامن من محرم وصل الى النجف خبر مفـاده ان السـيد عبود كمونة ، وهو من سدنة المرقد العلوي ، قد ألقت الحكومة القبض عليـه مع أخيه في حدود ايران . فاتخذ الرؤساء ذلك ذريعة في أيديهم لعرقلـة الرحيل ، وأخذوا يهيجون العامة ، ثم توجه نفر من حملة السلاح نحو دار الحكومة يريدون الهجوم عليها واطلقوا النار ، وصاروا يسبون العثمانيين ويسبون العلماء معهم . ولكن بعض العقلاء توسطوا في الامر وهدأوا النـاس . (٣٠)

تم الاتفاق أخيراً على أن يكون يوم الجمعة ١١ محرم — وهو يوافق ١٩ تشرين الثاني — موعد اخراج العلم والرحيل به . وقد أعد في هـذا

---

(٣٠) نقلا عن مذكرات الشبيبي المخطوطة .

اليوم احتفال عظيم في الصحن الشريف حضره متصرف كربلا حمزة بك ، والشيخ نعمان الاعظمي ، ومفتي النجف السيد ياسين أفندي ، بالاضافة الى أعضاء الوفد ، وانضم اليهم علماء النجف وأعيانها . وامتلأت ساحة الصحن بالجماهير الغفيرة . وجاء حملة السلاح من محلات النجف الاربعة ، وصاروا يمرون من أمام الطارمة وهم شاهرون أسلحتهم يهوسون لنصرة الدين والدولة .

اخراج العلم الحيدري :

نشرت جريدة «صدى الاسلام» سلسلة مقالات وصفت فيها الاحتفال الفخم الذي جرى للعلم الحيدري عند اخراجه من موضعه في النجف وحمله الى الكوفة ، وكانت المقالات مذيلة بتوقيع « الاعظمي » والمظنون أن كاتبها الواعظ المشهور الشيخ نعمان الاعظمي .

يصف الاعظمي نفسه في أول المقالات بأنه سيد من سلالة أهل البيت، وأن شوقه لزيارة أجداده قد ازداد أخيرا فأراد ان يكحل عينه بأثمد مرقد جده وامامه الحسين ، ثم يقول انه بعد أن اتم الزيارة في كربلا قصد النجف ، ولما لاحت له القبة المذهبة فيها ، وشم عبير جده ، نزل ماشياً ولسان حاله يقول :

عجباً لتربتها تداس ولو درى
الماشي بها ما داس مسكاً أذفرا

وحين وصل الى البلدة نزل ضيفاً على السيد هبة الدين الشهرستاني .

ثم يصف الاعظمي كيف جرى اخراج العلم الحيدري في اليوم المحدد له ـ أي في الحادي عشر من محرم ـ فقال : ان السيد محمد حسن الكليدار تقدم في وسط الزحام نحو شباك المرقد المقدس ، وهزه بيده مستأذناً بأخذ العلم منه ليكون أمام جند الرحمان في حرب عباد الصليب ، وعند هذا ألقي في روع الكليدار بوحي الالهام : « أن خذ رايتي لجندي ولا تخف ستعاد بعد الفتوح الى محلها تارة أخرى وانك من الآمنين ، واعلم أنه لا يتخلف عنها الا من نزع حبي وموالاتي من قلبه ، فليبلغ الحاضر الغائب أني بريء ممن يوالي اعداء الله عباد الصليب ، ومن يتولهم

منكم فانه ليس منكم » .

ويقول الاعظمي : ان الكليدار حين صعد لاخذ العلم من فوق الضريح كان كأنه امتطى قبة السماء ، فتناول العلم ، وحله من بنوده ، وأنزله من محله ، فعجت الاصوات بالصراخ داعية جبار الارض والسماوات أن يزلزل الانجليز ويهزمهم . ثم قرأ مفتي النجف السيد ياسين أفندي دعاءاً، وتلاه الكليدار بدعاء آخر ، ثم رفع الكليدار العلم خارجاً به من الباب، وأركع العلم في الباب للسلام فاقشعرت الابدان ، وأغمي على الكثيرين من شدة التأثر . وحين خرج العلم الى الصحن كانت الساحة والاواوين والسطوح مملوءة بالناس حتى خشي عليهم من زهاق الارواح . وارتفعت الاصوات هازجة بقولها :

ربي صلـي علـى المختـار   واجعل لنا نصراً على الكفار(٣١)

أخرج العلم من الصحن نحو السوق الكبير وقد حف به السدنة ، وازدحم حوله وخلفه خلق كثير ، وعج الفضاء بأصوات التهليل والتكبير وطلقات الرصاص ، حتى وصل الى باب البلدة حيث هيأت له عدة عربات من عربات الترامواي ، فأُركب فيها مع من كان معه من العلماء والاعيان .

كان في صحبة العلم من العلماء : الشيخ فتح الله الاصفهاني ، السيد علي التبريزي ، السيد مصطفى الكاشاني ، الشيخ باقر القمي ، الشيخ محمد حسين القمشئي ، السيد عبدالرزاق الحلو ، المرزا مهدي بن الملا كاظم الخراساني ، السيد علي بن السيد محمد سعيد الحبوبي ، الشيخ عبدالرضا الشيخ مهدي ، السيد محمد علي بحر العلوم ، الشيخ محمد جواد الجواهري ، السيد هبة الدين الشهرستاني ، الشيخ عبدالكريم الجزائري ، الشيخ محمد حسين الجعفري ، الشيخ اسحاق الرشتي ، الشيخ عبدالحسين الجواهري ، الشيخ حسن علي القطيفي ، وغيرهم . وكان معهم عدد من الطلبة ايضاً حيث بلغ مجموعهم مائة وخمسين .

وحينما وصلت العربات الى مقربة من مسجد الكوفة كان في

---

(٣١) جريدة « صدى الاسلام » — في اعدادها الصادرة في ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ محرم ١٣٣٤ هـ .

استقبالهم محمد فاضل الداغستاني على رأس الخيالة ، وكذلك استقبلهم جمع حاشد من أهل الكوفة . وعند مشهد النبي يونس الواقع على شاطىء النهر توقف العلم ووقف الى جانبه الداغستاني ، فألقى الشيخ نعمـــان الاعظمي خطاباً فــي الجماهير ، ثم تكلــم بعــده السيد محمــد حســن الكليدار وابنه السيد أحمد ، والمتصرف حمزة بك . وبات الجميع ليلتهم تلك في الكوفة .

وفي ضحى اليوم التالي اي يوم السبت ٢٠ تشرين الثاني ، جاء الى الكوفة جمع من النجفيين من أهل محلة العمارة للانضمام الى حركة الجهاد، كما جاء اليها كثير من الخيالة من عشيرة بني حسن . وفي عصر ذلك اليوم توجه الداغستاني ومعه العلماء والمتصرف وحملة السلاح من أهل النجف والكوفة الى مسجد الكوفة ، فوضع العلم تجاه المحراب الذي كان يصلي فيه أمير المؤمنين ، وتلي عندئذٍ دعاء الثغور المأثور عــن الامــــام زين العابدين . (٣٢) وكان لهذا الدعاء أهمية خاصة يومــذاك اذ المعروف عن عن الامام زين العابدين أنه كان يدعو به لنصرة حماة الثغور أي الجيوش الاموية التي كانت تحمي حدود البلاد الاسلامية في زمانه ، وفي هذا اشارة الى وجوب تأييد الدولة العثمانية التي هي حامية الثغور في زماننا ، فهــي ليست ألعن من الدولة الاموية على أي حال !

في الطريق الى بغداد :

وصل الى الكوفة السيد محمد بن السيد كاظم اليزدي مع لفيف من أصحابه للانضمام الى موكب العلم بالنيابة عن أبيه . وفي صباح الاحد ٢١ تشرين الثاني ركب الجميع في سفن شراعية أعدت لهم بلغ عددهــا ثلاثين سفينة ، فتحركت بهم شمالاً نحو قرية الكفل . ويقول الشيخ محمد رضا الشبيبي تعليقاً على ذلك : ان المجاهدين في المرة الاولى تحركوا في السفن نحو الجنوب ، أما في هــذه المرة فقــد تحركوا نحو الشــمال ، « فسبحان مقلب الاحوال » . (٣٣)

---

(٣٢) نقلا عن مذكرات الشبيبي المخطوطة .

(٣٣) نقلا عن مذكرات الشبيبي المخطوطة .

وعندما وصلوا الكفل خيموا على الضفة الشرقية من النهر . وفي منتصف الليل جاءت جموع من النجفيين للالتحاق بهم وكانت من محلات النجف الثلاث الاخرى أي المشراق والبراق والحويش . وفي صباح اليوم التالي تحركت بهم السفن نحو طويريج فوصلوها قبل الغروب بساعة، وهناك أنزلوا العلم الحيدري وساروا به نحو رحبة دار الحكومة ، فألقى الشيخ نعمان الاعظمي كلمة في الجماهير المحتشدة . وبعد قليل وصل الداغستاني الى طويريج عن طريق البر ومعه ٢٥٠ خيالاً من بني حسن .

باتوا ليلتهم تلك في طويريج ، وفي الصباح أقيم احتفال عظيم حيث نصب منبر في رحبة دار الحكومة ، وصعد عليه الشيخ فتح الله الاصفهاني فألقى موعظة حسنة وتكلم في تقصير الناس وانقطاع أعذارهم، ثم صعد المنبر بعده السيد محمد ابن السيد كاظم اليزدي وأخذ يخطب باسم والده في الحض على الجهاد ، ثم قال : « أدعوكم فنادوني لبيك » ، فهتف الناس من كل جانب « لبيك .. لبيك » ، وكان لخطابه تأثير بليغ .

وفي صباح اليوم التالي — وهو يوم الاربعاء ٢٤ تشرين الثاني — غادروا طويريج بالسفن متوجهين نحو سدة الهندية . ولم يكادوا يبتعدون عن البلدة حتى بدأوا يسمعون هدير المدافع آتياً من ناحية سلمان باك ، فقد كانت المعركة هناك في يومها الثالث ، وكان مصيرها معلقاً على شعره كما أشرنا اليه سابقاً .

وصلوا السدة قبل الغروب بساعتين ، فانبهروا مما شاهدوا فيها من روعة الانجازالهندسي ، وألقي في روعهم أنهم يعجزون عن مغالبة الايدي التي انجزت هذا العمل العظيم . ومن مفارقات القدر أنهم بينما كانوا واقفين امام السدة مبهورين بها وصلهم نبأ عن هزيمة الانكليز في سلمان باك .

وفي يوم الخميس تحركوا نحو المسيب ، فوصلوها عصرا . وكان أهل البلدة قد أغلقوا دكاكينهم وتجمعوا على ضفة النهر لاستقبال العلم الحيدري ومن معه من العلماء . وفي عصر يوم الجمعة فرش للناس على الضفة الشرقية من النهر ، ونهض الشيخ محمد جواد الجواهري يخطب في الناس فقال : « ان صاحب هذا العلم فتح البصرة أولاً ، واننا سنفتحها

بعلمه في الاخير » • ثم نهض بعده السيد محمد اليزدي فخطب يقول : «قد اتفقت لاهل العراق نعمة لم تتفق لاهل أي بلاد أخرى ، ولكنها نعمة مجهولة القدر في ظهرانيهم ، ألا وهي شرف الدفاع ، فاين المدافعون ؟؟ » •

مكث القوم في المسيب أربعة ايام وقد وصلتهم أثناء ذلك أنباء أخرى عن انتصار الجيش العثماني في سلمان باك • ففي برقية من القائد نور الدين بك جاء ما نصه : « نهب مجاهدو العشائر معسكر الانكليز العام ، واغتنم المجاهدون أسلحة كثيرة ومهمات وفيرة ، وأخذ العدو يرجع متقهقرا ومندحرا ومغلوبا في استقامة الجزيرة على جانبي دجلة ، ولا زال جيشنا يداوم على تعقيبه بكمال الموفقية » • وفي برقية أخرى طلب نور الدين من الداغستاني أن يسرع هو والخيالة الذين معه الى ناحية الجزيرة ــ أي الصويرة ــ للهجوم على العدو المتقهقر وكبس البغيلة •

في بغداد والكوت :

نشرت جريدة « صدى الاسلام » في ٢٠ محرم ١٣٣٤ هـ ــ الموافق ٢٨ تشرين الثاني ١٩١٥ م ــ برنامج استقبال العلم الحيدري الشريف وهيئة علماء النجف الكرام • وفي عصر اليوم التالي وصل الى بغداد العلماء ومعهم العلم بالعربات التي تجرها الخيول ، فجرى لهم استقبال عظيم جداً حسب البرنامج الذي نشرته الجريدة اشترك فيه الاهالي والحكومة معاً • وسار العلماء يتقدمهم العلم نحو مشرعة « النواب » في جانب الكرخ • ولما كان الجسر قد غرق منذ فيضان العام الماضي فقد ركب العلماء الزوارق والعبارات ، وعبروا النهر الى المشرعة المقابلة التي تقع بجوار الاعدادية العسكرية ــ وهي دار المحاكم الآن ــ وكان في انتظارهم هناك جوق الموسيقى العسكرية وفئة من الدرك والجنود للتحية • فساروا والموسيقى تصدح أمامهم حتى دخلوا القشلة بين هتاف الجماهير وهوساتهم • ونزل معاون الوالي شفيق بك فتقدم نحو العلم ولثمه ثم لثمه الناس من بعده ، وألقى أحمد الشيخ داود دعاءاً أمن عليه الحاضرون ، ثم ألقى شفيق بك خطاباً بالتركية قال فيه : « ان هذا العلم الشريف لم يخرج من النجف ولم يكد يتقدم حتى تأخر العدو وفشل في هجومه الكبير على

سلمان باك ، ولم تكد تقع عليه عيني الآن حتى تناولت برقية من القائد العام هذه الساعة تشعر بوجوب تسريح عمال الكوت ومستخدميها » .

ثم قام أحد كتاب الفرس اسمه « ميرزا علي » فألقى قصيدة فارسية بالمناسبة . وعند انتهاء الاحتفال عاد العلماء الى الكرخ وركبوا عربات الترامواي الى الكاظمية ، وقد استقبلوا في الكاظمية استقبالاً عظيماً ، وأودع العلم عند مرقد الجوادين .

وفي عصر يوم الجمعة ٣ كانون الاول خرج العلماء من الكاظمية لزيارة الاعظمية بدعوة من أعيانها وعلمائها ، فدخلوا جامع الامام أبي حنيفة ، وتلا هنالك الشيخ محمد جواد الجواهري دعاءاً . وخرجوا بعدئذٍ الى ساحة الجامع ، فتلا الشيخ رؤوف مدرس الاعظمية دعاءاً آخر ، ثم ألقى الشيخ نعمان الاعظمي خطاباً في اتحاد كلمة الطوائف الاسلامية ، ولا سيما السنة والشيعة . وأعقبه احد تلاميذ مدرسة « الاخوة » في الكاظمية فألقى خطبة بالتركية . ثم ذهب الجميع الى دار متولي الاعظمية السيد عبدالباقي لشرب الشاي . ويعلق الشيخ محمد رضا الشبيبي على ذلك قائلا : « ولقد كانت زيارة أعلام الشيعة هذه للاعظمية وانبراؤهم فيها لتأليف القلوب أول زيارة في التاريخ وقعت من نوعها بين الفريقين ، وقد حفظ لهم الاعظميون هذه اليد وشكروهم على تشريف الاعظمية » .(٣٤)

وفي ٥ كانون الاول ذكرت جريدة « صدى الاسلام » : ان السيد هبة الدين الشهرستاني زار ادارتها وأهدى لها بيتين من الشعر هذا نصهما:

لنور الدين باشا نور فكر
سيجلي من سناه كل غمة
يريد المشركون ليطفئوه
ويأبى الله الا أن يتمه (٣٥)

وفي منتصف الشهر نفسه وصلت انباء مقلقة حول توغل القوات الروسية في ايران وزحفها باتجاه الحدود العراقية ، ووردت ايضا برقيات

---

(٣٤) نقلا عن مذكرات الشبيبي المخطوطة .

(٣٥) جريدة « صدى الاسلام » ــ في عددها الصادر في ٢٧ محرم ١٣٣٤ هـ .

من بعض الايرانيين الى علماء النجف يستغيثون بهم في هذا الامر . وفي ١٨ منه وصل الكاظمية متصرف كربلا حمزة بك لمحادثة العلماء في موضوع الذهاب الى ايران لتحريض الناس هناك على الجهاد . وقد أرسلت الحكومة جنودا وذخائر كثيرة الى الحدود الايرانية .

وفي أوائل شباط ١٩١٦ وردت الى معاون الوالي ببغداد برقية من خليل بك ، الذي حل محل نور الدين بك في القيادة العامة ، يطلب فيها ذهاب علماء النجف اليه في جبهة الكوت لمباحثتهم في شؤون ايران. فأعدت الباخرة « برهانية » لنقل العلماء الى هنالك . وفي ١٤ شباط تحركت الباخرة بهم من بغداد فوصلت الى مقر القائد العام في عصر ١٦ منه . ثم نشرت جريدة «صلاى الاسلام» برقية كان السيد هبةالدين الشهرستاني قد أرسلها من مقر القائد العام في الكوت هذا نصها :

« في ثالث شباط[٣٦] بالعلم الحيدري الشريف مع الوفد العلمي النجفي زرنا معسكر الاسلام المحيط بالكوت فشكرنا من صميم القلب شجاعة عسكرنا الابطال ومفاداتهم في استرجاع أراضينا المغصوبة وبهم قائدهم الغيور البطل الجسور نادرة الايام حضرة خليل بك القائد العام . ومعاً نقول ان الهيئة العسكرية لم تكن حتى اليوم في العراق بهذا الانتظام والترتيب مستحضرة للقوى التمنعية حسب القانون الالهي : وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . فالمنتظر سرعة محو الاعداء بعون الله تعالى » .

مكث العلماء في جبهة الكوت بضعة عشر يوماً ، وفي خلال ذلك ازداد وصول الانباء المقلقة من ايران ، حيث استطاعت القوات الروسية احتلال كرمانشاه والاقتراب من خانقين. فاضطربت بغداد اضطراباً شديداً، وهبطت قيمة النقود الورقية العثمانية ، وامتنع الصيارفة عن أخذها ، ونشر القائد الاعلى المارشال غولتز بياناً يطمن فيه الصيارفة ويرفع عنهم التكليف بقبولها على كل حال .

وفي أوائل آذار غادر العلماء جبهة الكوت ، فمنهم من عاد الى

---

(٣٦) ان هذا التاريخ هو حسب التقويم الشرقي وهو يقل عن التقويم الغربي بثلاثة عشر يوما كما هو معروف .

الكاظمية ، ومنهم من ذهب عن طريق الغراف الى الشطرة لمعاونـة الشيخ خيون العبيد رئيس عشيرة العبودة الذي كان مشغولاً بمحاربة الانكليز هالك ، وكان على رأس العلماء الـذين ذهبوا الى الشطرة السيد علـي التبريزي ، كما سنأتي اليه بعد قليل •

بوادر عداء في النجف :

كان حملة السلاح النجفيون الذين جاؤوا مع العلماء الى الكاظميـة غير مرتاحين من مجيئهم ، والمظنون انهم لم يلقوا من الحكومة الترحيـب أو المعاملة التي كانوا يتوقعونها ، فأخذوا يتسللون من الكاظمية عائـدين الى النجف • وفي ١٤ كانون الاول ١٩١٥ كان ثلاثون منهم قد غـــادروا الكاظمية وساروا باتجاه الفرات الاوسط في طريق غير مطروق فخرج عليهم جماعة من زوبع ونهبوهم أسلحتهم بعدما جرحوا بعضهم •

وعند عودتهم جميعاً الى النجف أصبحت النجف أكثر عداءاً للحكومة مما مضى ، وبدأ النزاع يشتد بين رؤساء المحلات وممثلي الحكومة • وفي شهر كانون الثاني ١٩١٦ ذهب فريق من حملة السلاح الى مقابر أهل السنة التي تقع خارج السور بجوار السكة فهدموا القباب والحيطان فيهـــا وحرثوا أرضها وشرعوا يقيمون فيها بعض الابنية ، وكانت حجتهم في ذلك ان القائمقام السابق حقي بهيج بك فعل مثل ذلك بمقابر الشـيعة عنـدما شيد المدرسة •

وفي ١٦ منه وصل الى النجف خبر مفاده ان حكومة بغداد أرسلت قوة كبيرة للانتقام من أهل النجف ولكن القوة أصيبت في الطريق بكارثة ، وان أمير المؤمنين عليه السلام هو الذي فعل ذلك بها بكرامة منه حمايـة لأهل بلدته • فأمر رؤساء المحلات بتنوير البلدة احتفالاً بهـذه الكرامة الحيدرية، وخرج حملة السلاح يطلقون الرصاص، وهاجموا دار الحكومة، وجرحوا بعض أفراد من الدرك ، وشتموا الموظفين كما أعلنوا سب رجال لا يصح سبهم •

وفي ٢١ شباط نادى المنادي في النجف بأمر من رؤساء المحلات أنـه يجب على كل نجفي أن يقتني السلاح ، ومن لا يقدر على ذلك يجب على

أقربائه أن يساعدوه في شراء السلاح ، والا حقت عليه وعليهم العقوبة • وأخذ الرؤساء يشتدون في فرض الضرائب على الصادرات والواردات حيث فرضوا على كل رزمة تدخل النجف أو تخرج منها خمسة قروش صاغ ، وعلى كل حمل ربع ذلك •

وكان وكيل القائمقام قد أوعز قبل هـذا بالصاق بعض المنشورات على جدران البلدة للتنويه بالانتصارات التي نالتها القوات العثمانية فـي الكوت ، فجاء المسلحون وأخذوا يستهزئون بها ثم مزقوها •

وفي ٣ آذار وردت الى السيد كاظم اليزدي برقية من القائد العـام خليل باشا يشكر فيها علماء النجف ويرجو أن يقتدي بهم سائر النجفيين• وبعد يومين من وصول البرقية استدعى اليزدي رؤساء المحلات للاجتماع اليه في مدرسته ، وعندما اجتمعوا في المدرسة قرأ عليهم السيد محمـد حسن الكليدار برقية القائد العام ، ثم تكلم اليزدي طالباً منهم العودة الى طاعة الحكومة ووعدهم باستحصال العفو عنهم ان هم فعلوا ذلك •

وفي ١٦ تموز وصل الى النجف رجلان من البكتاشية كان أحدهما الطبيب المشهور مظفر بك ، واجتمعا برؤساء المحلات في دار الكليدار غير مرة وأقنعاهم أن يتركوا جباية الضرائب للحكومة لأن الضرائب من شأن الحكومة وحدها • فوافق الرؤساء على ذلك بشرط أن يصدر عنهم عفو عام من السلطان ويرفع عنهم التجنيد • وتم الاتفاق على ذلك وحلفوا عليه اليمين في المرقد العلوي • وفي ٢٥ تموز خرج المنادي ينادي في النجف بأن الرؤساء قد تخلوا عن جباية الضـرائب ، وعلى النـاس أن يدفعوا الضرائب بعد الآن الى جباة الحكومة • (٣٧)

وفاة الداغستاني :

كان محمد فاضل باشا الداغستاني قد عيّن أثناء حصار الكوت قائداً للمجاهدين من العشائر بقرار من وزير الحربية أنور باشا •(٣٨) ومن الجدير

---

(٣٧) نقلا عن مذكرات الشبيبي المخطوطة .

(٣٨) عباس العزاوي (المصدر السابق) ــ ج ٨ ص ٢٩٤ .

بالذكر ان الداغستاني كان رجلاً يليق بتلك الوظيفة الحساسة لما كان يتصف به من شخصية مهيبة ولحية بيضاء وقامة فارعة ، وكان بالاضافة الى ذلك شجاعاً شهماً ومتديناً وله سمعة حميدة في بغداد ونواحيها . انه بعبارة أخرى كان يملك الخصال التي تحببّه الى قلوب العشائر والعامة من أهل المدن ، بخلاف غيره من القادة والحكام الاتراك الذين اعتادوا على الظهور أمام العامة بمظهر الكبرياء والتعالي . (٣٩)

وفي ١١ آذار ١٩١٦ بينما كان الداغستاني في جبهة الكوت أدركته الوفاة ، ويقال في سبب وفاته ان الانكليز كانوا قد شنوا هجوماً شديداً على العشائر التي كانت تحت قيادته حيث فاجأوها فجراً باطلاق النار ، فجفلت العشائر وانطلقت هاربة نحو نهر الغراف ، وقد هلك منهم عدد غير قليل غرقاً في النهر مع خيولهم . وعند هذا هب الداغستاني يريد اثارة حمية العشائر للصمود تجاه الهجوم الانكليزي ، فرمى كلاوه على الارض وأخذ يلطم رأسه ، ثم أسرع الى فرسه يريد امتطاءها ، وبينما هو يضع رجله في الركاب سقط ميتاً .

وفي ١٩ آذار نشرت جريدة « صدى الاسلام » بلاغاً صادراً من أنور باشا يذكر فيه نبأ استشهاد الداغستاني ومبلغ خسارة الامة العثمانية به . (٤٠) وكان يوم تشييع جنازته يوماً مشهوداً ببغداد حيث أغلقت الاسواق وظهر الحزن والبكاء على الناس ، وسارت جموع كبيرة من النساء وراء الجنازة وهن يندبن الفقيد قائلات : « وين أبو داود وينه ! ».

ونظم بعض الشعراء قصائد في رثاء الداغستاني كان منهم جميل صدقي الزهاوي وناجي التشطيني وعبدالوهاب النائب . وفيما يلي ننقل

---

(٣٩) كانت دار الداغستاني قرب باب المعظم خلف بناية مصلحة نقل الركاب حاليا ، وكان قد جمع في حديقة داره بعض الحيوانات كالاسود والدببة والقرود والخيول ، وكان يسمح للجمهور بالدخول الى الحديقة عصر كل خميس لمشاهدة الحيوانات ، ولهذا يعد أول مؤسس لحديقة حيوان في العراق .

(٤٠) جريدة « صدى الاسلام » في عددها الصادر في ١٤ جمادى الاولى ١٣٣٤ هـ .

أبياتاً من قصيدة النائب :

ان القبور تباشــرت بمحمـــد　　الفاضـل الندب الـكريم الامجد
ذلك الـذي بذل الحيـاة لدينـه　　ويلي عليـه وويل كـل موحـد
قالت ملائكــة السـماء فأرخـوا　　هذي الجنان الى الشهيد محمد(٤١)
١٣٣٤ هـ

خيون العبيد :

أشرنا من قبل الى أن الشيخ خيون العبيد كان أثناء حصار الـكوت مشغولاً بمحاربة الانكليز . ومن الجدير بالذكر هنا ان هذا الرجل تقلب عدة مرات خلال الحرب ، فكان مع الانكليز تارة ومع الاتراك تارة أخرى .

كان خيون قبيل اعلان الحرب معادياً للحكومة التركية ووقعت بينـه وبينها معركة ضارية انتهت بانتصاره وغنم فيها غنائم وفيرة ، وقد اضطرت الحكومة من جراء اعلان الحرب أن تعقد الصلح معه ، وأصبح على أثر ذلك الحاكم المسيطر على منطقة الشطرة ، ودخل بلدة الشطرة دخول الفاتحين ، وصارت الشطرة منذ ذلك الحين ملاذاً يلجأ اليه الفارون مـن الجندية فلا يستطيع رجال الحكومة القاء القبض عليهم .

وفي أواخر تشرين الثاني ١٩١٤ عندما وصلت الى الشطرة أخبـار سقوط البصرة بيد الانكليز هجمت العشائر في الشطرة على السراي وثكنة الجند ودور الحكومة وانتهبت ما فيها كما انتزعت البنادق من أيدي الجنود، وقتلت في البلدة نفراً ممن كان يتظاهر بتأييـد الحكومة . (٤٢) واضطـر القائمقام ومن معه من الموظفين والجنود الى مغادرة الشطرة و هم في حالـة يرثى لها لان العشائر كانت قد سلبتهم كل ما يملكون . وقد جمع لهـم بعض سراة البلدة مبلغاً من المال يكفيهم لنفقة سفرهم الى بغداد .

كان خيون حينذاك خارج الشطرة في مقاطعة له تدعى « الصديفة » ، فعاد الى الشطرة مسرعاً وكف العشائر عن اطلاق النار خوفاً من تسـرب

---

(٤١) عبدالكريم العلاف (بغداد القديمة) ـ بغداد ١٩٦٠ ـ ص ٢٣٧ـ٢٣٨ .
(٤٢) من مذكرات محمد رضا الشبيبي ـ نقلا عن مجلة « البلاغ » الكاظمية في عددها الخامس ـ السنة الرابعة .

النهب والفوضى الى بلدة الشطرة نفسها • ثم كتب خيون الى قائد الحملة البريطانية في البصرة يخبره بما جرى • [٤٣]

ولما قامت حركة الجهاد الاولى أرسل السيد محمد سعيد الحبوبي الشيخ عبدالحسين مطر الى خيون يطلب منه القدوم الى الناصرية ، فتوجه خيون مع جمع من أصحابه بصحبة الشيخ عبدالحسين الى الناصرية ، فجرى له هنالك استقبال باهر ، وذهب الحبوبي مع خيون الى دار الحكومة واستحصل له ولاتباعه منها عفواً عاماً • واعلن خيون أنه سينضم الى حركة الجهاد في الشعيبة •

شارك خيون والكثير من عشائر الشطرة في معركة الشعيبة ، وحين حلت الهزيمة بالاتراك في تلك المعركة قام خيون بحماية السيد محمد سعيد الحبوبي عند انسحابه الى الناصرية ، ولولاه لتعرض الحبوبي لنهب العشائر كما جرى لغيره من رجال الدين • وعلى أي حال فقد عاد الكثيرون من عشائر الشطرة الى ديارهم وهم محملون بالغنائم التي نهبوها من الجيش العثماني •

وحين توالت الهزائم على القوات العثمانية بعدئذ فسقطت الناصرية بيد الانكليز ، ثم سقطت الكوت ، ظنت عشائر الشطرة أن النصر النهائي قد تم للانكليز في العراق ، فذهب خيون الى الناصرية لتحية حاكمها السياسي الميجر هاملتون ، وقد استقبله هاملتون بتكريم بالغ وناط به ادارة منطقة الشطرة نيابة عن الحكومة البريطانية ، وأوصاه باسقاط بعض الضرائب والرسوم التي كانت مفروضة على الاهالي سابقاً • [٤٤]

لم تدم هذه الحالة طويلاً ، اذ لم تكد الهزيمة تحل بالانكليز في سلمان باك حتى قلب خيون لهم ظهر المجن ، وكذلك فعل معظم رؤساء الغراف • يقول الشيخ محمد رضا الشبيبي : انه تلقى رسالة من الشطرة تشير الى ان حالة العشائر في الغراف تبدلت على أثر واقعة المدائن ـ يقصد

---

(٤٣) باقر الشبيبي (تاريخ الشطرة) ـ نقلا عن كتاب عبدالجليل الطاهر (العشائر العراقية) ـ بيروت ١٩٧٢ ـ ص ٣٧٨ •

(٤٤) باقر الشبيبي (المصدر السابق) ـ ص ٣٨٠ •

سلمان باك ـ فتحالفوا على مقاومة الانكليز لو أراد هؤلاء التقدم نحو الشطرة ، ولا سيما خفاجة والعبودة وبني زيد وآل أبى سعد . (٤٥)

وعند هذا منحت الحكومة التركية خيون لقب « بك » وعينته قائمقاماً على قضاء الشطرة ، وخصصت له راتباً شهرياً قدره خمسمائة ليرة ذهب . ونشط خيون من جانبه في جمع العشائر وتعبئتها ضد الانكليز حتى تجمع لديه منها زهاء سبعة عشر الف رجل . وقد ساعده على ذلك أمران : أولهما قدوم المجتهد النجفي الكبير السيد علي التبريزي مع رهط من أصحابه الى الشطرة لحث العشائر على الجهاد ، والثاني مجيء الميرلوا مظهر باشا الى الشطرة وهو يحمل معه مبالغ كبيرة من الليرات الذهب وكمية من الملابس الحريرية فصار يوزعها على رؤساء العشائر على نحو ما فعل الداغستاني في الفرات الأوسط .

وفي أوائل كانون الثاني ١٩١٦ خرجت قوة انكليزية من الناصرية متجهة نحو الغراف ، ويقال انها أرسلت الى رؤساء المنطقة تقول لهم : اننا قادمون فمن لم يكن معنا منكم فليعلن ذلك . فكان جواب الرؤساء : « اننا لا نصير مع الانكليز ما دامت الراية الاسلامية ثابتة مع العثمانيين» .(٤٦)

وحين وصلت القوة الانكليزية الى موضع اسمه « باهيزة » وجدت جماعة من عشيرة خفاجة تسير في تشييع جنازة وهي ناشرة أعلامها وتطلق النار في الهواء كما جرت عليه العادة ، فطلب الانكليز من الخفاجيين أن يطووا أعلامهم ويلقوا أسلحتهم ، فرفض الخفاجيون ذلك ونشب قتال عنيف بينهم وبين الانكليز . وقد كمن الخفاجيون في الانهار ، وأنجدهم قومهم من عشيرتهم والعشائر الاخرى ، وحملوا على الانكليز فهزموهم . وظلت العشائر تتعقبهم حتى الجأتهم الى الاحتماء بأسوار الناصرية .

ان معركة باهيزة هذه قد ثبتت من عزيمة العشائر في الغراف ، ووحدت كلمتهم على مقاومة الانكليز . ومن هنا انطلقت الهوسة المعروفة : « شرناها وعيّت باهيزة » ، أي أنهم استشاروا باهيزة في مرور القوة

---

(٤٥) نقلا عن مذكرات الشبيبي المخطوطة .
(٤٦) المصدر السابق .

الانكليزية فامتنعت .[47]

يبدو ان الانكليز لم يهن عليهم تحدي العشائر لهم في باهيزة ، فأرادوا تلقينها درساً قاسياً . ولهذا خرجت من الناصرية قوة اكبر من الاولى متجهة نحو الشطرة . وكان خيون قد استعد لها ، وأرسلت اليه القيادة التركية من الكوت مائتي صندوق من العتاد الحربي . وفي صباح ٨ شباط كانت القوة الانكليزية قد وصلت الى موضع يقال له « البطنجة » فتصدى لها خيون بقواته العشائرية ، ونشبت عند ذلك معركة ضارية استمرت طيلة النهار واستعمل فيها السلاح الابيض ، وقد أبدت العشائر فيها بسالة منقطعة النظير حتى اضطرت الانكليز الى الانسحاب .

كتب بعض الذين شاهدوا المعركة عن كثب رسالة الى أحد علماء النجف يصف فيها ما جرى في المعركة بلغة تختلط فيها العامية بالفصحى ، ننقلها فيما يلي بنصها من غير تغيير لاهميتها :

« بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . نبدي اليكم ونبشركم بنصر المسلمين . عندكم معلوم صار شهر جناب الاخ خيون جمع العبودة بأسرهم وكوانيغهم وهم نزول بسويج الطبرية . وعرفناكم سابقاً بالمحاربة التي وقعت والموفقية فيها لخيون . وفي نهار أمس يوم الاثنين ٣ الجاري (ربيع الثاني سنة ٣٤) عند طلوع الشمس وقعت المحاربة بين المسلمين والكافرين في موضع يقال له البطنجة عن مركز الناصرية ثلاث ساعات . وكانت قوة العدو ٦٠٠٠ مع ست طواب سريع العطش وثمان طواب مطر اللوز . ومع ذلك هجم خيون بجميع عشائره ومع خفاجة على الكافر في استحكاماته التي أعدها لحفظ عساكره وكان أمام الاستحكام من أربع جوانبه أرض بسيطة لا فيها نهر ولا ربوة يتستر فيها الانسان عن نيران المدافع والمتراليوز ولكن هذه الليوث الضواري وضعت أيديها على سلاحها وهجمت تلك الهجمة اللطيفة التي أيدت الدين وغسلت عن العرب دون العار الذي تجلببوه . فجعل يقذف عليهم بتلك المدافع بأسرها بومبات ودان والمتراليوز يمطر عليهم وهم يقتلون ويأسرون من الصبح الى مغيب الشمس

(٤٧) عبدالجليل الطاهر (المصدر السابق) — ص ٨٦ (الحاشية) .

حتى أدخلوه الناصرية فترك في الارض من قتلاه ما يزيد على ألف قتيل غير الذين حملهم ، ومن خيله أكثر من ٣٠٠ فرساً قتلاً • ونحن والله وقفنا عليهم وهم عراة على وجه الارض وكلهم نصارى غير مطهرين وهم هنـدو مـع سوجر • ومختصراً من البطنجة الى الناصرية نمشـي علـى جثث قتلى من الكافرين • واغتنمنا منه تفك ما يزيـد على ٧٥٠٠ ومهمات وذخائر وأباعر وخيل أشياء كثيرة ولله الحمد • واستشهد من المسلمين ما يقرب من ٤٥ نفر الجميع ما عدا المصاويب • والمفقود من أتباع خيون المعروفين عسكر المنجل، والمصيوب كاظم العلي أغا وانشاء الله صوابه سهل • والكافر الآن محاصر بالناصرية • واليوم ٤ ربيع الثاني جناب القائمقام خيون بك كتب رسـماً الى قومندان العمومي بالكوت يخبره بالقضية ويطلب منه طواب لاجل أخذ الناصرية • وان شاءالله على طبة الطواب الى الشطرة يصير الهجوم علـى الناصرية حيث جميع عشائر الغراف فازعين ولكن لم يشتركوا جميعاً فـي هذه المحاربة المقدسة سوى خفاجة والعبودة من الصبح الى الساعة عشرة ، وبالعشرة لحقت الشويلات أصحاب يوسف وعاركوا معهم ، وآل أزيرج لما انكسر العدو متقهقراً عنهم تبعوا المجاهدين في محاربة العدو ، فالشويلات وآل ازيرج العصر طاحوا للعرك ، وأما بنوزيد وآل أبو سعد وقراغول وبني رچاب والطوقية وخويلد وحچام وغيرهم مالحقوا علـى العـرك • يصـير معلومكم ونسألكم الدعاء • آه » • (٤٨)

تعد معركة البطنجة أكبر معركة اضطلعت بها العشائر العراقية ضـد الانكليز دون مساعدة من القوات التركية النظامية • وقـد اعترفت بعض المصادر الانكليزية بما اتصفت به العشائر في تلك المعركة من شدة البأس وقوة الشكيمة والصبر على تحمل الخسائر الفادحة • (٤٩)

أصبح خيون بعد تلك المعركة مطمح الانظار وذا شأن عظيم في المجالين الحكومي والشعبي معاً • وفي شهر نيسان ١٩١٦ قام خيون بجولة فـي

---

(٤٨) نقلا عن مذكرات الشبيبي المخطوطة .

(49) Thomas (Alarms and Excursions In Arabia) — London 1931 — p. 78 — 79.

الفرات الاوسط على رأس سرية من فرسان عشيرته ، وكانت ترافقته قـوة من الدرك أيضاً • فزار الحلة وكربلا ، وفي ٢٠ نيسان وصـل الى النجف فاستقبل فيها استقبالاً لا مثيل له • يصف الشيخ محمد رضا الشبيبي فخامة الاستقبال الذي جرى لخيون في النجف فيقول : ان النجفيين لـم يفعلوا مثله لأمير أو كبير من قبل • (٥٠) والمظنون ان قصد خيون من زيارته هـذه هو لنصح مدن الفرات الاوسط ، ولا سيما النجف ، بطاعة الحكومة وترك العصيان عليها •

لم يتمتع خيون بمكانته العالية طويلاً ، فلما احتـل الانكليز بغداد في آذار ١٩١٧ ضاقت الارض بخيون وتملكه الخوف منهم ، فجمـع أهـل بيته وعهد اليهم بما عنده وأوصاهم بطاعة الانكليز ، ثم ذهب لاجئاً الـى عبدالله الفالح في أراضي بني ركاب • وقد أراد الانكليز القاء القبض عليه ، لكنهم غيروا رأيهم أخيراً واتبعوا معه سياسة الاغراء والاسترضاء • ونجحوا في ذلك ، لان خيون أصبح منذ ذلك الحين صديقاً مخلصاً لهم وظل كذلك حتى النهاية ، وقد أدى لهم خدمة لا يستهان بها أثناء ثورة العشرين ـ كمـا سنأتي اليه في الجزء القادم من هذا الكتاب •

---

(٥٠) نقلا عن مذكرات الشبيبي المخطوطة •

الفصل التاسع

حصـــار الـكوت

دام حصار الكوت من أوائل كانون الاول ١٩١٥ الى آخر نيســـان ١٩١٦ ، أي حوالي خمسة أشهر كما أشرنا اليه في الفصل الماضي • وقـــد عانى أهل الكوت وأفراد الحامية الانكليزية معهم في تلك المدة وما بعدها أصنافاً شتى من العذاب ، فهي كانت تجربة قاسية مليئـــة بالعبر الاجتماعية والنفسية ، ومن الجدير بنا آن نقف هنا لدراستها على شيء من التفصيل•

الجوع بين السكان :

كان عدد سكان الكوت في بداية الحصار ستة آلاف تقريباً • وقـــد ارتأى طونزند اخراجهم من البلدة لكي يتخلص من مشكلة اعاشتهم ولكن السر برسي كوكس الذي كان موجوداً في الكوت آنذاك حذره من مغبة هذا الاجراء قائلاً : ان اكثر النساء والاطفال سيهلكون في الصحراء من جراء تعرضهم لاعتداء العشائر وللبرد في ليالي الشتاء القارسة • وان ذلك سيحدث تأثيراً دعائياً سيئاً بين العرب الذين جئنا لانقاذهم مـــن مظالـــم الاتراك • وقد وافق طونزند على رأي كوكس هذا فألغى أمره باخـــراج أهل الكوت منها واكتفى بطرد الغرباء فقط ، ولكن طونزند ندم علـــى ذلك بعدئذ لانه كان يكره أهل الكوت ويعتبرهم خونة ينقلون أخباره الى العدو ، فهو يقول في مذكراته : « وقد أسفت على الدوام لتساهلي هـــذا لانني لم أهتم قلامة ظفر بمن يقتل أو يموت فى الصحراء من العرب الخائنين لانهم لم يستحقوا ذرة من الرحمة والشفقة ، اما الذين همني أمرهم فكانوا النساء والاولاد لان شأن هؤلاء غير الرجال » • [1]

اختلفت المصادر الانكليزية في تقدير شدة المجاعة التي عاناها أهل الكوت ، فقد ورد في مذكرات طونزند قوله : ان حاكم الكوت العسكري

---

(١) تشارلس طونزند (محاربتي في العراق) ــ ترجمة عبدالمسيح وزيــر ــ بغداد ١٩٢٣ ــ ص ٣٤٦ •

كان يطعم في كل يوم ستمائة شخص مجاناً لانهم لا يملكون نقودا يبتاعون به طعاما ، وكان كذلك يبيع الحنطة بأسعار مخفضة الى ثلاثة آلاف شخص آخرين ، وفي الايام الاخيرة من الحصار كان الحاكم العسكري يعطي هؤلاء جساء الفقراء من لحم البغال والحمير • [٢] وقد أيد هذا القول باربر وهو من ضباط حامية الكوت حيث قال ما نصه : « من جراء قيامنا باطعام المئات من سكان البلدة ، وبسخاء لكثير منهم ، فان قليلاً منهم ظهرت عليهم امارات الهزال من الجوع ، وكان الاطفال يبدون على شيء من السمنة ولم يظهر عليهم أنهم كانوا يشكون من شحة الطعام » • [٣]

ولكننا نجد في مذكرات ضابط آخر اسمه موزلي ما يناقض هذا القول ، فهو يقول فيها : ان أهل الكوت يبدو عليهم الهزال والكآبة بشكل مرعب ، وكانوا يموتون بالمئات • وقد دوّن موزلي في مذكراته في يوم ١٣ نيسان قائلاً انه عندما استيقظ في فجر ذلك اليوم كان أول صوت طرق سمعه من الشارع صوت شحاذ يستجدي الصدقة بحب الله ومحمد ، ثم أخذ الاطفال بعدئذٍ يخرجون من بيوتهم زرافات وهم يستجدون الطعام ويصرخون بشكل يدعو الى الشفقة • [٤]

يمكن القول على أي حال ان أهل الكوت لم تستفحل فيهم المجاعة الاّ في المرحلة الاخيرة من الحصار ، أما قبل ذلك فكان الكثير منهم يعيشون على ما ادخروه في بيوتهم من الحبوب والدبس والتمر والاطعمة المجففة ، وكانت السوق السوداء رائجة بينهم يتعاطون فيها البيع والشراء كما يشاؤون ، وكثيرا ما كان بعض ضباط الحامية وجنودها يشاركونهم في تلك السوق ، فيشترون منهم أو يبيعون لهم • وكان بعض الاقوياء من أهل الكوت القادرين على السباحة يعبرون النهر ليلاً بوساطة القرب المنفوخة فيجلبون لاهليهم شيئاً من الطعام • ويقال ان بعضهم اتخذوا عبور النهر وسيلة للكسب اذ كانوا يجلبون الى الكوت بعض المواد التي شحت

---

(٢) المصدر السابق ـ ص ٣٩٠ ، ٤٨٠ •

(3) Arnold Wilson (Loyalties) — London — 1936 — vol. 1, p. 95.

(4) Mousley (The Sscrets Of A Kuttite) — London 1922 — p. 139.

كالتبغ والشاي فيبيعونها في السوق السوداء ويجنون منها أرباحاً وفيرة ، ولكن ذلك كان مجازفة منهم وقد مات عدد كبير منهم أثناء العبور برصاص الانكليز أو الاتراك .

كان يوم ٢١ كانون الثاني يوم نحس على أهل الكوت ؛ ففيه بدأ التفتيش الدقيق عن الحبوب في كل بيت وكل مكان ، وأخذ الجنود يدخلون البيوت فينقرون الجدران وينبشون الارض ويبحثون في كل الزوايا التي يحتمل وجود الحبوب فيها ، فمن وجدوا عنده كيسين من الحبوب أخذوا واحداً وتركوا الثاني له ، أما من وجدوا عنده كمية كبيرة من الحبوب صادروها كلها . (٥)

وقد أعلنت السلطة العسكرية مكافأة لمن يدلها على مخابىء الحبوب عند الاهالي ، فجاءت الاخباريات اليها تترى . وفي أحد الايام وصلت الى السلطة اخبارية تنبيء عن وجود كمية من الحنطة مخبوءة في أحد البيوت ، فذهب بعض الضباط الى البيت ، وبينما هم يفتشون في احدى الغرف ثقب أحدهم بحربته بارية السقف فانهالت الحنطة من الثقب انهيالاً دلت على وجود كمية كبيرة من الحنطة مخبوءة في السقف . وقد فرح الانكليز بهذه الغنيمة واعتبروها كأنها معجزة نزلت عليهم من السماء .

مشاكل اخرى :

لم ينحصر عذاب أهل الكوت في مشكلة الجوع وحدها بل ابتلوا بمشاكل أخرى زادت من وطأة الجوع عليهم ، نذكر فيما يلي أهمها :

اولا : اتهم طونزند أهل الكوت بأنهم كانوا يتفننون في سرقة مخازن الطعام العسكرية ، ويخبئون بنادقهم انتظاراً لليوم الذي يثورون فيه على الانكليز ، وقد اتخذ طونزند اجراءات شديدة ضدهم ، فأحال اثنى عشر شخصا منهم الى المحكمة العسكرية بتهمة السرقة والاتصال بالعدو ، وحكمت المحكمة باعدامهم رمياً بالرصاص ، كما أمر طونزند باحتجاز عشرين رجلاً من وجهاء البلدة حيث جعلهم رهائن عنده وأعلن أنه

(5) Russell Braddon (The Siege) — London 1969 — p. 179.

سيرميهم بالرصاص حالما تبدو من الاهالي أية بادرة تدل على خيانة • [٦]

ثانيا : عانى أهل الكوت مشقة كبرى في الحصول على ماء الشرب ، فهم قد اعتادوا ــ كغيرهم من أهل القرى في العــراق ــ أن يستمدوا مــاء شربهم من النهر مباشرة وذلك بأن يرسلوا نساءهم يحملن أوعيتهن مــن الجرار والمشارب ليملأنها بالماء من النهر ، وقد اصبح ذلك في ايام الحصار خطراً لان الاتراك في الجانب الآخر من النهر كانوا يطلقون الرصاص علــى كل من يقترب من الماء كائناً من كان ، وقد قتل من جراء ذلك عدد غيــر قليل من نساء الكوت وسقائيها •

استخدم الانكليز مضختين لسد حاجة قواتهم من الماء ، ولم يسمحوا للاهالي بالاقتراب من ماء المضختين خوفا من أن يضع بعضهم السم فيــه بايعاز من العدو • ولكن الانكليز حاولوا مساعدة الاهالي بطريقة اخرى، حيث احضروا عددا من صفائح النفط الفارغة وملأوها بالتراب وصنعوا منها جدارا في موضــع على ضفــة النهر ليحمي النساء عند الاستقاء ليلاً ، فكانت النساء يتجمعن عند حلول الظلام وراء الجدار ثم يبــدأن بمــلء أوعيتهن • وقد تصاب احداهن برصاص الاتراك أحياناً فيســود الرعب بينهن ويتراكضن نحو البلدة مولولات • وكانت هذه المسرحية تتكــرر في كل ليلة تقريباً • [٧]

ثالثا : عانى أهل الكوت شحة مضنية فى مواد الوقود ، فقد دأب جنود الحامية على انتهاب كل الاخشاب التي وجدوها فى البلدة ، واقتلعوا شبابيك البيوت وأبوابها ، [٨] كما انتزعوا سقوف السوق•[٩] ولهذا كان الشتاء الذي مر على أهل الكوت في تلك السنة قاسياً جداً ، فكان مــن أصعب الامور عليهم اعداد الخبز أو طبخ الطعام علاوة على التدفئة لنفاد الوقود لديهم •

---

(6) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 1, p. 92.

(7) Ronald Millar (Kut) — London 1969 — p. 99—100.

(8) Russell Braddon (op. cit.) p. 158—159 .

(9) Sandes (In Kut and Captivity) — London 1920 — p. 148.

رابعاً : عانى أهل الكوت من قصف القنابل التي كانت تنهال عليهم يوماً بعد يوم . انهم كانوا في الايام الاولى من الحصار يتضاحكون عندما يشاهدون قنابل الاتراك تمرق في جو البلدة ، فكانوا يقلدون بأفواههم صوت أزيزها في الهواء وصوت انفجارها ، لانهم كانوا يحسبونها موجهة على الكفار فقط فلا تؤذي أهل البلدة . وسرعان ما تبدلت فكرتهم هذه عندما سقطت احدى القنابل على بيت من بيوت الاهالي وقتلت جميع من فيه . (١٠)

وكان اليوم الاول من شهر آذار يوماً عصيباً على أهل الكوت ، فقد سلط الاتراك في ذلك اليوم على البلدة واحدا وعشرين مدفعاً ترميها بالقنابل ، كما حلقت فوقها ثلاث طائرات أسقطت عليها خمسين قنبلة ، فمات تحت انقاض البيوت المهدومة ستة عشر شخصاً ، وقتل اثنان ، وجرح أربعة . وأصابت احدى القنابل جامع البلدة فقتلت فيه رجلين وخرج الباقون منه وهم في حالة رعب شديد . وارتفع عويل النوائح عند ذلك في كل انحاء البلدة . (١١)

نفذ صبر الاهالي أخيرا ، فشرعوا منذ منتصف شهر نيسان يحاولون الخروج من البلدة بأية وسيلة تقع في أيديهم . وقد شوهد مئات منهم في الطرقات يصنعون الاطواف من القرب المنفوخة والجرار الكبيرة وصفائح النفط الفارغة والمقاعد الخشبية . وقد أرسل اليهم طونزند يحذرهم بأنه لا مانع لديه أن يخرجوا من البلدة ولكنه لن يسمح لهم بالعودة اليها في حالة اخفاقهم في عبور النهر . انه كان يخشى ان يندس بينهم عند عودتهم بعض الجواسيس .

وكان الاتراك من جانبهم لا يريدون خروج أهل الكوت منها ، لان خروجهم يخفف مشكلة الاعاشة على طونزند ويمكنه من الصمود مدة أطول . وأراد الاتراك ارهاب أهل الكوت ليمنعوهم من الخروج ، فقذفوا اليهم عبر الخنادق جثة رجل مقتول وقد قطعت يداه واقتلع لسانه وفي عنقه

---

(10) Russell Braddon (op. cit.) — p. 132.

(11) Ibid, p. 199.

ورقة مكتوب عليها : « هذا جزاء كل من يخرج من الكوت » . ولكن هذا الارهاب كان تأثيره محدودا في أهل الكوت ، ففي كل ليلة كان يخرج منهم عدد مع نسائهم وأطفالهم لعبور النهر على الاطواف التي صنعوها . وهنا يلعب الحظ دوره، فمنهم من ينجو، ومنهم من يموت برصاص الاتراك أو يقع في أيدي الاتراك فيقتلونه . (١٢)

الجوع بين افراد الحامية :

يمكن تقسيم أيام الحصار من حيث توزيع الطعام على أفراد الحامية الى ثلاث مراحل : الاولى وهي التي كانت الجراية فيها تعطى للجنود كاملة ، وقد استمرت هذه المرحلة زهاء خمسين يوماً . أما المرحلة الثانية وهي التي استمرت حتى يوم ٩ آذار فقد كانت الجراية فيها قد انخفضت الى النصف . ثم جاءت المرحلة الثالثة أخيراً وهي التى كانت الجراية فيها تكاد لا تكفي الا" لسد الرمق فقط .

الواقع ان المرحلة الثالثة وهي التي استمرت خمسين يوماً تقريباً كانت مرحلة عصيبة جداً على الجنود حيث انتشرت بينهم الامراض الناتجة عن نقص الفيتامين كالاسقربوط والبريبري ، كما انتشر بينهم مرض الزحار واليرقان . (١٣) وشرع بعض الجنود يأكلون الكلاب والقطط حتى نفدت جميعاً ، ولم ينج من الكلاب سوى ثلاثة : أحدها كلب طوزنند ، والآخران هما كلبا الجنرال مليس .

وكذلك أخذ بعض الجنود يأكلون لحم القنافذ بعد قليه بزيت العجلات ، وذكروا أنه كان لذيذاً . (١٤) وحين جاء الجراد رحبوا به مبتهجين . (١٥) وصار الهنود يبحثون عن أنواع خاصة من الحشائش ليطبخوا منه طعاماً له شبه ظاهري بمرقة السبيناغ ، وقد شاع هذا الطعام

---

(12) Ronald Millar (op. cit.) — p. 239—240.

(13) Barker (The Negleced War) — London 1967 — p. 269—270.

(14) Russell Braddon (op. cit.) — p. 240.

(15) Joseph Parfit (Marvellous Mesopotamia) — London — p. 117.

بين أفراد الحامية حتى صار يأكله القواد وطونزند نفسه . ولكن الحشائش كانت في بعض الاحيان تحتوي على أنواع سامة . ولما مات الجنرال هوكتن قيل ان موته كان من جراء تناوله مرقة تحتوي على تلك الانواع السامة من الحشائش . (١٦) .

وعندما قرر طونزند في نهاية كانون الثاني ذبح الخيول التي لديه واجهته مشكلة هي أن الكثيرين من جنوده الهنود رفضوا أكل لحم الخيل ، وكان الهندوس أكثرهم تشدداً في ذلك لان دينهم يحرم عليهم أكل أي لحم مهما كان مصدره . والغريب ان الكثير من المسلمين رفضوا أكل لحم الخيل أيضاً مع العلم أنه غير محرم في الاسلام بل هو مكروه ، أضف الى ذلك ان الاسلام يجيز أكل أي شيء عند الضرورة .

أرسل طونزند برقية لاسلكية الى حكومة الهند يطلب منها أن تحصل له على الفتاوى بتحليل أكل لحم الخيل من رؤساء الطوائف الدينية التي كان لها جنود في الكوت ، وجاء الجواب من الهند أن البانديت الكبير وامام الجمعة في دلهي وآخرين غيرهم أصدروا فتاويهم حسب المطلوب ، ولكن امام الجمعة اشترط أن يتم ذبح الخيل طبقاً للتعاليم الاسلامية . وقد أنتجت هذه الفتاوي ثمرتها لدى الكثيرين من الجنود فصاروا يأكلون لحم الخيل هنيئاً .

ظل بعض الجنود مصرين على الرفض ، فالمسلمون منهم كانت حجتهم في الرفض ان الفتوى التي وصلت اليهم لا يوثق بها لانها جاءت عن طريق اللاسلكي وهم اذن لا يعرفون هل وقعها علماء الدين حقاً أم لا . (١٧) أما الهندوس فكانت حجتهم أنهم اذا أكلوا لحم الخيل فسينبذهم مجتمعهم عند عودتهم الى قراهم بعد الحرب ، اذ ان عائلاتهم لن ترحب بهم ، وبناتهم لن يتزوجهن أحد ، كما ان أبناءهم لن يستطيعوا الحصول على زوجات لهم . (١٨)

---

(16) Barker (op. cit.) — p. 271.
(17) Mousley (op. cit.) — p. 72.
(18) Russell Braddon (op. cit.) p. 191.

حين علم طوننزند بهذه الحجج التي تذرع بها الرافضون ظن أنه قادر أن يعالجها عن طريق الاجراءات الرسمية • ففي ١٥ نيسان أبرق الى حكومة الهند يطلب منها أن تجمع مشايخ القرى في المقاطعات التي جاء منها جنود الحامية لتعلمهم بأن رؤساء الدين قد أذنوا للجنود بأكل لحم الخيل ولهذا فان كل من يجرأ على اهانتهم فيما بعد سوف يقع تحت طائلة العقوبة • وطلب طونزند من الحكومة أيضاً أن تمنح الاراضي الى ضباط الحامية من الهنود الذين ساعدوا الحكومة في هذا الوقت العصيب • (١٩)

واتخذ طونزند من جانبه سياسة التشجيع لمن يأكل لحم الخيل من جنوده الهنود ، فأمر بترفيعهم بينما أمر بتنزيل رتبة الرافضين • فأسفر ذلك عن نتيجة حسنة اذ صار عدد الآكلين يزداد يوماً بعد يوم ، حيث لم يبق من الرافضين في الايام الاخيرة من الحصار سوى عدد قليل •

كانت الايام الاخيرة من الحصار شديدة الوطأة على افراد الحامية جميعاً ، انما هي كانت أشد على الرافضين بوجه خاص اذ كان هؤلاء في منتهى الضعف وصاروا يموتون بمعدل خمسة عشر في كل يوم • (٢٠)

وبدأ الخفراء يغمى عليهم أثناء الحراسة ، واضطر الاطباء الى توزيع أقراص الافيون على بعض الجنود لمساعدتهم على تحمل آلام الجوع • (٢١)

دوّن طونزند في يوم ١٧ نيسان من مذكراته ما نصه : « وفي هذه الاثناء أخذ اليأس والقنوط من الجنود الهنود في الكوت كل مأخذ فكانوا في كل ليلة يفرون او يحاولون الفرار الى صفوف العدو ، فلم نر بداً من اعدام بعضهم رمياً بالرصاص • وقد جعلت في هذا اليوم ثلاثة جنود من الفوج البنجابي الثاني والعشرين عبرة لغيرهم ، اذ حاول هؤلاء الفرار بهربهم من خنادقنا نحو خنادق العدو » • (٢٢)

وفي الاسبوعين الاخيرين من الحصار شرعت الطائرات الانكليزية

---

(١٩) تشارلس طونزند (المصدر السابق) — ص ٤٨٦ •

(20) Ronald Millar (op. cit.) — p. 241.

(21) Barker (op. cit.) — p. 274.

(٢٢) تشارلس طونزند (المصدر السابق) — ص ٤٨٩ — ٤٥٠ •

ترمي الى الكوت بأكياس من الطحين وبعض المواد الاخرى ، ولكن ذلك كان ذا جدوى قليلة اذ ان الطائرات ترمي الاكياس من أرتفاع عظيم فتسقط بعض الاكياس في النهر كما سقط بعضها في خطوط الاتراك . وكان مجموع ما حصلت عليه الحامية من رمي الطائرات سبعة أطنان فقط . (٢٣) والمظنون ان هذه الكمية ساعدت على تأجيل الاستسلام أربعة أيام . (٢٤)

منشورات الدعاية :

كان الجنود الهنود يؤلفون ما يزيد على ثلاثة أرباع حامية الكوت ، وكانوا من طوائف شتى مسلمين وغير مسلمين . وقد كان الاتراك يوجهون دعايتهم الى هؤلاء الهنود اذ يرمون اليهم المنشورات يحضونهم بها على قتل ضباطهم والفرار الى صفوف الاتراك .

كانت المنشورات مكتوبة باللغات الواسعة الانتشار في الهند كالأردو والبوشتو والبنجابي ، وهي على نوعين أحدهما موجه الى الهنود المسلمين ، والآخر موجه الى الهنود عموماً بغض النظر عن طوائفهم الدينية. فالمنشورات من النوع الاول كانت تحرض المسلمين على الامتناع عن مقاتلة اخوانهم في الدين فراراً من نار جهنم ، وتتعهد للفارين منهم باعطائهم الزوجات والاراضي . (٢٥) أما المنشورات من النوع الثاني فكانت تضرب على وتر وطني حيث تذكر للهنود ظلم الانكليز لهم وكيف أن الاتراك والالمان والنمساويين يريدون الخير للهنود ويعاونونهم على نيل استقلالهم ، وكانت هذه المنشورات مذيلة بتوقيع الجمعية الهندية الوطنية في شيكاغو . ننقل فيما يلي بعض ما ورد فيها من عبارات مثيرة :

«اخواني الهنود الاعزاء — أنتم تعلمون جيداً أن الله خلق هذه الحرب من أجل تحرير الهند من أيدي الانكليز القساة . وهذا هو السبب الذي جعل جميع الراجات والنوابين يعملون في الوقت الحاضر على

---

(23) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 1, p. 96.

(24) Barker (op. cit.) — p. 275.

(٢٥) تشارلس طونزند (المصدر السابق) — ص ٤٨٢ .

اثارة الاضطرابات في كل انحاء الهند من أجل طرد الانكليز منها ... ان الجنود الهنود الشجعان قد قتلوا عــددا من ضباطهم فــي سـنغافورة وسكندراباد وميروت ، وكثير منهم التحقوا بحلفائنا الاتراك والالمـــان والنمساويين الذين لابد انكم سمعتم بهم . أيهــا الابطــال ان أصدقائنا الاتراك والالمان والنمساويين انما يحاربون في سبيل تخليص بلادنا مــن أيدي الانكليز ، ولكنكم وانتم هنود تحاربون هؤلاء الاصدقاء وهــذا يسبب التأخير . ان الانسان حين يشاهد منزلتكم الواطئة يشعر بالدم فــي عينيه اذ يراكم تصبرون على هذا التحقير والبغض من الانكليز ... انكم لابد قد سمعتم مؤخراً عن القتال فيالدردنيل وكيف جرح اللورد هاملتون، وكيف فر اللورد كيتشنر الجبان في الليل مع الجنود الانكليز بينما ترك الهنود وراءه ، ولما رأى الهنود ذلك قتلوا جميع ضباطهم والتحقوا بالترك.

اننا نجد الجنود الهنود في كل مكان تقريباً يتركون الانكليز، أليس من المؤسف أن تظلوا أنتم معهم تساعدونهم ؟ تذكروا فقط أنكم تركتم بيوتكم للقتال من أجل خمسة عشر أو عشرين روبية ... انظروا على سبيل المثــال كم قتل منكم ايها الجنود الهنود في معركة طيسفون وليس هناك من يعتني بعائلات القتلى والجرحى منكم . أيها الاخوة قارنوا بين مرتب الجنــدي الانكليزي ومرتباتكم .. أسرعوا أيها الاخوة . ان المملكة البريطانيه هــي الآن تسير نحو الدمــار ... ان الانكليز كانوا قــد اخرجونا من بلادنا المحبوبة كرهاً ، فذهبنا لنعيش في أمريكا ، وحين سمعنا بان بلادنا تتحــرر من أيدي الانكليز جئنا عن طريق ألمانيا ، غير أننا وجدناكم تقاتلون ضــد أصدقائنا الاتراك . ايها الاخوة ما مضى فات ، والآن عليكم أن تقتلوا كل ضباطكم وتأتوا لتلتحقوا بجيش جلالة السلطان على نحو ما فعل الكثير من اخواننا الهنود في مصر . ان جميع الضباط الاتراك والعرب قد تسلموا الاوامر من جلالة السلطان بأن كل جندي هندي يهرب اليهم يجب أن يعطى مرتباً جيداً وأرضاً للزراعة اذا أحب البقاء في دولــة السلطان ، لا فــرق في ذلك بين الســيك والراجبوت والمهراتا والكركــة والبــاثان والشيعي والسني . ولذا وجب عليكم ان لا تضيعوا هذه الفرصة لقتــل ضباطكم

والالتحاق بالاتراك لمساعدتهم في استعادة حريتكم » • [٢٦]

أحدثت هذه المنشورات تأثيراً غير قليل في الجنود الهنود ، ولا سيما المسلمين منهم ، والواقع ان العامل الديني كان أقوى تأثيراً في الهنود من العامل الوطني • فأخذ الكثير منهم يتمارضون تهرباً من القتال ، وحاول بعضهم الفرار الى صفوف الاتراك ، وعمد آخرون منهم الى تشويه أبدانهم أو جرحها فكان الرجل منهم يطلق الرصاص على كفه الايمن مدعياً أنه أصيب برصاص العدو ، ولكي يزيل أثر البارود من الجرح كان يلف كفه بنسيج سميك قبل اطلاق الرصاص عليه •

وقد اتخذ طونزند اجراءات صارمة ضد هؤلاء الجنود ، فأحال الذين جرحوا أنفسهم الى محكمة عسكرية ، فحكمت المحكمة عليهم بأحكام رادعة • وأمر طونزند كذلك بأن يخلط الجنود المسلمون بغيرهم من الجنود غير المسلمين وأن يتخذ الضباط كل حيطة لمنعهم من الفرار [٢٧] •

كان الاتراك قد اعتادوا أن يتسللوا من خنادقهم ليلاً ليضعوا منشورات دعايتهم على الاسلاك الشائكة القريبة من الخنادق الانكليزية • فأوعز الانكليز الى جنود الكركه بمراقبة هؤلاء والقبض عليهم وقتلهم •

كان الانكليز يعتمدون على جنود الكركه ويثقون بهم ، وهؤلاء الجنود صغار الاجسام يغلب عليهم المرح والبشاشة كالصبيان ولكنهم قساة الى أقصى حد، فهم من نمط الذين يذبحون ضحاياهم ويبتسمون، ولهم سكاكين معكوفة خاصة بهم يتقنون الذبح بها ، فكانوا ينطرحون على الارض انتظاراً للاتراك الذين يدسون المنشورات، فاذا امسك الرجل منهم بأحد الاتراك ذبحه بسكينته والابتسامة لا تفارق شفتيه • [٢٨]

طونزند في مباذلـه :

اختار طونزند اثنـاء حصـار الكوت داراً في وسط البلدة لتكون

---

(26) Ronald Millar (op. cit.) — p. 303—304.

(٢٧) تشارلس طونزند (المصدر السابق) ـ ص ٣٥٧ ، ٤٤١ •

(28) Russell Braddon (op. cit.) — p. 127 ' 195.

مسكناً له ومقراً لقيادته ، وكانت تلك الدار من أحسن الدور في الكوت ذات طابقين ولها شناشيل جميلة . وأمر طونزند بوضع بالات الصوف على سطح الدار وقاية لها من خطر القنابل ، كما أمر بتغليف سياجات السطح بصفائح من حديد . ويقول طونزند في مذكراته : « كان العدو طول مدة الحصار يرمي مقري بالقنابل رمياً دقيقاً بلا انقطاع لان عرب البلدة كانوا يقطعون النهر سباحة في الليل فينقلون أخبارنا الى العدو » . (٢٩)

وبالرغم من خطر القنابل اعتاد طونزند أن يصعد مبكرا في كل صباح الى سطح الدار لينظر بمنظاره العسكري خلال صفائح الحديد الى خنادق الاتراك المحيطة بالكوت من كل جانب . وكان من عادة الجنود الاتراك أن يخرجوا من خنادقهم في الصباح الباكر ليتغوطوا على شاطيء النهر، فصار طونزند يتصيدهم ببندقيته كأنه وجد في ذلك نوعاً من الرياضة الصباحية . وقد تذمر من ذلك أحد الانكليز الذين شاهدوه اذ قال متهكماً: « ليس من الروح الرياضية رمي الاتراك القاعدين » . (٣٠)

وحدث ذات مرة أن طونزند كان يرقب بمنظاره الشاطيء المقابل فشاهد جندياً تركياً يقترب من الماء ليملأ صفيحة له منه ، فأسرع طونزند ينادي خادمه « بوغيز » قائلاً : « هات البندقية ، انظر الى هذا الرجل هناك اننا يجب أن نرميه » . ولم يكد الجندي التركي يتم ملء صفيحته بالماء ويحملها على رأسه حتى أطلق طونزند وخادمه عليه الرصاص من بندقيتيهما ، فسقط الجندي على الارض كما سقطت الصفيحة الى جانبه . وهتف طونزند قائلاً : « انها رصاصتي » يعني أنه هو الذي قتل الرجل ، ثم أخذ يغني ونزل من السطح متجهاً الى غرفته ليقرأ كتبه ويسجل مذكراته اليومية ... (٣١)

وفي ١٦ كانون الثاني ١٩١٦ بينما كان طونزند يراقب بمنظاره الشاطيء المقابل شعر كأن حركة غير عادية تجري هنالك ، وصارت المدافع الانكليزية

---

(٢٩) تشارلس طونزند (المصدر السابق) ــ ص ٣٥٩ .

(30) Russell Braddon (op. cit.) — p. 194.

(31) Ibid, p. 161.

ترمي بقنابلها عليها ، وتبين ان المارشال غولتز كان في ذلك الوقت يزور الجبهة وقد أحس به بعض الضباط الانكليز فصوبوا عليه مدافعهم بغية قتله . ولم يكد طوتزند يعلم بالامر حتى أسرع بالايعاز الى الضباط بوقف اطلاق المدافع حالاً . وهو يقول في مذكراته حول هذا الحادث ما نصه : « ساءني عمل الضباط ... لانني كنت احترم هذا المشير الذي كنت أعده أعظم عالم بفن سوق الجيش في اوربه . فأمرت من ساعتي بالانقطاع عن اطلاق النار ، وقد قال لي الضباط الترك بعد ذلك أن القنبلة كادت تقتل المشير » . (٣٢)

كان في الكوت أثناء الحصار جهازان لاسلكيان لغرض الاتصال بالبصرة والهند ولندن وغيرها ، وكان خادم طوتزند « بوغيز » يذهب ويعود بين دار القيادة ودار اللاسلكي ، مراراً كل يوم ، ليحمل البرقيات التي يرسلها طوتزند الى الخارج أو يتلقاها منه . وكان الجنود المختصون باللاسلكي مشغولين على الدوام بارسال تلك البرقيات او تلقيها . واذا لم يكن هناك برقيات عسكرية فان طوتزند يشغلهم ببرقياته الشخصية يرسلها الى اصدقائه من الممثلات والممثلين . فالمعروف عن طوتزند أنه كان شغوفاً بالتمثيل وفنون المسارح والملاهي وله صلات متينة بالممثلات والممثلين في لندن ، وقيل انه كان يحلو له أحيانا أن يقوم ببعض الادوار الهزلية يقلد بها بعض الشخصيات ، حتى أنه قلد ذات مرة شخصية رئيسه الجنرال نكسون باتقان عجيب ، ولما سمع نكسون بذلك صار ينظر اليه بعين الريبة . (٣٣)

وحدث في احد الايام ان أحد جنود اللاسلكي كرر من تلقاء نفسه رسالة شخصية كان طوتزند قد أبرق بها الى صديق له في لندن يشكو اليه من رداءة الطعام لشدة الحصار ، وشاءت الصدفة أن بارجة بريطانية في البحر الابيض المتوسط التقطت تلك الرسالة فأبرقت بها الى البصرة ، وأبرقت البصرة بها الى الكوت . وحين علم طوتزند بالامر أوعز بتقديم جندي

---

(٣٢) تشارلس طوتزند (المصدر السابق) — ص ٣٧٢ .

(33) Ronald Millar (op. cit.) — p. 21.

اللاسلكي الى المحكمة العسكرية لينال جزاءه على تهاونه ، فحكمت المحكمة عليه بسبع سنوات يقضيها في السجن بعد الخروج من الحصار • ولكن استسلام الحامية اخيرا أنقذ الجندي من هذا الحكم القاسي • ويعلق برادون على ذلك قائلا : « الله وحده يعلم لماذا كان طونزند يرسل من الكوت كل تلك البرقيات الى الممثلين والممثلات في لندن » • (٣٤)

ومن الطرائف التي تروى عن طونزند أثناء الحصار أنه أعتاد أن يتمشى مساء كل يوم في طرقات البلدة بصحبة كلبه الصغير المسمى « سبوت » ، وكان كلبه هذا شديد الخوف يفزع من صوت القنابل ، فهو لا يكاد يسمع أزيز قنبلة تمرق في الجو حتى يقفز هارباً اذ يترك سيده ويعود الى داره لا يلوي على شيء • وقد أصبح الكلب وخوفه الشديد من الاحاديث الطريفة التي يتناقلها أفراد الحامية فيما بينهم للتفكهة • فانزعج طونزند من ذلك كأنه لم يحب أن يكون كلبه جباناً ، ولهذا أصدر أمره بتحريم كل حديث عن جبن كلبه بين الجنود • (٣٥)

تبذير الاطعمة :

كان طونزند قد تلقى في بداية الحصار برقية من نكسون يعلمه بها أنه يأمل ارسال حملة الانقاذ اليه في خلال شهرين ، فاعترض طونزند على ذلك محتجاً بأن الاطعمة المتوفرة لديه في الكوت لا تكفي الا لشهر واحد • وقد أدى اعتراض طونزند هذا الى نتيجة سيئة للغاية هي أن نكسون صار يتعجل في اعداد حملات الانقاذ ويدفعها للهجوم قبل أن تتهيأ اسبابه •

أرسل نكسون من البصرة عدة حملات لانقاذ حامية الكوت المحصورة ، وقامت تلك الحملات بسبع معارك ضارية تكبدت فيها من الخسارة في الارواح ما يزيد على عدد جنود الحامية التي أريد انقاذها • ويعتقد النقاد العسكريون ان من أهم الاسباب في اخفاق تلك المعارك هو أنها كانت مستعجلة ، فقد كان نكسون شديد الرغبة في انقاذ الحامية

---

(34) Russel Braddon (op. cit.) — p. 126 , 213—214.

(35) Ronald Millar (op. cit.) — p. 103.

بأسرع وقت ممكن ، ولو ان المعارك السبع جرت كلها مرة واحدة بعد الاستعداد لها استعداداً كافياً لكان في مقدورها انقاذ حامية الكوت على وجه من الوجوه •

ومما يلفت النظر أن طونزند أبدى في المرحلة الاولى من الحصار تهاوناً واضحاً من حيث الاقتصاد في استهلاك الاطعمة التي كانت موجودة لديه ، وهو لم يبدأ بالاهتمام بها الا مؤخرا • ويبدو انه كان في البداية متفائلاً شديد الثقة بقرب الفرج ، ومثله في ذلك كمثل عابر الصحراء الذي ضل الطريق فأخذ يبذر بالماء اعتمادا على قرب النجاة بينما كان الاحرى به أن يكون شديد الحرص على الماء منذ اللحظة الاولى لانه لا يدري الى متى ستطول مدة التيه عليه •

وفيما يلي نذكر أهم مظاهر التبذير في الاطعمة التي تورطت بها حامية الكوت في المرحلة الاولى من الحصار : •

أولا : عندما وصل الجنود الى الكوت على أثر انسحابهم الطويل من سلمان باك كانوا في غاية الارهاق ، فأخذوا يطلبون أفانين الطعام ، وكان المسؤولون عن الاعاشة متساهلين معهم ، فضاع من جراء ذلك كثير من المواد الغذائية المهمة • (٣٦)

ثانيا : ظل الجنود طيلة خمسين يوماً يحصلون على الجراية الكاملة التي تعطى للجنود في الاوقات الاعتيادية ، فكان الجندي الانكليزي يحصل يومياً على ٤٥٠ غراماً من اللحم ، ومثله من الخبز ، و٨٥ غراماً من لحم الخنزير المقدد والزبدة والجبن ، و ١٧٠ غراماً من البطاطة ، و١١٤ غراماً من البصل ، و٧١ غراماً من السكر ، و٨٥ غراماً من المربى ، و٢٨ غراماً من الشاي ، و١٤ غراماً من الملح • (٣٧) أما الجندي الهندي فكانت جرايته أقل من جراية الجندي الانكليزي ولكنها مع ذلك كانت زائدة عن الحاجة بالنسبة لجندي يعيش في حالة حصار •

ثالثا : كانت حامية الكوت تملك مقادير كبيرة من « القلاطة » التركية،

---

(36) Barker (op. cit.) — p. 152.

(37) Ibid, p. 151.

ولما كانت هذه « القلاطة » يصعب أكلها لشدة صلابتها فقد أخذ الطباخون يستخدمونها في الوقود . يقول باربر : ان مطعم الضباط في الكوت ظل طيلة أيام يستعمل « القلاطة » وقودا له . [٣٨] ولا حاجة بنا الى القول ان هذه « القلاطة » لو كانت باقية الى الايام الاخيرة من الحصار لصارت بالنسبة الى الجنود الجياع ألذ طعام خلقه الله في الوجود !

رابعا : كان في مكبس السوس في الجانب الآخر من النهر مقادير كبيرة من الشعير تقدر بمئات الاطنان ، وكان المفروض في هذه المقادير أن تنقل الى البلدة ويحافظ عليها بكل حرص ، ولكنها في الواقع أهملت . وفي أواخر كانون الثاني ١٩١٦ عندما اشتدت الحاجة اليها وطلبها المسؤولون قيل لهم : ان الامطار أثرت فيها وأن البغلة الموجودة هناك قد أكلت كثيرا منها . وعند الفحص تبين أن البغلة اصبحت لكثرة الاكل أسمن بغلة على وجه الارض . [٣٩]

خامسا : بلغ قصر النظر لدى القيادة في الكوت بحيث أنها في بداية الحصار سمحت للجنود بأن يستخدموا أكياس الطحين في اقامة المتاريس بدلاً من اكياس الرمل التي لم تكن موجودة آنذاك، وقد انتهز بعض الجنود الفرصة فصاروا يسرقون تلك الاكياس ويبيعونها الى أهل البلدة . سجل طونزند في مذكراته في ٨ كانون الثاني ١٩١٦ يقول : « علمت في هذا اليوم أنه قد سرق منا ألف كيس طحين ... وظهر أن السرقة كانت متواصلة مع شدة الحيطة التي اتخذناها لمنع ذلك ... » [٤٠]

سادسا : كان أهل الكوت قد اعتادوا كغيرهم من أهل العراق أن يخزنوا في بيوتهم أطعمة تكفيهم لسنة واحدة على الاقل ، ولو أن طونزند كان قد أمر باجراء التفتيش الدقيق للبيوت في بداية الحصار لحصل منها على مقادير كبيرة من الحبوب ، ولكنه تكاسل ولم يأمر باجراء التفتيش الدقيق الا في ٢١ كانون الثاني . وقد يصح القول بأن الاهالي كانوا خلال

---

(38) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 1, p. 95.

(39) Russell Braddon (op. cit.) — p. 180.

(٤٠) تشارلس طونزند (المصدر السابق) — ص ٣٦٦ .

المدة التي سبقت ذلك اليوم يأكلون ما يشاؤون بلا روية ، أي أنهم كانوا كالجنود متفاءلين لا يدرون ماذا يخبيء لهم القدر ، وضاعت من جراء ذلك مقادير كبيرة من الحبوب .

سابعا : كان لدى حامية الكوت ثلاثة آلاف حصان وبغل ، وكان طونزند في أول الامر يرفض ذبحها واطعامها للجنود بحجة أنه لا يريد قسرهم على أكل طعام لا يرغبون فيه ، فظلت تلك الحيوانات تستهلك الكثير من الحبوب لكي تبقى على قيد الحياة بلا فائدة . ولم يأمر طونزند بذبحها الا في نهاية كانون الثاني .

في الوقت الذي كان فيه طونزند يقترف تلك الاخطاء في الكوت كان نكسون في البصرة يعاني أزمة نفسية تقض مضجعة . فالهزائم المتتابعة التي حلت بحملات الانقاذ أثرت على أعصابه وجعلت صحته تتردى تدريجاً ، حتى صار من الصعب على أفراد حاشيته التحدث اليه لنفاد صبره . انه كان يعتبر الموقف العسكري بمثابة التحدي له ولكنه لم يكن كفؤاً لهذا التحدي وأخذ يصدر قرارات غير صائبة .

وفي ١٨ كانون الثاني ١٩١٦ مُنح نكسون اجازة مرضية ونُقل الى الهند ، فحل محله الجنرال ليك الذي كان رئيس أركان الجيش الامبراطوري في الهند . وعندما وصل ليك الى البصرة ارتاع لحالة الفوضى والارتباك التي كانت تسود ميناء البصرة وأرصفة الرسو فيها ، اذ كانت البواخر هناك راسية بغير نظام لا تعرف كيف تفرغ حمولتها ، كما كانت وسائل النقل بين البصرة وساحة القتال بالغة السوء . وقد أدرك ليك ان هذا كان من أهم أسباب الهزائم التي حلت بحملات الانقاذ ، فشمر عن ساعد الجد بغية اصلاح الوضع ، ولكن ذلك يحتاج الى وقت بينما كان الوضع في الكوت لا يحتمل التأخير . (٤١)

الباخرة « جلنار » :

كانت « جلنار » أسرع باخرة للنقل في العراق آنذاك ، وقد ارتأى

---

(41) Longrigg (Iraq, 1900 to 1950) — London 1956 — p. 86.

الانكليز في أواخر أيام الحصار شحنها بالاطعمة وارسالها خلسة الى الكوت في محاولة يائسة منهم لتموين الحامية المحصورة .

كانت الباخرة في العمارة ، وقد درعها الانكليز بصفائح من الحديد وأكياس من الرمل لوقايتها من الرصاص ، ثم شحنوها بمائتين وسبعين طناً من المواد الغذائية كالمعلبات والشاي والسكر والبسكت والطحين الابيض . وتطوع عدد من البحارة ليكونوا فيها عند مسيرتها الى الكوت . وتحركت الباخرة من العمارة في الساعة السابعة من مساء ٢٤ نيسان . (٤٢)

استطاع أحد جواسيس الاتراك في العمارة أن يعلم بأمرها فأسرع الى قائمقام الحي سلطان بك الجبوري يخبره بذلك ، وأبرق القائمقام بخبرها الى خليل باشا . يقول تحسين العسكري في مذكراته : ان خليل باشا كان يتناول الطعام في مقره مع ضباط ركنه اذ وصلت اليه البرقية من قائمقام الحي ، فضحك هو وضباطه استهزاءاً بالخبر وطفقوا يتندرون على القائمقام حيث اعتبروه ساذجاً لتصديقه بهذا الخبر الذي هو في نظرهم غير معقول ، فقد كان القائمقام عربياً متخرجاً من مدرسة العشائر في اسطنبول . ولهذا أهملوا برقيته ولم يحسبوا لها أي حساب . (٤٣)

تحركت الباخرة من العمارة وهي مطفأة الانوار ، فلما اقتربت من الكوت أحس بها جنود الاتراك الذين كانوا يخفرون شواطىء النهر ، فأمطروها بوابل من الرصاص والقنابل ، فقتل الكثيرون من بحارتها وجرح آخرون .

كان الاتراك قد وضعوا بمعونة الخبراء الالمان سلكاً معدنياً عبر النهر بصورة مائلة ، وعندما وصلت الباخرة الى السلك بدأت تنحرف في سيرها تبعاً لميل السلك حتى توحلت في الطين في الضفة اليمنى من النهر . فهجم الاتراك عليها واستولوا على ما فيها من مواد غذائية ، كما أسروا الاحياء من بحارتها . وقد أطلق الاتراك على الباخرة اسماً تركياً هو

---

(42) Russell Braddon (op. cit.) — p. 247.

(٤٣) تحسين العسكري (الثورة العربية الكبرى) — بغداد ١٩٣٦ — ج ١ ص ١٢٤ — ١٢٥ .

« كندي كلن » (٤٤) ومعناه الآتية من تلقاء نفسها .

كانت حامية الكوت تعلم بأمر الباخرة منـذ البداية ، وحين تحركت الباخرة من العمارة علمت الحامية بذلك عن طريق اللاسلكي . وقد ذهب الاتقياء من الانكليز في تلك الليلة الى الكنيسة الموقتة التي كانوا قد أقاموها في الكوت للصـلاة ، فازدحمت الكنيسة بهـم ، وصاروا يصلون الى الله ويدعونه أن يشملهم برحمته ويساعد الباخرة على اختراق خطوط الحصار والوصول اليهم سالمة . (٤٥)

ولما لاح نور الفجر صعد بعض ضباط الحامية فوق سطوح الـدور ليروا ماذا حل بالباخرة التي جاءت لانقاذهم . وكان طونزند نفسه قد صعد الى سطح داره أيضاً ، على الرغم من التوعك الذي طرأ عليه في تلك الليلة ، ووضع البطانية على كتفيه اتقاء البرد ، وحين نظر بمنظاره وجد الباخرة جانحة عند الشاطىء لا حراك فيها وهي على بعد أميال قليلة من الكوت ، فكانت تلك اللحظة أشد اللحظات مرارة في حياة طونزند . (٤٦)

كان من بين أسرى الباخرة الذين وقعوا فـي أيدي الاتراك بحـار انكليزي اسمه « كاولي » ، ولهذا الرجل قصة طريفة جديرة بالذكر فـي هذه المناسبة :

كان كاولي قد عاش قبل الحرب في العراق اكثر من ثلاثين سنة يعمل في بواخر بيت لنج ، وهو يتقن اللغتين التركية والعربية جيداً ، وتزوج من امرأة مسيحية عراقية وله بيت في رأس القرية ببغداد . وقد حدث له في أحد الايام التي سبقت اعلان الحرب أنه بينما كان ماراً بالعمارة جرت محاورة بينه وبين محاسب لواء العمارة أحمد حلمي بك الشامي ، فقد كان الشـامي يعتقد بان الحرب اذا نشبت فستكون بريطانيا هي الخاسرة فيها لانها دولـة بحرية فاذا خرجت الى البر ماتت كالسمكة ، فرد عليه كاولي بأن أخرج من جيبه باوناً انكليزياً من الذهب ودحرجه على طاولة كانت أمامه وقـال : ان

---

(٤٤) محمد أمين العمري (حرب العراق) ـ بغداد ١٩٣٥ ـ ج ١ ص ١٤٢ .

(45) Russell Braddon (op. cit.) — p. 247.

(46) Ronald Millar (op. cit.) p. 250.

الانكليز يستطيعون بهذا الباون أن يدخلوا أية بقعة من الارض بكل سهولة. ثم اورد كاولي مثلاً عراقياً دارجاً هو : « تالي الليل تسمع حس العياط » ، يعني ان الانكليز قد يخسرون المعارك أثناء الحرب ولكن النصر لهم في النهاية .

وعندما نشبت الحرب تطوع كاولي في خدمة القوات الانكليزية، وكان الاتراك يعدونه من رعاياهم وهددوه بأنهم اذا قبضوا عليه فسيرمونه بالرصاص جزاء خدمته للانكليز في الحرب . ويحدثنا تحسين العسكري في مذكراته عن مصير كاولي عندما وقع في أسر الاتراك فيقول : ان خليل باشا استدعى كاولي اليه ليتناول الطعام على مائدته ، وصادف أن كان بين الحاضرين على المائدة احمد حلمي بك الشامي فأخذ هذا يتفاخر أمام خليل باشا بما قال لكاولي قبل الحرب وماذا رد كاولي عليه ، ثم التفت نحو كاولي ليقول له كيف ان الانكليز انكسروا في الحرب ولم ينتصروا . ولكن كاولي لم يسكت تجاه هذا التحدي من الشامي بل أجاب عليه بجرأة قائلا : « لقد قلت لك تسمع حس العياط في آخر الليل وليس بوسطه » مشيرا بذلك الى ان الحرب لم تنته بعد وأن الانكليز لابد أن ينتصروا في نهايتها . وقد اغتاظ خليل باشا وضباط ركنه من هذا الجواب الجريء وأضمروا الحقد لكاولي . وفي اليوم التالي غاب كاولي ولم يرجع حتى يومنا هذا .[٤٧]

ادعى الاتراك أخيراً أنهم لم يقتلوا كاولي بل وجدوه على ظهر الباخرة قتيلاً ، ثم غيروا قولهم هذا بعدئذ حيث ذكروا أن حراس كاولي قتلوه بعد أسره على أثر محاولته الفرار . ولكن الانكليز رفضوا كلا هذين القولين ، ودلت تحرياتهم على أن كاولي قتله الاتراك عمداً ، وقد منحته الحكومة البريطانية صليب فكتوريا بعد موته مكافأة على بسالته .[٤٨]

لورنس في البصرة :

عندما اشتد الحصار على حامية الكوت قرر اللورد كيتشنر وزير

---

(٤٧) تحسين العسكري (المصدر السابق) ــ ج ١ ص ١٢٧ .

(48) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 1, p. 96.

الحربية البريطانية القيام بعمل غير مألوف من أجل انقاذ الحامية وذلك بعرض الرشوة على القائد التركي خليل باشا . والمعروف عن اللورد كيتشنر أنه لا يأنف من اللجوء الى مثل هذا العمل غير القويم .(٤٩)

نيطت المهمة بلورانس ، وكان لورنس يومذاك ضابط استخبارات في القاهرة قبل التحاقه بالثورة العربية في الحجاز . وفي ٢٠ آذار غادر لورنس القاهرة متوجهاً الى البصرة ، وقبل وصوله الى البصرة كان الجنرال ليك فيها قد تسلم برقية من لندن هي كما يلي :

« تعليمات سرية جدا للقائد شخصياً . سيصل الكابتن لورنس الى البصرة قادماً من مصر ... ليتشاور معكم في امكان رشوة خليل باشا أو نجيب باشا من قواد الجيش التركي في العراق من أجل تسهيل فك الحصار عن طونزند . ويمكنكم أن تصرفوا في هذا السبيل مبلغاً لا يتجاوز مليون جنيه . ولما لم يكن بالامكان العثور فورا على وسيط من اهل البلاد ليرافق لورنس ، فقد تتمكنون من العثور على وسيط في البصرة » .(٥٠)

كانت الحكومة البريطانية قد ناطت بلورنس مهمة أخرى علاوة على تقديم الرشوة لخليل باشا ، هي الاتصال ببعض زعماء العراق بغية احداث ثورة فيه على منوال ما كانت تدبره في الحجاز تحت شعار القومية العربية.

وصل لورنس الى البصرة في مساء ٥ نيسان . فمكث فيها بضعة أيام درس خلالها تقارير الاستخبارات عن وضع العلاقات بين العرب والاتراك في العراق ، واتضح له أن من الممكن احداث ثورة في العراق اذ ان الظروف فيه مهيأة وهي لا تحتاج الا" الى عود كبريت لايقاد الثورة. وأيقن لورنس ان الثورة لو وقعت لاصبحت خطوط المواصلات التركية بين بغداد والكوت في خطر ، ولربما اضطر الاتراك الى رفع الحصار عن الكوت .

أخذ لورنس يتصل بأعوان السيد طالب الذين كانوا موجودين في

---

(٤٩) فيليب نايتلي و كولن سمبسون (المخفي من حياة لورنس العرب) — ترجمة ايلي لاوند وابراهيم العابد — بيروت ١٩٧١ — ص ٥٢ .

(٥٠) المصدر السابق — ص ٥٢ .

البصرة حينذاك بغية اقناعهم بالمساهمة في ثورة ضد الاتراك • يروي سليمان فيضي في مذكراته : أن لورنس استدعاه اليه في مقره في درب الاعوج بالعشار ، في يوم ٧ نيسان ، وأخذ يحادثه في موضوع الثورة قائلا :

« ••• اني شغوف بحب العرب مفتون بسجاياهم حريص على ما ينفعهم ، وقد سنحت لي الفرصة الآن لتحقيق أمنيتي بتقديم خدمة عظيمة اليهم ، وخاصة العراقيين منهم ، بأن أعمل على انالتهم استقلالهم • انها يا سيدي فرصة ذهبية ، ذلك ان اكثرية الشعب الانجليزي لا ترتاح الى استعمار بلاد جديدة بعيدة عن الجزر البريطانية ، فمن الواضح اذن أن لا تفكر الحكومة البريطانية في استعمار البلدان التي ستصبح تحت الاحتلال البريطاني بعد الحرب ، وهي بدون شك عازمة على افساح المجال للشعوب العربية كي تتمتع باستقلالها وتنال حقوقها بشرط أن يساهم العرب أنفسهم في الحصول على ذلك الاستقلال وأن يبرهنوا على رغبتهم فيه • وهناك على ما أعتقد وسيلة لتحقيق ذلك الا وهي الثورة ، فاذا أعلن العرب الثورة على الاتراك وحاربوهم بجانب الجيوش البريطانية فسيكون لهم الاستقلال والحرية ، أما اذا قبعوا في دورهم آملين أن تمنحهم بريطانيا الاستقلال بعد نصرها ، فذلك أمر غير معقول ••• وقد فوضتني الحكومة البريطانية لاشعال تلك الثورة وبذل ما يلزم لها من المال والسلاح وغير ذلك ••• واني قد اخترتك لتقوم بمهمة اذكاء نار الثورة بعد الذي علمته عنك من رجال القضية العربية البارزين في مصر • فان أقدمت فانك واجد كل ما تحتاج اليه من وسائل هذه الثورة ، فسأضع تحت تصرفك البنك بكل أمواله ، وسيمدك الجيش بما تشاء من السلاح ، فهيا الى العمل في سبيل القضية العربية وفي سبيل استقلال بلادك وحرية قومك »•

يقول سليمان فيضي انه عندما سمع هذا الكلام من لورنس اعتذر اليه بعجزه عن القيام بالثورة وأشار عليه بأن يستدعي السيد طالب من الهند للاضطلاع بهذه المهمة ، فأجابه لورنس بأن الحكومة البريطانية تفضل بقاء السيد طالب في الهند • فرشح سليمان فيضي رجلاً آخر بدلاً من السيد طالب هو أحمد الصانع اذ هو ذو كلمة مسموعة في البصرة وله

علاقة متينة بعشائر المنتفق ، فلم يقبل لورنس بهذا الترشيح وأصر على سليمان فيضي أن يكون هو القائم بالثورة لا غيره ، غير ان سليمان فيضي ظل مصراً على الرفض • (٥١)

وبعد أن يئس لورنس من اقناع سليمان فيضي حاول مفاوضة رجل آخر من أعوان السيد طالب (٥٢) لا نعرف من هو ، وربما كان أحمد الصانع ، فلم يوفق في اقناعه كذلك •

ومما يجدر ذكره ان هذه المحاولات التي قام بها لورنس قوبلت بالامتعاض الشديد من القواد البريطانيين في البصرة ، فهؤلاء القواد كانوا من اتباع مدرسة الهند كما اشرنا اليه في فصل سابق ، فكانوا لا يثقون بالعرب ولا يحبون أن يجري أي اتصال بهم ، وكان لهم انطباع سيء عن رجال العشائر بوجه خاص حيث يصفونهم بأنهم يتقلبون من جانب الى آخر حسب تقلب كفة الحرب فلا يبالون بالعهود والمواثيق وليس لهم من هدف سوى النهب والسلب ، ويضربون مثلاً على ذلك برجل من رؤساء العشائر بدل انحيازه من جانب الى آخر خمس مرات ثم صار أخيراً مع الغالبين • (٥٣)

والغريب ان القواد البريطانيين في البصرة بلغ بهم بغض العشائر الى حد أنهم كانوا يتحدثون عن مشروع قيل ان الاتراك اقترحوه عليهم وهو أن يعقد الجيشان الانكليزي والتركي هدنة موقتة فيما بينهما من أجل ابادة العشائر ابادة تامة ، حتى اذا انتهى الجيشان من ذلك عادا الى الحرب من جديد بشكل جدي • (٥٤)

مفاوضة الاستسلام :

في الساعة العاشرة من صباح ٢٦ نيسان ١٩١٦ أرسل طونزند رسالة

---

(٥١) سليمان فيضي (في غمرة النضال) ـ بغداد ١٩٥٢ ـ ص ٢١١ ـ ٢٢٦٠

(52) Philip Graves (Sir Percy Cox) — London — p. 201.

(٥٣) فيليب ويلارد آيرلند (العراق ـ دراسة في تطوره السياسي) ـ ترجمة جعفر الخياط ـ بيروت ٩٤٩ ـ ص ٦٧ ـ ٦٩ •

(54) Ronald Millar (op. cit.) — p. 271.

الى علي نجيب باشا قائد القوة التركية التي تحاصر الكوت يخبره بأنه مخول من قبل القائد العام بالمفاوضة ، وهو يطلب هدنة لمدة ستة ايام • وبعد ساعة أرسل طونزند رسالة أخرى بمثل هذا المعنى الى القائد التركي العام خليل باشا • وفي المساء وصل الى الكوت ضابط تركي يحمل الجواب من خليل باشا اذ يقول فيه ان طونزند وجنوده سوف يلقون في تركيا استقبالاً عظيماً لما أبدوه من بسالة في الدفاع عن الكوت طيلة الاشهر الخمسة الماضية •

وفي صباح اليوم التالي ، وكان الجو صحواً ومياه الفيضان منخفضة، ركب طونزند زورقاً بخارياً برفقة ثلاثة من الضباط ، وسار بهم الزورق شمالاً لمقابلة خليل باشا • وخرج الناس على جانبي النهر يتفرجون لاول مرة منذ بدء الحصار وهم آمنون لا يخشون شيئاً حيث توقف قصف القنابل ورمي الرصاص • وبعد أن سار الزورق مسافة ميل ونصف التقى في وسط النهر بزورق آخر يحمل خليل باشا وحاشيته ، فانتقل طونزند وحده الى الزورق الثاني •

كان اللقاء بين القائدين ودياً ، وأخذ خليل باشا يطنب في مدح طونزند قائلاً بأنه دافع عن الكوت كدفاع عثمان باشا عن بلافنا • (٥٥) وعرض طونزند على خليل باشا اقتراح حكومته بدفع مليون باون لقاء اطلاق سراح حامية الكوت ، وقال متوسلاً بأن بسالة الحامية تجعلها جديرة بمعاملة استثنائية ، وان أفرادها يتعهدون بأنهم لن يحاربوا الاتراك طيلة أيام الحرب • وقد ظهر الاهتمام على وجه خليل باشا تجاه هذا الاقتراح ، غير أنه طلب مهلة للاتصال بانور باشا برقياً قبل اعطاء الجواب ، واتفق مع طونزند على الاجتماع به غدا مرة أخرى • (٥٦)

عاد طونزند الى مقره واتصل برقياً بالجنرال ليك في البصرة يخبره بما جرى بينه وبين خليل باشا ورأيه فيه • وفي ٢٨ نيسان أرسل طونزند الى خليل باشا رسالة يخبره فيها بأن القائد الانكليزي العام وافق على

---

(٥٥) تشارلس طونزند (المصدر السابق) ــ ص ٤٩٦ •

(56) Russell Braddon (op. cit.) — p. 251.

تقديم كل المدافع الموجودة في الكوت الى الاتراك علاوة على مبلغ المليون باون • وبعد قليل وصل الجواب من خليل باشا الى طونزند وكان مخيباً للامل حيث كان رد أنور باشا هو : أن الدولة العثمانية ليست في حاجة الى نقود ، وأن عشرة آلاف تركي ضحوا بأنفسهم من أجل الكوت، ولكن من الممكن قبول المبلغ والمدافع في مقابل اطلاق سراح طونزند وحده، أما جنود الحامية وضباطها فيجب أن يؤخذوا أسرى • وقد ابرق طونزند بهذا الجواب الى الجنرال ليك واقترح عليه أن يزيد المبلغ الى مليونين مع تقديم عدد من الاسرى الاتراك يساوي عدد أفراد الحامية •

وفي ذلك الوقت كان لورنس قد قدم من البصرة ووصل الى مقربة من الخطوط التركية ومعه رجلان أحدهما ضابط في استخبارات البصرة اسمه « بيچ » والثاني عضو في مجلس العموم البريطاني يعرف اللغة التركية وله معرفة سابقة بخليل باشا اسمه « هربرت » • وقد تسلم هؤلاء الثلاثة برقية من البصرة توعز اليهم بتقديم الاقتراح الجديد أي زيادة المبلغ الى مليوني باون مع الاسرى •

وفي ٢٩ نيسان تمكن الثلاثة من مقابلة خليل باشا بعد مشقة وطول انتظار ، وعندما عرضوا عليه الاقتراح الجديد أعلن رفضه له فوراً وقال : انه لا يريد أن يسمع عن الامر شيئاً • فساد الصمت على الحاضرين ، ثم حاول أحد الثلاثة تحويل الحديث الى موضوع آخر هو موضوع أهل الكوت الذين تعاونوا مع الانكليز أثناء الحصار ، وأشار الى انهم ينبغي أن لا يتعرضوا لاي اضطهاد أو انتقام ، فأجاب خليل باشا قائلاً : أن أهل الكوت من رعايا الحكومة التركية ولا شأن لغيرهم بهم فالترك لهم امبراطوريتهم كما أن للانكليز امبراطوريتهم وليس هناك فرق بين الامتين • فعقب هربرت على هذا الجواب بغضب قائلا : « ليس الا ثمانمائة ألف أرمني » ، يشير بذلك الى مذبحة الارمن •

ثم أثار لورنس مشكلة المرضى من حامية الكوت ، فقال خليل باشا : انه سيبادلهم بالاسرى الموجودين في المعتقلات الانكليزية في الهند بشرط أن يكون هؤلاء في صحة جيدة ، وسيكون الهنود في مقابل العرب، والانكليز في مقابل الاتراك • وبعد تأمل قليل غيّر خليل باشا رأيه في

مبادلة الاسرى العرب اذ قال : انه لا يقبل بعودة الاسرى العرب الى صفوف الجيش التركي لانهم جبناء حيث دلت التجربة على ان الشجعان بين العرب لا تتجاوز نسبتهم الواحد بالمائة ، بينما لا نجد بين الاتراك سوى جبان واحد من كل عشرة . ثم قال خليل باشا يخاطب هربرت : « انتم تستطيعون أن تعيدوا الينا الاسرى العرب اذا شئتم ولكني سوف أحكم عليهم بالموت، فاني أحب أن أراهم مشنوقين » . (٥٧)

انتهت المفاوضة أخيراً من غير نتيجة ، وعاد لورنس مع صاحبيه الى البصرة ، بينما استسلمت حامية الكوت الى الاتراك مع قائدها طونزند .

استسلام الحامية :

في ٢٩ نيسان بينما كان لورنس وصاحباه يفاوضان خليل باشا في المعسكر التركي كان طونزند قد أصدر اوامره بتدمير المدافع الموجودة في الكوت كأنه كان على يقين من أن المفاوضة الجارية لا جدوى فيها .

كان عدد المدافع يناهز الاربعين وتبلغ قيمتها مائة ألف باون ، وقد أخذ الجنود يدمرونها كما دمروا بنادقهم ورشاشاتهم وكل ما كان لديهم مما يمكن أن ينتفع به العدو . وكان آخر شيء دمروه هو جهاز اللاسلكي بعد أن تلقوا به رسائل التعزية من البصرة وأجابوا عليها بكلمة «الوداع» .

وبعد الظهر بقليل من ذلك اليوم ارتفعت الاعلام البيض على خطوط الانكليز في الكوت دلالة على الاستسلام ، فأقبل من المعسكر التركي ضابط برتبة عقيد اسمه « نظام بك » وهو راكب فرسه وخلفه رتل طويل من الجنود الاتراك تتقدمهم الطبول . وعندما اقترب من البلدة استقبله الاهالي بالهوسات وامارات الفرح ، وتقدم افراد منهم لتقبيل حذائه اللماع فأزاحهم عنه بحركة من قدمه .

كان نظام بك قد عينه خليل باشا حاكماً عسكرياً على الكوت ، ولما وصل الى مقر الفرقة في البلدة تقدم نحو الضباط الانكليز واحداً بعد الآخر يسلمون اليه سيوفهم وهو يصافحهم . وقد أبى بعض الضباط

---

(57) Ronald Millar (op. cit.) — p. 273—275.

أن يفعلوا ذلك وشرعوا يكسرون نصال سيوفهم ويرمونها في النهر .(٥٨)

وفي تلك الآونة بالذات انطلق بعض الجنود الاتراك ومعهم بعض الاعراب ينهبون ما يقع عليه نظرهم من ممتلكات الانكليز ، ودخلوا الى المستشفى وأخذوا ينهبون أغطية المرضى وأحذيتهم وما لديهم من اشياء ثمينة . وكان الجنرال مليس راقدا في المستشفى فاختطف أحد الجنود حذاءه مما أثار غضبه فنهض من فراشه وأخذ يجرى وراء الجندي السارق وهو يصرخ ويلعن . ولمحه أحد الضباط الاتراك وهو في تلك الحالة فأسرع لمساعدته واستعاد الحذاء له ، ثم التفت الضابط نحو الجندي السارق وأخذ يصفعه على وجهه ، وكان الجندي يأخذ له التحية بعد كل صفعة يتلقاها منه . (٥٩)

كان طونزند يومذاك متوعكاً وقد أثرت الكارثة عليه فاصفر لونه وظهرت على وجهه امارات الاسى . (٦٠) وقد اعتزل في داره وأناب عنه الجنرال ديلامين لمقابلة نظام بك . وفي اليوم التالي دخل خليل باشا مع حاشيته الى الكوت ، فخرج طونزند لاستقباله ، وقد احترمه خليل باشا كل الاحترام . ولما قدم طونزند له سيفه ومسدسه حسبما جرت العادة عليه رفض خليل باشا أخذهما وقال له: «ليظلا معك لانك تستحق حملهما» . ثم قال خليل باشا يخاطب طونزند : انه سيرسله الى اسطنبول مكرماً حيث يحل ضيفاً عزيزاً على الامة التركية ، ذلك لان الاتراك يقدرون له بسالته في الدفاع عن الكوت ، أما قواته فسوف ترسل الى اماكن في الاناضول معتدلة المناخ قريبة من البحر . (٦١)

وعندما أوشكت المقابلة بين القائدين على الانتهاء ، طلب طونزند من خليل باشا أن يتفضل عليه بأن يرسل كلبه « سبوت » الى صديق له في البصرة لكي يوصله هذا الى انكلترا . وقد وصف طونزند كلبه بأنه

---

(58) Russell Braddon (op. cit.) — p. 257—258.
(59) Ibid, p. 258.

(٦٠) تحسين العسكري (المصدر السابق) — ج ١ ص ١٣١ .
(٦١) تشارلس طونزند (المصدر السابق) — ص ٤٩٦ .

كان أميناً في خدمته ، ورافقه في المعارك ، وقتل قططاً كثيرة اثناء الحصار . فاستجاب خليل باشا لرغبة طونزند وأرسل الكلب الى البصرة . ولما عاد طونزند الى بيته في انكلترا بعد الحرب وجد كلبه هناك سالماً فالتقى به.(٦٢)

نصب الاتراك مشانق موقتة على شاطىء النهر لشنق الاشخاص الذين تعاونوا مع الانكليز أثناء الحصار ، وقد تطوع رجل من أهل الكوت لاخبار الاتراك باسماء أولئك الاشخاص ، فكان أولهم تاجر يهودي اسمه « ساسون » وقد لعب هذا دورا كبيرا اثناء الحصار اذ هو الذي دل الانكليز على مخابيء الاطعمة لدى أهل الكوت ، وعندما سقطت الكوت كان ساسون مختبئاً على سطح احدى الدور ، فلما حاصره الاتراك رمى بنفسه من السطح فانكسرت رجله ، وانهال الاتراك عليه بالضرب المبرح ثم ساقوه الى المشنقة . (٦٣)

وكان رئيس البلدة الحاج عباس العلي قد حاول الفرار من الكوت قبيل سقوطها هو وابنه سعد وابن اخته محمد نجيب ، حيث ركبوا في طوف وعبروا النهر ولكن الاتراك قبضوا عليهم . (٦٤) ثم جاؤوا بهم يسحبونهم في شوارع البلدة ، وقطعوا اليد اليمنى من كل منهم بالساطور ، ثم شنقوهم على شاطىء النهر . وشنق الاتراك كذلك رجالاً آخرين ، ثم ألقوا القبض على مائتين وخمسين رجلاً فساقوهم الى السراي بتهم مختلفة ، وقتلوهم رمياً بالرصاص . (٦٥)

معاملة الاسرى :

كان عدد الاسرى الذين استسلموا للاتراك في الكوت يزيد على ثلاثة عشر ألفاً ، وكانوا في منتهى الجوع والارهاق ، فأركب الضباط منهم في باخرة ، أما الجنود فقد أوعز اليهم بأن يمشوا على أقدامهم الى موضع « شمران » الذي يقع على بعد تسعة أميال من الكوت ليجدوا الطعام فيه.

---

(٦٢) المصدر السابق — ص ٥٠٣ .
(63) Ronald Millar (op. cit.) — p. 282.
(64) Sandes (op. cit.) — p. 272.
(65) Ronald Millar (op. cit.) — p. 282.

ان أول مشكلة واجهها الاسرى هي كيف يمكن أن يأكلوا الخبز التركي اليابس الذي قدم لهم وهو المسمى بـ « القلاطة » • يقول تحسين العسكري انه شاهد الضباط الاسرى فى الباخرة وهم حائرون في أمرهم مرتبكون ، فعقدوا جلسة فيما بينهم للمداولة فى الطريقة التى تكسر بها القلاطة وتؤكل ، فقال بعضهم انها تكسر بالفأس ، وقال آخرون انها تكسر بالرصاص ، ولما طال جدلهم اقترب منهم تحسين العسكري واخذ يشرح لهم طريقة أكلها باللغة الفرنسية حيث قال لهم انها يجب ان توضع فى منديل مبتل بالماء بضع دقائق حتى تلين ، وعندئذ تستطيع الاسنان ان تقضمها، فشكره الضباط على ذلك •[٦٦]

أما الجنود فكانت مصيبتهم بالقلاطة أعظم ، اذ لم يكن هناك من يهتم بتعليمهم كيف يأكلونها ، ولقد جيء لهم بالقلاطة محملة على أباعر فوضعت على الارض أكواماً وخصص لكل فرد منهم ستة منها • فاتثالوا عليها بنهم شديد ، فأخذ بعضهم يقرمط بأسنانه على حافة القلاطة كما تفعل الكلاب بالعظام ، ومنهم من أهوى بحذائه العسكري الثقيل عليها لتحطيمها الى قطع صغيرة يمكن وضعها في الفم ، أما الصبورون منهم فقد نقعوها في الماء بضع ساعات ، واندهشوا حين وجدوا حجمها يتضخم تضخماً كبيرا • وبعد أن تناولوا منها ما استطاعوا ناموا ، غير أنهم استيقظوا في صباح اليوم التالي على أمر عجيب ، اذ انتشر بينهم مرض يشبه التسمم أو الهيضة ، وصار الكثيرون منهم يموتون الواحد بعد الآخر •

جاء الاطباء الاتراك اليهم ليقولوا لهم انهم يجب أن ينقعوا القلاطة بالماء ثم يخبزوها من جديد قبل أكلها والا فهي تقتلهم • وهنا واجه الاسرى مشكلة اخرى وهي اين يجدون الوقود الذي يخبزون به القلاطة • وقد حاول الكثيرون منهم جمع الاشواك من هنا وهناك مما حولهم من الاراضي• أما الكسالى والضعفاء منهم ففضلوا أن يأكلوا القلاطة كما هيويموتوا •[٦٧]

كان عدد الاسرى البريطانيين ٢٨٧٠ رجلاً بينما كان عدد الهنود ١٠٤٤٠

---

(٦٦) تحسين العسكري (المصدر السابق) — ج ١ ص ١٣٢ •

(67) Russell Braddon (op. cit.) — p. 260—261.

رجلاً ، وكانت التقاليد البريطانية قـد جرت على التفـريق بين الهنـود والبريطانيين في الاسكان والجراية والمرتب ، ولكن الاتراك لم يراعوا تلـك التقاليد الطبقية بل حشروا الفريقين معاً ، وساووا بينهم ، مما جعل البريطانيين يعترضون ويحتجون • (٦٨)

اعتاد الاتراك أن يفرقوا في معاملة الاسـرى بين الضباط والجنود • ولهذا رأيناهم يعاملون الضباط الاسـرى ، بريطانيين أو هنودا ، معاملـة حسنة نسبياً ، فقد نقلوهم الى الاناضول بوسائل النقل المختلفة كالباخرة والقطار والعربة ، أو على ظهور الدواب ، وأنزلوهم فـي الاناضول فـي بيوت الارمن ، وخصصوا لهم جراية ومرتبات كافية ، ولم يقسروهم علـى أي عمل بل تركوهم يقضون اوقاتهم بالمطالعة أو اللعب كما يشتهون •

ولكن الاتراك فعلوا العكس من ذلك مع الجنود الاسـرى ، فقـد جعلوهم يمشون على أقدامهم طيلة الطريق بين الكوت والاناضول تحت وطأة القرابيج وكعوب البنادق ، وكان الطعام الذي يقدم لهم شحيحاً ، والمرضى منهم لا يعتنى بهم بل يتركون على جانب الطريق ليموتوا • وعند وصولهم الى الاناضول كلفوا بالعمل الشاق في تعبيد الطرق ومد السكك وحفـر الانفـــاق •

وكان أشد العذاب من نصيب الاسرى الذين سيقوا الى بلدة أفيون قره حصار ، فقد كان حاكم البلدة يتلذذ بالقسوة وذا ميول جنسية شـاذة وطماعاً الى أقصى حد • فكان يجمع الاسرى ويجلدهم لاقل سبب ، واذا اشتهى أحداً منهم أمر جلاوزته بحمله الى مقره حيث يلوط به قسراً • (٦٩) ويقال انه كان من رجال أنور باشا الذين كان يستخدمهم في اغتيال خصومه، وقد عينه أنور باشا حاكماً في هذه البلدة مكافأة له على خدماته السـابقة • وقـد أحيل هـذا الرجل الى المحكمة بعـد الحرب وحكم عليـه بأقصى العقوبـة • (٧٠)

---

(68) Sandes (op. cit.) — p. 285—287.

(69) Russell Braddon (op. cit.) — p. 304.

(70) Barker (op. cit.) — p. 295—296.

كانت نسبة الموت بين الجنود الاسرى عالية ، والملاحظ ان نسبة الموت كانت بين البريطانيين أعلى جداً مما كانت بين الهنود ، حيث مات ٧٠ بالمائة من البريطانيين بينما لم يمت من الهنود سوى ٢٧ بالمائة • ويعزى هذا الفرق الى ان الهنود لهم قدرة على تحمل العذاب اكثر من البريطانيين اذ هم نشأوا على المشقة والجوع منذ طفولتهم •

ومما يلفت النظر أن طونزند لم يكترث لما جرى على جنوده من العذاب وكأنه نسيهم ، فهو قد عاش في اسطنبول عيشة الامراء ، وأحاطه الاتراك بكل وسائل الترف ومظاهر التكريم ، وكثيراً ما كانوا يقيمون له الولائم التي يحضرها كبار رجال الدولة ، وكانوا يمدحونه وهو يرد عليهم بمدح أعظم •

أصبح طونزند من جراء ذلك موضع اللوم في نظر الانكليز ، وقيل عنه انه اهتم بنفسه وبكلبه أكثر من اهتمامه بجنوده ، حيث لم يسمع له صوت في الدفاع عنهم أو في لفت نظر الاتراك للتخفيف عنهم •

وعلى النقيض من ذلك كان موقف الجنرال مليس ، فقد كان هذا الرجل منذ بداية أسره يصرخ بالاتراك طالباً منهم العناية بالجنود ، وكان هو نفسه يعتني بمن يعثر عليه منهم أثناء الطريق • وكان الاتراك يحترمون مليس لما قام به من بطولة في معركة الشعيبة ، ولكنهم لم يتأثروا بصراخه من أجل الجنود الاسرى •

الفصل العاشر

فتـــرة الغـــرور

مرت بين تسليم الكوت وسقوط بغداد فترة أمدها عشرة أشـــهر تقريباً يمكن أن نسميها « فترة الغرور » لان الاتراك شعروا فيها بالغرور بعد النصر العظيم الذي نالوه في الكوت • ومما زاد في تأثير هذا النصر في نفوسهم أنه جاء عقب نصر أعظم منه هو الذي نالوه في الدردنيل ، فأصبحوا عند ذاك على ثقة تامة بأنهم قد اقتربوا من نهاية الحرب ، وان الغلبة ستكون لهم فيها • ولهذا وجدناهم يقومون بأعمال لـــم يكونوا يجرأون على القيام بها من قبل ، وصارت الضراوة ديدناً لهم كأنهـــم ظنوا أن الوقت قد حان للانتقام من خصومهم ومخالفيهم •

كان خليل باشا من أكثر الاتراك غروراً وفرحاً فـــي تلك الفترة ، فقد اجتمعت لديه عوامل مساعدة على الغرور لم تجتمع في أحد غيره : انه كان يومذاك في عنفوان شبابه وسيماً ، وقد حصل على لقب « الباشا » الذي يندر أن يحصل عليه رجل في مثل سنه ، كما صار الحاكم المطلق على العراق وجزء كبير من ايران علاوة على أن انتصار الكوت تم على يده • ويجب أن لا ننسى أيضاً أنه كان عم أنور باشا ، وتلك منقبة أخرى تضاف الى المناقب السابقة ، فمن هو مثله !

مشكلة الانسان الذي يحوز مثل هذه المناقب الباهرة أنه قد يسيطر عليه الغرور بحيث يتصور كأن الدنيا دانت كلها له ، وأن القدر أعـــده لتغيير مجرى التاريخ ، وقد يؤدي ذلك به الى الانغماس في الملـــذات ثقة منه أنه يستحق هذا التلذذ جزاء تعبه السابق وانتصاره العظيم •

هام خليل باشا بحب غانية مسيحية اسمها « فلم » ، والمعروف عن هذه الغانية انها كانت ذات جاذبية جنسية قوية وقد أوقعت في شراكها بعض ولاة بغداد السابقين وكبار رجالها ، وكان نجم الدين منلا بك الذي تولى حكم بغداد في عام ١٩٠٨ من جملة المتيمين بها • ولمـــا جـــاء خليـــل باشا الى بغداد وقع في شراكها أيضاً ، يقال انه كان يخلع القلبق الهمايوني

من على رأسه ويضعه على رأسها ، كما يعلق أوسمته على صدرها ، فترقص له بها وتغني ، وهو يقول لها : « أنا الحاكم المطلق على هذه البلاد وأنت الحاكمة عليّ » ‪.‬ (١)

قدوم الاسرى :

يعترف الانكليز أن استسلام حامية الكوت كان أبشع كارثة عسكرية حلت بهم منذ زمن طويل ، ولا يشبهها الا استسلام حامية سنغافورة في عام ١٩٤٢ ‪.‬ وقد حاول الانكليز التستر على تلك الكارثة في حينها فلم ينشروا عنها في صحفهم شيئاً ، غير أن خصومهم اتخذوها دعاية كبرى في أيديهم فطنطنوا لها ما شاؤوا ونشروا المبالغات حولها في أنحاء العالم ، وكان تقديم الرشوة ورفض أنور باشا لها من أهم النقاط التي ركز عليها الخصوم دعايتهم المضادة حيث أظهروا للعالم أنها دليل على أن ساعة بريطانيا قد دنت اذ هي لم تستطع أن تنقذ حامية الكوت بالسيف فحاولت انقاذها بالرشوة ، وان ما فعله أنور باشا عندما رفض الرشوة كان عملاً نبيلاً ‪.‬ (٢)

وكانت هذه الدعاية قد تركزت في بغداد بشكل خاص حيث انتشرت معالم الزينة والمهرجانات في كل مكان فيها ، ونظم الشعراء على عادتهم القصائد ابتهاجاً بتلك المناسبة ، فمدحوا الاتراك وذموا الانكليز ، وهم عبدالرحمن البناء ، عطا الخطيب ، كاظم آل نوح ، عبدالمطلب الحلي ، علي البناء ، محمد مهدي البصير ، جميل صدقي الزهاوي ، محمد علي اليعقوبي ، وغيرهم ‪.‬ (٣)

الواقع أن العامة في بغداد لم يصدقوا بخبر النصر في أول الامر ،

---

(١) علمت عند كتابة هذه السطور ان فلم لا تزال حية ، فذهبت أبحث عنها فلم أوفق ‪.‬ وقد حدثني من شاهدها منذ عهد قريب فقال انها عجوز عمياء أو هي على وشك العمى وكانت قبيل ذلك تمتهن القيادة لتعيش‪.‬ فسبحان الذي يغير ولا يتغير !

(2) Arnold Wilson (Loyalties) — London 1936 — vol. 1, p. 98.

(٣) يوسف عزالدين (الشعر العراقي الحديث) ــ بغداد ١٩٦٠ ــ ص ٩٨‑١٠٣ ‪.‬

واعتبروه من جملة الاكاذيب والمبالغات التي اعتادت الحكومة عليها في بياناتها الرسمية سابقاً ، غير أنهم بدأوا يغيرون رأيهم عندما شاهدوا قوافل الاسرى تصل الى بغداد تدريجاً ، فصاروا يتساءلون مدهوشين وهم بين مصدق ومكذب ، ثم أيقنوا أخيراً ان خبر النصر صحيح وأن الاتراك غلبوا الانكليز حقاً .

كان الجنرال طوتزند أول من وصل من الاسرى الى بغداد حيث تم نقله في زورق بخاري سريع ، وكانت معه حاشية فيها خادمه الهندي « بوغيز » وطباخ برتغالي ومرافقين عسكريين ، فأنزل مع حاشيته في دار القنصلية الايطالية التي تقع على النهر قرب الباب الشرقي . وقد أقام له خليل باشا مادبة عشاء لتكريمه ، وبقي المدعوون بعد تناول الطعام حتى ساعة متأخرة من الليل يستمعون الى حديث طوتزند وهو يشرح لهم نظرياته في خطط نابليون العسكرية . (٤)

وفي ٩ أيار وصلت الباخرة « برهانية » وهي تحمل عددا من الضباط الاسرى ، وكان معهم الجنرال ديلامين ، فأنزل الجنرال في دار القنصلية الايطالية مع طوتزند ، بينما سيق الضباط من خلال الاسواق الى باب المعظم حيث أنزلوا في ثكنة الخيالة التي تقع على بعد مسافة قصيرة خارج الباب .

وظلت الباخرة « برهانية » تذهب وتعود لنقل بقية الضباط ، وكان من بينهم الجنرال مليس فأنزل مع زميليه ديلامين وطوتزند في دار القنصلية الايطالية ، بينما أنزل الضباط الكبار الذين هم دونه في الرتبة في فندق بابل . أما الضباط الصغار فقد سيقوا كزملائهم السابقين الى ثكنة الخيالة .

يقول طالب مشتاق في مذكراته ، وكان يومذاك تلميذاً في المدرسة الاعدادية ببغداد ، انه تمكن من الصعود الى الباخرة لمشاهدة الاسرى ، واقترب من أحدهم وكان هزيل الجسم منهوكاً خائر القوى يعرف بعض الكلمات العربية فأخذ يصف ما حل بهم في الكوت حيث قال : « الانكليز

---

(4) Barker (The Neglected War) — London 1967 — p. 282.

دم دم آكو لكن خبز ماكو » • يقصد بذلك ان الانكليز كانوا أقويـاء بسلاحهم ومدفعيتهم ولكن الجوع هو الذي اضطرهم الى الاستسلام.[٥]

وفي ١٤ أيار نادى منادي الحكومة في شوارع بغـداد يعلن عن قرب وصول أفواج الاسرى من الجنود وأن على الاهالي أن يخرجوا الى نواحي باب الطلسم والشيخ عمر للتفرج عليهم • وقـد وصل الاسرى بعد قليل وهم في صفوف طويلة جداً تملأ النظر ، ولكنهم في حالة يرثى لها لانهم قطعوا الطريق كله ما بين الكوت وبغداد مشـياً على الاقدام • فسيقوا من خلال أسواق بغداد المسقوفة ، فكان بعض المتفرجين يبصق عليهم ، ومنهم من كان يسبهم ويسب الصليب معهم ، حتى وصلوا الى الجسر فعبروه الى جانب الكرخ حيث احتجزوا في موضع هناك محاط بالاسلاك الشائكة قرب محطة القطار •

أخذ بعض البغداديين يذهبون الى موضع احتجاز الاسـرى فـي جانب الكرخ وهم يحملون معهم أرغفة الخبز والصمون والبيض والتمر والخيار ، وصاروا يقدمون للاسرى عبر الاسلاك مالديهم مـن أطعمـة مقابل ما لدى الاسرى من نقود أو ساعات يدوية أو أحذية أو معـاطف أو غيرها • فكان بعض الاسرى يضحون بكل شيء يملكونه مـن أجـل خيارة واحدة أو بضع تمرات • وقـد جنى بعض النـاس من هـذه المقايضات أرباحاً غير قليلة •

وفي ١٦ أيار صدرت جريدة « صدى الاسلام » وهي تشـير الى وصول قافلة كبيرة من الاسرى وتذكر المعاملة «الكريمة» التي عوملوا بها ، فقالت في ذلك ما نصه : « غير خفي أن العثمانيين قد قاموا بما فطروا عليه من الاخلاق العالية والفضائل السامية تجاه الاسرى الانكليز ، فقد أكرموهم غاية الاكرام واتخذوا لهم جميع معدات الراحة واعتبروهم كضيوف كما هي عادة الامة العثمانية في الاحسان الى مـن أسـاء اليها ••• ان الضباط كانوا يظهرون اعجابهم من هذه الخصال الحميدة التي اتصف بها العثمانيون وكانت تعلو امارات الخجل والفشل على جباه الكثيرين

---

(٥) طالب مشتاق (اوراق أيامي) — بيروت ١٩٦٨ — ج ١ ص ١٥ •

منهم تجاه ما يرونه من الاحسان واللطف التي امتازت به أمتنا الكريسة » . (٦)

أنور باشا في بغداد :

في الساعة الثامنة من صباح الجمعة ١٩ أيار ١٩١٦ وصل بغداد بقطار خاص وزير الحربية أنور باشا ، وقد جرى له في المحطة استقبال فخم جدا حضره خليل باشا والقواد وكبار الموظفين وأعيان بغداد وعلماؤها ، كما حضره ألوف الاهالي ، وكان تلاميذ المدارس ينشدون الاناشيد الحماسية . وقد أعدت لانور باشا على شاطىء النهر باخرة أقلته مع كبار مستقبليه الى جانب الرصافة حيث نزل في دار الولاية المطلة على النهر .

ومن الجدير بالذكر أن الضابط العراقي تحسين العسكري كان من جملة الذين استقبلوا أنور باشا في محطة القطار ، وكان هذا الضابط يأمل أن ينال من أنور باشا التفاتاً خاصاً بسبب المعرفة الشخصية التي كانت بينهما لانهما قضيا معاً سنة كاملة في حرب طرابلس الغرب عام ١٩١١ ، ولكن انور باشا خيب ظنه فلم يهتم به ولم يعره أي التفات ، ويعلق تحسين العسكري في مذكراته على ذلك قائلاً :

« كان الخليق به أن يتذكر تلك العهود والصداقة وأن يلاطفني ولو بألفاظ ناشفة ولكن الكبرياء والغطرسة قد وصلت بهؤلاء المخاليق الى درجة أصبحوا معها لا يلتفتون الى الاتعاظ بتقلبات الدهر وصروف الغير، على أنه لم يمض على هؤلاء زمن طويل حتى شاهدنا مصارعهم ونالوا ما كانوا يستحقون » . (٧)

ادى أنور باشا صلاة الجمعة ظهر ذلك اليوم في جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، ثم أهدى للجامع مصحفاً غلافه من الذهب المرصع بالجوهر . وفي الساعة الثالثة من بعد الظهر جلس أنور باشا في دار

---

(٦) جريدة « صدى الاسلام » — في عددها الصادر في ١٣ رجب ١٣٣٤ هـ .

(٧) تحسين العسكري (الثورة العربية الكبرى) — بغداد ١٩٣٦ — ج ١ ص ١٣٥ .

الولاية لاستقبال أعيان بغـداد ورؤسائها الروحانيين والقناصل . وأثنى أثناء ذلك على غيرة أهل بغداد وحميتهم ووطنيتهم . وفي الساعة الرابعة ركب باخرة لزيارة الاعظمية والكاظمية ، وأهدى لكل من الجامعين فيهما مصحفاً كالمصحف الذي اهـداه الى جـامع عبدالقادر ، كمـا أرسـل هدايا ثمينة الى كربلا والنجف .[٨]

لم يبق أنور باشا في بغداد سوى سـتة أيام كـانت مشـحونة بالزيارات والمقـابلات والجولات التفتيشية . ففي ٢١ أيار زار جبهـة الكوت ومكث في الجبهة حتى المساء حيث منح أوسـمة الى أعـلام الكراديس وأمر باتخاذ بعض الاجراءات ثم قفل عائداً الى بغـداد . وفي ٢٤ أيار زار جبهة خانقين وخطب في الضباط هناك فشكرهم على أعمالهم وحثهم على التضحية في سبيل انهاء حرب ايران ، ثم عاد الى بغداد .[٩]

وقد انتهز الشعراء الفرصة فنظموا القصائد «العصماء» في الترحيب بأنور باشا والتغني بمناقبه ومناقب الاتراك ، وذكر مثالب الانكليز ، وقد نشروا قصائدهم هذه في جريدة « صدى الاسلام » كان منها قصيـدة عبدالرحمن البناء التي كان مطلعها :

أنار حمى بغداد منذ جاء أنور   بوجه من الاقمار أبهى وأنور[١٠]

وكانت قصيدة جميل صدقي الزهاوي طويلة بمائة بيت ولم تتمكن الجريدة من نشرها الا في اعداد متتالية ، وهذه بعض أبياتها :

أأنور أنت اليـوم درع لامـة   يحاربها ثلثـا الانـام واكثـر
وانك سيف الله يمحو به العدى   ويخذلهم حتـى يموت التجبر
قدمت على رحب لبغـداد انها   لفضلك في هذى الزيارة تشكر
ليهنك ان الفوز فيالكوتشامل   وان فريق البغي أصبح يؤسـر
وما هـذه في الدهر أول مرة   رأى الحق فيها الانكليز فأنكروا

---

(٨) جريدة « صدى الاسلام » ـ في عددها الصادر في ١٩ رجب ١٣٣٤هـ.

(٩) محمد امين العمري (تاريخ حـرب العراق) ـ بغـداد ١٩٣٥ ـ ج ١ ص ١٥٨ ـ ٢٠٠ .

(١٠) جريدة « صدى الاسلام » في عددها الصادر في ١٩ رجب ١٣٣٤ هـ .

بغوا مرة بعــد أخــرى فنالهم   أذى البغي والتاريخ أمــر مكرر

وكان أنور باشا أثناء مكوثه في بغداد قد استعرض الاسرى ، فقدم له بعضهم عرائض يشكون فيها من الجوع والعذاب ، ويقال انه أمر بالترفيه عنهم . وعندما وصل أنور باشا الى الموصل في طريق عودته الى اسطنبول وجد هناك قافلة من أسرى الضباط ، وكانوا آنذاك قد حشروا في ســاحة احدى الثكنات استعدادا لنقلهم الى الاناضول ، فأشرف عليهم أنور باشــا من الطابق الثاني وأخذ يخطب فيهم بالفرنسية قائلا : انه معجب كل الاعجاب بالضباط الانكليز ، وأنهم ماداموا في أيــدي الاتراك سيعاملون كضيوف مكرمين لدى الدولة العثمانية . ثم أضاف الى ذلك قائلاً انه قد تأســف عندما سمع بأن سيوفهم أخذت منهم ، وأنه سيتخذ الاجراءات الكفيلــة باعادتها اليهم . (١١)

الفتنة في كربلا :

في ٢١ نيسان ١٩١٦ ــ أي قبل استسلام الكوت بثمانية أيام ــ حدثت مشاجرة في كربلا بين الشيخ فخري كمونة وعلي أفندي آمر الدرك أدت الى نشوب فتنة عارمة هلك فيها الكثيرون من الاهالي وجنود الحكومة .

كان سبب المشاجرة ان فريقا من اتباع فخري تجمهروا أمام ســراي الحكومة وأخذوا يطلقون النار في الهواء ، فطلب آمر الدرك من فخــري منعهم وأخذ أسلحتهم فلم يفعل وخرج من السراي ، فأمر آمر الدرك جنوده باطلاق النار عليه ، فرد عليهم اتباع فخري بالمثل ، وسقط على أثر ذلــك من الفريقين ثلاثون قتيلاً أو اكثر ، وساد الرعب في كربلا وانقطع الطريق بينها وبين النجف .

لم يكن في كربلا يومذاك سوى مائة دركي ، فأرسلت الحكومة اليها من بغداد ثمانين جنديا مجهزين بالقنابل اليدوية ، ثم أمدتهم بمفرزة مــن الجنود كانوا حينذاك في طريقهم الى الديوانية بقيادة الضابط ابراهيم حقي بك ، وبذلك تجمع لدى المتصرف في كربلا زهاء ثلاثمائة جنــدي مــع

---

(11) Barker (op. cit.) — p. 299.

مدفعين . (١٢)

أرسل الشيخ فخري الى العشائر المجاورة يستنجد بها لمعاونته على حرب الحكومة ،فأنجدته العشائر بعدد كبير من الرجال ، كما جاء اليه من النجف الحاج عطية أبو قلل ومعه نفر من اتباعه المسلحين . واستطاع فخري بما تجمع لديه من أتباع وأعوان أن يحاصر سراي الحكومة ومخافر الشرطة ، ومنع الباعة من بيع الاطعمة للجنود كما منع سقائي الحكومة من أخذ الماء من نهر الحسينية .

وفي ٩ أيار أرسل المتصرف الى فخري انذارا بوجوب الطاعة أمده ثماني وأربعون ساعة . وفي عصر اليوم التالي — أي قبل ان تنتهي مدة الانذار — أطلق الكربلائيون النار على الجنود ، فرد الجنود عليهم باطلاق المدافع .

كان الجنود قد تحصنوا في القسم الشرقي من البلدة ، بينما كان الاهالي متمركزين في القسم الغربي منها . وفي صباح ١١ أيار هجم الجنود على الدور التي تحصن فيها الاهالي ، فنشبت معركة شديدة في الازقة وشبت النار في بعض الدور بسبب ذلك . وتمكن الجنود أن يحتلوا دار فخري كمونة فلم يجدوا فيها سوى ختمه وبطاقة تشير الى انتمائه الى جمعية الاتحاد والترقي . (١٣)

كان الشيخ فخري قد أرسل الى اخواله آل مسعود القاطنين في جنوب المسيب يطلب منهم احداث كسرة في سدود الفرات ، ففعل هؤلاء ما طلبه منهم ، وانحدر الماء من الفرات وكان فائضاً نحو كربلا ، وفي ١٢ أيار دخل الماء الى البلدة فغمر القسم الشرقي منها وهو القسم الذي تحصن فيه الجنود، وصار هؤلاء بين عدوين : الاهالي من جانب والفيضان من الجانب الآخر.

وكان يوم ١٤ أيار يوماً عصيباً على الجنود اذ اصبحوا مطوقين والرصاص ينهمر عليهم من المنائر وشبابيك الدور وشرفات السور ، فسقط منهم ضابطان جريحان وثلاثة جنود قتلى واربعة جرحى . وغمرت مياه

---

(١٢) محمد أمين العمري (المصدر السابق) — ج ١ ص ٢٤٧ .

(١٣) المصدر السابق — ج ١ ص ٢٤٧ .

الفيضان جميع البلدة ماعدا المنطقة القديمة منها وهي المنطقة التي تمركز فيها الاهالي ، ولم يكن في مقدور الجنود ادخال المدافع والعجلات فيها لضيق أزقتها . واضطر الجنود أخيراً الى الانسحاب من كربلا بعد أن حملوا معهم موظفي الحكومة ودفاترها وأوراقها . (١٤)

وشاع في كربلا يومذاك ان العباس عليه السلام هو الذي هزم الجنود بسيفه ، وقال بعض الناس انهم شاهدوا العباس راكبا فرسه وهو يطارد الجنود ، وهم يفرون من أمامه مذعورين ويصرخون : «امام عباس كلدى»!

ان هذا النصر الذي ناله الكربلائيون قد بعث فيهم الفخر والفرح بلا شك ، غير أنه كان فرحاً لم يدم طويلاً ، وسرعان ما أدرك الكربلائيون أن محاربتهم الحكومة جاءت في وقت غير مناسب ، وان الحكومة لابد أن تنتقم منهم بعد الانتصار العظيم الذي نالته في الكوت .

ذهب الشيخ محمد علي كمونة الى النجف ليرجو من السيد كاظم اليزدي التوسط في الصلح مع الحكومة ، والظاهر ان النجفيين كانوا قد شعروا حينئذٍ بالخوف من الحكومة أيضا فكلموا اليزدي في ذلك ، فأبرق اليزدي الى أنور باشا الذي كان قد وصل بغداد آنذاك يتشفع عنده لأهل كربلا والنجف ، فأجابه أنور باشا ببرقية هذا نصها :

« مخرجي قوناغ . ادارة تلغراف الحلة ترسله الى سيد محمد كاظم الطباطبائي . نجيبكم عن تلغرافكم المرسل الينا بأن أهالي النجف وكربلا خرجوا على الحكومة وأنهم عاملين مخالفة لرضاء الله ورسوله ، ونظراً لحرصنا على الحالة الاسلامية وحقن الدماء واحترامنا للمجاهدين وعلماء الدين ورأفة الحكومة بفقراء المحلين وشفقتنا عليهم صدر أمرنا لدولة والي الولاية وقائد جيشها بتمام الرفق عند التعقيب وترتيب المجازاة ـ التوقيع : صهر السلطنة ووكيل الخليفة الاعظم في قيادة الجيوش الاسلامية ناظر الحربية أنور » .

ويقال ان أنور باشا عندما اجتمع بالسيد مهدي الحيدري في الكاظمية رجا السيد منه أن يسعى نحو اطفاء الفتنة في كربلا بالطرق السلمية دون

---

(١٤) المصدر السابق ـ ج ١ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ .

اللجوء الى القوة العسكرية ، فاستجاب انور باشا لرجائه . واستقر الرأي أخيراً أن يترأس السيد مهدي الحيدري وفدا للذهاب الى كربلا ورتق الفتق فيها .

تألف الوفد بالاضافة الى رئيسه السيد مهدي من ثلاثة من أولاده هم السيد عبدالحميد والسيد أحمد والسيد راضي ، مع الشيخ عبدالكريم الجزائري ، والمرزا محمد رضا الشيرازي ، والشيخ عبدالحميد الكليدار ، واثنين من رجال الحكومة هما حلمي بك وحامد أفندي . فسافروا الى كربلا بالعربات ، فوصلوها في ٣٠ أيار ، وقد خرج أهل كربلا لاستقبالهم ، وقيل ان النساء كن اثناء الاستقبال يتصارخن ويلطمن على رؤوسهن اشعارا بالندم على ما فات وطلباً للغفران . واتفق ان وصول الوفد كان في يوم الاحتفال بذكرى مبعث الرسول في ٢٧ رجب ، فقال أحد الكربلائيين يخاطب السيد مهدي : « كما أن الله قد بعث جدك الاعظم (ص) في هذا اليوم رحمة للعالمين ، فقد بعثك اليوم رحمة لنا » . (١٥)

اجتمع الوفد برؤساء كربلا ، فأظهر هؤلاء الطاعة التامة وقالوا انهم ينتظرون عودة حكومتهم غير مشترطين شرطاً ، واعتذروا عما فات بأن سببه المتصرف حمزة بك والقائد علي افندي ونعمان افندي الاعظمي ، وقالوا انهم يخشون أن يسمم هؤلاء أفكار الحكومة عنهم، فطمأنهم حلمي بك قائلاً ان الوفد سيبقى في كربلا حتى وصول الهيئة الجديدة من الموظفين الى كربلا . (١٦)

عينت الحكومة متصرفاً جديداً اسمه أسعد رؤوف بك ، وقد وصل هذا المتصرف الى كربلا مع موظفيه في شهر تموز . وسارت الامور في كربلا منذ ذلك الحين سيراً اعتيادياً هادئاً ، الى أن وصلت الاخبار بسقوط بغداد في ١١ آذار ١٩١٧ فعادت الفوضى عند ذاك الى كربلا من جديد — كما سنأتي اليه في الفصل القادم .

---

(١٥) احمد الحسيني (الامام الثائر) — النجف ١٣٨٦ هـ — ص ٦١ .
(١٦) نقلا عن مذكرات الشبيبي المخطوطة .

الفتوح في ايران :

في الوقت الذي كانت فيه الحكومة مشغولة بقضية كربلا على النحو الذي ذكرناه كان الروس يهددون حدود العراق من نقطتين ، فقد كان هناك جحفل روسي بقيادة الجنرال باراتوف قد وصل الى مقربة من خانقين ، وكان هناك جحفل روسي آخر بقيادة الجنرال جرنازوبوف يزحف نحو العــراق من جهة رايات في الشمال وقد تغلغل داخل الحدود العراقية فاحتل راوندوز في ١٣ أيار ١٩١٦ ٠

حين وصل أنور باشا الى بغداد كان أهم ما يشغل باله هو هذا التهديد الروسي للعراق ٠ وفي صباح ٢٥ أيار انعقــد في بغــداد مؤتمر عسكري حضره أنور باشا وخليل باشا وعلي احسان بك وقائد ألماني اسمه فــون لوسوف ٠ وقد انتهى المؤتمر الى وضع خطة عرفت باسم « أنور ــ فــون لوسوف » ، وهي تتضمن الامور التالية :

اولاً : يتقدم الفيلق الثالث عشر بقيادة علي احسان بك لمحاربة الجنرال باراتوف والزحف باتجاه كرمانشاه وهمدان وقزوين ٠

ثانياً : يتقدم جحفل السليمانية المؤلف من لواء مشاة وفوجي حــدود في داخل ايران باتجاه سنه ٠

ثالثاً : يتقدم جحفل الموصل المؤلف من الفرقة الرابعة لاستعادة راوندوز من الروس والزحف باتجاه بلدة صاوجبلاق ــ التي تعــرف الآن باســم « مهاباد » ــ ثم أورميه وتبريز وخوي ٠

ان القسم الاول من الخطة كان أهم ما فيها وهو الذي يتعلق بتقــدم الفيلق الثالث عشر نحو كرمانشاه بقيادة علي احسان بك ٠ وكان هذا الفيلق مؤلفاً من فرقتين ولواء خيالة ، وكان معظم جنوده قد جيء بهم من جبهــة الكوت حيث ظنت القيادة التركية أن هذه الجبهة ستكون هادئة خلال اشهر الصيف الحــارة وان الجنود ينبغي أن يرسلوا الى جبهــة أخــرى أكثــر نشــاطاً منهــا ٠

وفي الساعة الرابعة من صباح ٣ حزيران ١٩١٦ نشبت معركة ضاريــة بين القوات التركية والروسية بالقرب من خانقين وفي بساتينها ، وقد أدار علي احسان بك المعركة ببراعة ٠ وفي الساعة السابعة من مساء ذلك اليــوم

تم النصر للاتراك وانسحب الروس مهزومين ، ولكن القوات التركية لم تتمكن من استثمار النصر الذي أحرزته لعدم استعدادها للتقدم . (١٧)

وأخذت القوات التركية بعد هذا تتوغل في داخل ايران وتحرز الانتصارات الواحد بعد الآخر وقد ساعدها على ذلك تفوقها في المدافع اذ كان لديها أضعاف ما لدى الروس منها . أضف الى ذلك ان الخيالة الروس الذين كانوا من القوزاق المتعودين على البرد لم يستطيعوا تحمل حر الصيف ، وكانت ملابسهم شتائية ثقيلة فانتشرت بينهم الامراض وفقدوا كثيرا من خيولهم . (١٨)

ومما يلفت النظر ان العشائر في تلك المنطقة أخذت تنضم الى القوات التركية على أثر كل انتصار تناله تلك القوات ، وهي تقول انها جاءت للجهاد في سبيل الله . وعند هذا أصدر علي أحسان بك أمره بتعيين الضابط ضياء بك قائداً للعشائر العراقية ، والحاج عارف بك قائدا للعشائر الايرانية. وفي ٢٦ حزيران بلغ عدد المجاهدين من العشائر الايرانية نحو ١٥٠٠ راجل و ١٢٥٠ خيال ، وكانوا برئاسة السردار ناصر خان والسردار رشيد والامير أسعد . (١٩)

تم احتلال كرمانشاه في ٣٠ حزيران ، وهمدان في ١٠ آب . وقد استقبل أهل همدان القوات التركية بفرح عظيم وذبحوا لها الذبائح.(٢٠) وعندما وصلت أخبار هذه الانتصارات التركية الى العاصمة طهران سيطر الرعب على الجالية البريطانية فيها وظنوا أن طهران على وشك السقوط في أيدي الاتراك ، واستعدت المفوضية البريطانية في طهران للرحيل عنها ، غير أنها لم ترحل بل اكتفت بارسال النساء الى بلدة « أنزلي » الواقعة

---

(١٧) شكري محمود نديم (الجيش الروسي فيحرب العراق) — بغداد١٩٦٧ — ص ٢٤ — ٣٠ .

(18) Percy Sykes (A History of Persia) - London 1958 - vol. 2, p. 451—452.

(١٩) محمد امين العمري (المصدر السابق) — ج ١ ص ٢٠٩—٢١٥ .

(٢٠) المصدر السابق — ج ١ ص ٢٣٠ .

على بحر الخزر . (٢١)

وبينما كان الفيلق الثالث عشر يحرز تلك الانتصارات الباهرة كان جحفلا السليمانية والموصل في الشمال يعانيان المشاق دون أن يحرزا أي تقدم يذكر . ويعزى بعض السبب في ذلك الى ان هذين الجحفلين كان اعتمادهما في الغالب على العشائر وكان الجنود النظاميون فيهما قليلين نسبياً، وقد أثبتت الوقائع أن العشائر أقرب الى الطبيعة الغوغائية منهم الى النظام العسكري ، فهم يتحمسون للقتال عندما ينتصر الجيش الذي يحاربون معه، غير أنهم لا يكادون يلمحون أقل بادرة تدل على انكساره حتى يتفرقوا عنه ويعود كل فريق منهم الى موطنه متذرعين بشتى المعاذير والحجج .

ولابد لنا في هذه المناسبة من الاشارة الى الكارثة التي حلت بجحفل الموصل ، فقد كان خليل باشا يلح على هذا الجحفل بأن يزحف عبر الحدود باتجاه صاوجبلاق ، وكان قائد الفيلق غير موافق على هذا الزحف لما كان جنوده يعانونه من نقص في المؤون والمعدات . ففي ١٣ آب كتب هذا القائد يقول : انه في أشد الحاجة الى عتاد وحيوانات ، والى أحذية ومسامير، والى أدوية وضمادات ، والى دراهم ، وانه سبق أن طلب هذه الحاجات الضرورية عدة مرات ولم يصل منها شيء ، ولكنه على أي حال سيبدأ بالزحف غدا وأمره الى الله . وقد زحف الجحفل فعلاً في اليوم المعين ، فاستدرجه الروس الى داخل ايران ، وفي ٢٢ آب شنوا عليه هجوماً شديدا فقطعوا عليه خط الرجعة وأبادوه عن بكرة أبيه . (٢٢)

اوج الغرور :

ان خطة « أنور ـ فون لوسوف » التي أشرنا اليها آنفاً لم تكن من الناحية السوقية صحيحة على الرغم من بريق النصر فيها ، وقد انتقدها الخبراء العسكريون بشدة واعتبروها خطة يغلب عليها التفاؤل المفرط والخيال العاطفي .، فلقد كان الواجب على أنور باشا ومستشاريه أن يركزوا

---

(21) Percy Sykes (op. cit.) — vol. 2, p. 451—452.

(٢٢) شكري محمود نديم (المصدر السابق) ـ ص ٧٧ـ٧٨ .

اهتمامهم في الدرجة الاولى على ازاحة الخطر الانكليزي الجاثم في جنوب العراق ، والذي كان يهدده في كل لحظة ، قبل أن يفكروا بالفتوح والامجاد العسكرية في جبهة ايران التي تعد ذات أهمية ثانوية بالنسبة الى جبهة العراق •

يقول الناقد العسكري محمد أمين العمري : ان خطة « أنور — فون لوسوف » خطة وطنية شعرية تجعل الشبان القابضين على زمام الامور في تركيا يتخيلون أن تكون ايران وافغانستان جسرا لهم يوصلهم الى بلاد طوران — أي تركستان بلاد جدهم الاكبر جنكيز خان — ومن هناك ينحدرون نحو الهند لتهديد الامبراطورية البريطانية منها • لقد كانت تلك آمالاً أشعبية اذ يحتاج تحقيقها الى أموال وجيوش لم تكن متوفرة لدى الاتراك يومذاك • ويقول العمري ان دفع الفيلق الثالث عشر الى همدان ضرب من الجنون لا مبرر له من الوجهة السوقية، فان ابتعاد هذا الفيلق عن مركزه في دجلة بما يقارب ثلاثين مرحلة يجعله لا يستفاد منه للدفاع عن العراق ، وكان في نية أنور باشا دفع هذا الفيلق الى قزوين وطهران غير أن الاعتراضات الشديدة التي وجهها قائد الفيلق علي احسان بك من حيث أمور الاعاشة والملابس أرغمت أنور باشا على الموافقة على التوقف في همدان ، أما الخطر الروسي الذي كان يهدد بغداد في شهر أيار ١٩١٦ فكان من الممكن دفعه الى ما وراء ممر بايطاق وابقاء قوة ضئيلة من الفيلق هناك للدفاع عنه ، ثم اعادة بقية الفيلق الى جبهة دجلة للدفاع عنها تجاه الخطر الانكليزي المتوقع • (٢٣)

وعلى أي حال فقد كان علي احسان بك يرسل من مقره في همدان الى خليل باشا في بغداد برقية وراء أخرى يشكو فيها من قلة العتاد والمواد الغذائية لقواته ويبدي رغبته في التوقف عند الحد الذي وصل اليه فلا يتقدم أبعد منه وذلك لابتعاده عن مركز الجيش في بغداد وطول خطوط مواصلاته• ولهذا قرر خليل باشا الذهاب بنفسه الى همدان لدراسة الموقف العسكري فيها •

---

(٢٣) محمد امين العمري (المصدر السابق) — ج ١ ص ٢٤١–٢٤٣ •

غادر خليل باشا بغداد مع حاشيته في تشرين الثاني ١٩١٦ ، وحين وصلوا الى كرمانشاه نزلوا في ضيافة حاكم المنطقة ، وأقام لهم نظام السلطنة مأدبة فاخرة حضرها أعيان البلدة وأحد أمراء الافغان ، فألقى فيها خليل باشا ونظام السلطنة والامير الافغاني خطباً رنانة أعربوا فيها عن وجوب تساند ايران والدولة العثمانية وجميع الشعوب الاسلامية في حرب الكفار حتى الفوز النهائي . وبعد ثلاثة ايام غادر خليل باشا وحاشيته كرمانشاه متجهين الى همدان ، وحين وصلوها نزلوا في ضيافة القائد علي احسان بك وكان يسكن قصرا بديعا . وقد أقام لهم هذا القائد مأدبة فاخرة حضرها بعض كبراء ايران ، ووقف خليل باشا يخطب فيهم حيث قال : انه جاء الى همدان لكي يرجو من علي احسان بك بأن يتوقف في مكانه فلا يستمر في زحفه حتى يتضح الموقف في جبهة رومانيا . ثم أعلن خليل باشا عن ثقته التامة بأن النصر النهائي سيكون للدولة العثمانية وحلفائها وبذلك سينفتح الطريق نحو افغانستان وبلاد طوران .

وفي اليوم التالي تحرك خليل باشا وحاشيته نحو بغداد . يقول محمد أمين العمري وكان من جملة الحاشية : انهم بعد أيام قضوها في الانس والطرب بدار حاكم كرمانشاه عادوا الى بغداد في أواخر تشرين الثاني ، وقد وجدوا في بغداد عدة تقارير عسكرية تؤيد ما كان الطيارون الالمان قد اكتشفوه منذ شهر ايلول عن الاستعدادات العظيمة التي كان الانكليز يعدونها للهجوم في جبهة الكوت ، ولكن قائدنا الهمام خليل باشا ما زال منغمساً في سكره وطربه ولم يهتم بأمر الهجوم الانكليزي المتوقع ، كما لم يهتم بوجوب اعداد خطة الرجعة لجيشه . (٢٤)

عاد خليل باشا الى معشوقته فلم ، وربما ازداد لها عشقاً بعد انتصار قواته في ايران . وصارت قصته مع فلم تنتشر بين العامة على منوال ما حدث لقصة ناظم باشا مع سارة خاتون ، حيث أخذ الناس يتحدثون عنها في المقاهي والدواوين ويحوكون حولها الاساطير والمبالغات،

---

(٢٤) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) ـ بغداد ١٩٢٥ ـ ج ١ ص ١١٧ ـ ١١٩ .

واتهمها بعضهم بأنها جاسوسة تسترق الاسرار العسكرية من خليل باشا وتبعثها الى الانكليز سرا • وكان النصارى من أهل بغداد يحبونها لانها أنقذت الكثيرين منهم من بطش الحكومة • وحدثني رجل كان في تلك الايام جندياً ينقل الرسائل الى خليل باشا : انه شاهده في اليوم الذي سبق سقوط بغداد وكانت بين يديه فلم ترقص له وتغني الاغنية التي كانت شائعة بين الناس في تلك الايام :

ظلام زوجوني هلسي   بالنوط والوعدة سنة

بين العرب والاتراك :

عندما اندلعت الثورة العربية في الحجاز في ١٠ حزيران ١٩١٦ لم يعلم بخبرها في العراق الا نفر محدود من الناس ، فقد كان الانكليز والاتراك معاً يميلون الى تقليل الحديث عنها استصغارا لشأنها وكراهية لها •

كان للثورة العربية صدى سيء بين المسؤولين البريطانيين في الهند والعراق ، وتمنوا اخفاقها • وقال شلمسفورد نائب الملك في الهند : ان الثورة العربية سوف تثير حنقاً لدى المسلمين في الهند لانهم سوف يعتبرونها دسيسة بريطانية ضد الخلافة الاسلامية ، وهذا يؤثر تأثيراً سيئاً على معنوية الهنود المجندين في الجيوش البريطانية • (٢٥)

أما الاتراك فقد هزتهم الثورة وتألموا منها تألماً عميقاً ، غير أنهم كانوا يستهينون بها ويستصغرون شأنها أمام الناس ، ويزعمون أنهم سيقضون عليها قريباً لتفاهتها • وأخذوا يبثون الدعاية السيئة حول الشريف حسين فجعلوه عميلاً بريطانيا خان أمته وضرب الخلافة الاسلامية من الخلف لقاء دراهم معدودة •

يمكن القول ان الثورة العربية كانت عاملاً اضافيا في زيادة العداء الذي كان قائماً بين العرب والاتراك في العراق • يقول كامل الجادرجي في مذكراته : انه لمس بعض الاتراك للعرب لمساً واقعيا على أثر اندلاع الثورة العربية في الحجاز ، فقد كان في بغداد حينذاك طبيب تركي اسمه فاضل

---

(25) Philip Graves (Sir Percy Cox) — London — p. 205.

بك يلقي المحاضرات على الدورة الصحية التي كان الجادرجي مجندا فيها ، وكان هذا الطبيب يكره العرب كرهاً شديداً وقد بلغت الكراهية به بحيث انه كان كثيرا ما يشذ عن الموضوع في محاضراته لينهال على العرب سباً وشتماً ويتوعدهم بحساب عسير عندما تضع الحرب أوزارها • (٢٦)

أصبحت عبارة « عرب خيانت » على كل لسان في تلك الايام ، واعتبرها الاتراك كأنها حقيقة واضحة لا شك فيها ، وظلوا يرددونها بعد انتهاء الحرب بمدة طويلة • ومن طريف ما يحكى في هذا الشأن ان الوزارة النقيبية الاولى، التي تشكلت في العراق بعد الحرب ، كان من بين أعضائها رجل من بقايا العهد التركي اسمه عزت باشا الكركوكلي ، ولما تداول مجلس الوزراء أمر الضباط العراقيين الذين اشتركوا في الثورة العربية من أجل اعادتهم الى العراق واعتبار عملهم في الثورة خدمة تقاعدية انبرى عزت باشا فتساءل قائلاً : «ألا يكفي أنهم تخلصوا من المشانق حتى نمنحهم هذا الوسام لقاء خيانتهم » • (٢٧) انه يعتبر الاشتراك في الثورة العربية خيانة ، فتأمل !

ومن الجدير بالذكر ان الكثير من الناس ظلوا بعد الحرب يعتقدون ان الثورة العربية كانت السبب الاكبر في زوال الدولة العثمانية حيث كانوا يقولون : « هذه نتيجة الثورة على الدولة العثمانية ، لو لم تقم الثورة لما أتى الاحتلال » • وقد رد عليهم ساطع الحصري بقوله : « مثل هؤلاء الذين يدعون الآن الى الندم على الثورة كمثل من يغادر دارا آيلة للسقوط، ثم عندما يتعرض الى عاصفة هوجاء يقول : (ياليتني كنت باقيا في الدار)، غافلاً أن الدار نفسها تهدمت من جراء تلك العاصفة ، وأنه لو بقي فيها لعرض نفسه الى أخطار أشد وأعظم من التي يجابهها الآن » • (٢٨)

مشكلة ((النوط)) :

نعني بالنوط النقود الورقية التي أصدرتها الحكومة العثمانية لتحل

---

(٢٦) كامل الجادرجي (من أوراق كامل الجادرجي) ــ بيروت ١٩٧١ ــ ص ٤٧•

(٢٧) خيري العمري (حكايات سياسية) ــ القاهرة ١٩٦٩ ــ ص ٦٩ •

(٢٨) ساطع الحصري (نشوء الفكرة القومية) ــ بيروت ١٩٥٦ ــ ص ٢٤٠ •

محل نقود الذهب والفضة . وكانت الحكومة قد أصدرت خلال الحرب كميات كبيرة جدا من النقود الورقية لسد نفقاتها العسكرية ، وأخذت تفرضها على الناس قسرا مما أدى الى هبوط قيمتها في الاسواق تدريجاً .

نشرت جريدة « صدى الاسلام » في ٢٥ أيار ١٩١٦ خبرا محليا مفاده أن المحكمة العسكرية حكمت بغرامة قدرها خمس عشرة ليرة على محمد بن علي صانع سيد محمد الصراف الكظماوي لامتناعه عن قبول الاوراق النقدية .[٢٩] وفي ١٢ تموز نشرت الجريدة بلاغا صادرا من الحكومة منعت به التعامل بالنقود المعدنية منعاً باتاً وأوجبت على كل من لديه شيء منها أن يذهب الى رئيس لوازم الفيلق لاستبدالها بالنوط ، وانذرت من يخالف ذلك بالعقوبة الصارمة . وقالت الجريدة تعليقا على هذا البلاغ ما نصه :

« فلينتبه الطماعون الذين نسوا الله وأنفسهم لهذا البلاغ الصارم وليعتبروا الاوراق النقدية كالذهب بلا فرق والا فلا يلومون الا أنفسهم ، لان الحكومة أيدها الله ستحارب بكل قوتها من يعرقل تداول الاوراق النقدية أو يخل بقيمتها الحقيقية . ولا شك أن الذي يتصدى لهكذا معاملات رديئة ستضربه الحكومة بمقامع من حديد » .[٣٠]

يبدو أن التشديد في فرض النوط على الناس أدى الى ازدياد هبوط قيمته في الاسواق ، ففي تشرين الثاني بلغت قيمة النوط ربع قيمته الرسمية أو دون ذلك . وأخذ رجال الحكومة يزدادون شدة على الناس كلما ازدادت قيمة النقد هبوطاً . وكان أشدهم في ذلك وكيل الوالي فائق بك ، فقد كان هذا الرجل كما وصفه عباس العزاوي : « سيء السيرة قاسياً على الاهلين لا يبالي بهم ويستهين بأمورهم» .[٣١] وكان يشاركه في ذلك مدير الشرطة سعدالدين بك .

---

(٢٩) جريدة « صدى الاسلام » — في عددها الصادر في ٢٣ رجب ١٣٣٤ هـ .
(٣٠) جريدة « صدى الاسلام » — في عددها الصادر في ١٢ رمضان ١٣٣٤ هـ .
(٣١) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) — بغداد ١٩٥٦ — ج ٨ ص ٢٩٩ .

نال اليهود من تلك الشــدة أكبر نصيب لان معظم الصرافين في بغداد كانوا منهم وقد اتهمتهم الحكومة بأنهم كانوا السبب في هبوط قيمة النوط فألقت القبض على عدد منهم وألقت بهم في السجون • يقول يوسف غنيمة في ذلك ما نصه : « قبضت الحكومة قبيل احتلال بغداد على عدد من اليهود ونكلت بهم سرا تنكيلاً شنيعاً وجدعت أنوفهم وقطعت آذانهم وسـملت عيونهم ووضعتهم في أكياس والقتهم في دجلة » • (٣٢) ولست أدري مبلغ صحة هذا القول ، وقد سألت بعض الاشخاص الذين عاصروا تلك الاحداث عن ذلك فلم يؤيدوا صحته ، وقال أحدهم : ان التعذيب وقع على اليهــود فعلاً ولكن ليس بهذه الصورة المبالغ فيها •

الواقع أن بلاء النوط قد عم اكثر الناس على درجات شتى ، فكان من المناظر المألوفة في الاسواق حينذاك أن يأتي الضابط أو الجندي الى السوق وبيده ورقة نقدية من فئة الليرة الواحدة ، اذ هو يريد أن يشتري بها ما يشاء من بضاعة على أن يرجع له البائع بقية الورقة حسب قيمتها الرسمية ، ويضطر البائع عند هذا أن يقدم للضابط البضاعة التي يطلبها ثم يعيد له الورقة أيضاً معتذرا بأنه لا يملك بقية لها • وقد شوهد أحد الجنود يفعل هذا مع بائعــة خبز فأخذت تبكي وتستغيث قائلة أنها أرملة وعندها أيتام تعولهم ، فاجتمع المارة حول الجندي يتوسلون اليه أن يرحم تلك المرأة المسكينة ، فرضــخ الجندي لتوسلاتهم مرغماً ومضى في طريقه مدمدماً •

حدثني رجل كان في تلك الايام صبياً يعمل في دكان والده البقــال، فكان والده يسرع الى الاختفاء في داخل الدكان حالما يرى ضابطاً داخــلاً الى السوق ، وينتصب ابنه مكانه في مقدمة الدكان ، فاذا جاء الضابط يريد شراء شي قال له الصبي : « ان والدي غير موجود وأنا لا أعرف البيع » • وكانت تلك حيلة بارعة نجحت في أكثر الاحيان •

وحدثني رجل آخر بقصة وقعت للشقي المشهور حسن كبريت ، فقــد كان هذا الشقي ذات يوم في السوق وقد أخرج كيس نقوده لدفع ثمن شيء

---

(٣٢) يوسف رزق الله غنيمــة (نزهــة المشتاق في تاريخ يهــود العــراق) ــ بغداد ١٩٢٤ ــ ص ١٨١ ــ ١٨٢ •

اشتراه ، وكان الكيس مليئاً بالليرات الذهب ، فلمحه ضابط ومعه جنديان فأمسك بالكيس يريد مصادرته ، ولكن حسن استطاع أن يطرح الضابط أرضاً ويضع رأس خنجره على عنقه مطالباً اياه باعادة الكيس والا فهو سيذبحه . فسلم الضابط له الكيس صاغرا وخرج مهرولاً من السوق مع الجنديين . وقد ارتفعت مكانة حسن في نظر الناس ارتفاعاً عظيماً من جراء هذا العمل « البطولي » !

حاولت الحكومة توفير بعض السلع وبيعها للناس في مخازن عامة حسب السعر الرسمي للنوط.[٣٣] ولكن عملها هذا لم يلق نجاحاً كبيرا لتفسخ الجهاز الاداري اذ لم يستفد منه سوى أولي النفوذ والمناصب العالية ، أما سواد الناس وصغار الجنود فلم يستفيدوا منه شيئاً .

ومما يجدر ذكره ان بعض الموظفين استغلوا مشكلة النوط وجنوا منها أرباحاً غير قليلة ، فاذا جاءهم مراجع وهو يحمل مبلغاً من النوط لدفع ما عليه من ضرائب أو رسوم عرقلوا معاملته ، ولا يسهلونها الا اذا دفع لهم بالذهب . وهم يسجلونها في السجلات الرسمية بالنوط طبعاً .

وقد استغل بعض الاهالي مشكلة النوط كذلك ، فهم اذا كانوا مدينين بمبالغ كبيرة ، أو كانت لهم دور مرهونة ، أسرعوا فسددوا ديونهم بالنوط حسب سعره الرسمي ، ولا يستطيع الدائنون أن يعترضوا على ذلك خوفاً من العقاب . والواقع ان المدينين لم يكونوا كلهم من هذا القبيل ، فقد امتنع البعض منهم عن تسديد ديونهم بالنوط اذ اعتبروا ذلك عملاً محرماً لا يرضى عنه الله !

جادة خليل باشا :

لم تكن بغداد في العهد العثماني تحتوي على شارع ، بل كان فيها أسواق مسقوفة ودروب وأزقة يتصل بعضها ببعض . وكان أول شارع ببغداد هو شارع النهر الذي شقه ناظم باشا في عام ١٩١٠ ، وهو في الواقع لم يكن شارعاً لضيقه وعدم استقامته بل هو بالزقاق أشبه .

---

(٣٣) يوسف غنيمة (تجارة العراق) ــ بغداد ١٩٢٢ ــ ص ١٢٠ .

عزم خليل باشا على أثر انتصاره في الكوت أن يكون أول من يشق شارعاً حقيقياً ببغداد ، وان يكون الشارع ممتدا على طول بغداد من الباب الشرقي الى باب المعظم بموازاة نهر دجلة • والمظنون أن هناك ثلاثة عوامل دفعت خليل باشا الى شق الشارع هي :

(١) العامل العسكري : فقد كانت متطلبات الحرب تقضي بفتح الشارع لتسهيل مرور المدافع والمعدات الحربية من بغداد الى الجبهة ، وكان الطريق يدور حول المدينة ويلاقي الجنود في ذلك مشقة الحر صيفاً ومشقة الوحول شتاءاً • (٣٤)

(٢) العامل المالي : ان شق الشارع في أيام السلم يكلف الحكومة أموالاً طائلة لتعويض أصحاب الدور المهدومة ، أما في أيام الحرب فهو لا يكلف الحكومة الا قليلاً اذ هي تستطيع أن تعوض أصحاب الدور بسندات تدفع بعد الحرب ، ولم يكن في مقدور أحد أن يعترض على ذلك•

(٣) العامل الشخصي : فقد كانت « الموضة » الشائعة بين حكام الولايات العثمانية في تلك الفترة هي التنافس والتباهي بفتح الشوارع ، فكان كل واحد منهم يحب أن يفتح شارعاً في مدينته بحجة اعمار البلاد انما هو في اعماق نفسه يريد ان يطلق اسمه على الشارع الذي يفتحه ويخلد ذكره في التاريخ •

بدأ العمل بشق الشارع في شهر أيار ١٩١٦ ، فاستدعى رئيس البلدية رؤوف بك الجادرجي أصحاب الدور التي سيخترقها الشارع واتفق معهم على أن يدفع لهم مبلغاً يعادل ايجار دورهم لسنة واحدة على أن يفاوضهم لشرائها بعد انتهاء الحرب • (٣٥) وقد دفع لهم المبلغ بالنقود الورقية طبعاً فكان ذلك سبباً لانتشار التذمر الشديد بينهم • يقول كامل الجادرجي في مذكراته وهو أخو رؤوف : « وقد سبب ذلك العمل استياءاً بالغاً لدى أصحاب العلاقة وغيرهم واعتبروا رؤوف مسؤولاً عنه • وكان والدي أيضاً

---

(٣٤) ريجارد كوك (بغداد مدينة السلام) ــ ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد ــ بغداد ١٩٦٧ ــ ج ٢ ص ١٩١ •

(٣٥) المصدر السابق ــ ج ٢ ص ١٩٢ •

من جملة المستائين وان كان قد استفاد من الوضع الجديد استفادة مادية حيث أصبحت لدارنا جبهة طويلة على الشارع العام » • [٣٦]

وكان هنالك سبب آخر لانتشار التذمر بين الناس ، هو أن موظفي البلدية ومهندسيها كانوا كغيرهم من موظفي ذلك الزمان يتأثرون بالمحسوبية والوساطة والرشوة وما أشبه ، فصاروا يغيرون في تخطيط الشارع حسبما توحي به تلك الدوافع • يقول عبدالكريم العلاف وكان قد عاصر الحادث: « ولما شرعوا في فتحه ظلموا كثيرين من الناس وجاروا على الضعيف ، والذين قدروا أن يرشوا من بيده الامر وجد لهم ألف عذر لعدم هدم داره والتعرض لها » • [٣٧]

الواقع ان شق الشارع كان يجري بطريقة عجيبة ، حيث جيء بحبلين طويلين ومدا فوق سطوح الدور لتحديد مساحة الشارع بها • ويقال ان مرور أحد الحبلين فوق احدى الدور كان معناه نزول الكارثة على أهل تلك الدار ، فينبعث العياط والعويل منها ، ويسرع رب الدار الى اصدقائه لكي يرشدوه الى من يساعده على ازاحة الحبل عن داره لقاء رشوة • وكثيرا ما كان الحبل يتحول من دار الى اخرى حسب مبلغ الرشوة التي تدفع أو النفوذ الذي يستخدم • انها كانت مهزلة تدعو الى البكاء والضحك معاً •

ولما وصل شق الشارع الى محلة الحيدرخانة واجه المسؤولون هناك مشكلة مستعصية هي وجود سوق للاوقاف يعترض امتداد الشارع المقرر ، فان هدم هذا السوق قد يؤدي الى غضب رجال الدين ونقمتهم في وقت كانت الحكومة في حاجة الى رضاهم • وعلى أي حال فان رؤوف الجادرجي استطاع في احدى الليالي أن يهدم السوق خلسة حيث حشر له عمالاً كثيرين ظلوا يعملون فيه طول الليل • ولما أشرقت الشمس وجد الناس أنفسهم أمام الامر الواقع ، ولم ينبس رجال الدين ببنت شفة •

تم فتح الشارع في مدة وجيزة ، وجرى افتتاحه في يوم الاحتفال بذكرى اعلان الدستور — أي في ٢٣ تموز ١٩١٦ — وقد أطلق عليه اسم

---

(٣٦) كامل الجادرجي (المصدر السابق) — ص ٥٠ •

(٣٧) عبدالكريم العلاف (بغداد القديمة) — بغداد ١٩٦٠ — ص ٢٤١ •

«خليل باشا جادة سي»، وكتب هذا الاسم على قطعة من الكاشي وضعت على جدار جامع السيد سلطان علي • [٣٨]

ومما يلفت النظر أن الشارع ظل حتى يوم سقوط بغداد في ١١ آذار ١٩١٧ ــ أي اكثر من سبعة أشهر ــ وهو مليء بالحفر يعلوه التراب ، فلم يهتم المسؤولون بتسوية أرضه أو تبليطه • وكانت الدور مهدومة على الجانبين وأصحابها لا يزالون يسكنون فيها وقد علقوا بعض العباءات والستائر لحجب أنظار المارة عنهم • ونظم الرصافي قصيدة في وصف حالة الشارع نقتطف منها الابيات التالية :

نكّب الشارع الكبير ببغدا	د ولا تمش فيه الا اضطرارا
تحسب العابرين فيه سكارى	من هواء تنسموه غبارا
هو ان رُش جاش وحلاً والا	جاش نقعاً على الوجوه مثارا
واذا ما مشيت في جانبيه	فتجنب رصيفه المنهارا
فجدار عالٍ وفي الجنب منه	متدانٍ تقيسه أشبارا [٣٩]

وعندما كانت بغداد على وشك السقوط غادرها رؤوف الجادرجي حيث سافر الى اسطنبول ومنها الى برلين بحجة الاطلاع على التنظيمات البلدية فيها [٤٠] والظاهر أنه خشي أن ينتقم الناس منه في عهد السقوط لما فعله بهم في العهد البائد •

ولم يكد الانكليز يفتحون بغداد حتى بدأوا يبلطون الشارع لتسهيل تقلياتهم فيه ، وأطلقوا عليه اسم « الشارع الجديد » ، ولكن القطعة التي تحمل اسم خليل باشا بقيت على جدار جامع السيد سلطان علي بضع سنوات حتى رفعتها امانة العاصمة عندما أطلقت على الشارع اسم « شارع الرشيد » وهو الاسم الذي لا يزال باقياً حتى الآن • وقد روى أحد البغداديين أنه زار خليل باشا في اسطنبول في أواخر عمره ، فوجده

---

(٣٨) عباس العزاوي (المصدر السابق) ــ ج ٨ ص ٢٩٤ •
(٣٩) معروف الرصافي (ديوان الرصافي) ــ بيروت ــ ص ١٥٠ ــ ١٥١ •
(٤٠) كامل الجادرجي (المصدر السابق) ــ ص ٥٠ •

ممتعضاً لحذف اسمه من الشارع وهو يعاتب البغداديين على ذلك •

واقعة الحلة الكبرى :

كانت الحكومة التركية عقب انتصارها في الكوت تتحين الفرص للانتقام من أهل الحلة جزاء ما فعلوا بالجنود في العام الماضي من تقتيل ذريع ، ولكي تجعلهم عبرة لغيرهم • فعينت قائمقاماً جديداً للحلة اسمه مصطفى بك المميز ، والظاهر أنها أوصته بأن يعامل أهلها بخشونة ويعمل على تأديبهم •

أخذ القائمقام الجديد يتبع مع الحليين طريقة العجرفة ، فكان يهين رؤساءهم وينتهرهم أو يهددهم لاقل سبب • وفي أحد الايام حدثت مشاجرة عنيفة بينه وبين أحد الرؤساء اسمه الحاج علي الحاج حسن ، فخرج الحاج علي من دائرة القائمقام غاضباً ، وفي صباح اليوم التالي أرسل جماعة من أتباعه المسلحين الى القائمقام في داره فأخرجوه منها ، وساروا به في الشوارع أمام الناس ، ومروا به على القشلة ، وعبروا به الجسر نحو الجانب الآخر من النهر ، ثم أركبوه احدى العربات التي كانت تعمل بين الحلة وبغداد ، وأجبروه على مغادرة الحلة حالاً • [٤١]

وحين وصل القائمقام الى بغداد صار يرسل البرقية تلو البرقية الى اسطنبول طالباً الاقتصاص له من أهل الحلة الذين اهانوا الدولة بشخصه • [٤٢] ويبدو ان الحكومة لم تكن بحاجة الى مثل هذا التحريض للانتقام من الحلة • يقول محمد أمين العمري : ان خليل باشا كان في كرمانشاه حين وصله من بغداد نبأ حادث الحلة ، فأصدر أمره برقياً الى الميرألاي عاكف بك بأن يتحرك بأسرع ما يمكن لتأديب الحلة • [٤٣]

غادر عاكف بك بغداد في ٦ تشرين الثاني ١٩١٦ فوصل المسيب

---

(٤١) يوسف كركوش الحلي (تاريخ الحلة) ـ النجف ١٩٦٥ ـ ج ١ ص ١٦٤.

(٤٢) نقلا عن تعليق لجعفر الخياط على كتاب المس بيل (فصول من تاريخ العراق الحديث) ـ بيروت ١٩٧١ ـ ص ٩٨ •

(٤٣) محمد أمين العمري (المصدر السابق) ـ ج ١ ص ٢٥٠ •

بعد يومين وأخذ يحشد فيها قواته • وفي ١٣ منه تحرك من المسيب بقواته ومدافعه نحو سدة الهندية ، وكان يصحبه في النهر زورق حربي وفصيل من المشاة يركبون الشختاتير ، وكانت تصحبه كذلك طائرة واحدة •

أراد عاكف بك أن يستعمل الحيلة في مهاجمة الحلة ، فأرسل الى رؤسائها يخبرهم بأنه لا يريد بهم شراً وأنه انما يريد المرور من البلدة في طريقه نحو الجنوب ، وهو يرجو أن يسمحوا له بذلك • فاجتمع رؤساء الحلة في بيت السيد محمد علي القزويني للمداولة في الامر ، واختلفوا في الرأي حيث وافق فريق منهم على مرور القوات التركية من بلدتهم ، بينما رفض الفريق الآخر ذلك • واشتد الخلاف بين الفريقين وساد الهرج والمرج • (٤٤)

كان السيد محمد علي القزويني من الموافقين على المرور ، ووقف يخطب في الحاضرين يحثهم على الطاعة واظهار شعار الخضوع لامر الحكومة ، فأيده أكثرهم ، وألفوا موكباً عظيماً اجتمع فيه معظم سكان الحلة لاستقبال القوات التركية والترحيب بها • فالتقى الموكب بتلك القوات في مشهد الشمس ، وهو موضع قريب من البلدة، وتكلم القزويني مع القائد معتذرا عما فات ، فلم ينطق القائد عاكف بك بشيء وبهت الناس كأنهم شعروا بالخطر • فأحاط الجنود بهم ومنعوهم من العودة ، ثم صاروا يلقون القبض على كبرائهم ، وحين تساءل هؤلاء عن سبب ذلك أجابهم عاكف بك بما معناه : « ان اهل الحلة قوم متمردون على الحكومة وقد عُرفوا قبل اليوم بأنهم عصاة جناة ، واننا نريد الدخول الى المدينة وضبطها وتخريب ملاجيء الاشقياء ، وقد أبقيتكم ودائع عندي حتى ندرك ما نريد ، فان تعرض المفسدون للجنود فما يجري عليهم يجري عليكم بكل شدة » • (٤٥)

ثم أرسل عاكف بك فوجاً من جنوده الى البلدة بصحبة مختاري المحلات ، فاحتل الجنود الثكنة والمخافر ودور الحكومة وجميع المواضع

---

(٤٤) يوسف كركوش الحلي (المصدر السابق) — ج ١ ص ١٦٨ •
(٤٥) نقلا عن مذكرات الشبيبي المخطوطة •

العالية التي تشرف على البلدة • وبعد أن تم له ذلك أعلن للحاضرين في مشهد الشمس قائلا ان أهل الحلة كلهم يستحقون العقوبة ولكن «مرحمة» وردت من الحكومة للعفو عنهم وسوف لا ينال العقوبة الا المذنبون فقط • فرفع الناس أيديهم يلهجون بالدعاء للحكومة ، وسمح لهم بالعودة الى بيوتهم •

وفي يوم ١٦ تشرين الثاني نادى المنادى في الحلة أن لا يخرج أحد من داره ابتداءاً من عصر ذلك اليوم لان المدافع ستصب قنابلها على ثلاث من محلات البلدة هي الطاق وجبران والجامعين ، فأخذ سكان تلك المحلات يسرعون في مغادرتها ملتجئين الى المحلات الاخرى • وأخذت المدافع تطلق قنابلها على المحلات الثلاث طيلة ساعتين • (٤٦) ثم أرسل عاكف بك سرية من الجنود يحملون المعاول والمجارف والقنابل اليدوية ، فشرعوا يفتحون أبواب الدور بالقوة ويحتلونها • (٤٧) ومن الطرائف التي تروى في هذا الصدد أن بعض الجنود عثروا في احدى الدور على مصحف فأخذوا يتساءلون متعجبين كيف يمكن أن يكون القرآن في بيت أرمني ؟! انهم كانوا يحسبون أهل الحلة من الارمن ثائرين على الاسلام •

استمر تدمير الدور حتى يوم ١٩ تشرين الثاني ، وكان لدى عاكف بك قائمة باسماء عدد كبير من أهل الحلة ، فأمر بالقاء القبض عليهم ، وأرسل مفارز عديدة الى القرى المجاورة للبحث عن الهاربين منهم • ثم أمر بتشكيل محكمة عسكرية لمحاكمتهم ، فحكمت المحكمة بشنق ١٢٧ رجلاً منهم ونفي ٢٣١ آخرين •

ان تنفيذ الشنق كان يجري على دفعات يوماً بعد يوم • ويقال ان عاكف بك أراد أن يشنق نفس العدد الذي قتل من جنوده في العام الماضي حتى أنه شنق شخصاً كان أخرس وأطرش وأعمى اكمالاً للعدد • (٤٨)

كان من بين المشنوقين الحاج علي الشيخ حسن الذي كانت فعلته

---

(٤٦) يوسف كركوش الحلي (المصدر السابق) — ج ١ ص ١٦٩ •
(٤٧) محمد امين العمري (المصدر السابق) — ج ١ ص ٢٥٢ •
(٤٨) كامل الجادرجي (المصدر السابق) — ص ٤٩ •

مع القائمقام السبب المباشر للواقعة ، وكذلك شُنق معـه أخوه وهيب . وكان أخوه الثاني محمد سعيد محكوماً عليـه بالشنق أيضا فهرب الـى الديوانية والتجأ الى المتصرف عزت بك لدالة له عليه ، فأبرق المتصـرف الى عاكف بك يسأله عما يفعل بهذا الرجـل ، فكان جـواب عاكف بك : « بر دقيقة فوت ايتمكسزين صلباً اعدامي » ــ أي اصلبه حالاً ــ فشنق المسكين في الثكنة العسكرية ليلاً دون أن يشعر بـه أحـد من أهـل الديوانيـة . (٤٩)

بلغ عدد القتلى من أهل الحلة الذين قتلوا أثناء القتال والمطـاردة ألفاً وخمسمائة ، بينما كانت خسائر الجنود خمسـة وثلاثين بين قتيـل وجريح .وأمهل عاكف بك أهل الحلة مدة أربع وعشرين ساعة لتسـليم سلاحهم ، كما أمر بمصادرة أموال المتهمين الذين أدانتهم المحكمة ، فكـان مجموع ما صودر من الحبوب نحو ثلاثة آلاف طن . ولم تنتـه أعمـال التنكيل الا في ٢٧ تشرين الثاني حين أصدرت الحكومة عفواً عن بقيـة المتهمين ، وقبلت دخالة ٦٥١ رجلاً فسيقوا الى أماكن مختلفة . (٥٠)

أما الذين حكمت عليهم المحكمة بالنفي فقد سيقوا مشياً على الاقدام نحو الاناضول ، وكان فيهم عدد من النساء والاطفال ، فمات قسم منهـم من الاعياء والجوع . قيل ان أسرة واحدة من أهـل الحلـة نفي منهـا واحد وعشرون شخصاً فمات منهم في الطريق سبعة . (٥١)

كانت قافلة المنفيين قد جيء بها الى بغداد في طريقها الى الاناضول ، فأنزلت ليلة واحدة في الكاظمية في خان يدعى « خان قنديل » قرب باب البلدة ، وتجمهر أهل الكاظمية في الساحة التي تقع أمام الخان وهم فـي دهشة لا يعرفون ماذا جرى . حدثني أحد الذين شهدوا الحادثة فقـال : انهم سمعوا امرأة من احدى غرف الخان المطلة على الساحة وهي تستغيث بهم : « يا أهل الغيرة نحن جواعه » ، فتراكض الناس لاغاثتهم وصـاروا

---

(٤٩) مصطفى نورالدين الواعظ(الروض الازهر) ــ الموصل ١٩٤٨ ــ ص ٤٥٠ .
(٥٠) محمد أمين العمري (المصدر السابق) ــ ج ١ ص ٢٥٢ــ٢٥٣ .
(٥١) يوسف كركوش الحلي (المصدر السابق) ــ ج ١ ص ١٧٠ .

يرمون أليهم أرغفة الخبز رمياً ، كما قذفوا بالارغفة من فوق السطوح .

صدى الواقعة :

انتشر الخوف في الفرات الاوسط على أثر واقعة الحلة وصارت كل بلدة تخشى أن يحل بها مثلما حل بالحلة . فالديوانية مثلاً وهي كانت على علاقة حسنة بالحكومة انتشر فيها الرعب أيضاً . يروي مفتي الديوانية اسماعيل الواعظ : ان الحكومة كانت في تلك الآونة تريد مد أسلاك التلغراف الى موضع قريب من السماوة فأحضرت على شاطىء النهر في الديوانية أعمدة خشبية بغية نقلها بالسفن الى ذلك الموضع ، وقد اضطرب أهل الديوانية عند رؤيتهم الاعمدة ظناً منهم أنها جمعت تمهيداً لانزال كارثة بهم تشبه كارثة الحلة ، وذهب المفتي الى المتصرف عزت بك يخبره بالامر ، فاستدعى المتصرف رؤساء البلدة وأوضح لهم الغرض من جمع الاعمدة فهدأ روعهم .(٥٢)

كانت النجف اكثر من غيرها اهتماماً بواقعة الحلة ، وظن أهلها أن دورهم في انتقام الحكومة قد اقترب ، فأرسلوا الى العشائر في الفرات الاوسط والغراف يطلبون منهم الحضور في النجف ، وقد حضر اليها بعض رؤساء الخزاعل وآل فتلة وآل شبل والغزالات ، وعقدوا مؤتمرا للنظر في الاجراءات التي يجب اتخاذها في حالة توجه القوات التركية نحو النجف للانتقام منها . وقام مبدر الفرعون رئيس آل فتلة فألقى خطابا مكتوبا على الحاضرين لتحميسهم على محاربة الحكومة . نقل فيما يلي جزءاً من الخطاب :

« ... أما بعد يا اخواننا من العرب الذين نمتهم الاعراق ، وتجاذبتهم الانساب الى قحطان ... انظروا الى ما يفعلونه بقضاء الحلة وقتل النفوس المحترمة ، وهتك الاعراض المصونة ، فوالله لبطن الارض خير من ظهرها ان ركنتم لهذه الافاعيل الهمجية . وليعلم كل من ينتمي الى قحطان ان هذه الدولة تريد امحاءكم من وجه البسيطة وتستبدل بكم من عنصرها

---

(٥٢) مصطفى نورالدين الواعظ (المصدر السابق) ـ ص ٤٥٠ .

التركي ... فكونوا أحراراً في دنياكم ولا تركنوا الى الذل والاسترقاق، ألستم أبناء تلك الليوث الضارية التي فتحت الامصار ومدنت المدن ؟ . فما الذي يقعدكم عن المطالبة بحقوقكم والدفاع عن اعراضكم وبلادكم ؟.

« اعلموا ان الرجل ليدافع ويقاتل فيقتل على ثلاثة أمور : دينه وعرضه وماله ، أما الدين فان الاتراك أهملوه باستخفافهم بحرمة شهر رمضان ، وما أجروه من ضرب الكعبة بمدافعهم ، وتخريب قبة سيد شباب أهل الجنة عليه السلام بالمدافع والديناميت... وأما ما فعلوه من هتك حرمة الاعراض وقتل النفوس المحترمة وسلب الاموال فهذا لغني عن البيان لانكم مطلعون عليه من بعض اعمالهم بالحلة وما فعلوا بها ، وقد أخبرني رجل من الثقاة لا يسعني ذكر اسمه أن مدير البوليس في بغداد يكتب تذكرة لاحد الاشراف : ان امرأتك أو ابنتك متهومة بالفعل القبيح يلزم تسليمها للمحل العمومي ، مع علمه بعفتها ، ولكنه يريد بذلك سلب أمواله ، فيضطر ذلك الرجل لدفع هذا الامر المهم بما يملكه من الثروة .

« فبالله عليكم هل يحسن السكوت أمام هذه الشنائع ؟ وهل يقول أحد ان هذه الدولة الظالمة يجب علينا طاعتها ؟ فوالله كل من ركن لمثل هذه الافاعيل وأطاع هذه الدولة الظالمة فانه خلي من الغيرة العربية ، أما قرأتم جرائدها ؟ انها تنطق بالتفرقة وتحقير العرب ، وها هي طافحة باهانة العرب حتى أنهم يلقبون الكلب الاسود باسم (عرب) ... » (٥٣)

وقد تحمس الحاضرون عند سماعهم لهذا الخطاب ، واتفقوا على تشكيل قوة عشائرية للتوجه الى الحلة ومحاربة الحكومة قبل أن تبعث الحكومة بقواتها اليهم . والمظنون انهم كانوا قد علموا بالاستعدادات الهائلة التي كان الجيش الانكليزي يقوم بها للزحف على الكوت ، ومن يدري فربما كانت هناك اتصالات سرية تجري بينهم وبين الانكليز في هذا الشأن . ومهما يكن الحال فقد خرجت القوة من النجف ، وانضم اليها في الطريق كثير من أبناء العشائر ، فوصلوا الى مقربة من الحلة في ١٥

---

(٥٣) فريق مزهر الفرعون (الحقائق الناصعة) — بغداد ١٩٥٢ — ج ١ ص ٤٤ — ٤٥ .

كانون الاول ، وحصلت مناوشة بالرصاص بينهم وبين الجنود الاتراك وكان الجيش الانكليزي في ذلك الحين قد بدأ هجومه في جبهة الكوت مما شجع النجفيين على التمادي في القتال ، وقيل انهم تمكنوا من الدخول الى الحلة ولكن الجنود ضايقوهم فتركوا اعلامهم وهربوا بعد أن سقط منهم عدد من القتلى والجرحى .

أدت تلك الحادثة الى توتر الوضع في النجف ، وأصبحت العلاقة بين الاهالي والموظفين سيئة مما اضطر الموظفين الى مغادرة النجف والاقامة في الكوفة . وشعرت القيادة التركية بحراجة موقفها على أثر اشتداد الهجوم الانكليزي عليها في جبهة الكوت ، فأرتأت العودة الى سياسة الملاينة والتهدئة من جديد. وفي١٧ كانون الاول أصدر خليل باشا بلاغاً عاماً هذا نصه :

« ٤ كانون ـــ بعد أن أجرينا التأديبات للعصاة الذين هم قابلوا اجراءات الحكومة ، تعرض بعض السرسرية للعسكر الذي أراد أن يتوجه الى الناصرية لاجل مقصد عسكري وهم سيلقون جزاءهم اللائق بهم . وأما أهل النجف وكربلا فاننا نعد كأن لم تكن مصادماتهم التي وقعت في السنين السابقة ولا نعاقب من كان يدخل منهم في تلك الوقعات ولا نجري بحقه حركة تأديبية أبداً ، وقد بينت ذلك لوكلائهم الذين زاروني سابقاً وبلغتهم ان قولي هذا عائد الى عفو جميع القباحات السابقة . فمن اليوم وصاعدا كل من اشتغل بشغله من أهل القصبات والعشائر وحافظ صداقته الى الدولة فاني أكرر قولي بأن لا أجري بحقه التأديبات القانونية ولا الحركات العسكرية الا من تعرض للحكومة والعسكر وتطور بطور يخالف حركاتهم من أهل القصبات والعشائر ، فيعلم أنهم ليسوا لائقين للشفقة وأني أجازيهم باشد صورة ، فينبغي اعلان ذلك رسماً بكل محل ، وقد بلغنا ذلك الى قومندان فرقة الفرات ومتصرفي كربلا والديوانية ومعاوني ولاية بغداد ـــ التوقيع خليل قائد الجيش السادس » . (٥٤)

وعمدت الحكومة كذلك الى اتباع سياسة الاسترضاء مع أهل الحلة،

---

(٥٤) نقلا عن مذكرات الشبيبي المخطوطة .

فسحبت عاكف بك من الحلة وأرسلت بدلاً عنه رجلاً معروفاً بالتسامح والطيبة هو عبدالمجيد بك الذي كان قائمقاماً في الكاظمية ، فأخذ هذا الرجل يعمل على تطييب الخواطر هنالك . ثم أرسلت الحكومة لجنة للتحقيق في الواقعة ومعرفة أسبابها . (٥٥)

يمكن القول على أي حال ان الحكومة التركية أساءت الى نفسها في واقعة الحلة أكثر مما انتفعت . فهي أرادت ان تلقن رعاياها درساً ولكن السمعة السيئة التي لصقت بها من جراء الواقعة كانت أكثر ضررا من منفعة تلقين الدرس . والواقع ان الانكليز وحلفاءهم استغلوا واقعة الحلة في دعايتهم الحربية استغلالاً واسع النطاق ، وكذلك استغلها الشريف حسين في تبرير ثورته على الاتراك ، وقيل انه عندما سمع بها اعتبرها تأييدا من أهل العراق لثورته .

يبدو أن الاتراك كان يدفعهم حب الانتقام من أهل الحلة أكثر من حبهم لمصلحة دولتهم ، أي أنهم كانوا مدفوعين بالعاطفة بدلاً من التفكير المتزن . ويجب أن لا ننسى في هذه المناسبة ان الحاكم لا يجوز له أن يتأثر بالعاطفة في أحكامه ، فاذا تأثر بها انتهى أمره الى الخسران في الامد البعيد . وقد صدق الشاعر العربي حين قال :

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ولا ينال العلا من طبعه الغضب

قضية الجادرجي :

رفعت بك الجادرجي ــ الذي هو والد السياسي المعروف كامل الجادرجي ــ كانت له أملاك وبساتين قريبة من الحلة ، وعندما وقعت واقعة الحلة كان هو فيها ، وقد اتهمه بعض الحليين بأنه هو الذي أقنع رؤساء البلدة بوجوب استقبال القوات التركية ، وقال لهم ان الحكومة لا تريد بهم شراً ، وكان بذلك قد ساعد الحكومة على تمرير الحيلة على أهل الحلة.

وفي وقت لاحق اتخذ خصوم كامل الجادرجي هذه التهمة ذريعة للتهجم عليه ، وكتبوا في ذلك مقالات نشروها في الصحف البغدادية .

---

(٥٥) عباس العزاوي (المصدر السابق) ــ ج ٨ ص ٣٠١ .

وحاول كامل تبرئة والده فكتب في مذكراته يقول : ان والده فعل على الضد مما نسب اليه اذ هو أبدى رأيه لاهل الحلة بصراحة مستهيناً بقيمة الوعد الذي قطعه عاكف بك لهم ، وأوضح لهم أنه ليس واثقاً بهذا الوعد ، وقد شاع رأيه في البلدة وتداولته الافواه ففر كثير منهم ممن كانوا يعتقدون بأن الحكومة ستعاقبهم • ويضيف كامل الجادرجي الى ذلك قائلاً ما نصه :

« وقد اعتبرت السلطة والدي مسؤولاً عن حوادث الثورة الى حد ما بالنظر الى الوضع الذي كان قد اتخذه وكيله وعن موقفه من خطة القيادة مما سهل هروب الكثيرين ممن كانت تريد السلطة التنكيل بهم ، ولذلك حجز وأجري التحقيق معه من قبل السلطة العسكرية المحلية• والظن الغالب أن أخي رؤوف الذي كان يشغل منصب رئاسة بلدية بغداد كان له الشأن الاكبر في انتاذ والده اذ كان قد علم بنية الحكومة بحق والدي عن طريق الصدفة وذلك بأن التقى بأحد المقربين الى خليل باشا في وليمة وكان ذلك الشخص ثملاً فخاطب أخي رؤوف قائلاً : سوف تصبح غنياً في القريب العاجل • ففهم أخي من هذه الاشارة ان الخطر يهدد والده • ان هذه الحادثة قد أثرت في والدي تأثيراً سيئاً وجعلته ينسحب من الميدان السياسي ويجاهر بعدائه للاتراك ورغبته في تخليص العراق من الظلم والاضطهاد النازلين به بالرغم من طبيعة التكتم عنده • وقد أتاحت لي هذه الحادثة فرصة للمجاهرة أمامه للمرة الاولى بكرهي للاتراك وتنديدي بسياستهم ، وكنت من قبل أتجنب تلك الامور وأتحاشاها بحضرته ولشد ما سرني أني لم ألق منه اعتراضاً » • (٥٦)

يمكن القول ان رفعت الجادرجي كان أثناء واقعة الحلة في موقف دقيق للغاية بحيث اعتبره الاهالي أنه في جانب الحكومة بينما اعتبرته الحكومة أنه في جانب الاهالي • وهذا أمر كثيراً ما يحدث حين يقف شخص بين فريقين متعاديين ، فهو يحاول أن يرضي الفريقين ولكنه يغضبهما معاً حيث يتهمه كل فريق بأنه مع الفريق الآخر •

---

(٥٦) كامل الجادرجي (المصدر السابق) ــ ص ٤٩ •

الفصل الحادي عشر

سقوط بغـداد

بينما كان الاتراك يتنعمون بفترة الغرور على النحو الذي ذكرناه في الفصل الماضي ، كان الانكليز منهمكين كل الانهماك في حشـد قواتهم استعداداً لاعادة الكرة على الاتراك وفتح بغداد • انهم كانوا يشـعرون بالعار من الهزيمة الفاضحة التي حلت بهم في الـكوت ، فصمموا على أن يستعيدوا هيبتهم التي فقدوها بأي ثمن •

الجنرال مود :

عين الانكليز قائداً جديداً لقواتهم في العراق هو الجنرال ستانلي مود، وكان هذا الرجل مثالاً نادرا للحزم والمقدرة على العمل الدائب • انـه كان الشخص المناسب في المكان المناسب •

كان مود في بداية الحرب يقود لواءاً من الجيش الانكليزي فـي فرنسا ، فاصيب بجراح خطيرة نقل على أثرهـا الى المستشفى ، وحـين شفي من جراحه ارسل الى معارك الدردنيل بعد أن رقي الى قائد فرقة ، ولما انتهت معارك الدردنيل نقل مود هو وفرقته الى العراق حيث سـاهم في حملات الانقاذ التي أرسلت لفك الحصار عن الكوت • وفي ١١ تموز ١٩١٦ رقي مرة ثانية فأصبح قائدا لفيلق دجلة • وبعد ٤٨ يوما رقي مرة ثالثة فصار القائد العام للجيش الانكليزي في العراق حيث حل محـل الجنرال ليك •

يمكن القول ان الجنرال مود كان على النقيض من القائد التركـي خليل باشا • فبينما كان خليل باشا مغرورا متفائلا يقضي جزءا كبيرا مـن وقته مع معشوقته فلم ، كان مود منكباً على عمله الى الدرجة القصـوى اذ هو يكاد لا يعرف في حياته سوى ما يتصل بشؤون عمله وكيف يقوم به على الوجه الأكمل • وصفته الصحافية الامريكية اليانور ايغان التي زارته في بغداد بعد فتحه لها فقالت : انه يدأب على العمل طيلة الوقت الـذي

هو غير نائم فيه ، وهو دقيق كل الدقة في توقيت اعماله ، حيث يستيقظ في الخامسة صباحا فيقضي ساعتين في النظر في أوراقه واملاء البرقيات ، ثم يتناول فطوره في الساعة السابعة ويذهب الى مكتبه في الساعة الثامنة. كان شعاره ان الوقت عنصر في غاية الاهمية في الحرب ، ولهذا فهو ينزعج كل الانزعاج حين يجد أحدا يتأخر دقيقة واحدة عن موعده معه أو يضيع لحظة من وقته الثمين . (١)

وكان مود بالاضافة الى ذلك ذا مقـدرة عجيبة على العمـل وعلى التركيز فيه ، فهو يكاد لا يتعب ، وقد ساعدته على ذلك قوة بنيته . ولكن هذه المزية في مود تقابلها خصلة فيه تعد من معائبه ، فقـد كان يحب أن يجمع الامور كلها في يده ، ولا يفوض امراً الى أحـد غيره ، وكان يهتم بالتفاصيل ولا يترك شيئاً يفلت من اشرافه وتدقيقه . (٢) وكانت حجتـه في ذلك ان القواد قبله كانوا يفوضون الكثير من أمورهم الى مساعديهم، وكان هؤلاء تنقصهم الهمة والنشاط من جراء رداءة المناخ وكثرة العمل ، فأدى ذلك الى فشلهم . (٣) تقول اليانور ايغان في وصف مود : انـه لولا تلك الخصلة فيه لكان رجلاً عظيماً بلا حدود . (٤)

وكان مود يختلف عن القواد الذين سبقوه بميله الى استعمال أسرع الوسائل في التنقل لكي يشرف بنفسه على سير المعارك . فبينمـا كـان القواد قبله يجلسون في مكاتبهم ويتصلون بالجبهة بوسائل المواصلات المختلفة ، كان مود يزور الجبهة بنفسه ويستخدم الطائرات او القـوارب السريعة في ذلك ، وحين يعترض عليه أحـد محذرا اياه من خطر هـذه الوسائل السريعة يرد عليه قائلاً : ان صديقاً لـه سـقط من درج واطيء

(1) Elanor Egan (The War In The Cradle of The World — London 1918 — p. 243.

(2) Barker (The Neglected War) — London 1967 — p. 318.

(3) Moberly (The Campagn In Mesopotamia) — London 1925 — vol. 3, p. 37.

(4) Eleanor Egan (op. cit.) — p. 243.

فانكسرت رقبته ومات . [٥] يقصد بذلك ان الموت قد يأتي الى الانسان من أتفه الاسباب. وقد صدقت نبوءته هذه عليه حيث رأيناه يموت في بغداد بعد فتحه لها من جراء شربة حليب ـ كما سنأتي اليه في فصل قادم .

مود يبدأ هجومه :

غادر الجنرال مود البصرة في تشرين الثاني ١٩١٦ واتخذ مقره في الجبهة بالقرب من الكوت ، وأخذ يدرس مواقع الاتراك العسكرية تمهيدا لوضع خطة الهجوم عليها .

ان نهر دجلة بالقرب من الكوت يجري من جهة الغرب الى جهة الشرق ، وكان الاتراك قد اتخذوا مواقعهم على جانبي النهر وراء الكوت، وكان أهم موقع لديهم هو موقع « الفلاحية » الذي يطلق الانكليز عليه اسم « الصناعيات » ويقع على الجانب الايسر من النهر على بعد خمسة وعشرين ميلاً من الكوت ، وهو عبارة عن برزخ ضيق من الارض يحيط به نهر دجلة من الجنوب وهور الشويجة من الشمال ، ويعتبر اعظم موقع عسكري فيما بين البصرة وبغداد وقد وصفه بعض العسكريين بأنه « دردنيل العراق » .

ويقال ان المارشال غولتز كان أول من اكتشف أهمية هذا الموقع ولفت انظار الاتراك اليه ، وذلك في بداية حصار الكوت ، حيث قال للاتراك : انكم اذا حافظتم على هذا الموقع فلن يستطيع الانكليز أن ينالوا منكم شيئاً . وقد اتبع خليل باشا نصيحة غولتز مما أدى الى استسلام حامية الكوت على ما نحو ما شرحناه في فصل سابق .

الواقع ان الاتراك جعلوا موقع الفلاحية منيعاً الى درجة يندر لها مثيل . حدثني أحد الضباط الذين حاربوا في ذلك الموقع فقال ان الخنادق المحفورة فيه تشبه أزقة بغداد لكثرتها وتشعبها واتصال بعضها ببعض ، وكان الجنود يعيشون في تلك الخنادق ـ يأكلون وينامون ويتنقلون ـ فلا يستطيع العدو أن يعرف عنهم شيئاً .

---

(5) Barker (op. cit.) — p. 318.

حشد الاتراك في الفلاحية والجانب المقابل لها من النهـر الفيلق الثامن عشر وتعداده عشرة آلاف جندي بقيادة كاظم بك قره بكر • وفي كانون الاول ١٩١٦ عندما ظهرت بوادر الاستعداد العسكري الذي كان يقوم به الجنرال مود أرسل كاظم بك عدة برقيات الى خليل باشا يخبره بأمر هذا الاستعداد ، وذكر له أن القوات الانكليزية تبلغ أربعة أضعاف القوات التي لديه ، وطلب منه امداداً كافياً ، غير أن خليـل باشـا استخف بكلامه ولم يهتم باجابة طلبه • [٦] انه كان واثقاً كل الثقة ان الانكليز لن يقدروا على اختراق الخطوط التركية في الفلاحيـة مهما حاولوا ، وكـان واثقاً أيضاً أن القوات التركية في ايران ستعود بعد انتصارها التام على الروس الى العراق عن طريق بدرة وجصان فتقطع خط الرجعة على الانكليز من ورائهم • يقول باركر : ان الاعتداد بالنفس والافكار الثابتة التي كانت مسيطرة على ذهن خليل باشـا كانت بمثابة فرقـة عسكرية تضـاف الى قوات مود • [٧]

كان لدى مود فيلقان أحدهما على الجانب الايسر من دجلة تجـاه الفلاحية بقيادة الجنرال كوب ، والثاني على الجانب الايمن بقيـادة الجنرال مارشال • وكانت خطة مود في الهجوم مستمدة من القاعدة النابليونية أي توجيه أعظم قوة على أضعف نقطة من مواقع العدو • ولهذا قرر مود أن يتظاهر بالهجوم على موقع الفلاحية المنيع ، فيقصفه بالمدافع قصفاً شديداً، بينما هو يشن هجومه الفعلي على الجانب الآخر من النهر — أي الجـانب الايمن — حيث تكون خطوط الاتراك أقل مناعة •

وفي اوائل كانون الاول كان مود مستعدا للبـدء بهجومه غير ان القيادة العليا في لندن كانت مترددة في الموافقة على ذلك اذ هي كـانت تخشى أن يكون مصير مود كمصير سلفه طوزند • [٨] ويبدو أنها كـانت

---

(٦) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) — بغداد ١٩٢٥ — ج ١ ص ١٢٠ •

(7) Barker (op. cit) — p. 323.

(8) George Buchanon (The Tragedy of Mesopotamia) — London 1938 — p. 148.

مثل معضوض الحية الذي يخاف من الحبل • وقد وافقت القيادة العليا أخيراً على البدء بالهجوم غير أنها اشترطت على مود أن لا يعرض قواته لخسائر كبيرة •

كان الجانب الايمن من دجلة مليئاً بالتلول والجداول الجافة التي تحتوي على استحكامات قوية للاتراك ، وكانت خطة مود أن لا يهاجم تلك الاستحكامات بل يدور حولها من جهة الجنوب بقوس بعيد المدى، ثم يعبر نهر الغراف ويحيط بتلك الاستحكامات من ورائها • وفي ١٣ كانون الاول بدأ مود بتنفيذ خطته مستغلاً تفوقه بالمدافع والخيالة ، فشرعت المدافع تقصف موقع الفلاحية بوابل من القنابل ، وكان القصف على درجة من الشدة بحيث ظن الاتراك ان الهجوم الرئيسي موجه على هذا الموقع ، وأسرع كاظم بك فأرسل قسماً من قواته الاحتياطية عبر النهر لتعزيز الموقع هناك تجاه الهجوم المتوقع • (٩)

وعندما جاء الليل تحركت قوة من الخيالة الانكليزية تحت جنح الظلام باتجاه « البسروقية » الواقعة على نهر الغراف على بعد اثنى عشر ميلاً من بلدة الحي ، فاحتلتها في الساعة السادسة صباحاً • واستطاع الانكليز بعدئذ أن ينصبوا جسرين على نهر الغراف ، فعبرت عليهما قوات كبيرة وبدأت تتجه شمالاً على ضفة الغراف اليمنى •

صمود الاتراك :

عند انتهاء عام ١٩١٦ كان الجنرال مود قد تمكن من الاستيلاء على الجانب الايمن من دجلة كله ماعدا موقعين هما : دورة الخضيري وصدر الغراف • فقد كان الاتراك متحصنين في هذين الموقعين تحصناً قوياً • وقد وقف مود تجاههم جامدا اذ هو لا يتمكن من الهجوم عليهم دون أن يكبد قواته خسائر فادحة ، وذلك أمر لا تسمح به القيادة العليا في لندن •

وفي اوائل العام الجديد سمحت القيادة العليا لمود بتكبد الخسائر على شرط أن لا تتجاوز نسبتها الـ ٢٥ بالمائة • فبدأ مود هجومه على دورة

---

(9) Barker (op. cit.) — p. 325.

الخضيري ، ونشبت اذ ذاك معركة تعد من أشد معارك العراق ، وربما أشدها جميعاً ، في كثرة الخسائر التي تكبدها الفريقان ، وفي قوة الصمود الذي أبداه الجنود الاتراك فيها .

ان دورة الخضيري عبارة عن منعطف في نهر دجلة يقابل السكوت ويقع الى الشرق منها ، ويبلغ طول جبهته المواجهة للانكليز زهاء ميلين ، وكان الاتراك قد ملأوه كله بشبكة من الخنادق على شاكلة موقع الفلاحية، وجعلوا طريق تموينه من الخلف عن طريق النهر . وقد أدرك مود مناعة هذا الموقع فسلط عليه عددا ضخما من المدافع والقوات بالرغم من صغر مساحته ، بحيث بلغ مجموع القنابل التي قذفت عليه خلال المعركة أربعين ألفاً ، وبلغ تركيز القوات عليه معدل فوج واحد لكل مائتي ياردة من الجبهة . (١٠)

كان القائد التركي كاظم بك قد صمم على الصمود في ذلك الموقع حتى النفس الاخير ، فكلما هلك فوج من جنوده أرسل عبر النهر فوجاً آخر ليحل محله . وكان الجنود الأتراك يقاتلون بالسلاح الابيض ويموتون دون أن يتراجعوا ، فضربوا بذلك مثلاً رائعاً في البطولة لا نظير له . وقد أرسل كاظم بك الى قائد الموقع رسالة قال فيها : « ان صمود الجنود على الرغم من خسائرهم الفادحة يستحق ثناءاً فوق كل ثناء ، وان قائد الفيلق يقبل عيون كل الجنود ويشكرهم » . ويعلق باركر على هذا فيقول: « لاشك ان الجنود الاتراك يستحقون مثل هذا الثناء على الرغم مما في عباراته من مبالغة » . (١١)

استمرت المعارك في دورة الخضيري ثلاثة أسابيع ، ولكن نهايتها كانت معروفة لان اللحم والدم لابد ان ينالهما الهلاك تجاه الحديد والنار. وقد بلغت خسائر الاتراك في تلك المعارك ثلثي عدد الجنود تقريباً ، وتلك نسبة عالية جداً قلما يستطيع جيش في العالم تحملها . وقد أطلق الاتراك

---

(١٠) شكري محمود نديم (حرب العراق) ـ بغداد ١٩٦٧ ـ ص ١٢٦ .

(11) Barker (op. cit.) — p. 333.

على تل هناك اسم « قرق غازيلر تبه سي » أي تل الاربعين غازياً ، وذلك تذكار لفوج من الاتراك لم يسلم منه في القتال سوى أربعين جندياً. (١٢)

وفي ٢٥ كانون الثاني ١٩١٧ بدأ مود هجومه على الموقع التركي الثاني الذي يقع حول صدر الغراف ، وقد صمد الاتراك في هذا الموقع أيضاً ، واستمرت المعارك فيه اكثر من عشرة أيام . ويتساءل باركر عن سر هذا الصمود الذي أبداه الاتراك وظلوا مستمرين عليه حتى النهاية ، ويصف باركر ذلك بأنه لغز من الالغاز . (١٣) نسي باركر أن الاتراك كانوا يقاتلون بدافع ديني اذ كانوا مؤمنين كل الايمان أنهم اذا ماتوا دخلوا الجنة، وتلك عقيدة لها أثرها في تعزيز روح الفداء لدى الجنود كما لا يخفى .

انتصار مود :

عندما تم للجنرال مود الاستيلاء على الجانب الايمن من نهر دجلة قرر العبور الى الجانب الآخر من النهر فوق الكوت لقطع خط الرجعة على الاتراك المتحصنين في موقع الفلاحية . وقد اختار مود منعطف شمران موضعاً للعبور وهو يقع على بعد سبعة أميال من غرب الكوت . والواقع ان عبور النهر لم يكن بالامر الهين لان الاتراك كانوا قادرين أن يدمروا أي رأس جسر يمكن أن يقيمه الانكليز تمهيداً لعبورهم . واضطر مود الى وضع خطة تحتوي على الخدعة والمباغتة معاً .

بدأ تنفيذ الخطة في الجانب الايسر من دجلة حيث أخذ الجنرال كوب يمطر موقع الفلاحية بوابل من قنابله ، واستمر القصف ثلاثة أيام ، لايهام الاتراك بأن هجوماً كبيراً سيشن على هذا الموقع قريباً . ثم أرسل فوجين من قواته الى حافة هور الشويجة لكي يعسكرا هناك في وضح النهار بشكل متناثر واسع النطاق من أجل خداع الاتراك أيضاً . وفي الساعة العاشرة من صباح ٢٢ شباط شن الجنرال كوب هجوماً على موقع الفلاحية فأزاح

---

(١٢) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) — ج ١ ص ١٢١ .

(13) Barker (op. cit.) — p. 339.

الاتراك من خطوطهم الامامية ، ولكن الاتراك كروا وأزاحوا المهاجمين من الخطوط التي احتلوها . وظل القتال مستمرا بين الفريقين بين كر و فر . وكان القصد من هذا القتال الضاري هو الهاء الاتراك لكي لا يكتشفوا عملية نصب الجسر التي كانت تجري في الوقت نفسه على مسافة غير بعيدة من ساحة القتال .

كانت عملية نصب الجسر قد بدأت منذ فجر ٢٣ شباط ، وكانت عملية شاقة جدا تكتنفها الاخطار ، وقد سقط فيها من الضحايا كثيرون . وفي فجر اليوم التالي كانت العملية قد نجحت ، وأصبحت القوات التركية في الفلاحية مهددة بقطع خط الرجعة عليها ، فبدأت تنسحب باتجاه بغداد، وأصدر مود أمره الى قواته بمطاردة القوات التركية المنسحبة . (١٤)

قالت ايغان في وصف عملية العبور ما نصه : « ان عبور دجلة في منعطف شمران كان ألمع حادث في تاريخ الحملة البريطانية كلها ، فهو قد حدث بعد شهرين من القتال العنيف ، وبعد طرد الاتراك من جانب دجلة الايمن كله ... أما الحركات الجانبية التي كان مود يقصد بها خداع العدو والتي قادها الجنرال كوب فقد تحولت الى هجوم قوي ونجحت نجاحاً أذهل الاتراك . فقد كان الاتراك يعتقدون ان موقع الصناعيات — أي الفلاحية — لا يمكن اختراقه ، ولما تم اختراقه أخيراً انهارت معنوياتهم تماماً ولاذوا بالفرار نحو بغداد . وكذلك ذهل الاتراك من عبور النهر الذي لم يكونوا يتوقعونه وكان أمراً مستحيلاً ، وقد منعهم الذهول من القيام بمقاومة فعالة ازاءه . وصرح ضابط تركي أسير قائلا : انهم عندما كانوا يتداولون في احتمال عبور الانكليز للنهر استبعدوه وقالوا : ان العبور لا يقدم عليه الا المجانين . فقد كان النهر فائضاً وبلغ عرضه في موضع العبور ثلاثمائة وأربعين ياردة ، وحين جرى نصب الجسر صب الاتراك على القائمين به نيران الرشاشات وأوقعوا فيهم خسائر فادحة . ووصف الجنرال مود نصب الجسر بأنه نتيجة جرأة وتصميم لا يقهران ... » (١٥)

---

(14) Ibid, p. 345—355.

(15) Eleanor Egan (op. cit.) — p. 225 — 226.

ايامهم الاخيرة :

كان أنور باشا قد وصلته أنباء مقلقة عن جبهة الكوت منذ بدء المعارك فيها ، وفي ٢٧ كانون الاول ١٩١٦ وقف على رأس آلة التلغراف ليخابر خليل باشا يستفهم منه عن الحالة ، فأجابه خليل باشا : ان الحالة جيدة وان الفيلق الثامن عشر الموجود في جبهة الكوت يكفي وحده للدفاع عنها فلا حاجة الى سحب الفيلق الثالث عشر من ايران •

وفي أواخر كانون الثاني ١٩١٧ أبرق جمال باشا من الشام الى خليل باشا يستفهم منه عن الحالة أيضاً ، فأجابه خليل باشا : ان جبهة الكوت أقوى وأمتن من ذي قبل ، وذكر له قصة البطولة التي جرت حول تل الاربعين غازياً • يقول محمد أمين العمري فيمذكراته وكان يومذاك فيمعية خليل باشا : « كنت أرى هذا الجواب وقلبي يتلهف على ذلك الحال وأتأسف على تلك الاكاذيب » • (١٦)

لم يدرك خليل باشا خطورة الموقف الا" بعد أن تمكنت القوات الانكليزية من عبور دجلة في منعطف شمران • ففي مساء ٢٥ شباط أصدر خليل باشا أمره بانسحاب القوات التركية نحو بغداد ، كما أبرق الى علي احسان بك قائد الفيلق الثالث عشر في همدان يأمره بالاسراع في العودة الى العراق لانقاذ ما يمكن انقاذه فيه •

ويقال ان خليل أصبح منذ ذلك الحين في حالة نفسية سيئة وكأنه فقد اتزانه العقلي ، فكان يصدر أوامر متناقضة الى مرؤوسيه • (١٧) ففي ساعة يأس شديدة قرر الانسحاب الى سامراء رأساً ، ثم بدل رأيه بعد أربع وعشرين ساعة حيث أصدر أمره الى كاظم بك بان يتوقف في العزيزية لمقاتلة الانكليز ، ولكن كاظم بك تجاهل هذا الامر لعدم جدواه واستمر على انسحابه نحو سلمان باك • (١٨)

وفي ٢٧ شباط أصدر خليل باشا أوامر سرية بنقل ما يمكن نقله من

---

(١٦) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) — ج ١ ص ١٢٠ — ١٢١ •

(17) Arnold Wilson (Loyalties) London 1936 — vol. 1, p. 232.

(18) Barker (op. cit.) — p. 363.

مخازن الجيش الى سامراء وتدمير الباقي • فأخذت القطارات والمراكب النهرية تنقل ما تستطيع حمله من الاسلحة والمواد الغذائية والبضائع التي صودرت من التجار ، أما ما بقى منها فقد رمي في النهر أو أحرق•

وحين شاهد الاهالي ذلك أخذ الرعب ينتشر بينهم كما راجت بينهم الاشاعات والاراجيف ، وصاروا يخزنون المواد الغذائية في بيوتهم تحسباً للطوارىء ، كما شرع التجار ينقلون بضائعهم تحت جنح الظلام الى مخازن خفية خوفاً من مصادرة الحكومة لها ، أو خوفاً من نهب الغوغاء في حالة انسحاب الحكومة •

وفي ٦ آذار صدر الامر الى الموظفين بمغادرة بغداد ، فغادرها الكثير منهم • [١٩] يقول طالب مشتاق في مذكراته ، وكان يومذاك تلميذا فـي السابعة عشرة من عمره :

« في ٩ آذار ١٩١٧ أرسل بطلبي المرحوم فائق بك وكيل والي بغداد وكان صديقاً لوالدي منذ كان قائمقاماً في بعقوبة ، ولما حضرت بين يديه ومعي أخي أكرم المرحوم نظر الينا بتأثر والالم يطفح على وجهه وقال : اننا الآن نخلي بغداد والجيش التركي يتراجع في كل الجبهات ولا يستبعد أن يدخل الجيش الانكليزي الى بغداد غداً أو بعد غد ، فعليكما أن تسافرا حالاً الى بعقوبة لتكونا مع أفراد عائلتكما هناك ، وقد هيأت لكما عربة، وسيرافقكما شرطي للمحافظة عليكما حتى تصلا الى بعقوبة ••• » [٢٠]

يلاحظ القاريء كيف يبدو فائق بك هنا طيب القلب شفيقاً ذا مروءة ، مع العلم انه هو نفسه الذي فعل الافاعيل باهل بغداد منذ عهد قريب كما أشرنا اليه في الفصل السابق • وليس هذا بالامر الغريب في ضوء ما نعرفه من الطبيعة البشرية ، فالانسان كثيرا ما يكون ظالماً سفاكا تجاه قوم بينما هو رحيم شفيق تجاه آخرين ، ومن النادر أن نجد انسانا يقسو على الناس جميعاً أو يرحمهم جميعاً •

---

(١٩) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) ــ بغداد ١٩٥٦ ــ ج ٨ ص ٣٠٥ •

(٢٠) طالب مشتاق (اوراق أيامي) ــ بيروت ١٩٦٨ ــ ج ١ ص ١٧ ــ ١٨ •

التقدم نحو بغداد :

في ٢٧ شباط ١٩١٧ كانت القوات الانكليزية قد وصلت الى العزيزية ، فأبرق مود الى القيادة العليا بلندن يقول ان الاتراك انهكتهم الهزيمة وهو يطلب الاذن لانتهاز الفرصة والتقدم نحو بغداد لاحتلالها . فكان جواب القيادة العليا أن من الاسلم له أن ينتظر حتى يصل الروس الى مقربة من بغداد . فرد عليها مود ، وردت هي عليه . انه يريد التقدم نحو بغداد ، وهي تخشى أن يصيب مود ما أصاب سلفه طونزند . وظلت البرقيات تغدو وتروح بين العراق ودلهي ولندن حول هذا الموضوع . وبذا ضاعت بضعة ايام ثمينة . ثم وصل الامر اخيراً في السماح لمود بأن يفعل ما يراه صالحاً على شرط أن يكون حذرا فلا يبالغ في الاندفاع . (٢١)

تحركت القوات الانكليزية من العزيزية في ٥ آذار ، فوصلت الى نهر ديالى في ٧ منه . وفي الساعات الاولى من صباح اليوم التالي حاولت القوات الانكليزية نصب جسر على ديالى فلم تنجح لان الاتراك كانوا قد أحسوا بها فسلطوا عليها نيراناً شديدة بمساعدة نور القمر . وقد أعادت القوات الانكليزية محاولتها للعبور في الليلة الثانية ، وكان نجاحها ضئيلاً اذ لم يتمكن من عبور ديالى سوى مائة جندي ، ولكن هؤلاء الجنود صمدوا في مواضعهم وصدوا الهجمات العنيفة التي قام بها الاتراك عليهم . وفي الساعة الثالثة والنصف من صباح ١٠ آذار قامت القوات الانكليزية بمحاولة ثالثة للعبور . وفي ظهر ذلك اليوم تم نصب الجسر على ديالى ، وانسحب الاتراك الى خط كرارة ـ تل محمد . (٢٢)

كان يوم ١٠ آذار شديد النحس على بغداد ، ففي الساعة التاسعة من صباح ذلك اليوم هبت ريح جنوبية هوجاء مليئة بالغبار ، وأخذت تشتد ساعة بعد ساعة حتى صار مجال الرؤية بعد الظهر لا يزيد على خمسين ياردة . وفي الوقت نفسه كانت طلائع القوات الانكليزية تطبق

---

(21) Barker (op. cit.) p. 361—362.

(٢٢) شكري محمود نديم (المصدر السابق) ـ ص ١٣٤ ـ ١٣٥ .

على بغداد من كلا الجانبين ، اذ هي وصلت من الجانب الشرقي الى مقربة من تل محمد ، ومن الجانب الغربي الى مقربة من أم الطبول •

كان القواد الاتراك يومذاك مجتمعين برئاسة خليل باشا في كشك من الخشب قرب جسر الخر الواقع الى الغرب من بغداد ، وكان معهم بعض الضباط الالمان • وعند الغروب عقدوا مؤتمراً عسكرياً للمداولة في الخطة التي يواجهون بها تقدم القوات الانكليزية ، وسرعان ما ظهر خلاف في الرأي بينهم اذ انقسموا الى فريقين ، فكان فريق منهم وعلى رأسه خليل باشا يرى وجوب الصمود في بغداد والدفاع عنها لما لهذه المدينة التاريخية من أهمية معنوية وصيت ذائع، وكان الفريق الآخر وعلى رأسه كاظم بك قائد الفيلق الثامن عشر يرى ضرورة الانسحاب من بغداد عاجلاً قبل أن تتمكن القوات الانكليزية من تطويقهم فيها فيخسروا عندئذٍ الخيط والعصفور معاً • وقد احتدم النقاش بين الفريقين ، [٢٣] فقال خليل باشا ان الربح المعنوي يستحق أن يُضحي في سبيله ببضعة آلاف جندي [٢٤] ، وكان رد كاظم بك عليه : ان الاعتبارات العسكرية في هذا الامر أهم من الاعتبارات المعنوية •

وفي الساعة الثامنة مساءاً خرج خليل باشا من المؤتمر لمدة عشر دقائق حيث اختلى مع رئيس أركان حربه في غرفة مجاورة ، ثم عاد ليعلن أنه وافق على الانسحاب من بغداد • وأسرع كاظم بك عندئذٍ فأوعز الى قواته بالانسحاب شمالاً بمحاذاة سكة الحديد نحو قرية المشاهدة الواقعة على بعد تسعة عشر ميلاً من بغداد • وفي الساعة العاشرة من تلك الليلة أرسل خليل باشا الى أنور باشا برقية جاء فيها ما يلي :

« لما كان العدو قد قام بهجوم دائب طوال الاشهر الثلاثة الاخيرة وبقوات وعتاد تفوق مالدينا ، وجدتُ الفيلق الثامن عشر في توقف عام ومعنوياته قد انهارت وشمل ذلك كل من فيه من القائد الاعلى حتى أصغر جنديّ ، فلذلك صرت على ثقة من أن أية معركة يشنها جيش العدو كله

---

(23) Barker (op. cit.) — p. 375.

(24) Moberly (op. cit.) — vol. 3, p. 241.

ستؤدي الى ضياع بغداد صباح الغد والى الاستيلاء على كل ما لجيشنا من مدافع • ورغبة مني في تحطيم الاجراء المتخذ وتقوية معنوية الجيش ومعداته سأواجه الضرورة الملزمة : وهي اخلاء بغداد » • (٢٥)

يلاحظ القارىء في هذه البرقية أنها تتضمن اشارة غير حسنة الى كاظم بك قائد الفيلق الثامن عشر حيث يذكر خليل باشا فيها ان كاظم بك قد انهارت معنويته على نبط ما انهارت معنوية أصغر جنوده • وهذا دليل على وجود شيء من النفور بين الرجلين •

يمكن القول ان النفور بين خليل باشا وكاظم بك بدأ منذ ظهور بوادر الاستعدادات الانكليزية لمهاجمة جبهة الكوت ، فقد كان كاظم بك كما أشرنا اليه سابقاً يلح في طلب الامداد لقواته في تلك الجبهة بينما كان خليل باشا واثقاً من مناعة الجبهة وأنها لا تحتاج الى امداد • ومن الجدير بالذكر ان هذين الرجلين يختلفان في تكوين شخصيتهما اختلافاً واضحاً ، وقد اشار الى ذلك لورنس في تقرير له الى وزارة الحرب البريطانية على أثر مقابلته لهما في مفاوضات الكوت • (٢٦) فخليل باشا مجامل ذو شخصية محبوبة لكنه متهور يضجر من سماع التفاصيل ، بينما كاظم بك صارم حذر وذو ثقافة عالية • وعندما يسود التفاهم بينهما يستطيع كاظم بك أن يستكمل الصفات التي تنقص خليل باشا ، أما في حالة الخلاف فان خليل باشا يعمل برأيه وحده •

الليلة الليلاء :

كانت محطة قطار بغداد في مساء ١٠ آذار مهددة بالخطر لاقتراب طلائع القوات الانكليزية منها ، ولهذا لم يستطع الاتراك ركوب القطار منها واضطروا الى الذهاب الى محطة قطار الكاظمية التي تقع على بعد خمسة أميال منها • وقد صارت محطة الكاظمية من جراء ذلك في هرج

---

(٢٥) ريجارد كوك (بغداد مدينة السلام) — ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد — بغداد ١٩٦٧ — ج ٢ ص ١٩٦ •

(٢٦) نايتلي وسمبسون (المخفي من حياة لورنس العرب) — ترجمة لاوند والعابد — بيروت ١٩٧١ — ص ٥٤ •

ومرج الى أقصى حد حيث تزاحمت فيهـا حشـود الجنـود والجرحى وصنـاديق الاسـلحة والعتـاد والطائرات ، وهي كلها تنتظـر التحميل في القطار بالرغم من شدة العاصفة •

وصف ضابط الركن محمد امين الذي كان في معية خليل باشـا حالة المحطة في ذلك الوقت فقال :

« بعد ما وقّع قائد الجيش أمر الانسحاب من مدينة بغداد التـي كانت أضويتها تشاهد من بعيد من خلال ظلام الليل وغبار العاصفة ، ركب سيارته كأنه يريد أن يتهرب من رؤية المنظر ، وذهب الى مقره في الكاظمية• وذهبنا جميعاً معه ، فلما وصلنا اليها كانت العاصفة ما زالت ترمينا بلفحات الغبار ، ولم تعطنا أية راحة حتى في خيامنا • ويبدو أن الطبيعـة كـانت غاضبة علينا لذنوبنا وتريد الانتقام منا ومن الالوف الـذين كانوا فـي جوارنا • وكان وصولنا الى المحطة في منتصف الليل تقريباً ، وكان الظلام حالكاً و كل شيء في ارتباك شديد ••• فخصصت عربة ركاب واحـدة من ذوات الدرجة الثالثة مع عربات حمل قليلة للقيادة ، بينما شحنت عربات حمل أخرى بالاعتدة • وقد وصلتنا الاخبار آنذاك بأن زورقاً محمـلاً بالاعتدة قد ترك في شاطيء الكاظمية ••• وحين تحرك القطار بنا رأينـا المحطة مليئة بالمواد والمؤون والجرحى والمرضى دون أن تفكر في خطـة يمكن انقاذ تلك المواد والمرضى بها ••• وكان هناك في المحطـة قطـار آخر يحتوي على أثنتي عشر عربة حمل وهو مستعد للتحرك بعدنا ••»[٢٧]

لم يُكد القطار يغادر محطة الكاظمية حتى بدأت لمعات الانفجارات تظهر في أفق بغداد ، ذلك لان الاتراك أخذوا ينسفون مخازن الذخيرة فيها وجميع المنشآت العسكرية التي يمكن أن يستفيد العدو منها ، وكـان من جملة ما نسفوه محطة اللاسلكي في الجانب الغربي من بغداد وكان الالمان قد أكملوا انشاءها منذ عهد قريب للاتصال ببرلين مباشرة ، كمـا نسفوا باب الطلسم لوجود مخزن للذخيرة فيـه وهو من أبواب بغـداد القديمة ويعد من كنوزها الاثرية ، وقد هز نسفه مدينة بغداد هزاً عنيفاً •

---

(27) Moberly (op. cit.) — vol. 3. p. 343—344.

وكذلك أحرق الاتراك جسر بغداد ، وظلت النار تشتعل فيه طيلة الليل والنهار التالي .

كان الشاعر المعروف خيري الهنداوي آنذاك هارباً من الاتراك ومختفياً في بيت أحد أقربائه في محلة المهدية ، وقد وصف ما جرى في تلك الليلة بمقالة نشرها في مجلة المقتطف عام ١٩١٧ ، فقال : « اهتزاز في الغرفة شديد وجلبة وضوضاء ووقع أقدام كثيرة في الطريق . انتبهتُ مذعوراً وأرسلت تواً نظري نحو الطريق ، وبالرغم من شدة الريح وتكاثف الظلام رأيت ثلة من الجند التركي قد اجتازت الدار يتخلف عنها اثنان يتهامسان يقول أحدهما لصاحبه : قد أخليت المدينة ؟ وفي هذه الساعة يبرح قائد الشرطة والدرك بغداد . قال له ذلك ومضيا يهرولان خلف رفاقهما ... نهضتُ فصعدت الى الطابق الاعلى فخيل لي أن ألسنة النار التي كنت أراها مرتفعة في الفضاء ألسنة أولئك الشهداء المظلومين تدعو على الظالمين بالويل والدمار ... » (٢٨)

وقد انتهز بعض الجنود الفرصة في تلك الليلة ، فصاروا يختفون في الأزقة والخانات وفي بعض البيوت فراراً من الجندية . وكانت القيادة التركية قد أصدرت الامر باطلاق الرصاص على كل من يتخلف في الطريق من الجنود ، (٢٩) ، ولكن ذلك لم يكن له سوى أثر محدود لان شدة العاصفة والظلام وسرعة الانسحاب كانت من العوامل المساعدة للجنود على الفرار .

وقد انتهز السجناء الفرصة في تلك الليلة كذلك ، اذ هم لم يكادوا يسمعون بانسحاب الحكومة حتى أسرعوا الى أبواب سجونهم فحطموها ثم انطلقوا نحو الاسواق والخانات ومحلات اليهود والنصارى يكسرون أقفالها ويعيثون فيها نهباً وتخريباً . وانضم اليهم غوغاء المدينة وضواحيها، وبذا أخذ نطاق النهب يزداد اتساعاً ساعة بعد ساعة .

حدثني محمود حلمي الكتبي : أنه كان في تلك الليلة يسكن في خان

---

(٢٨) يوسف عزالدين (خيري الهنداوي) ـ القاهرة ١٩٦٤ ـ ص ١٧٤ـ١٧٥.

(29) Barker (op. cit.) — p. 375.

مطل على شارع الجسر القديم ، فجاء الناهبون وبدأوا يحطمون باب الخان من أجل نهبه ، فاضطر هو أن يصعد الى السطح مع صاحب الخان وبعض ساكنيه ، وصاروا يستلون الطابوق من سياج السطح ويرمون به على رؤوس الناهبين ،وقد استطاعوا بعد جهد جهيد أن ينقذوا أنفسهم والخان من أولئك الاشرار •

وشب الحريق في بعض الخانات والاسواق ، وكان سبب ذلك أن بعض الناهبين أوقدوا أوراقاً وخرقاً للاستضاءة بها أثناء النهب ثم رموها دون أن يهتموا باطفائها ، فامتدت النار منها الى البضائع الموجودة وأخذت تتسع شيئاً فشيئاً دون أن يأتي أحد لاطفائها • فلقد كان الناس ليلتئذٍ كأنهم في يوم الحشر ، كل واحد منهم يهتم بنفسه ولا يبالي بغيره •

واستمر النهب طيلة الليل ، وعند الصباح استفحل النهب واتسع نطاقه لا سيما بعد أن هدأت الريح ، فأخذ الكثير من الإطفال والصبيان يشاركون فيه ، يقول الهنداوي : انه رأى كثيراً من البنادق الالمانية والتركية في أيدي الاطفال والصبيان • [٣٠] وأصبحت دور الحكومة ودوائرها طعمة للغوغاء يعيثون فيها كما يشاؤون فلم يبق فيهاشيء من الكراسي والمناضد والرفوف حتى الاوراق والاضبارات بعثرت ومزقت تمزيقاً ، كما حطمت الابواب والشبابيك لاستخراج الخشب والحديد منها • وكذلك فعل الغوغاء بدكاكين باعة الكتب والقرطاسية في سوق السراي • يقول محمود حلمي الكتبي : انه حين جاء الى دكانه في صباح ذلك اليوم لم يجد فيه سوى أوراق متناثرة على الارض أما الكتب والرفوف فقد نهبت كلها •

الحالة في الكاظمية :

بلدة الكاظمية هي الآن جزء من مدينة بغداد الكبرى ولكنها في أيام الحرب الاولى كانت منفصلة عن بغداد تبعد عنها بخمسة أميال ، وكان عدد سكانها يبلغ الخمسة عشر ألفاً تقريباً •

وصلت الى أحد شواطىء الكاظمية في عصر ١٠ آذار جنيبة نهرية

---

(٣٠) يوسف عزالدين (المصدر السابق) ــ ص ١٧٥ •

مملوءة بالعتاد والبنادق ، وأراد القائمقام أن يستعين بأهل الكاظمية لنقل ما في الجنيبة الى محطة القطار ، فخرج المنادي الحاج هادي الخوجة ينادي في الاسواق يناشد الاهالي باسم الحمية والاسلام أن يهبوا لمساعدة الحكومة في نقل أسلحتها الى المحطة : ايها الناس هذه دولتكم التي ربتكم، وهي الآن في شدة ، وأنتم أهل الهمة والحمية . ولم يكد الناس يسمعون هذا النداء المؤثر حتى أسرعوا يقفلون دكاكينهم ، وذهبوا الى بيوتهم بدلاً من الذهاب لمساعدة الحكومة .

أدرك أهل الكاظمية ان الحكومة على وشك الانسحاب ففرحوا بذلك لانهم سوف ينجون من مظالمها وويلاتها ، ولكنهم في الوقت نفسه كانو يخافون من غزو العشائر في حالة انسحاب الحكومة . وفي فجر اليوم التالي تبين لهم ان الحكومة قد انسحبت فعلاً ، وجاء دور العشائر ، فهب بعض رؤساء البلدة ومغاويرها كالسيد جعفر عطيفة ، والشيخ حميد الكليدار ، وخليل الاسترابادي ، وغيرهم فحملوا أسلحتهم وأخذوا يتجولون في أطراف البلدة لحراستها ، وشاهد بعضهم نفراً من الاعراب مختبئين في بعض الدروب المؤدية الى البلدة ، كأنهم كانوا طلائع غزو مقبل، فشهر اولئك عليهم السلاح وصرخوا بهم مهددين ، فهربوا ...

ولما لاح نور الصباح خرج الغوغاء الى شاطئ النهر لنهب الجنيبة الراسية فيه ، وقد اشترك في النهب النساء والاطفال ، حتى صارت البنادق تشاهد في أيدي الاطفال على نحو ما وقع في بغداد . وانثال الغوغاء بعدئذ على السراي والمدرسة الاميرية المجاورة له ، فنهبوا ما فيهما من أثاث ، وانتزعوا منهما الابواب والشبابيك ، وبعثروا كل ما وجدوه في الدوائر من أوراق ومستندات .

وبينما كان الغوغاء منهمكين في نهب السراي والمدرسة مرت قافلة من الاباعر المحملة وهي متجهة شمالاً تريد اللحاق بالقوات التركية المنسحبة ، فانهالوا عليها ينهبونها ، ثم طرحوا الاباعر أرضاً وشرعوا يقطعون لحومها بما كان لديهم من خناجر وسكاكين . وحين شاهدهم أهل البيوت القريبة خرجوا يحملون السكاكين والاطبار للمشاركة في الغنيمة . ويقال ان بعضهم كانوا يقطعون لحم البعير قبل ذبحه ، فكان البعير يرفس برجليه

بين أيديهم للتخلص منهم ولكنــه سرعان ما يموت بعــد تكاثر السكاكين والخناجر والاطبار عليه !

ومن الجدير بالذكر أنه بينما كان الغوغاء مشغولين في شأنهم هذا ، كان آخرون من أهل الكاظمية يحملون مقادير كبيرة من الخبز والتمر الى الصحن لوجود بعض المتخلفين من الجنود الاتراك فيه ، فقد كان هؤلاء الجنود في حالة يرثى لها من الجوع والارهاق ، فهب الكاظميون لاغاثتهم، وساعدوهم بمقدار جهدهم • وكان هناك جندي ألماني قد ضل طريقــه فأخفاه رجل من أهل الكاظمية ثم ألبسه ملابس عربية وهربه الى سامراء •

والملاحظ بوجه عام أن النهب فــي الكاظمية اقتصر مجالــه علــى ممتلكات الحكومة فقط ، فلم يقع في الكاظمية ما وقع في بغداد من نهب واسع للاسواق والخانات • ويمكن تعليل ذلك بأن الكاظمية كانت يومذاك ذات مجتمع صغير متجانس يكاد أفراده يعرف بعضهم بعضــاً ويستحي بعضهم من بعض كأنهم عشيرة واحدة • أما بغداد فكانت على النقيض من ذلك ذات مجتمع واسع مفتوح يحتوي على الاقليات والغرباء من أنمــاط شتى كأنهم من عشائر مختلفة ، ولهذا فان غياب السلطة كثيراً ما يؤدي الى انتشار النهب والفوضى فيها •

دخــول بغــداد :

كان انسحاب الاتراك في مســاء ١٠ آذار ناجحاً الى حــد ما اذ لــم يكتشف الانكليز أمره الا" بعد فوات الاوان • ويقال ان من أسباب ذلك خطأ اقترفه الجنرال مود ، فقد كانت قواته الزاحفة على الجانب الشــرقي من دجلة قد وصلت الكرادة الشرقية في الصباح الباكر وهي على وشــك الدخول الى بغداد ، ولكنه أمرها بالتوقف وأوعز الى القوات التي كــانت على الجانب الغربي بأن يكون لها شرف الدخول الى بغداد قبل غيرهــا • وحين دخلت هذه القوات الى جانب الكرخ ، في الساعة التاسعة صباحاً وجدت الجسر قد أحرقه الاتراك فاضطرت أن تعبر النهر بوساطة القفف ، وكان هذا عملاً" بطيئاً أدى الى ضياع بضع ساعات •، وقد استغلت القوات التركية تلك الفرصة حيث استطاعت ان تبتعد عن بغداد مسافة مكنتها من

لمّ شعثها وانقاذ بقاياها المتأخرة .

كان أول داخل الى بغداد ضابط بريطاني اسمه الكابتن كمب ، وكان دخوله على سبيل الصدفة غير مقصود ، فهو كان تابعاً للقوات الزاحفة على الجانب الشرقي من النهر ، وظل سائراً في طريقه وهو يحسب ان الجنود أمامه ، فدخل بغداد وحده فوجد الشوارع مملوءة بالناس وهم يحيونه بحماس بالغ . (٣١)

وبعد فترة من الزمن دخل من الباب الشرقي الجنرال طومسون الذي عيّن حاكماً عسكرياً لبغداد ، وهو على رأس ثلة من الخيالة ، فكان في استقباله هناك القنصل الامريكي والقنصل الايراني وحاخام اليهود ، وعدد من الاعيان والتجار وهم يحملون عريضة يطلبون فيها الاسراع باحتلال بغداد لانقاذهم من عيث الغوغاء . وأخذ التجار يشكون الى الجنرال طومسون من فداحة الخسائر التي أصابتهم خلال الساعات القليلة الماضية، وقدروها بربع مليون باون ... (٣٢)

وقبيل ظهر ذلك اليوم صعد ضابط بريطاني الى سطح القلعة القريبة من باب المعظم فرفع عليه العلم البريطاني . وبعد خمس واربعين دقيقة نقل العلم الى برج الساعة في ساحة القشلة لانه اكثر ارتفاعاً . وهذا العلم محفوظ الآن في كاتدرائية كانتربري بلندن . (٣٣)

وفي أثناء ذلك كان الجنود يتجولون في الشوارع والاسواق يطاردون الناهبين ويطلقون الرصاص فوق رؤوسهم لارهابهم . يقول ريجارد كوك : ان اللصوص ارتعبوا عند رؤيتهم الشرطة فتركوا ما نهبوه في الطرقات . فصارت الطرقات مملوءة بنفائس الاموال على أنواعها ، وخرج المنهوبون من دورهم يسترجعون ما نهب منهم . واستغل بعض الناس الفرصة فأخذوا ينفسون عن أحقادهم بالوشاية بأعدائهم الى الشرطة، وكان الارمن سباقين في ذلك بوجه خاص . (٣٤)

---

(31) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 1, p. 234.

(32) Barker (op. cit.) — p. 376—377.

(33) Moberly (op. cit.) — vol. 3, p. 247.

(٣٤) ريجارد كوك (المصدر السابق) — ج ٢ ص ٢٠٠ .

وفي الساعة الرابعة والنصف عصراً وصلت الى بغداد سبعة مراكب حربية تحمل الجنرال مود وحاشيته ، فنزل مود في دار القنصلية البريطانية الواقعة على النهر ، وهي الدار التي نزل فيها قبله المارشال غولتز وخليل باشا . تقول الصحافية الامريكية اليانور ايغان : « أسـف الكثيرون ممن يعنيهم الامر لان الجنرال مود دخل بغداد من غير احتفال ، والمعتقد ان دخوله لو كان قد صاحبه استعراض فخم وفخفخة لكان له تأثير قوي على السكان المحليين وساعد على تعزيز النفوذ البريطاني في البلاد . ولكن الجنرال مود كان رجلاً لا يحب الزهو من أي نوع ، وبناءاً على أمره لم يدخل بغداد من بابها الجنوبية الا جنود قليلون ، وقد ارسلت الدوريات في الشوارع حالاً وأوعز مود الى قائد مركبه بأن يرسو عند دار القنصلية، ثم نزل اليها كما ينزل أي مسافر أنهكه التعب في ظروف اعتيادية » . (٣٥)

تقييم مود :

عندما دخل الانكليز بغداد شعروا بخيبة أمل مريرة . فهم كابدوا في سبيلها كل المكابدة ، وكانوا يتخيلونها مليئة بالمغريات وأسباب الرفاهيـة حسبما ورد وصفها في كتاب ألف ليلة وليلة ، ثم وجدوها على الضد من ذلك وأخذوا يتلاومون اذ قال بعضهم لبعض : هل هذه هي المدينة المشهورة التي قتلنا أنفسنا من أجلها ؟! . وقد وصف ويلسون بغداد آنذاك قائلا :

« ان مدينة بغداد كانت موضع خيبـة أمل مريرة للجنود . فلقـد كانت القباب الذهبية في الكاظمية ، والقباب المكسوة بالقاشاني في بغداد، وقبر السيدة زبيدة ، وأشجار النخيل الباسقة ، والبساتين الخضراء المليئة بالبرتقال والفواكه ، تبدو من بعيد رائعة ، ولكن المدينة نفسها ليس فيها شيء من الجاذبية ... وكانت معروفة بين المدن التركية بأنها لا تملـك وسائل الرفاهية ... » (٣٦)

وعلى كل حال فقد كان لسقوط بغداد وقع أليم في قلوب رجـال

(35) Eleanor Egan (op. cit.) — p. 228.
(36) Arnold Wilson (op. cit) — vol. 1, p. 239.

الدولة في اسطنبول ، فصمموا على استعادتها بأي ثمن ، وحرصوا على كتمان نبأ سقوطها ، وظل الناس في مختلف أنحاء الدولة العثمانية لا يعرفون عن سقوط بغداد شيئاً • أما في بريطانيا فكان الامر على العكس من ذلك، اذ اهتزت الامبراطورية البريطانية فرحاً بفتح بغداد ، واصبح اسم الجنرال مود مشهورا في العالم وجاءته التهاني ورسائل المديح من كل مكـان ، ومنحته الحكومة البريطانية مختلف الالقاب والاوسمة ، كما منحته فرنسا لقب « قائد جيش الشرف » ، ورقي من رتبة « ميجر جنرال » الى رتبـة « لفتننت جنرال » [٣٧] أي من رتبة لواء الى رتبة فريق • ووقف اللورد كرزن يخطب في مجلس اللوردين قائلا : « يمكن القول ان الجنرال مود استطاع بضربة واحدة ، أو بسلسلة من الضربات ، أن يغير تاريخ العالم• وليس من المعقول ان سكان تلك المناطق الطيبـة الذين أنقذهم مود مـن العبودية يعودون الى العبودية مرة أخرى » • [٣٨]

وقد أختلف النقاد العسكريون في أمر فتح بغداد : هل هو نتيجـة ما أبداه الجنرال مود من كفاءة في القيادة أم هو نتيجـة ما كان لديـه من تفوق في الرجال والسلاح ؟

ذهب فريق من النقاد الى أن الخطة التي وضعها مود لفتح بغداد تعتبر قطعة رائعة من الفن العسكري ، [٣٩] بينما ذهب آخرون الى النقيض من ذلك اذ قالوا ان فتح بغداد لم يكن ناتجاً عن براعة عسكرية بقدرما كان ناتجاً عن تفوق كبير في الرجال والسلاح • [٤٠]

ويميل بعض النقاد الى القول بأن طونزند كان اكثر براعة من مود ولكن الحظ هو الذي جعل هذا ناجحاً وذاك فاشلاً ، ويقصدون بالحظ مجموعة الظروف والمصادفات التي لعبت دورها في حياة كل منهما • فقـد كان لدى طونزند عند زحفه على بغداد فرقة واحدة لا يتجاوز عدد افرادها

(37) Eleanor Egan (op. cit.) — p. 242.

(38) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 1, p. 228.

(39) Elizabeth Burgoyne (Gertrude Bell) — London 1961 — vol. 2.. p. 68.

(40) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 1, p. 253.

ثلاثة عشر ألف جندي ، بينما كان لدى مود سبع فرق تقريباً والكثير من الخيالة والمدافع والمراكب وسكك الحديد . كتب طونزند في مذكراته يدافع عن نفسه قائلا ما نصه :

« لو أقدم نابليون أو هنيبال على حملة مثل حملتي بتلك القوة اليسيرة لكان نصيبه منها الخذلان والفشل . واذا علم القارىء أن الفريق مود زحف بعد ذلك للاستيلاء على بغداد بقوة تتألف من ١١٣٫٠٠٠ الى ١٢٠٫٠٠٠ جندي مجهزة بكامل العدة من مدافع وميرة ومراكب بخارية وسكك حديدية وغيرها ـ يقابل ذلك قوتي التي كانت مؤلفة من ١٣٫٠٠٠ جندي ـ قدر شأن الملحوظة التي أبديتها للفريق نكسون حق قدره ».[٤١]

الانسحاب من الفرات الاوسط :

كان للاتراك في الفرات الاوسط قوات مؤلفة من فوجين من المشاة وسرية خيالة وبطرية مدفعية ، وهي بقيادة أحمد بك أوراق وضابط ركنه توفيق بك وهبي ، وكان مقرها في ناحية خضر الدراجي الواقعة في جنوب السماوة . فلما أصبحت بغداد على وشك السقوط وردت الى القائد احمد بك برقية تأمره بالانسحاب مع قواته الى الحلة .

وصلت القوات الى الحلة في مساء ١٠ آذار ـ أي في نفس الليلة التي انسحبت فيها القوات التركية من بغداد ـ فباتت في الحلة وهي لا تعرف ماذا كان يجري في بغداد . وعندما أصبح الصباح وردت اليها برقية تأمرها بالانسحاب نحو سدة الهندية ، ولكنها لم تكد تبدأ بانسحابها حتى صار الرصاص ينهمر عليها من سطوح دور الحلة وشرفاتها ، والظاهر ان أهل الحلة علموا بخبر سقوط بغداد فأرادوا انتهاز الفرصة للانتقام من القوات التركية جزاء ما فعلته بهم في واقعة عاكف . وقد لقيت القوات التركية أثناء سيرها في الطريق الى سدة الهندية مثلما لقيته في بلدة الحلة ، اذ كانت العشائر تطلق عليها الرصاص باستمرار ، وكانت هي تقاتل

---

(٤١) تشارلس طونزند (محاربتي في العراق) ـ ترجمة عبدالمسيح وزير ـ بغداد ١٩٢٣ ـ ص ٧ .

يميناً وشمالاً وأماماً وخلفاً .[٤٢]

وحين وصلت القوات الى سدة الهندية وردت اليها برقية من القيادة العامة في سامراء تأمرها بنسف السدة والانسحاب الى الفلوجة . ويدعي تحسين العسكري في مذكراته انه هو الذي كان السبب في عدم نسف السدة وبذلك أنقذ زهاء مليون نسمة من سكان العراق الذين كانت السدة تجلب لهم الخير والبركة . وهو يقول في ذلك مانصه :

« ... فآليت على نفسي أن أحول دون تخريب هذه السدة لانقذ حياة كثيرين من أبنـاء بلادي ، ورحت أبث الخبر بين العشائر ليقاوموا التخريب ، فانتشر بينهم بسرعة البرق ، فقاموا لذلك وقعدوا ، وهوسوا في الحال ، ودنوا من السدة يترصدون المخربين عن كثب ، حتى اذا جاءت سرية الاستحكام (الهندسة) تضع الديناميت تحت قناطر السدة هاجمتها هذه الجموع المحتشدة من العشائر مهددة متوعدة ، فهربت وجاءت تنبيء آمر الجحفل بخبر هذه المناهضة ، فأمرهم بالعدول عن النسف لئلا نصبح أمام مشكلة كنا في غنى عن مجابهتها ولا سيما بعد أن انتشر نبأ احتلال بغداد في تلك الساعة الرهيبة » . [٤٣]

انسحبت القوات التركية بعدئذٍ الى المسيب ، وهناك انضم اليها بعض الموظفين كان من بينهم أسعد رؤوف متصرف كربلا ، وأمين الطرابلسي قائمقام النجف ، وعبدالعزيز القصاب قائمقام الهندية ، وعارف القيماقجي عضو محكمة كربلا . وكان أهل المسيب والعشائر المجاورة قد هاجموا مخزن الجيش وأخذوا ينهبون ما فيه من أطعمة ، فتركتهم القوات التركية يفعلون ما يشاؤون لانها كانت مشغولة بنفسها .

وفي ظهر ١٨ آذار غادرت القوات المسيب ومعها الموظفون متجهـة نحو الفلوجة . فبات الجميع ليلتهم الاولى في منطقة الجنابيين ، وكـانت ليلة شديدة البرد والريح . يروى عبدالعزيز القصاب في مذكراته قصـة

---

(٤٢) مصطفى نورالـدين الواعظ (الروض الازهـر) ــ الموصـل ١٩٤٨ ــ ص ٤٥١ .

(٤٣) تحسين العسكري (الثورة العربية الكبرى) ــ بغـداد ١٩٣٦ ــ ج ١ ص ١٥٣ .

طريفة جرت له وللموظفين في تلك الليلة ، خلاصتها أنه ذهب الى القـائد أحمد بك يطلب منه خيمة وفراشاً للنوم ، فزوده القـائد بخيمـة صغيرة ألمانية وقال له : انه لا يملك سوى سرير واحد مع فراش ومخدة فلنتقاسم بها • فأخذ القصاب الفراش وترك السرير والمخدة للقائد ، ولـم يكـد الموظفون يلمحون خيمة القصاب تنصب حتى تهافتوا عليهـا يرجون مـن القصاب السماح لهم بالنوم معه فيها وقالوا له : « نحن ضيوفك وليـس لدينا خيمة ولا فراش ولا فراء في هـذا البرد القارص » • فرحب بهـم القصاب ولكن مشكلتهم أنهم كانوا كثيرين والخيمة صغيرة مساحتها أربعة أمتار لا تتسع الا لثلاثة أفراد فقط ، فتراكموا فيها قاعـدين ظهراً لظهر وصاروا كأنهم كومة واحدة من اللحم • والغريب أنهم أمضوا ثلاث ليال بهذه الصورة حتى وصلوا الى الفلوجة • (٤٤)

وفي ٢١ آذار تحركت القوات التركية نحو الرمادي ، فوصلتها بعد ليلتين • وفي الطريق نسفت القوات التركيـة ناظـم جـدول الصقلاوية فانحدرت المياه منها وأخذت تغمر السهول الواقعة بين دجلة والفرات ، ولم تتوقف الا عند سكة الحديد الممتدة بين بغداد وسامراء • ولحسن الحظ لم يكن فيضان الفرات في تلك السنة عالياً ، ولهذا كانت الاضرار الناجمة عنه غير جسيمة •

بين المدن والعشائر :

عندما انسحبت القوات التركية من منطقة الفرات الاوسط لم يشأ الانكليز ارسال قواتهم الى تلك المنطقة لانشغالهم في حـرب الاتراك ، غير أنهم أوعزوا الى رؤساء تلك المنطقة بالمحافظة على الامن بالنيابة عنهم• فظلت المنطقة من غير حكومة بضعة أشهر فكان ذلك سـبباً في استمرار حالة الفوضى التي كانت سائدة هناك ، ونشب النزاع آنذاك بين بعض المدن والعشائر المجاورة لها حول أموال الحكومة اذ كانت كل فئة تدعي أنها أولى بتلك الاموال من الفئة الاخرى •

---

(٤٤) عبدالعزيز القصاب (من ذكرياتي) ــ بيروت ١٩٦٢ ــ ص ١٥٢ــ١٥٤ •

ففي الحلة مثلاً جاءت عشيرة خفاجة على أثر انسحاب القوات التركية لتشترك مع أهل الحلة في نهب أموال الحكومة . وبعد أن انتهوا من عملهم ، انثالت عشيرة خفاجة على أسواق الحلة تريد نهبها أيضاً فانبرى لها أهل الحلة يمنعونها من ذلك ، وجرى بين الفريقين قتال سقط فيه عبدالصاحب أحد رؤساء خفاجة قتيلاً . وجاءت عشيرة آل فتلة برئاسة الشيخ سماوي الجلوب لنجدة أهل الحلة ، وتعاونت معهم على طرد خفاجة من البلدة . ولكن خفاجة لم تنس ثأرها من أهل الحلة ، وصارت تقطع طريق النجف عليهم ، ولقي الحليون من ذلك عنتاً شديداً . (٤٥) واستمر الخصام بين الفريقين حتى شهر نيسان ١٩١٧ عندما أرسل الانكليز الى الحلة حاكماً سياسياً اسمه الميجر غولدسمث ، (٤٦) فأدى وجوده في الحلة الى استتباب الامن والنظام فيها .

وقد حدث في الديوانية أمر يشبه ما حدث في الحلة من بعض الوجوه، ذلك أن أهل الديوانية كانوا قد استولوا على المعدات العسكرية التي تركتها القوات التركية عند انسحابها من البلدة ، وقسموها فيما بينهم لتكون قوة لهم في حالة غزو العشائر المجاورة لهم . وأسرعوا فجددوا بناء الاجزاء المتداعية من سور البلدة استعداداً للطوارىء ، وأقاموا عليه ستة « مفاتيل » أي أبراج. فجاءت عشيرة الخزاعل تطالب أهل الديوانية بحصتها من تلك المعدات ، فرفض هؤلاء اعطاءها شيئاً ، وزجروها ، وأظهروا قلة اكتراث بها . وصادف بعد هذا أن ذهب ثمانون رجلاً مسلحاً من أهل الديوانية الى النجف لنقل جنازة لهم اليها ، وفي طريق عودتهم بينما كانوا يريدون عبور هور ابن نجم تصدى لهم جمع من الخزاعل برئاسة سلمان العبطان ، وقاتلوهم وقتلوا منهم ثلاثة رجال وجرحوا واحداً ، ثم سلبوا جميع أسلحتهم ... (٤٧)

ووقعت حادثة شبيهة بهذه بين أهل كربلا والحواتم وهم فخذ من

---

(٤٥) يوسف كركوش الحلي (تاريخ الحلة) ـ النجف ١٩٦٥ ـ ج ١ ص ١٧٢ .

(46) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 2, p. 373.

(٤٧) وداي العطية (تاريخ الديوانية) ـ النجف ١٩٥٤ ـ ص ١٤١-١٤٢ .

عشيرة بني حسن ، فقد كان الكربلائيون عائدين من زيارة النجف فلما وصلوا الى خان الحماد في منتصف الطريق هاجمهم على غفلة أربعمائة خيال من الحواتم ، ففر الكربلائيون بعد أن قتل منهم نايف البرغش رئيس عشيرة السلالة • (٤٨) وأبدى عبدالجليل آل عواد من رؤساء كربلا بسالة في الدفاع عن أهل بلدته •

النزاع في كربلا :

عندما غادر المتصرف أسعد رؤوف بك كربلا لكي يلتحق بالقوات التركية المنسحبة أوكل ادارة البلدة الى رؤسائها ، فتسلم هؤلاء دور الحكومة كما استولوا على البنادق والاعتدة الموجودة في المخازن حيث اقتسموها فيما بينهم ، وعينوا موظفين موقتين لجباية الضرائب •

استمرت الحالة على هذا المنوال فترة وجيزة ، ثم بدأ الخلاف يظهر بين الرؤساء وصار يشتد بمرور الايام • وكان سبب ذلك أن الشيخ فخري كمونة أخذ يجبي بوساطة رجاله رسوم البلدية ، كما صار يتعاطى تهريب الاقمشة والمواد الغذائية الى الاتراك في الرمادي ، فكان يحصل على ليرة ذهب أو اكثر من كل بعير محمل يرسله الى الاتراك • (٤٩) فتراكمت لديه الاموال مما أثار عليه حنق الرؤساء الآخرين المنافسين له •

كان اكبر المنافسين لآل كمونة هم آل عواد وعلى رأسهم عبدالكريم، وكان يقف الى جانب آل عواد عشيرة الوزون برئاسة عمر الحاج علوان ، وآل معلة برئاسة الحاج حسن الشهيب • وفي أحد الايام نشب نزاع في دار البلدية بين الشيخ فخري وعبدالرحمن آل عواد ، وكان ذلك ايذاناً بانشقاق أهل كربلا الى فريقين متعادين ، وأخذ كل فريق يعد نفسه ويستنجد بحلفائه لمحاربة الفريق الآخر ودحره •

وبعد قليل وقعت مناوشة بين الفريقين في سوق العباس ، فأرسل

---

(٤٨) سلمان هادي الطعمة (تراث كربلا) — النجف ١٩٦٤ — ص ٢٧٨ •
(٤٩) المس بيل (فصول من تاريخ العراق القريب) — ترجمة جعفر الخياط — بيروت ١٩٧١ — ص ١١٤ — ١١٥ •

الشيخ فخري انذاراً شديداً الى آل عواد يأمرهم بمغادرة كربلا ، واعطاهم مهلة حتى المساء فاذا لم يستجيبوا لانذاره هدم دورهم وأخرجهم منهــا قهراً ، فتحداه آل عواد وحلفاؤهم وتحصنوا في شرفات الدور وعلى سقوف الاسواق ووضعوا الحراس في رؤوس الطــرق المؤديــة الى محلاتهم • ثم أرسلوا حليفهم السيد عبدالحسين الدده الى عشيرة بني حسن ليستنجد بها على عدوهم ، وجاءت الجموع من تلك العشيرة الى كربلا فدخل بعضهم الى البلدة حيث نزلوا ضيوفاً في دور آل عواد وعمر الحاج علوان والحاج حسن الشهيب ، بينما بقي البعض الآخر خارج البلدة انتظاراً للاشتراك في المعركة التي كانت على وشك الوقوع •

استولى الرعب على البلدة وأدرك العقلاء من أهلها ما سوف يحدث فيها عند دخول العشائر اليها ، فان تجاربهم مع العشائر دلت على أن الفرد العشائري اذا دخل بلدة مقاتلاً فانه لا يقف عند حد في النهب والاباحــة والتقتيــــل •

هب رجال الدين وبعض أعيان كربلا للتوسط بين الفريقين ، فكانوا ذاهبين عائدين بين بيوت آل كمونة وآل عواد سعياً للاصلاح بينهم • وبعد جهد جهيد تم الاتفاق على عقد هدنة على أن تقسم ضرائب كربلا الى ثلاثة أقسام حيث يكون قسم منها لآل كمونة ، وقسم لآل عواد ، أما القســم الثالث فيكون لعمران الحاج سعدون رئيس بني حسن • (٥٠)

انها على أي حال كانت هدنة موقتة ليس من طبيعتها أن تدوم طويلاً ، لان الرؤساء لابد أن يتنازعوا بعدئذٍ على طريقة التقسيم حيث يدعي كل فريق منهم أنه مغبون فيه • وقد قرر الانكليز انهاء هذا الوضع الشــاذ في كربلا قبل أن تعود الفتنة اليها من جديد • فأرسلوا اليها في ١٥ ايلول ١٩١٧ حاكماً سياسياً اسمه الميجر بولي • (٥١) أما الشيخ فخري كمونــة فقد وجهت اليه تهمة المتاجرة مع العدو ، ونفي الى الهند بصفته من أسرى

---

(٥٠) عبدالرزاق آل الوهاب (كربلا في التاريخ) — بغــــداد ١٩٣٥ — ج ٣ ص ١٥ — ١٧ •

(51) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 2, p. 379.

الحرب • وبعد مدة نفي الى الهند كذلك أخوه الشيخ محمد علي • (٥٢)

حادثة عجيبة في الديوانية :

كان في الديوانية ثلة من الجنود التتر ونفر من الضباط لم يستطيعوا اللحاق بالقوات التركية المنسحبة ، فظلوا في البلدة في خان يقع على النهر قريباً من الجسر يقال له « خان هداوي أغا » ، وكان على رأسهم ضابط برتبة « بكباشي » ـــ أي مقدم ـــ اسمه حسن بك وهو من أهل غاليبولي •

بقي هؤلاء في الديوانية حتى منتصف شهر حزيران ١٩١٧ وهم على علاقة اعتيادية مع الاهالي دون أن يقع منهم ما يكدر الامن • والظاهر ان الضباط سئموا وضعهم هذا فقرروا الاستسلام للانكليز ، ولكن ضابطاً منهم برتبة ملازم اسمه محمد أغا رفض الانصياع لقرارهم هذا واتفق مع الجنود ورئيسهم اسحق جاووش على أن يقتلوا كل ضابط يريد الاستسلام للانكليز •

وفي الساعة السادسة والنصف من مساء ٢١ حزيران ، اذ كانت الشمس على وشك الغروب ، سمع أهل الديوانية صوت طلقات نارية في داخل الخان ، ثم شاهدوا جثث ثلاثة قتلى وأربعة جرحى تخرج منه ،

وفي صباح اليوم التالي شاهد الاهالي جثة الضابط حسن بك معلقة من شرفة الخان ، وكان هذا الضابط معروفاً بين الاهالي بالاخلاق الحسنة والعفة والشجاعة ، فرفعوا أصواتهم يطلبون انزال جثته ليقوموا بدفنها كما ينبغي ، وعلى أثر ذلك قطع الحبل الذي كانت جثة الضابط معلقة به فسقطت على الارض ، وحملها الاهالي وقاموا بواجب غسلها وتكفينها ثم صلوا عليها ودفنوها •

وتطورت الحالة في اليوم الثالث حيث شوهدت نوافذ الخان وهي مسدودة بالطابوق والجص ، وقد تحصن الجنود في الخان من جهاته الاربع استعداداً للمقاومة • وحين علم السربرسي كوكس بالامر أوعز الى رؤساء العشائر المجاورة للديوانية بمحاصرة الخان والقبض على محمد أغا وجنوده

---

(٥٢) المس بيل (المصدر السابق) ـــ ص ١١٥ ـــ ١١٦ •

المتحصنين فيه . فأحاطت العشائر بالخان ، وأرسل محمد أغا رسولاً من عنده الى رؤساء العشائر لمفاوضتهم ، فقد كان محمد أغا يريد من العشائر أن يتركوه ليستسلم هو للانكليز ، ولكن العشائر لم يقبلوا بهذا الاقتراح، ولعلهم أرادوا القبض عليه وتسليمه بأنفسهم الى الانكليز . وعندما انتهت المفاوضة بالفشل بدأ تبادل الرصاص بين الفريقين ، فسقط من العشائر بعض القتلى والجرحى ، وخليت الشوارع من المارة ، واختبأ الناس في بيوتهم خائفين . (٥٣)

ظل محمد أغا مستمراً على المقاومة في الخان حتى نهاية شهر آب . تقول المس بيل : ان أهل الديوانية كانوا محتارين بين تخوفهم من محمد أفندي وشقاته المسلطين عليهم من جهة ، وخوفهم من العشائر في خارج البلدة من الجهة الاخرى . (٥٤) وقد اضطر الانكليز الى أرسال طائرتين من طائراتهم اليه فألقتا عليه القنابل مما أجبره على الاستسلام مع ثلاثين من جنوده وهم الذين ثبتوا معه في القتال حتى النهاية . يقول كوكس في وصف هذا الرجل العجيب ما نصه :

« عندما وصل هذا الرجل الى بغداد وجيء به اليّ لمواجهتي علمت منه أنه يرغب في الخدمة عندنا أو في الجيش العربي في الحجاز بعدما رأى أن الاتراك خيبوا آماله وهجروه . غير أن طلبه الساذج هذا لم يكن بالامكان قبوله ، وعليه فبصفته من الضباط الاسرى أرسلناه الى منفى في الهند حيث قضى ما تبقى من أيام الحرب في جو أهدأ من الجو الذي يجده الاسير عادة في معسكر للاسرى ، ولقد كان هذا الرجل جريئاً وذا شخصية جذابة واني أثق بأنه قد كتب له حظ سعيد في حياته بعد ذلك » . (٥٥)

---

(٥٣) مصطفى نورالدين الواعظ (المصدر السابق) — ص ٤٥٦ — ٤٥٧ .
(٥٤) المس بيل (المصدر السابق) — ص ١١٣ .
(٥٥) برسي كوكس وهنري دوبس (تكوين الحكم الوطني في العراق) — ترجمة بشير فرجو — الموصل — ص ٢٥ .

الفصل الثاني عشر

عهـد السقوط

أطلق البغداديون على عهد الاحتلال الانكليزي اسم « عهد السقوط »، واتخذوه في بعض الاحيان نبزاً لقبوا به الاطفال الذين ولدوا فيه فسموهم « أولاد السقوط » باعتبار أنهم ولدوا في زمان فسدت الاخلاق فيه وضاعت القيم واختلطت الانساب •

الواقع ان عهد الاحتلال كان عهداً غريباً على الناس شهدوا فيه أموراً لم يألفوها من قبل ، فاستنكرها فريق منهم ورحب بها فريق ، وكان ذلـك ايذانا باستفحال الصراع بين القديم والجديد ، أو بين المحافظين والمجددين، وهو الصراع الذي لا نزال نعانيه حتى يومنا هذا •

ليس هنا مجال البحث في هذا الصراع الاجتماعي ، وسنحاول دراسته في الاجزاء القادمة بعون الله ، أما في هـذا الفصل فسنقصر البحث علـى الاوضاع التي نشأت عقب السقوط مباشرة •

المبتهجون بالسقوط :

ذكر خيري الهنداوي في مقالته التي نشرها في مجلـة المقتطف : ان الاهالي استقبلوا الجنود الذين دخلوا بغـداد في يوم الاحتـلال بالهتاف الشديد والسرور العظيم كأنهم ملائكة أنزلوا من السماء لانقاذهم من أيدي الغادرين الظالمين ، وانصرف الاهالي بعد ذلك الى اعمالهم بهمة ونشـاط يرددون الحمد والشكر لبارىء السماوات اذ نجاهم من الهلكـة ووقاهم شر المحنة وصرف عنهم العذاب • فتراهم على مختلف نحلهم ومللهم فـي الصباح والمساء يقطعون الشوارع فرحين مستبشرين « كأنهم أخرجوا من السجن أو كأنهم في يوم عيد بهيج ، وأي يوم أبهج أو أسعد من يوم فيـه أمن الخائف وفاز الآمل وحررت الرقاب وظهر الحق بأجلى مظاهره تحميـه تلك القوة العظيمة قوة بريطانيا العظمى ••• » (١)

---

(١) يوسف عزالدين (خيري الهنداوي) ـ القاهرة ١٩٦٤ ـ ص ١٧٦ـ١٧٨•

ان هذا الوصف الذي كتبه الهنداوي لا يخلو من مبالغة طبعاً ، فالهنداوي قد فرح بالاحتلال وظن أن الناس كلهم فرحوا مثله. فهو كان قبل الاحتلال هارباً من الاتراك الذين كانوا يريدون قتله ، فجاء الاحتلال بمثابة انقاذ نزل اليه من السماء فجأة .

لا ننكر ان الكثير من الناس فرحوا بالاحتلال الانكليزي ، ذلك لانهم كانوا بالامس قد ذاقوا الامرين من بلايا التجنيد والنوط والمصادرة وغيرها، ثم وجدوا تلك البلايا تزول عنهم بين عشية وضحاها ، فانطلقوا مبتهجين لا تسعهم الدنيا كأنما أزيح عنهم كابوس ثقيل كان جاثماً على صدورهم . ولكن الناس في الواقع لم يكونوا كلهم من هذا القبيل ، ولابد أن يكون بينهم فئة أصابها الضرر من الاحتلال فشعروا بكراهيته والنفرة منه على أي حال .

أول من كرهوا الاحتلال طبعاً هم أولئك الذين كانت لهم منزلة رفيعة أو مصلحة أو وظيفة في العهد البائد ، فخسروها أو توقعوا أن يخسروها في العهدالجديد، وهؤلاء كانوا معروفين بين الناس يومذاك بلقب«كليورلر» وهي لفظة تركية معناها «عائدون» ، وسبب تلقيبهم بها أنهم كانوا يكثرون من الحديث في المقاهي والدواوين عن قرب عودة الاتراك الى العراق .[٢] وهناك أشخاص آخرون كانوا ينظرون الى الدولة العثمانية نظرة تقديسية باعتبارها تمثل الخلافة الاسلامية ، ولم يهن عليهم انخذالها اذ يعدون ذلك انخذالاً للاسلام تجاه الكفار .

يمكن القول بوجه عام ان اليهود كانوا اكثر الناس فرحاً بالاحتلال الانكليزي ، فقد كان عددهم في بغداد يومذاك خمسين ألفاً، وخرج معظمهم يهتفون للجنود ويصفقون لهم ، وأخذوا بعد ذلك يبذلون أقصى جهودهم في خدمة السلطة الانكليزية والتعاون معها ، وشاع بينهم القول المشهور : « ايش ما يقول لك الصاحب قل له يس » : وهم الذين أطلقوا على الانكليز الكنية التي عرفوا بها في بغداد أي « أبو ناجي » ، ولعل اليهود عنوا بهذه الكنية أن الانكليز أنجوهم من ظلم الاتراك .

---

(٢) خيري العمري (حكايات سياسية) ــ القاهرة ١٩٦٩ ــ ص ٦٨ .

شبه أحد الكتاب الانكليز دخول مود الى بغداد بدخول كورش الى بابل . [٣] فقد شعر اليهود بأن الاحتـلال الانكليزي كان لهـم كالاحتلال الفارسي الذي أنقذ أسلافهم من الاسر البابلي . حدثني أحد المسنين من أهل بغداد فقال : ان اليهود تغير سلوكهم في عهد الاحتلال عما كان عليه قبله ، فهم كانوا في العهد التركي يظهرون بمظهر الذل والمسكنة ويتحملون الاذى بالصبر ، وكان الاشقياء يفرضون الاتاوة عليهم وهم يدفعونها لهم راضخين. فلماجاء الانكليز رفعاليهود رؤوسهم وأخذوا يتحدّون الاشقياء ويهددونهم قائلين لهم : ذهب زمانكم وهذا زمان الصاحب وسوف نقلع عيونكم !

وقد استغل اليهود الفرصة التي أتاحها الاحتلال لهم فأخذوا ينمون ثرواتهم بالتجارة والمقاولات ، وجنوا من ذلك أرباحاً هائلة عوضوا بها عن الخسائر التي خسروها في العهد التركي أضعافاً . وكان ذلك بداية العهـد الذي سيطر اليهود فيه على الحياة الاقتصادية في العراق ، وظلوا مسيطرين عليها حتى عام ١٩٥٠ .

يحدثنا خيري الهنداوي عن تلك الايام فيقول : انه قد ساءه وضـع اليهود وخشي أن يتسلموا زمام الامور في هذه المبادأة ، فأعمل الرأي واتصل بالسيد عبدالمجيد الشاوي صديقه وعميد أسرة الشاوي حيث وصف لـه ما شهده من اليهود وأوضح له رأيه ومغبة ترك الامور تجري بلا توجيـه وسيطرة ، واتفقا بعد تبادل وجهات النظر على عقد اجتماع لسماع رأي بقية أرباب الحل والعقد وقادة الرأي ، فعقد الاجتماع في الاعظمية حضره بعض قادة الفكر والتوجيه الاجتماعي وأشراف بغداد وتداولوا في الامر فيمـا بينهم لمفاتحة السلطة من أجل أخذ المبادأة من اليهود ... [٤]

لا ندري ما الذي حدث بعدئذٍ وهل استطاع أشراف بغداد وقـادة الفكر أن يأخذوا المبادأة من اليهود ، وكيف تم ذلك ؟ ان هذا أمر يحتـاج الى كشف وتوضيح ! .

---

(٣) يوسف رزقالله غنيمة (نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق) ـ بغداد ١٩٢٤ ـ ص ١٨٣ .

(٤) يوسف عزالدين (المصدر السابق) ـ ص ٣٨-٣٩ .

سياسة التحبب :

أخذ الانكليز عند دخولهم بغداد يحاولون التحبب الى الناس بشتى الوسائل ولا سيما فيما يخص الامور الدينيـة كأنهم كانوا يريدون دحض الدعاية السيئة التي كان الاتراك يروجونها عنهم ، فصاروا يحترمون المساجد والمراقد المقدسة والشعائر الدينية ، ويزورون رجال الدين متظاهرين بأنهم يحبون الاسلام وأهله وأنهم وضعوا أنفسهم في خدمته .

اتخذ الانكليز نحو الطائفة السنية سياسة الاهتمام بدائرة الاوقاف وبذلوا جهوداً كبيرة لاغراء علمائهم بقبول الوظائف فيهـا وأغدقوا عليهـم الاموال ـ كما سنذكره فيما بعد . أما نحو طائفة الشيعة فقد اهتم الانكليز برعاية مواكبها وطقوسها الحسينية التي تقام عادة في شهر محرم فأحاطوها بمظاهر الحماية والتكريم وأمدوها بما تحتاج اليه من مواد كانت نادرة فـي تلك الايام كصفائح النفط ونسيج الأكفان . وفيما يلي ننقل اعلاناً نشـرته جريـدة « العـرب » فـي يوم ٨ تشـرين الاول ١٩١٨ م وهـو يوافق ١ محرم ١٣٣٧ هـ :

« بما أن التياترو الواقع بجانب الكرخ هو قـرب قونسلخانة ايران ، وجميع السبايات تمر من هناك . فاحتراماً لهذا الشهر يجب سـد التياترو المذكور أعلاه ثلاثة عشر يوماً ابتداءاً من أول شهر محرم الى نهاية الثالث عشر منه حسب طلب الاهالي ـ التوقيع : حاكم بغـداد العسكري القائمقـام أي. ب. هول » .

وفي ١٧ محرم نشرت الجريدة مكتوباً بعنوان « تشكرات الفرقـة الجعفرية » وذكرت أنه أرسل الى حضرة الحاكم العسكري ، وهذا نصه :

« ان الدولة البريطانية العظمى لجديرة بكل اطراء لرعايتها وعطف نظرها على القواعد الدينية والعوائد الملية ، كيف لا وقد أسعفت فرقتنا الجعفرية منذ العام الماضي بطلبها اقامة المآتم والسبايا لتمثيل الفاجعة العظيمة بقتـل (سيدنا الامام الحسين عليه السلام) في العشرة الاولى من محرم ، فرتبتموها على أعظم احتشام ، وراعيتموها بكل احترام ، وحافظتموها بأحسن نظام . ان حضرتكم قد اقتفى هذا الاثر في هذا العام فنفذتم الامر مـع الاعتنـاء بالتنظيم والاحترام . فللحكومة المنة الكبرى التي تذكر فتشكر بل ان اللسان

ليقصر والقلم ليكل عن اداء واجب التشكر لحضرتكم وجزيل الثناء عليكم وعلى حضرات نائبيكم في الجانب الايمن والايسر وحضرات مدير البوليس ومعاونه لاهتمامهم بالمحافظة والاحترام والتعظيم للمآتم والسبايا الى النهاية. فنحن بالنيابة عن عموم الشيعة نقدم الى حضرتكم هذه العريضة ايضاحاً وتصريحاً عن سامي تشكراتنا العظيمة وممنونيتنا الكثيرة الى الدولة البريطانية العظمى وحضرة القائد العام للحملة العراقية وسائر رجال الدولة ما دامت الايام والليالي. في ١١ محرم سنة ١٣٣٧ الموافق في١٨ تشرين الاول سنة ١٩١٨ » .

وقد ذيل هذا المكتوب بتواقيع بعض علماء الشيعة وأعيانهم وهم : عبدالكريم الحيدري ، شكرالله ، حسين الموسوي ، محمد حسين آل تويج، حسين آل السيد عيسى ، مصطفى بن حسين ، عبدالحسين كبه ، عبدالغني كبه ، محمد السيد محسن ، عبدالرسول كبه ، جعفر حفيد الحاج داود ، كاظم الحاج داود ، عبدالعزيز باقر ، عبدالمجيد حمودي ، عبدالمجيد السيد موسى . وقد نشرت الجريدة في العدد نفسه تشكراً آخر مذيلاً بتواقيع : شكرالله ، الشيخ أحمد الظاهر ، الحاج محمد حسن الجوهر ، حسين الموسوي ، سيد محمد حسين الحلاوي ، سيد صادق السيد سلمان ، وآخرين . وفي ٢٢ محرم نشرت الجريدة تشكراً من أهل النجف للانكليز على اعتنائهم بالسبايا ، وكان التشكر موقعاً من قبل نقيب أشراف النجف الاشرف السيد هادي .

عوامل التنفير :

في الوقت الذي كان فيه الانكليز يتبعون سياسة التحبب الى الناس على النحو الذي ذكرناه كانت هناك عوامل أخرى تعمل على تنفير الناس منهم .

عندما دخل الانكليز بغداد وجدوها على درجة كبيرة من القذارة ، فأرادوا فرض النظافة عليها حرصاً على صحة جنودهم ومنعاً من انتشار الاوبئة بينهم . انهم فرضوا مثلا غرامة قدرها عشر روبيات على كل من يتغوط في الطرقات ، وخمس روبيات على من يبول فيها . وقد نفذوا هذا

الامر بكل شدة ، فظهرت سمات النظافة في بغداد على نطاق واسع ، ولكن الناس صاروا يتذمرون من الشدة التي استخدمت فيها •

وعندما اقترب الصيف وبدأت تباشير الكوليرا بالظهور في بغداد كدأبها في كل عام ، صدرت الاوامر المشددة بفرض التطعيم الاجباري على الناس ، وبنقل كل مريض مشتبه به الى مستشفى العزل ، ومنع السفر الا لمن يحمل وثيقة تطعيم • وقد ضج الناس من هذه الاجراءات ، فأخذوا يتهربون من التطعيم ، ويتراكضون اذا سمعوا بقدوم رجال التطعيم اليهم • وصارت وثائق التطعيم تباع في السوق السوداء لمن يريد السفر ، واذا مرض أحدهم كتموا أمره لكي لا تنقله السلطة الى مستشفى العزل وتقتله هناك على زعمهم •

واتخذ الانكليز كذلك اجراءات صارمة ضد الاشقياء وحملة السلاح ، فنصبوا المشانق في بعض الساحات العامة ، وأخذوا يلقون القبض على كل من يتجول ليلاً حاملاً سلاحه ، ثم يشنقونه في الصباح التالي • وصار الناس يشاهدون في صباح كل يوم جثثاً جديدة معلقة على المشانق • وأخذ الناس يحاولون التخلص من أسلحتهم برميها في النهر والآبار أو بدفنها تحت الارض • وشاع بين الناس أن الانكليز لديهم قطط قادرة على اكتشاف السلاح المخبوء في البيوت عن طريق الشم ، فكان ذلك بلاءاً جديداً نزل بالاشقياء وحملة السلاح • انهم كانوا بالامس يتباهون بسلاحهم وأصبحوا اليوم يخافون منه •

ومن المشاكل التي واجهها الناس في تلك الآونة أنهم وجدوا الموظفين الجدد يتخذون معهم سلوكاً لم يألفوه من قبل • فقد كان الموظفون الاتراك متكبرين على الناس ولكنهم كانوا متساهلين في تطبيق الانظمة والقوانين تحت تأثير الرشوة او الوساطة ، أما الموظفون الجدد فكانوا صارمين في تطبيقها يكادون لا يراعون فيها أحداً ، وكثيراً ما كانوا يعاملون الناس بالعجرفة والفظاظة على النحو الذي اعتادوا عليه في الهند بغض النظر عن الفرق بين نفسية العراقي والهندي •

يحدثنا عبدالعزيز القصاب في مذكراته عن تلك المعاملة فيقول : انهم كانوا يهينون المراجعين بصورة لم يسبق لها مثيل في العهد التركي ، فكانوا

يضربون كل شخص يخالف نظام السير في الشوارع ، وفي الجسر بوجه خاص ، بصورة قاسية جداً ، وكان من بين الذين أصابهم الضرب عبدالرحمن أفندي الجميل اذ كان يمشي في الشارع ببطء فركله ضابط انكليزي على ظهره بشدة . وكذلك ضربوا عبدالقادر باشا الخضيري وغيره من الشخصيات المعروفة . ويصف القصاب كيف جرى الاعتداء على أخيه السيد أمين من قبل ضابط الاعاشة الانكليزي اذ ركله هذا على بطنه وجعله طريح الفراش مدة شهرين . ويذكر القصاب قصة شاهدها بنفسه على الجسر وهي أن قافلة من الزوار الايرانيين كانوا يعبرون الجسر على أقدامهم وهم يقودون خيولهم طاعة للاوامر التي صدرت بمنع الركوب ، ولكن واحداً منهم ظل راكباً لانه كان مقطوع الساقين ، وعندما رآه الجندي الانكليزي أخذ يضربه بعصاه الغليظة بشدة فصاح رفاقه « ناخوشا » أي مريض ، غير أنه لم يكف عن الضرب حتى ألقاه عن ظهر البغلة . واضطر رفاقه أن يحملوه على اكتافهم وعبروا به الجسر . وصار المارة يبدون أسفهم من فعل هذا الجندي الشرس . (٥)

اعتقال ونفي :

عند سقوط بغداد أعلنت السلطة الانكليزية وجوب تسليم الجنود الذين اختفوا في بغداد هاربين من القوات التركية . (٦) وقد ميزت السلطة بين الاتراك والعرب منهم ، حيث اعتقلت الجنود الاتراك وأبعدتهم الى البصرة فالهند ، أما الجنود العرب فقد حققت السلطة معهم وأخذت تعهداً من كل واحد منهم بأنه مستعد للحضور عندالطلب ، وجهزته بوثيقة بهذا المعنى ثم أطلقت سراحه . وفيما يلي نص الوثيقة حسب نسخة احتفظ بها :

« هذه الشهادة تصدق بأنه (فلان بن فلان) عمل اثبات وجود عندي في ١٩ جون ١٩١٧ ، بما أنه قد خدم في الجيش التركي بوظيفة (چاندرمه)،

---

(٥) عبدالعزيز القصاب (من ذكرياتي) بيروت ١٩٦٢ — ص ١٩٨—١٩٩ .

(٦) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) ـ بغداد ١٩٢٥ — ج ١ ص ١٢٧ .

قد أطلق حراً بقول الشرف لكن يجب أن يحضر في أي وقت وأي مكان كان عند الطلب • واذا التحق بخدمة الحكومة البريطانية فعليه ابراز هـذا العهد الى الضابط الذي يشتغل عنده ـ التوقيع : معاون مدير البوليسية العسكرية الانكليزية » •

وأخذت السلطة أيضاً تلقي القبض على كل من عاون الاتراك أو انتمى الى حزب الاتحاد والترقي ، ولم تستثن منهم الا من أعلن ولاءه للفاتحين، أو شارك في استقبالهم ، أو تزلف اليهم على وجه من الوجوه • وقد لعب الجواسيس دوراً مهماً في هذا الشأن ، كما لعبت الاخباريات دورها كذلك اذ صار بعض الاشخاص يكيدون لخصومهم بارسال الاخباريات السيئة عنهم الى السلطة • يقول الشاعر جميل صدقي الزهاوي وكان في بغـداد يومذاك : ان عدواً له قدم تقريراً الى السلطة الانكليزية ينصح لها بابعادي عن بغداد مع عدد من وجهائها ، ولكنه عندما جيء به الى السلطة أظهـر لها بطاقة تشير الى انه مراسل لجريدة « المقطم » القاهرية الممالئة للانكليز، وبذلك نجا من النفي ، بينما سيق الآخرون أسرى الى الهند • [٧]

ويروي كامل الجادرجي في مذكراته عن والده فيقول ما نصـه : « أما والدي فقد لبث في هـذه الفترة ملازماً داره حتى اعتقلتـه ـ أي السلطة الانكليزية ـ مع عدد من الشخصيات المعروفة بميلها لحزب الاتحاد، فبقي في الاعتقال قرابة أربعين يوماً ثم أفرج عنه عندما تبين للسلطات أنـه لم يكن على صلات طيبة مع الاتحاديين » • [٨]

ومن الجدير بالذكر ان السلطة الانكليزية اعتقلت أعضاء مجلس ادارة مدرسة « الاخوة » الايرانية في الكاظمية ، وبعض وجهاء الكاظمية ، لانهم كانوا من دعاة المشروطية والمؤيدين لحركة الجهاد ، كان منهم : الحاج علي كبر الاهرابي ، السيد عيسى المشاط ، عبدالرؤوف الكاظمي ، الشيخ جواد الزنجاني ، المرزا أحمد اليزدي • وقد أبعدتهم السلطة الى البصرة فالهند، وتمكن اثنان منهم أن يتخلصوا من النفي عاجلاً بشفاعة السيد حسين أفنان

---

(٧) عبدالحميد الرشودي (الزهـاوي) ـ بيروت ١٩٦٦ ـ ص ١٢٠ •

(٨) كامل الجادرجي (من أوراق كامل الجادرجي) ـ بيروت ١٩٧١ ـ ص ٥٠ •

الذي كان يعمل في خدمة الانكليز حينذاك • أما الآخرون فقد مكثوا في المنفى ثلاثة وعشرين شهراً •

ومما يلفت النظر أن السلطة الانكليزية لم تتعرض لرجال الدين الذين قادوا حركة الجهاد أو شاركوا فيها ، الا" واحداً منهم هو الشيخ نعمان الاعظمي ، ولا أدري لماذا استثنته السلطة منهم • ففي ٣١ أيار ١٩١٧ ألقت القبض عليه وهو في مدرسة الامام الاعظم في الاعظمية ، واعتقلته في خان كبه شهراً واحداً ، وفي معسكر أم العظام شهراً ثانياً ، وفي البصرة شهراً ثالثاً ، ثم أبعدته بعدئذٍ الى معتقل الاسرى في الهند ، فمكث فيه ثلاثة وثلاثين شهراً • وكان أثناء مكوثه في المعتقل قد أشغل نفسه بالقاء بعض الدروس في أصول الفقه والتفسير على جماعة من التتر وجدهم بين الاسرى • (٩)

التضخم النقدي :

كانت العملة التي جاء بها الانكليز الى العراق هي « الروبية » الهندية وكانت تقوم على أساس الفضة وتعادل قيمتها خمسة وسبعين فلساً • ولم يشأ الانكليز أن يفرضوا النقود الورقية على الاهالي فرضاً كما كان الاتراك يفعلون ، بل اتخذوا سياسة نقدية بارعة جعلت الاهالي يطلبون النقود الورقية من تلقاء أنفسهم ويفضلونها على الذهب والفضة • انها كانت سياسة ذات شعبتين : حيث أخذ الانكليز من جهة يبذلون في مشترياتهم الذهب والفضة بكثرة حتى أغرقوا الاسواق بها ، بينما كانوا من الجهة الاخرى لا يقبلون في جباية الضرائب والرسوم الا" النقود الورقية • وقد استمروا على ذلك مدة غير قليلة حتى أصبحت النقود الذهبية والفضية فائضة في الاسواق بينما النقود الورقية عزيزة نادرة •

وفتح الانكليز بالقرب من سوق الصرافين فرعاً للمصرف الشرقي « استرن بنك » ، وكان هذا المصرف مستعداً في كل وقت لتبديل النقود

---

(٩) محمد صالح السهروردي (لب الالباب) — بغداد ١٣٥١ هـ ج ٢ ص ٣٨٩ •

الورقية بالذهب أو الفضة • وقد وضع أمام انظار الناس تلولاً من الروبيات الفضية لكي تبعث الثقة في قلوبهم • وأيقن الناس ان الحكومة الجديدة ليست كالحكومة الماضية تفرض عليهم النقود الورقية فرضاً من غير رصيد •

وبعد أن اطمأن الانكليز من نجاح سياستهم النقدية هذه ، شرعوا يغمرون الاسواق بالنقود الورقية • وبدأ عند ذلك في بغداد تضخم نقدي هائل لم يشهد الناس له مثيلاً من قبل •

كانت القوات الانكليزية في حاجة الى بناء الثكنات وتعبيد الطرق ومد السكك وتشييد القناطر والمرافىء علاوة على حاجتها الى الاطعمة • وقد أنفقت في ذلك مبالغ طائلة تعد بعشرات الملايين ، وبذا ارتفعت أجور العمال وأسعار البضائع والخدمات ارتفاعاً مفاجئاً عجيباً •

استفاد من هذا التضخم اكثر الناس حيث جنوا أجوراً وارباحاً لم يكونوا يحلمون بها من قبل ، فقد يكفي الواحد منهم أن يحمل مقداراً من الاطعمة أو البضائع البسيطة على وعاء في يده ويدور به في أماكن تجمع الجنود أو العمال ليحصل من ذلك على الربح الوفير •

وقد نال شيوخ العشائر وأصحاب البساتين والتجار والمتعهدون والمضاربون من ذلك التضخم حصة الاسد ، وظهر بينهم عدد كبير من أغنياء الحرب الذين صاروا يلعبون بالمال لعباً ويبذرونه في شهواتهم تبذيراً يلفت النظر • وكثرت المراقص والحانات ودور القمار والمباغي لتبتلع القسط الاكبر من هذا المال •

يقول يوسف غنيمة في كتابه « تجارة العراق » : « ••• سافر من هذه الحاضرة عدد غير يسير من التجار وعمال التجار الى البصرة ليبتاعوا من هناك البضاعات التي كانت بغداد في حاجة اليها للاهلين وللجيش المحتل ، واصبحت سوق البصرة مجمع التجار أتوها من كل صقع وناد ، واضحت منتدى أرباب الاعمال من كل الصنوف • وكانوا يتألبون في قهوة السيف كل يوم يضاربون ويتاجرون ، لا بل ان التجارة كانت أشبه شيء بالبورصة ومجازفة المقامرين ، ولكنها كلها كانت باديء بدء صفقة رابح ، حتى شاع ذكر قهوة السيف شيوع مربد البصرة في القديم ، وربح الناس أموالاً

طائلة برؤوس أموال قليلة لا يعتد بها » . (١٠)

من الجدير بالذكر أن هذا التضخم النقدي صاحبته شحة في المـواد الغذائية كادت تبلغ لدى بعض الفقراء حد المجاعة . وكان لهذه الشـحة سببان : أولهما مصادرة الاتراك للكثير من المواد الغذائية قبيل انسحابهم من بغداد حيث أتلفوا قسماً منها وحملوا الباقي الى سامراء ، والثاني اقبال الانكليز على شراء المواد الغذائية لاطعام جنودهم فصاروا يدفعون فيها أي ثمن يعرض عليهم ، ولذا ارتفعت أسعارها ارتفاعاً فاحشاً .

وقد حاول الانكليز مساعدة الاهالي بأن جلبوا من الهند مقادير كبيرة من الطحين وأخذوا يوزعونه عليهم بالبطاقات . انه كان طحيناً رديئاً غير نقي ولكن الناس تهافتوا على أماكن توزيعه ، وازدحموا وتكالبوا ، وكانت الشرطة تدفعهم وتضربهم بالعصي وهم يتصارخون !

دهشة وتساؤل :

كان البغداديون قد شهدوا قبل الحرب بعض عجائب الحضارة الحديثة ومخترعاتها ، ولكن ذلك كان على نطاق محدود (١١) ، فلما جـاء عهـد الاحتلال بدأوا يشـهدون من تلـك المخترعـات أموراً مذهلـة وعلـى نطـاق واسـع .

تحدثنا جريدة « العرب » في عددها الصادر في ٣ تشرين الثاني ١٩١٧ عن مبلغ الدهشة التي أصابت الناس عند رؤيتهم الاعمدة الكهربائية تنصب في الشارع الجديد وعليها المصابيح تضاء طول الليل . وقد ذكرت الجريدة أنهم صاروا يتجادلون ويتناقشون في تعليل هذه الاعجوبة ، فقال فريق منهم : ان ذلك لابد أن يكون من صنع الجن وان الانكليز الذين أصبحوا سادة البحر والبر قد تمكنوا من تسخير الجن لخدمتهم . وقال فريق آخر : ان النور الكهربائي ينتج كما ينتج النسل عند التقاء الذكر بالانثى فالمصابيح اناث أما الذكور فهي موجودة عنـد الانكليز يطلقونها على الانـاث متى

---

(١٠) يوسـف رزق الله غنيمـة (تجـارة العـراق) ـ بغـداد ١٩٢٢ ـ ص ١٢٦-١٢٧ .

(١١) انظر الجزء الثالث من هذا الكتاب ـ الفصل الثامن .

يتساؤون . وقال فريق ثالث : ان النور هو من البرق وقد تمكن الانكليز من اقتناصه بفنونهم وأودعوه في السجن حتى اذا حل المساء أطلقوه في المصابيح. وقال فريق رابع مستمداً رأيه من كتاب « نزهة المشتاق » للادريسي عن وجود طائر في البحار يضيء وقد اقتنصه الانكليز وسخروه لخدمتهم. وفي النهاية تكلم أحدهم وهو تلميذ مدرسة وأخذ يشرح طبيعة الكهرباء وكيف انها تنتج عن التقاء السالب والموجب منها .

ان هذه قصة لا ندري هل حدثت فعلاً أم هي من خيال كاتبها ، انما هي على أي حال غير مستبعدة . والواقع ان الناس كانوا في تلك الايام يكثرون من التعجب والتساؤل عما يشاهدونه من عجائب المخترعات التي جاء بها الانكليز ، وكانوا يحاولون تفسيرها في نطاق معلوماتهم المحدودة ، ويتجادلون في ذلك جدلاً عقيماً على نمط ما ذكرته جريدة « العرب » حول النور الكهربائي ، وقد ظلوا يفعلون ذلك سنوات عديدة .

من طريف ما أذكره من أيام طفولتي أني كنت أتسمع ذات يوم الى جماعة من الرجال يتحدثون في مثل هذا الموضوع ، وكانوا يتساءلون عن السر الذي جعل الاوربيين الكفار قادرين على اختراع هذه المخترعات العجيبة بينما المسلمون عاجزون عن ذلك ، فقال قائل منهم : ان أسرار هذه المخترعات موجودة في القرآن والكتب الاسلامية القديمة غير أن المسلمين غفلوا عنها وأهملوها بينما اهتم بها الاوربيون وانكبوا عليها يدرسونها حتى فهموها واستخرجوا النتائج العملية منها . فانبرى أحد الحاضرين يرد على هذا القول ، وكان رأيه : أن الاوربيين أهل دنيا وأن ابليس لابد أن يعاونهم على دنياهم وهو الذي ألهمهم بسر هذه المخترعات ، أما المسلمون فلهم الآخرة . وانبرى رجل آخر من الحاضرين يفسر الموضوع تفسيراً مختلفاً حيث قال : ان الاوربيين أولاد حرام لان نساءهم يخالطن الرجال ويراقصنهم ويفعلن ما يشأن من غير حدود ، ومن شأن ابن الحرام أنه شيطان شديد الذكاء كما هو معروف . وقد اشتد الجدل بين الحاضرين، كل فريق منهم يحاول تأييد رأيه بالادلة العقلية والنقلية ، ثم انفض الاجتماع دون أن يصلوا الى نتيجة حاسمة .

المس بيل :

كان المستشار السياسي للحملة البريطانية في العراق السر برسي كوكس قد وصل الى بغـداد بصحبة الجنرال مود ، فخصصت له دار القنصليـة النمساوية لتكون دائرة له وهي تقع على النهر بالقرب من دار القنصليـة البريطانية التي نزل فيها مود .

ولم يكن مع كوكس عند وصوله بغداد سوى ضابط واحد يعاونـه في عمله ، فاستدعى اليه من البصرة عدداً من الموظفين والضباط الذين لهم خبرة بالبلاد العربية كان من بينهم : جون فيلبي ، بونهام كارتر ، دراور ، غاربيت ، بولارد ، وغيرهم .

وكان في البصرة يومذاك امرأة بريطانية ذات خبرة بالبلاد العربيـة وتتقن اللغة العربية جيداً هي المس جرترود بيل ، وهي كانت تعمل في معية كوكس بالبصرة وأراد كوكس أن ينقلها اليه في بغداد غير أن مود عارض في نقلها اذ كان يخشى أن يكون مجيئها الى بغداد سابقة غير مناسبة قـد تدعو النساء الاخريات للمطالبة بالانتقال أسوة بها . وقد استطاع كوكس أخيراً اقناع مود حيث أكد له بأن وجود المس بيل في دائرته ضروري كمـا انها سـوف تعامل كالرجال بلا تمييز بينها وبين أي رجـل يعمل معها في الدائرة . (١٢) وفي ٦ نيسان ١٩١٧ ركبت المس بيل باخرة متجهة الى بغداد، وبعد تسعة أيام وصلت اليها ، فكانت أول امرأة بريطانية تدخل تلك المدينة خلال الحرب .

خصصت لسكنى المس بيل دار من دور بغداد القديمة ، غير أنها لم تتحمل الحياة في تلك الدار اذ وصفتها بأنها كالصندوق . وبعـد البحث وجدت داراً تناسبها في وسط بستان مليء بالزهور تقع في موضع محلـة السنك الحالية تعود الى موسى جلبي الباججي . وقد أخذ هذا الرجـل يعمل بنشاط لتلبية طلبات المس بيل ، فبنى لها في خلال خمسة ايام حماماً في الدار ومطبخاً . ثم جاءت هي بخادم أمين كانت تعرفه منذ زمان طويل ،

---

(١٢) برسي كوكس وهنري دوبس (تكوين الحكم الوطني في العراق) ـ ترجمة بشير فرجو ـ الموصل ـ ص ١٩ ـ ٢٠ .

وتمت بذلك أسباب راحتها . (١٣)

أصبحت المس بيل الساعد الايمن لكوكس في اتصالــه بالاهــالي وبالوفود التي جاءت تهنيء الانكليز بالنصر من مختلف أنحاء العــراق . يقول كوكس : « حالما انتشر خبر احتلالنا لمدينة بغداد أخذت الوفود المختلفة من جهات العراق تتوافد الى بغداد لزيارتي والترحيب بمقدمنا وفي مقدمتهم أشراف المدينة ثم شيوخ القبائل القريبة والبعيدة عن بغــداد ، وكان من بين هؤلاء الشيوخ من لم يسبق له قط أن خضــع للحكم التركي فكانوا غرباء عن بغداد تماماً ... وكان عليّ أن استقبل جميع الزائرين من الشيوخ وأرحب بهم وأقوم بتأمين ضيافتهم وتقديم بعض الهدايا لهم ، ثم أصرفهم الى مناطقهم بعد أن أوصيهم بوجوب محافظتهم على السلام والهدوء فــي مناطقهم والانصراف الى أعمالهم الزراعية . وهكذا فقد كان القسم الكبير من أوقاتي نهاراً يصرف في قيامي بهذه المواجهات ، وكانت المس بيل تعمل كغربال تقوم بتصفية الزائرين اذ كانت ترسل اليّ كل فرد من الشخصيات المختلفة وبيده ورقة من عندها توضح لي القبيلة التي ينتمي اليها والمنطقــة التي يمثلها ثم غايته من مواجهتي ، وهكذا فبفضل المس بيل تمكنت مــن توفير وقت لا حد له كان علي أن أصرفه للوصول الى هدفي ... » (١٤)

كانت المس بيل يومذاك في الواحدة والخمسين من عمرها نحيفة جداً لا يروق منظرها العراقيين ولكنها خلبت ألبابهم بما كان لديها من شخصية قوية ولباقة ، فكانوا يلقبونها بـ « الخاتون » ، وصار بيتها مقصداً للكثير من الرؤساء والاعيان والادباء ، وكان من اكثر رؤساء العشائر ترددا عليهــا ثلاثة هم : فهد الهذال شيخ مشايخ عنزة ، وعلي السليمان شــيخ الدليم ، وحسن السهيل شيخ بني تميم . وكان أقرب الناس الى قلبها من الوجهــاء المحليين اثنان هما : الحاج ناجي في الكرادة الشرقية ، والسيد جعفر عطيفة في الكاظمية . فكانت كلما ضاق صدرها خرجت لزيارة أحد هذين الرجلين في بستانه .

---

(13) Elizebeth Burgoyne (Certrude Bell) — London 1961 — vol. 2, p. 57—58.

(١٤) برسي كوكس وهنري دوبس (المصدر السابق) — ص ١٨—١٩ .

أصبحت المس بيل محور أحاديث الناس في المقاهي والدواوين ومجالس النساء . فلم يكن مألوفاً لدى الناس أن تكون امرأة على مثل هذا السلوك أو تملك مثل هذا النفوذ والمقام الرفيع . فهم يرونها تسير سافرة في الشوارع تبتسم للمارة وتزور الرجال في بيوتهم كما يزورونها هم في بيتها . ولهذا صارت أقاويل السوء تنتشر بين الناس عنها دون أن يشفع لها كبر سنها ونحافة بدنها . وقد نظم الشيخ تقي الخالصي قصيدة تهكمية فيها ، وهي قصيدة اشتهرت في حينها وأخذ الناس يتناقلونها بينهم لطرافتها . وهذه بعض أبيات نموذجية منها :

وافت الينا مس بيل راكبة أوتومبيل
تحكي البدور وجهاً وشعرها يحكي الليل
عرّج علينا نقضي عشية في الأوتيل

الموظفون الاوائل :

كان الانكليز منذ بداية الاحتلال يحاولون اقناع الوجهاء ورجال الدين وأبناء الاسر المعروفة بدخول الوظائف بغية جعلهم واجهة حسنة لحكمهم ، وصاروا يغرونهم بالمرتبات العالية والامتيازات الخاصة ، ولكن أكثرهم لم يستجيبوا لرغبة الانكليز بالرغم من تكرار الالحاح عليهم وارسال الوسطاء اليهم مرة بعد مرة .

يصور لنا اسماعيل الواعظ في مذكراته شدة الالحاح الذي سلطه عليه الانكليز لكي يقبل بوظيفة دينية عقب عودته من الديوانية التي كان مفتياً فيها ، فهو يقول : ان كوكس أرسل اليه يطلب مواجهته ، وحين ذهب اليه رحب به كوكس وأكرمه ولم يدخن بحضوره احتراماً له ، ثم سأله عن أحوال الديوانية وموظفيها وكلفه أن يعود مفتياً فيها كما كان في العهد التركي ، ولكن الواعظ أجابه بالرفض ، فأصر عليه كوكس وقال له : « كن مفتياً ولا تذهب الى الديوانية حتى تأمن الطرقات والبلاد » ، وأصر الواعظ من جانبه على الرفض ثم خرج من عنده . وقد استدعاه كوكس بعد ذلك مرتين لاقناعه بقبول الوظيفة دون جدوى . ثم استدعته المس بيل من أجل ذلك أيضاً وعرضت عليه أن يكون قاضي البصرة بمرتب قدره

٤٥٠ روبية وتخصيص دار له من دور الحكومة مع اعطائه تموينا لحاجاته البيتية • وبعد مدة قليلة أعاد كوكس عليه الكرة وعرض عليه وظيفة القضاء في البصرة أو الحلة أو بعقوبة ، أو رئاسة الجزاء في أي محل يختـاره • ويقول الواعظ انه قابل كل هذه العروض بالرفض ... (١٥)

يمكن تعليل هذا الموقف السلبي الذي اتخذه الكثيرون ازاء الوظيفة في بداية الاحتلال الى الاسباب التالية :

اولاً ـ خوفهم من عودة الاتراك الى البلاد والانتقام منهم على نحو ما فعلوا في الكوت • وقد كان أعوان الاتراك في بغداد يدأبون على نشر الاشاعات القائلة بأن الاتراك لابد عائدون وأنهم قد أعدوا جيشاً عرمرماً في سبيل ذلك ، وقيل أيضاً ان الاتراك سيعودون حتى في حالة خسرانهم الحرب لان ألمانيا وعدتهم بأن تسترجع العراق لهم في مقابل اعادة بلجيكا الى الحلفاء •

ثانياً : كان الكثير من الناس في بغداد لا يزالون تحت تأثير حركـة الجهاد نفسياً فكانوا يعتبرون قبول الوظيفة في أيام الاحتـلال الانكليزي أمراً محرماً من الناحية الشرعية اذ هو بمثابة التعـاون مع الكفار • وقـد صار الناس ينظرون الى من يقبل الوظيفة في تلك الايام نظرة لا تخلـو من تهمـة وارتياب •

ثالثاً : ان الازدهار التجاري الذي عم الاسواق حينذاك جعل الـكثير من الناس يفضلون الكسب الحر على الوظيفة ، فقد انفتحت أبواب الرزق على مصراعيها أمام التجار والزراع وأهل الحرف وغيرهم ، كما أشرنا اليه من قبل • ولو أن الاسواق كانت كاسدة لنسي الناس أمر الحلال والحرام واثالوا على الوظيفة ينهلون منها نهلاً على نحو ما فعلوا بعد مـدة غـير طويلة من الزمن •

ان أول شخص استجاب لدعوة التوظف في بغداد هو عبدالعـزيز المظفر (١٦) ، حيث عين مترجماً في المحكمة الموقتة التي أقيمت فـي الايام

---

(١٥) مصطفى نور الدين الواعظ (الروض الازهر) ـ الموصل ١٩٤٨ ـ ص٤٥٩ .
(١٦) ريجارد كوك (بغداد مدينة السلام) ـ ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد بغـداد ١٩٦٧ ـ ج ٢ ص ٢٠٢ (الحاشية) .

الاولى من الاحتلال . ثم أخذ أشخاص آخرون يستجيبون للدعوة شيئاً فشيئا . وفيما يلي قائمة بأسماء الاوائل الـذين دخلوا الوظائف حسب تسلسلهم الزمني منذ بداية احتلال بغـداد حتى انتهـاء الحرب ، وقـد استخلصتها من القوائم التي نشرها ويلسون فـي ملاحق الجزء الثاني من كتابه « العراق بين ولائين » : (١٧)

الاسـم	الوظيفـة	التاريخ
عبدالمجيد بك الشاوي	مهمة خاصة في الاوقاف	١٩١٧/٤/١
الشيخ ابراهيم الراوي	عضو مجلس الاوقاف	١٩١٧/٥/١
شمس الدين الآلوسي	عضو مجلس الاوقاف	١٩١٧/٥/١
أمين افندي الملا رشيد	عضو مجلس الاوقاف	١٩١٧/٥/١
خيري أفندي الهنداوي	معاون مالي بالعزيزية	١٩١٧/٥/١
صالح أفندي الملي	مهمة خاصة في الاوقاف	١٩١٧/٦/٨
علي علاء الآلوسي	قاضـي شـرع	١٩١٧/٧/٢
عبدالوهاب افندي	حاكم محكمة الصلح	١٩١٧/٧/٢
قاسـم افندي	عضو مجلس الاوقاف	١٩١٧/٧/٢٨
حميـد خـان	معاون حاكم سياسي بالنجف	١٩١٧/٨/١
جميل افندي عبدالكريم	رئيس مفتشين في الاوقاف	١٩١٧/١٠/٢٧
سليمان افندي السنوي	معاون قاضي شرع	١٩١٧/١١/١
عبدالجبار الملا ياسين	حاكـم	١٩١٧/١٢/١٣
عبدالعزيز سعيد محمد	مهمـة خاصة	١٩١٧/١٢/١٣
عبدالجبار جميل زاده	حاكـم	١٩١٨/١/١
محمود نديم الطبقجلي	مشاور مالي	١٩١٨/٢/١
الحاج شكرالله	قاضي جعفري	١٩١٨/٢/١٧
السيد أحمد الداود	مـدير أوقاف	١٩١٨/٢/٢٢
أحمد علي الصوفي	مهمة خاصة	١٩١٨/٢/٢٧
أحمد السيد صالح	حاكم بداءة بعقوبة	١٩١٨/٥/١٦

(17) Arnold Wilson (Loyalties — Mesopotamia) — London 1936 vol. 2, p. 342—400.

الاســـم	الوظيفـــة	التاريخ
سعيد افندي المفتي	رئيس مجلس التمييز	١٩١٨/٧/١
كاظم افنـــدي	عضو مجلس التمييز	١٩١٨/٧/١
السيد خضر افندي	عضو محكمة التمييزالشرعية	١٩١٨/٧/١
عبدالامير كبه	مهمة خاصة	١٩١٨/٧/١٩
احمد عزت الحجازي	عضو محكمة	١٩١٨/٧/٢٣
عبدالملك الشواف	عضو مجلس التمييزالشرعي	١٩١٨/٨/١
عبداللطيف الراوي	قاضي بيعقوبة	١٩١٨/٨/٢١
حمدي افندي الاعظمي	مفتش اداري في الاوقاف	١٩١٨/٩/١٤
سعدون بك الشاوي	معاون شخصي لمديرالاوقاف	١٩١٨/٩/١٩
يوسف بك عزالدين	معاون مدير المعارف	١٩١٨/١٠/١
عبداللطيف الاطرقجي	معاون مالي بالصويرة	١٩١٨/١٠/١

الواقع ان أشخاصاً كثيرين غير هؤلاء دخلوا سلك الوظيفة بعد اعلان الهدنة ، وأخذ عددهم يزداد يوماً بعد يوم . فلقد أيقن الناس عند ذاك أن العهد التركي لن يعود ، ولم يبق معنى لرفضهم الوظيفة لا سيما وقد سبقهم اليها الكثيرون . يقول اسماعيل الواعظ : انه رضخ لالحاح الانكليز أخيراً، وذلك في عام ١٩١٩ ، حيث تولى مديرية أيتام بغداد وقام بها خير قيــام ، وهو يعزو سبب قبوله الوظيفة الى القضاء والقدر . (١٨)

بيــان مــود :

كان الجنرال مود قبيل دخوله بغداد قد وصلته برقية من لندن تأمره بأن لا يذيع أي بيان على الاهالي لان هناك بياناً يصاغ في لندن وسيبرق به بعد قليل . (١٩) وبعد فترة وجيزة وصل البيان برقياً وكان قد صاغــه السر مارك سايكس من أعضاء المكتب العربي في القاهرة . وفي ١٩ آذار ١٩١٧ نشر البيان باللغتين العربية والانكليزية .

(١٨) مصطفى نورالدين الواعظ (المصدر السابق) ــ ص ٤٥٩ .

(19) Philip Graves (Sir Prcy Cox) — London — p. 218.

لا يسعنا المجال نقل البيان بنصه ، فهو طويل ويمكن وصفه بأنه مليء بالتزلف والتملق للعرب ، فهو يذكر مجد العرب القديم وكيف كان العالم كله يتغذى بألبان علومهم وآدابهم ، وكيف تخرب هذا المجد على أيدي الغرباء الظلمة الذين كان دأبهم الايقاع بين العرب كي يستفيدوا من اشتقاقهم ، وان بريطانيا صممت مع حلفائها على أن يسمو العرب الى الصيت والعظمة مرة أخرى . ثم يقول البيان : اننا جئناكم محررين لا فاتحين ، وقد طرد العرب من الحجاز الاتراك والجرمان الذين بغوا عليهم ونادوا بعظمة الشريف حسين ملكاً عليهم وهو متحالف معنا كما تحالف أشراف العرب وأمراء نجد والكويت وعسير ، فيا أهل بغداد هيا للتعاون معنا لتحقيق أطماحكم القومية . [٢٠]

اشتهر هذا البيان باسم « بيان مود » لانه كان مذيلاً بتوقيعه ، ولكن الواقع ان مود لم يكن راضياً عنه ، بل هو أصدره مرغماً ، وكان رأيه ان البيان غير ضروري وليس في أوانه وهو سيثير في السكان آمالهم وأطماعهم في الوقت الذي يجب فيه أن تبقى سلطة الجيش هي السائدة لاينازعها أحد . [٢١]

وقد جرى حول البيان نقاش في مجلس العموم البريطاني ، فقال رئيس المجلس يصف البيان بأنه يحتوي على الكثير من الزخارف اللفظية التي اعتاد عليها الشرقيون والتي لا تلائم العقلية الغربية ، وقال أحد النواب من دعاة الحركة الوطنية الايرلندية : ان هذا البيان يليق أن يصدر في ايرلندا . وعلق نائب آخر على ذلك يقول : ان الجنرال مود وهو ايرلندي ربما فكر بوطنه عندما أصدر بيانه في بغداد . [٢٢]

ان بيان مود على أي حال يدل على أن حكومة لندن بدأت تتجه في سياستها العراقية نحو مدرسة القاهرة وتبتعد عن مدرسة الهند . وقد رأينا

---

(٢٠) انظر نص البيان في كتاب «تاريخ العراق السياسي الحديث» لعبدالرزاق الحسني ــ صيدا ١٩٤٨ ــ ج ١ ص ٨٦ ــ ٨٨ .

(٢١) فيليب آيرلند (العراق ــ دراسة في تطور السياسي) ــ ترجمة جعفر الخياط ــ بيروت ١٩٤٩ ــ ص ٦٦ .

(22) Barker (The Neglected War) — London 1967 — p. 383.

كوكس وأعوانه عقب اذاعة البيان يشيدون بذكر الثورة العربية وذكر قائدها الشريف حسين ، وشرع البريد العسكري يوزع في أنحاء العراق جريدة « القبلة » الناطقة بلسان الثورة العربية ، كما شرع يوزع جريدتي « المقطم » و « الكواكب » اللتين كان المكتب العربي في القاهرة يشرف عليهما ويغذيهما بالمقالات الرنانة في تمجيد الثورة . (٢٣) وكان قد صدر في القاهرة كتاب لأسعد داغر عنوانه « ثورة العرب » ، فاستوردت السلطة نسخاً كثيرة منه ووزعتها في أنحاء العراق على وجهاء المدن ورؤساء العشائر . (٢٤)

الخلاف بين مود وكوكس :

بدأ الخلاف بين مود وكوكس في البصرة منذ تولي مود القيادة العامة في ايلول ١٩١٦ ، فقد كان مود ميالاً لان يتولى بنفسه الامور العسكرية والسياسية معاً فلم يترك لكوكس مجالاً يتصرف فيه حسب رأيه . وقد اشتد هذا الخلاف في بغداد عقب اذاعة بيان مود ، فقد كان كوكس متحمساً للسياسة الجديدة في تشجيع القضية العربية حسب الاوامر التي وصلت اليه من لندن بينما كان مود غير متحمس لها وأبدى أرتيابه في فائدة الاستعانة بالعرب . أرسل روبرتسن رئيس أركان الجيش الامبراطوري بلندن الى مود يطلب منه أن يتفاهم مع كوكس في هذا الامر ، كما وجهت وزارة الخارجية البريطانية عليه ضغطاً في هذا الاتجاه ، والظاهر أن مود ظل على فتوره ولم يبدل موقفه تبديلاً كافياً .

عندما وصل السر رونالد ستورز الى بغداد في ٨ أيار ١٩١٧ أخذ كوكس يشكو اليه من تصرفات مود معه ، فوصف مود بأنه محب للتسلط المطلق وليس من الممكن التعاون معه ، وقال ان من الافضل له ولبلاده أن يستقيل من وظيفته ليحل محله كلايتون بصفحة بيضاء . ثم قال كوكس : انه سئم من العمل وكان في نيته الاستقالة من قبل الحرب ، فانه يعيش في الدنيا مرة واحدة وان زوجته لها الحق في شيء من حياة الحضارة

---

(٢٣) روفائيل بطي (الصحافة في العراق) ـ القاهرة ١٩٥٥ — ص ٥١ .

(٢٤) محمد المهدي البصير (تاريخ القضية العراقية) — بغداد ١٩٢٣ — ص ٧٤ .

والانس وهي التي عانت الحياة معه في الصومال والخليج عدداً من السنين. فأخذ ستورز يهدىء من سورة غضبه ويذكر له حاجة بلاده الى خدماته .(٢٥)

وفي ٢٥ أيار أرسل كوكس برقية مطولة الى لندن والهند قال فيها: ان الجنرال مود قائد بارع بلا شك ولكنه لا يعرف السياسة وليس له خبرة بأخلاق الشرقيين ، وقد وجدته غير متعاطف ولا متسامح في القضايا السياسية ، ولهذا فاني مستعد للاستقالة من وظيفتي اذا رغبت الحكومة في ذلك ، أما اذا كانت الحكومة تريد مني البقاء في الوظيفة فالاحرى بها أن تدعم جانبي وتجعلني في منصب مستقل باسم « مفوض مدني » على أن يكون ذلك بدون زيادة في مرتبي لكي لا يكون أكثر من مرتب الجنرال مود ، ان مجرد منحي الحق في كتابة التقارير الى الحكومة مباشرة هو بمثابة حماية لي وصمام أمن تجاه الجنرال مود ، ولسوف أقدم له نسخاً من التقارير التي أقدمها . واذا فشلت في نيل مثل هذا الحق فاني أفكر بأن الخير لي أن أعفى من الوظيفة .

وفي ١٥ حزيران كتبت المس بيل الى أحد المسؤولين بلندن ، من الذين لها دالة عليهم ، فقالت ما نصه : « ان من الواضح أن وزارة الحربية البريطانية لا تستطيع أن تنقل قائداً ناجحاً كالجنرال مود ، ولهذا أصبح من الواجب علينا أن نستمر في عملنا ، ولكن ذلك ليس سهلاً ، وان أشق مهمة اضطلع بها الآن هو اقناع كوكس بأن لا يستقيل ، فهو يشعر بأنه أصبح لا فائدة منه ، وهو يشعر كذلك بأن كثيراً من الاعمال التي تجري ليست منسجمة مع سياسة الحكومة البريطانية ... » (٢٦)

وبعد مداولات ومراسلات كثيرة تقرر أن يخول كوكس الصلاحيات التي طلبها ، وبذا أصبح مستقلاً في دائرته على أن يقدم نسخاً من تقاريره الى الجنرال مود لكي يبدي هذا رأيه فيها ان وجد ذلك ضرورياً . (٢٧)

---

(25) Ronald Storrs (Orientations) — London 1939 — p. 228.

(26) Philip Graves (op. cit.) — p. 223—227.

(27) Arnold Wilson (op. cit) — vol. 1, 264.

جولة ستورز :

ان السر رونالد ستورز من الاعضاء البارزين في المكتب العربي بالقاهرة ، وكان يتقن العربية ويؤمن بقيمة التعاون مع العرب ، وقد قرر المكتب العربي ارساله الى العراق لمباحثة كوكس في السياسة العربية • [٢٨]

وصل ستورز الى البصرة عن طريق البحر ، ومنها ركب باخرة نهرية فوصل بغداد في ٨ أيار ١٩١٧ • وكان في استقباله على ضفة النهر كوكس والمس بيل ، ثم أخذه كوكس بزورق بخاري الى مسكنه لينزل في ضيافته فيه •

وقرر ستورز بعد المداولة مع كوكس أن يقوم بجولة في بغداد والعتبات المقدسة يزور فيها علماء الدين وغيرهم • وقد سجل ستورز تفاصيل جولته ومقابلاته في كتابه « المشرقيات » ، [٢٩] ننقل فيما يلي بعضها كما ورد في الكتاب من غير تعليق :

أول زيارة قام بها ستورز كانت بصحبة المس بيل في الساعة الثانية من بعد ظهر ٩ أيار ، حيث ذهبا الى جامع مرجان فقابلا في غرفة صغيرة منه علي الألوسي ، ويصفه ستورز بأنه رجل جذاب ومثقف على الطريقة القديمة وقد جلس أصحابه حوله على شاكلة الرسوم الفارسية • وهو كان يطمح لمنصب « شيخ الاسلام » ، ويقول ستورز انه جدير بهذا المنصب • ثم ذهبا بعد ذلك لزيارة محمود شكري الألوسي في بيته ، ويصفه ستورز بأنه تقي ذو علم ولكنه نفور •

وفي صباح اليوم التالي قام ستورز والمس بيل بزيارة النقيب عبدالرحمن الكيلاني في بيته القديم الواقع قرب جامع الشيخ عبدالقادر • وقد تبسط النقيب في الحديث معهما وقال لهما : ان من النادر له أن يزور أحداً ولكنه على الرغم من ذلك زار الجنرال مود لانه يعتبره « وكيل جورج » ، ثم وصف النقيب الاتراك بأنهم كانوا يرقصون ليلاً ويحاربون نهاراً وهذا في نظره أمر غير طبيعي ، ثم قال ان طموحه الآن يتركز في زيارة

---

(28) Philip Graves (op. cit.) — p. 222.

(29) Ronald Storrs (op. cit.) — p. 228—248.

مكة والمدينة والقدس والازهر • ويقول ستورز ان المس بيل كانت قد ذكرت له عن النقيب بأنه لا يميل الى الشريف حسين ، ولهذا لم يتطرق أي منهما الى الحديث عنه •

وفي عصر ذلك اليوم ذهب ستورز وحده بالسيارة الى الاعظمية ، وكان الطريق متربا مليئاً بالمطبات ، فاستقبله قرب الجامع جماعة من المعممين المحترمين ودعوه الى بيت كبير يقع تجاه الجامع ، وكان بينهم كليدار الجامع ورئيس البلدية ، فتحدث معهم وشرب الشاي والقهوة ، ثم خرجوا معه لمشاهدة البلدة والجامع من الخارج ، وبعد الساعة الرابعة عاد الى بغداد •

وفي اليوم الرابع ذهب ستورز الى الكاظمية ، فكان في استقباله هناك ثلاثة من وجهاء الكاظمية هم : السيد جعفر عطيفة رئيس البلدية ، والشيخ حميد الكليدار ، والحاج حسين الصراف • ويصف ستورز الشيخ حميد بأنه متعصب قاد أثناء حركة الجهاد ألفاً وخمسمائة مقاتل ضد الانكليز ، ثم يصف الحاج حسين الصراف بأنه منكت ذكي مرح يشبه وجهه وجه سقراط • وأخذ الشيخ حميد يطنب في حب الناس للانكليز في كل مكان ولما ذكر له ستورز ما سمعه في القاهرة عن خصومة المجتهدين للانكليز أجابه الشيخ حميد بدون تلكؤ بأنهم فئة صغيرة كانوا مخدوعين ولكنهم غيروا رأيهم حالما شاهدوا الفضائع الحقيقية للسياسة الالمانية •

وبعد أن تجول ستورز في الكاظمية وسار حول الصحن وأخذ بعض الصور ذهب لزيارة السيد مهدي الحيدري ، ثم لزيارة السيد حسن الصدر • ولم يذكر ستورز عن السيد مهدي شيئاً ولكنه ذكر كثيراً عن السيد حسن ، ووصفه بأنه شيخ رائع له لحية بيضاء كبيرة • وحين علم السيد حسن بأن ستورز يعرف اللغة العربية انهال عليه بسيل من فصاحته ، فبدأ بالتكلم عن فوائد السفر الخمس ثم أخذ يتحدث عن قضايا السياسة والثقافة وعن جرائد مصر ورجالها ••

وفي الساعة السادسة والنصف من صباح ١٧ أيار غادر ستورز بغداد متوجهاً الى كربلا ، وكان في صحبته غاربيت وغولدسمث والنواب محمد حسين خان وحرس من الكركه تحملهم ثماني سيارات من طراز فورد • وقد تأخرت السيارات في منتصف الطريق من جراء عاصفة ترابية شديدة هبت

عليها . ولم تصل القافلة المسيب الا في الساعة الثالثة والنصف من عصر ذلك اليوم . وكان في استقبالهم هنالك الشيخ محمد علي كمونه ورئيس احدى العشائر القريبة .

اضطرتهم الريح الباردة أن يبيتوا في المسيب وفي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي تحركت السيارات بهم نحو كربلا . وحين وصلوا الى مشارف البلدة وجدوا جمهوراً من وجهاء البلدة وأشرافها في استقبالهم ، فنزل ستورز للسلام عليهم ، ثم تحرك نحو كربلا يحيط به الوجهاء وهم في عرباتهم أو على ظهور الخيل . وكانت الجماهير واقفة على الجانبين تهتف ، والنساء يزغردن .

وصلوا أخيراً الى قصر آل كمونه وهو فيوسط بستان عامرةبالنخيل والزهور وأشجار الدفلة والمشمش والعنب والبرقوقالاخضر أي«القوجة» . وفي الساعة الواحدة والنصف من بعد الظهر قدم لهم طعام الغداء في مائدة كبيرة صفت عليها عدة صحون مرة واحدة . ويقول ستورز ان « البامية » كانت من جملة المطبوخات التي قدمت على المائدة ، وقد ذاقها لاول مرة في حياته فوجدها لذيذة .

قضى ستورز عصر ذلك اليوم في التجول في أسواق البلدة وحول مزاراتها ، وفي الساعة السابعة مساءاً عاد الى القصر ليستقبل الوجهاء فوجدهم أقل ذكاءاً من وجهاء الكاظمية . وقد استنتج ستورز من محادثاته العديدة في كربلا أن الشيعة كانوا قد استقبلوا ثورة الشريف حسين بالترحاب لانها جاءت ضد الاتراك فضلاً عن كونها مشرفة للعرب .

وفي صباح اليوم التالي — ١٩ أيار — ذهب ستورز لزيارة المجتهدين، وكان أهمهم حسين المازندراني ، ويصف ستورز هذا الرجل بأنه شيخ ذو صفات جذابة يتقن اللغات العربية والفارسية والهندوستانية وهو رجل نادر من طراز الحكماء القدامى اذ هو مستعد أن يغير الحديث لاقل سبب لكي يتكلم في موضوع المقارنة بين افلاطون وأرسطو . وكان يجلس في مكتبته الصغيرة التي تحتوي على أربعمائة كتاب أكثرها مخطوط ، وكانت له مكتبة أخرى مثل هذا الحجم فتحها ليريها لستورز وهو فخور بها .

وبعد الانتهاء من زيارة المازندراني ذهب ستورز لزيارة المجتهدين

الآخرين ، فوجدهم كلهم يؤيدون ثورة الشريف حسين. وقد رد المجتهدون الزيارة لستورز . ويقول ستورز : ان محمد علي كمونة كان مكروها في كربلا ولهذا لم يزره المجتهدون في قصر هذا الرجل بل زاروه في بيت أبن عم النواب محمد حسين خان . وحين جاء حسين المازندراني للزيارة صاح « يا الله » ثماني مرات قبل صعوده الدرج .

وفي عصر ذلك اليوم غادر ستورز مع رفاقه كربلا متوجهاً الى النجف، فوصلها في الساعة الخامسة والنصف مساءاً . ويقول ستورز ان الاسواق في النجف قد أغلقت لتكريمه وان آلاف الناس خرجوا لاستقباله .

نزل ستورز ورفاقه في دار السيد عباس الكليدار ، وكانت الدار مليئة بالناس الذين كانوا في انتظاره فيها . وفي المساء زاره في الدار أعضاء المجلس البلدي والشيوخ الكبار . وفي صباح اليوم التالي استدعى ستورز اليه تجار الحرير والسجاد ، كما استدعى منجماً مشهوراً في النجف وأخذ هذا المنجم يرسم على ورقة نقاطاً وخطوطاً ثم قال له انه سيعود الى بلاده بعد مدة طويلة عن طريق البحر ، وتبين لستورز أن المنجم ليس قديراً ، وقد نفحه عشر روبيات لانه لا يستحق اكثر من هذا المبلغ .

قرر ستورز الذهاب الى الكوفة ، وعند مروره في السوق الكبير شاهد غزالاً جالساً بهدوء في أحد الدكاكين ، وكان الحاج عطية أبو قلل حينذاك بجانب ستورز فأشار الى صاحب الدكان اشارة خاصة جعلته يقدم الغزال الي ستورز حالاً . ولما وصل ستورز الى محطة الترامواي وجد فيها عربة مليئة بالركاب ، فأراد الحاج عطية أن ينزل الركاب من العربة لكي يركب فيها ستورز مع رفاقه ، ولكن ستورز رفض ذلك وقرر الذهاب الى الكوفة بالسيارات .

وحين وصل ستورز الى الكوفة ذهب لزيارة علوان الحاج سعدون رئيس بني حسن فوجده مع زمرة من اعوانه جالساً في غرفة مطلة على النهر . وقد وجد صعوبة في التحدث اليهم لانه كان يتكلم باللهجة المصرية وهم لا يفهمونها ، فكانوا يجيبونه بلفظة « بلي » مرة بعد مرة بلا فهم مما جعله ينزعج منهم. وبعد محاورة غاضبة معهم اقترح عليهم أن يهاجموا ابن رشيد ويغنموا أباعره التي يبلغ تعدادها عشرة آلاف ، فأجابوه بالموافقة

وأقسموا على أنهم سيفعلون ذلك • وأدرك ستورز بعدئذ أنهم لن يفعلوا ذلك ما لم يدفع لهم رشوة •

عاد ستورز الى النجف عصراً ، وبعد أن استراح قليلاً في سرداب الكليدار استعد لمقابلة السيد كاظم اليزدي • وفي الساعة الخامسة ذهب مع غاربيت الى بيت السيد كاظم وهو يحمل في جيبه رزمة بألف باون بغية تقديمها اليه هدية من الحكومة •، وبعد أن جلسا ينتظران عند باب الحجرة خمس دقائق خرج السيد اليهما فحياهما من بعيد وجلس على الحصيرة وأجلسهما بجانبه •

يصف ستورز السيد كاظم بأنه رجل كبير السن يلبس قفطاناً وعمامة وقد خضب لحيته وأظافره بحنة حمراء لماعة • ويقول ستورز انه أدرك سر نفوذ هذا الرجل وذيوع شهرته ، فهناك سيماء قوة في ملامحه وعينيه، ونبرة سلطة في كلامه الخافت ، لا يوجد لهما مثيل في أي مكان آخر من بلاد المسلمين •

وتقدم ستورز الى السيد كاظم يسأله : هل هناك أي شيء يستطيع الانكليز أن يقدموه له ؟ فأجاب السيد « حافظوا على العتبات الشريفة ، حافظوا على العتبات الشريفة » ، وألح السيد في أن لا يعين في المدن الشيعية سوى موظفين من الشيعة ، ثم طلب كذلك اطلاق سراح رجلين من الشيعة كانا معتقلين في بغداد هما الدكتور مظفر بك وجمال بابا ، وأن يعين المرزا محمد قائمقاماً للنجف • وأخذ السيد كاظم من بعد ذلك يجامل ستورز بشيء من الثناء ثم التفت نحو رجل دين كان حاضراً فقال له بالفارسية ما معناه : لو أن الاتراك كانوا يسلكون مثل هذا السلوك لما فقدوا العرب مطلقاً •

وقال ستورز للسيد انه سينقل نصائحه السامية الى كوكس ، ثم طلب الاختلاء به لمدة ثلاث دقائق بغية تقديم المبلغ له ، ولما قدم ستورز المبلغ أشار الى أنه للفقراء الكثيرين الذين يرجون منه المعونة ، غير أن السيد كاظم رفض المبلغ برفق مقرون بالعزم الاكيد وقال ان الوقت لم يحن لهذا بعد وهو يرجو قبول اعتذاره • ولم يجد ستورز من اللياقة الاصرار عليه ، وأخذ يحدثه عن الشريف حسين فأبدى السيد اعجابه بالشريف وتأييده له •

ولما هم ستورز بتوديع السيد كاظم عرض عليـه المبلغ مرة أخرى ، ولكن السيد رفضه بكل مجاملة وأدب . ويعلق ستورز على ذلك قائلاً بأنه على يقين أن السيد لا يعبأ بالمال بل بالعزة التي لا يمكن شراؤها بالمال . ثم يستدرك ستورز فيقول ان السيد لابد أن يرضخ في النهاية بطريقة مناسبة حينما يكون الغرض شيئاً لا مطعن فيه وهـذا موقف بعيـد كل البعد عما يحدث في مصر والحجاز .

غادر ستورز ورفاقه النجف في صباح اليوم التالي ، وبعد أن مروا في طريقهم بكربلا والمسيب والحلة وبابل وبرج نمرود وصلوا بغـداد في ٢٣ أيار . وفي ٢٦ منه استقبل ستورز السيد هبة الدين الشهرستاني لمحادثتـه في أمر ارسال وفد من علماء الشيعة الى مكة لتهنئة الشريف حسين بثورته. وكان الشهرستاني قد اقترح هذه الفكرة وأيده عليها الاب انستاس ماري الكرملي والمس بيل ، ولكن ستورز لم يتحمس لها لانه كان يريد أن يكون الوفد مؤلفاً من كبار علماء الشيعة بينما لم يقبل بالانضمام اليـه سـوى بضعة أشخاص من صغار المعممين . ولهذا أهملت الفكرة .

وفي ٢٨ أيار غادر ستورز بغداد بالباخرة متوجهاً الى البصرة ، ومنها ذهب الى نجد لمقابلة ابن سعود .

جريدة العرب :

أراد الانكليز عقب دخولهم بغداد أن يصدروا فيهـا جريدة تنطق بلسانهم ، وكان رأيهم في أول الامر أن يسموها « الاوقات البغداديـة » أسوة بـ « الاوقات البصرية » التي صدرت قبلها ، واستشاروا في ذلـك صديقهم الاب انستاس ماري الكرملي ، فاستشار هـذا بدوره محمـود شكري الآلوسي ، وأشار الآلوسي بأن يسموها جريدة « العرب » . وقـد استحسن كوكس هذا الاسم .(٣٠)

وفي ٤ تموز ١٩١٧ صدر العدد الاول من جريدة « العرب » ، وقـد كتب تحت العنوان أنها « جريدة سياسية أخبارية تاريخية أدبية عمرانية عربية

---

(٣٠) رفائيل بطي (المصدر السابق) ــ ص ٤٤ ــ ٤٥ .

للمبدأ والغرض ينشؤها في بغداد عرب للعرب » • وجاء في افتتاحية العـدد مانصه : « أنها ستكون وسيلة لنشر آراء العرب وتعميـم علومهم وآدابهم وترقية شؤونهم وعمرانهم • وها نحن أولاء نزف الى أبنـاء يعرب وقحطان هذه العروس ونأمل أنها تلاقي اقبالاً وحظوة عند كل من يهمه ترقية حالـة العرب وتحرير رقابهم من نير الظلم الذي كانوا يئنون تحته اكثر من أربعمائة سنة وعلى الله الاتكال في المبدأ والمآل » •

كان فيلبي يشرف على تحرير الجريدة وادارتها ، وكان يسـاعده الاب انستاس ماري الكرملي • وفي أوائل تشرين الثاني ١٩١٧ ترك فيلبي العمل في الجريدة فحلت محله المس بيل • وقد ذكرت المس بيل في احدى رسائلها تقول : ان الكرملي كان يأتيها اسبوعياً ليقرأ لها المقالات الرئيسة من أجـل رقابتها • [٣١] وكانت هي تأنس بالكرملي وتعتبره ظريفـاً • ولكنها تصفـه بأنه على الرغم من ملابسه الكهنوتية كان رجلاً ماكراً • [٣٢]

كان الكرملي في الواقع لولب الجريدة والكاتب الاول فيها ، فكـان يدبج المقالات الرنانة في تمجيد الثورة العربية • يقول عنـه رفائيل بطي : « كان فضله فيها ليس التوجيه السياسي الدولي انما هذه النزعة العربية الحادة التي فاضت بها أنهر صحيفة العرب ، وتلك الفصول الشائقة في تمجيـد ثورة الصحراء وزعامة المنقذ الاعظم جلالـة الحسـين بن علي وبطولـة أشـباله المقـاديم ••• » [٣٣]

وكان يشارك في تحرير جريدة « العرب » نفر من أدباء العراق وشعرائه المعروفين كجميل صدقي الزهـاوي وكاظم الدجيلي وعبدالحسين الأزري ومحمد مهدي البصير وشكري الفضلي وعطا أمين • وكان هؤلاء اذ ينشرون نتاج أقلامهم في الجريدة لا يعلنون عن أسمائهم بل يكنون عنهـا بتواقيـع مستعارة هي : ابن الفراتين ، ابن ماء السماء ، ابن بابل ، ابن الشـيعة ، ابن الاسلام الصادق ، ابن السلام ، ابن العراق ، ابن جلا ، ابن قحطان ، ابن ديك

---

(31) Richmond (Letters of Gertrude Bell) — London 1953 — p. 226.

(32) Elizabeth Burgoyne (op. cit.) — vol. 2, p. 66.

(٣٣) جورج جبوري (الكرملي الخالد) ــ بغداد ١٩٤٧ ــ ٨٩ •

العرب : ابن الزمن ، ابن الحارث ، ابن الاخباري ، أبن القيصوم ، ابن الشيخ ، ابن اليراع ، ابن الرند ، ابن الخضرة ، ابن السليقة ، ابن الحقيقة ، ابن همام ، ابن المستطرق ، ابن الشاهد العدل ، ابن الارطي ، ابن الصدق ، ابن بغداد ، ابن الهند ، ابن أبي الكتيتين ، ابن العراقين ، ابن السيارة ، ابن الرثاء .

لم يعلن اسمه في الجريدة سوى جميل صدقي الزهاوي ، أما الباقون فظلوا يكتمون أسماءهم الى يوم انتهاء الحرب ، ثم بدأوا يعلنونها بعدئذٍ . والمظنون أنهم كانوا أثناء الحرب يخشون عودة الاتراك ، فلما انتهت الحرب زال الخوف عنهم .

كانت الجريدة تدفع أجوراً عالية لمن ينشر فيها مقالاً أو قصيدة ، ولهذا أخذت القصائد « العصماء » والمقالات « الرنانة » تنهال على الجريدة وهي تلهج بمدح الانكليز وذم الاتراك وتهيب بالعرب أن ينهضوا لاعادة مجد الاجداد . ننقل فيما يلي نموذجاً من احدى المقالات التي نشرتها الجريدة ، وكانت بتوقيع « ابن الخضرة » :

« ... واذا سألتني كيف بلغ بالبغداديين أن فسدت لغتهم حتى انحطت الى هذه الدركات ؟ قلنا سببه الترك تلك الامة الفاسدة المفسدة التي أخذت على عاتقها أن تفسد كل اصلاح على الارض حتى أن من جملة ما آلت به على نفسها أن تفسد لغة عدنان ، لغة قريش ، لغة هاشم ، لغة أفصح من نطق بالضاد ، لغة دين المسلمين ... وما ان دخل ألانكليز بلدتنا الا وأجبروا الناس على تعلم اللغة العربية وصرحوا بأنهم لا يهمهم تدريس الانكليزية فيها ، وقد قال من عهدت اليه رئاسة المعارف: ان المدارس الاهلية التي لا تدرس اللغة المضرية لا تسعف بالمال ، وكل مدرسة علمت العربية وان كانت لا تدرس لغة من اللغات الاجنبية فانها تسعف مالاً ونفوذاً وجاهاً » (٣٤)

ظاهرة المتقلب :

الملاحظ ان أكثر الادباء الذين نشروا قصائدهم أو مقالاتهم في جريدة

---

(٣٤) جريدة العرب ــ في عددها الصادر في ١٣ تموز ١٩١٧ .

« العرب » كانوا أنفسهم ينشرون القصائد والمقالات في جريدة « صدى الاسلام » العثمانية . يقول الدكتور يوسف عزالدين في ذلك ما نصه :

« يقف الباحث في حيرة من حالة الشعراء ويتساءل متعجباً عن سبب هذا التقلب من مدح الاتراك الى هجائهم . فلو أخذنا (صدى الاسلام) وجريدة (العرب) لوجدنا شيئين متناقضين ، فقد مجد الشعراء رجال الدولة العثمانية وأعمالها في العراق ونظروا اليهم نظرة الاخ لأخيه ثم انقلب هؤلاء الشعراء الى هجوهم وحربهم ولصق كل تهمة بهم وكل بلية جاءت العراق ، فاتهموا بالهزيمة طوراً وبالكفر والشرك مرة وتنصلوا عن أخطائهم وصلاتهم بهم آونة أخرى ... » [٣٥]

وقد أشارت المس بيل الى مثل هذا في احدى رسائلها حيث قالت : انها حائرة من وضع بعض الادباء الذين هم من أعز أصدقائها الآن ، فهم كانوا في عهد الاتراك يكتبون المقالات العنيفة ضد الانكليز ، وهم الآن يكتبون المقالات العنيفة ضد الاتراك ، وهي لا تجد تفسيراً مقنعاً لذلك . فالكلمات عند الشرقيين هي مجرد ألفاظ لا تعني شيئاً فقد يقولون اليوم شيئاً وينقضونه غداً ، وهم لا يتركون هذه العادة أبداً . [٣٦]

يمكن أن نأتي بالشاعر المعروف جميل صدقي الزهاوي مثالاً واضحاً على هذا التقلب ، فقد كان الزهاوي قبل سقوط بغداد اتحادياً وعضواً في مجلس المبعوثين ، وكانت قصيدته بمناسبة مجيء أنور باشا الى بغداد قاسية في ذم الانكليز حيث وصفهم بأنهم أهل البغي وأنهم اعتادوا على رؤية الحق وانكاره مرة بعد مرة ، ثم رأيناه بعد السقوط يتحول الى النقيض من ذلك تماماً حتى أطلقت عليه المس بيل لقب « شاعرنا » ، اذ هو صار ينشر القصائد والمقطعات الشعرية في مدح الانكليز فوصفهم بأنهم أهل الحق والعدل وأنهم أنقذوا الشعب العراقي وحرروه كما حرروا غيره من الشعوب والامم .

وقد كتب الزهاوي في تلك الآونة ترجمة لنفسه بخط يده ، بناءاً على

---

(٣٥) يوسف عزالدين (الشعر العراقي الحديث) ـ بغداد ١٩٦٠ ـ ص ١١٣.

(36) Elizabeth Burgoyne (op. cit.) — vol. 2, p. 62—63.

طلب من الكرملي ، ذكر فيها أنه كان محباً للعرب والانكليز منذ بداية أمره، وأنه كان ينتقد الاتحاديين في مجلس المبعوثين من أجل العروبة ، وعندما أعلنت الحرب لم يذهب الى اسطنبول لكي لا يصادق على الحرب ضد بريطاليا العظمى ، أما ما صدر منه بخلاف ذلك فهو انما فعله مضطراً ، وكان الاتراك في الايام الاخيرة يريدون قتله لانهم لا يعفون عن شاعر عربي يحث العرب للانضواء الى دولة تحاربهم ، ولم يبق بينه وبين الموت إلاّ زمن بقاء مجلس المبعوثين مفتوحاً ... (٣٧)

من الجدير بالذكر ان الزهاوي وأمثاله من أدباء ذلك الزمان لم يكونوا وحدهم الذين يسلكون مثل هذا السلوك المتقلب ، فقد كان اكثر الناس في الواقع على شاكلتهم ، وقد رأينا رأي العين كيف كان رؤساء العشائر ووجهاء المدن يتزلفون للاتراك ويقولون لهم : « ان الله خلقكم رحمة لنا » ، فلما جاء الانكليز قالوا لهم مثل ذلك . أعرف رجلاً ثرياً كان جاراً لنا فكان من أكثر الناس تأييداً للاتراك وبذلاً لهم ، ولما حدث انتصار الكوت دقت الطبول على باب داره احتفالاً بالنصر ، ولكن هذا الرجل أصبح بعد السقوط صديقاً حميماً للسر برسي كوكس والمس بيل وغيرهما من كبار الانكليز ، فكانوا يزورونه في بيته كثيراً وهو يقف في خدمتهم كأنه لم يكن قد وقف في خدمة الاتراك من قبل .

ان الادباء في الواقع لم يكونوا يختلفون عن غيرهم من الناس من هذه الناحية ، ولكن مشكلتهم أنهم مفضوحون اذ هم يعلنون نتاجهم الادبي على الناس ، فينشرونه في الصحف أو يدونونه في الكتب ، فاذا تقلبوا مع الزمن سجل التاريخ ذلك عليهم . أما غيرهم من الناس فان التاريخ لا يسجل من أعمالهم وأقوالهم الا نادراً واذا ماتوا مات ذكرهم معهم في الغالب .

ذكرت المس بيل في رسالة لها مؤرخة في ٢٤ ايلول ١٩٢٢ تقول : ان ياسين باشا الهاشمي كان يأتي اليها فيمدح الانكليز ويعتبرهم وحدهم المنقذين لبلاده ، ولكنها اكتشفت له رسالة خاصة كان قد أرسلها الى

---

(٣٧) انظر نص الترجمة ماخوذة بالزنكغراف في كتاب (الزهاوي) لعبدالحميد الرشودي ــ بيروت ١٩٦٦ ــ ص ١٩٧ ــ ٢٠٤ .

أحد اصدقائه في الوقت نفسه يصف الانكليز فيها بأنهم طغاة ويسأل من الله العون على طردهم من البلاد . وقد تعجبت المس بيل من هـذا السـلوك وأبدت تعجبها للملك فيصل الاول ، فكان جواب الملك لها : أن هذا السلوك ليس عجيباً بل هو مألوف لدى أكثر الناس ، حتى أنا ، لأنهم رزحوا تحت وطأة الفاتحين المستعبدين طيلة ستمائة سـنة ، فاضطروا الى اتخـاذ خلق المكر لكي يعيشوا ، ولو أنهم عاشوا كالاوربيين في ظل الحرية زمناً كافياً لتعلموا مثلهم على أخلاق الاحرار . وتقول المس بيل انها اقتنعت بصحـة ما قال الملك .(٣٨)

حفلـة يهودية :

في اوائل تشرين الثاني ١٩١٧ وصلت الى بغداد الصحافية الامريكية المسز اليانور ايغان بعد أن حصلت برقياً على اذن خاص من الجنرال مود ، وكانت هي أول امرأة غربية بعد المس بيل تدخل الى بغـداد منذ اندلاع الحرب . وقد نزلت ايغان في ضيافة مود في داره الواقعة على النهر . ويبدو أن المس بيل لم يرق لها مجيء هذه المرأة الى بغداد في مثل هذا الوقت ، فقد كتبت الى والدها رسالة مؤرخة في ١٥ تشرين الثاني قالت فيها مانصه: « في يوم الثلاثاء تغديت مع القائد العام للالتقاء بالصحافية الامريكيـة المسز ايغان . ان الله يعلم ما هو المقصود من مجيئها ، ولكن يبدو عليها أنها تعرف طريقها في معظم هذا العالم بأسلوب وديع ظريف » .(٣٩)

وفي مساء ١٤ تشرين الثاني أقامت مدرسة الاليانس اليهودية حفلـة لتكريم الجنرال مود ، فذهب اليها مود بصحبة ايغان . وقد سجلت هـي ذكرياتها عن تلك الحفلة فـي كتابها « الحرب في مهـد العالم » نقتطف منهـا ما يلي :

خرج مود من داره ومعه ايغان ومرافق له ، في الساعة الثامنة والنصف مساءاً ، فسارت بهم السيارة في الشارع الجديد تتبعهم سيارة أخرى تحمل

(38) Elizabeth Burgoyne (op. cit.) — vol. 2, p. 297—298.
(39) Ibid, vol. 2, p. 67.

الحرس . ثم دخلت بهم السيارة في أزقة ضيقة وأسواق مسقوفة حتى وصلت بهم الى مدرسة الاليانس . وكانت ساحة المدرسة مزينة بأبهى زينة وهي محتشدة بالناس من مختلف الاقوام والطوائف يدل على ذلك ما يلبسونه على رؤوسهم من طرابيش وكوفيات وعمائم وكلاوات فارسية. وقد لفت نظر ايغان وجود جمع من النساء في وسط الساحة وقد لبسن العباءات الحريرية البراقة وأسفرن عن وجوهن ، وكانت تلك أول مرة تسفر فيها نساء الطبقة الراقية عن وجوههن في محفل عام في العراق . وقال رجل في تفسير هذه الظاهرة الاجتماعية : « نساؤنا لسن في حاجة الى حجاب أبداً تحت الحكم البريطاني » .

كان قد أعد للجنرال مود كرسي خاص مزخرف موضوع على منصة في وسط الصف الاول من الساحة على مقربة من المسرح ، وأعد لايغان كرسي أقل ارتفاعاً منه الى جانبه ، وكانت هناك أمام الكرسي منضدة صغيرة وضع عليها كوبان ووعاء للقهوة وصحن فيه سكر وقارورة حليب . وأخذ مود يشرب القهوة بعد أن صب عليها مقداراً كبيراً من الحليب البارد غير المغلي ، أما ايغان فشربت القهوة من غير حليب .

بدأت الحفلة بظهور فتاة يهودية صغيرة على المسرح حيث القت خطاباً مكتوباً في مدح مود والبريطانيين جميعاً ، وكيف ان بغداد حالفها التوفيق أخيراً لانها صارت تحت هذا الحكم النزيه الشريف . وكان الحاضرون يصفقون بشدة عند كل عبارة تنطق بها تلك الفتاة .

من عادة مود أن يأوي الى فراشه في الساعة العاشرة مساءاً ولكنه في تلك الليلة بقي حتى الساعة الحادية عشرة لمتابعة برنامج الحفلة ، وحين أراد الانصراف تقدم منه مدير المدرسة راجياً منه البقاء قليلاً للاستماع الى نشيد باللغة العربية نظم خصيصاً له . وقد غادر مود الحفلة مع ايغان على أثر انتهاء النشيد ، غير أن الحفلة استمرت بعده ولم تنته الا في الرابعة صباحاً . (٤٠)

(40) Eleanor Egan (The War In The Cradle of The World) London — p. 281 — 287.

مـوت مـود :

كانت الحفلة اليهودية التي شهدها مود في مساء ١٤ تشرين الثاني قد قربت أجله ، ففي صباح اليوم التالي شعر مود بتوعك في صحته ، ثم اشتد عليه المرض في المساء ، وبعد فحصه من قبل كبير الاطباء الكولونيل ويلكوكس تبين أنه مصاب بنوع حاد من الكوليرا • وفي اليوم الثاني لـم يستطع مود الذهاب الى مكتبه ، واستدعي من بعقوبة الجنرال مارشـال ليتولى القيادة العامة نيابة عنه • وفي مساء ١٨ تشرين الثـاني لفظ مود أنفاسه الاخيرة • وقد دفن في المقبرة الانكليزية خـارج باب المعظم فـي الموضع الـذي يسـمى « الكرنتينة » ، • وما زالت المقبرة فـي محلهـا حتى الآن •

ولم يكد يتم دفن مود حتى شرعت دائرة التحقيقات الجنائية بالتحقيق في سبب موته ، واتضح للمحققين أن رسالة بلا توقيع كانت قد وصلت الى مود قبل موته تهدده بالقتل ، كما وصلت رسالة مثلها الى قائـد آخـر • واستمع المحققون الى شهادتي ايغان وكبير الاطباء الكولونيل ويلكوكس ، وكان رأي ويلكوكس أن مود مات قضاءاً وقدراً وليس لاحد تعمد فيه ، ولكن المحققين لم يأخذوا بهذا الرأي في بداية الامر •

كانت الشبهة تحوم حول اليهود حيث ثبت أن عدوى الكوليرا انمـا انتقلت الى مود من جراء تناوله حليباً غير مغلي في حفلة الاليانس ، ولـكن الانكليز كانوا حريصين كل الحرص على تبرئة اليهود من هذه التهمة ، لانهم كانوا واثقين من اخلاص اليهود لهم ولم يستطيعوا ان يتصوروا يهودياً يريد قتل مود عمداً • وقد كتب الجنرال مارشال الذي حل محل مود في القيادة يقول انه كان متأسفاً لالتصاق مثل هذه الشبهة باليهود ، وكان السر برسي كوكس متأسـفاً مثلـه ، وهو يصف اليهود بأن موقفهم وسلوكهم تجـاه الانكليز كان في كل الاوقات نموذجياً • (٤١)

استمر التحقيق ثلاثة اشهر دون أن يتوصل الى نتيجة حاسمة • وقـد قرر الجنرال مارشال أخيراً نفي المتعهد الذي جهز المشروبات فـي حفلـة

---

(41) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 1, p. 276.

الاليانس هو ومساعده الى الهند باعتبارهما شخصين غير مرغوب فيهما . فاحتج كوكس على هذا القرار وعده ظلماً في حق شخصين بريئين ، فلم ينفع احتجاجه شيئاً . (٤٢) وكتب الجنرال مارشال يعتذر عن القرار قائلاً : انه قرار ظالم في أرجح الظن ولكن المتعهد قصر في واجبه لانه يعلم بوجود الكوليرا في المدينة وكان الواجب عليه أن يكون في غاية الاحتياط عند تقديم الحليب في تلك الظروف . (٤٣)

وعلى أي حال ، فقد أثار موت مود كثيراً من الاشاعات والهمسات بين الناس في بغداد ، حيث أخذ الناس يتقولون ان مود مات مسموماً وان الحكومة البريطانية هي التي دست له السم في طعامه من جراء نشره بيانه المشهور الذي وعد فيه أهل العراق بالحرية والاستقلال . انهم كانوا يجهلون حقيقة موقف مود من البيان الذي أذيع باسمه ، ولو كانوا يعرفون ذلك لقالوا ان الحكومة انما دست له السم لأنه كان معارضاً لاصدار البيان. أما لو أنهم كانوا يعلمون بالخلاف الشديد بينه وبين كوكس لاتهموا هذا بدس السم له . وتلك كانت عادة العراقيين في ذلك الزمان ، ولا يزال البعض منهم يفعلون ذلك حتى هذه الساعة !

تخليد ذكرى مود :

انتهز بعض الشعراء فرصة موت مود فنظموا القصائد في تأبينه ونشروها في جريدة « العرب » ، وقال أحدهم في وصف مود انه بحر الجود والمكرمات ، وان عين الفخار فاضت لفجيعته دماً ، وتبدد شمل العلا بعدما كان منتظماً . (٤٤)

وفي الساعة الثالثة والنصف من عصر يوم الجمعة ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٧ اجتمع رهط كبير من وجهاء بغداد في دار الحاكم العسكري من أجل التبرع لانشاء أثر في بغداد يخلد ذكرى مود فيها ، وذكرت جريدة « العرب » في هذه المناسبة تقول : ان البغداديين انما فعلوا ذلك لما عهدوا

---

(42) Loc. cit.

(43) Barker (op. cit.) — p. 432.

(٤٤) جريدة « العرب » في عددها الصادر في ٨ كانون الاول ١٩١٧ .

في الفقيد من مودة لهم وعطف عليهم . (٤٥)

وتألفت لجنة لجمع التبرعات مؤلفة من الذوات التاليــة أسـماؤهم : عبدالقادر الخضيري ، سيد جعفر سيد هاشم ، لطيف عبود ، اسـكندر عزيز عيساوي ، ابراهيم حييم عقيب ، كريكور اسكندر ، يهودا زلوف . وأخذت جريدة « العرب » تنشر في اعداد متتابعة قوائم بأسماء المتبرعين ومبالغ تبرعهم . والملاحظ ان القوائم تضمنت عدداً من « الاصناف » ـ أي ذوي الحرف المحليــة ـ كالخفافين والحدادين والنجـارين والخيـاطين والساعاتية والحلاقين والبزازين والعلوجية والقصابين والندافين وقندرجية الشورجة وأهل الكلاوات .

وقد أقيم أخيراً تمثال لمود في جانب الكرخ أمام دار المندوب السامي، وجرت حفلة ازاحــة الســتار عنــه فـي ٤ كانون الاول ١٩٢٣ . ومـن الطريف أن نذكر ان الشاعر معروف الرصافي كــان يصــدر آنذاك جريدة اسمها « الأمل » وقد جاء في هــذه الجريدة تعليق على الحفلــة نقتطف منــه ما يلي :

« ونحن هنا لا نريد أن نصف تلك الحفلة ونبحث عن نفسية الذين شهدوها وما كان لها من التأثير في قلوبهم وعلى عواطفهم ، بل نريــد أن نعالج مسألة تاريخية خطيرة تهم العراقيين والبريطانيين على سواء ، وهـو تأثير انقاذ مدينة بغداد على يد الجنرال مود وما لهذا القائد الكبير من المقام الخالد في التاريخ العربي » . ثم قالت الجريدة في وصف مود :

« للجنرال مود ميزتان ترفعانه الى مصــاف آكابر رجــال التاريخ ، وهاتان الميزتان قل من اتصف بهما من عظمــاء التاريخ وأبطالــه ويظهر انه البطون البريطانية آكثر من غيرها تتحف العالم من حين لآخر بمثل هؤلاء الافذاذ الذين تزدان بهم صحائف المجد البريطاني » . (٤٦)

دلل الرصافي بهذا على أنه لا يختلف في سلوكه المتقلب عن الزهاوي أو غيره من أدباء ووجهاء ذلك الزمان !

---

(٤٥) جريدة «العرب» في عددها الصادر في ٣ كانون الاول ١٩١٧ .

(٤٦) قاسم الخطاط ومصطفى السحرتي ومحمد الخفاجي (معروف الرصافي) القاهرة ١٩٧١ ـ ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

الفصل الثالث عشر

المعـارك الاخيرة

ان الفترة التي امتدت بين سقوط بغداد في ١١ آذار ١٩١٧ واعـلان الهدنة في ٣١ تشرين الاول ١٩١٨ شهدت معارك حربية عديدة بين الانكليز والاتراك • وليس هنا مجال التفصيل في ذكر تلك المعـارك ، فذلك مـن اختصاص المؤرخين العسكريين ، وسنكتفي في هذا الفصل بذكر صـورة موجزة لتلك المعارك مع التطرق الى بعض الاحـداث المهمة التي صاحبتها•

جبهة دجلة :

جرت المعارك بعد سقوط بغداد على جبهات ثلاث هي : جبهة دجلة ، وجبهة ديالى ، وجبهة الفرات • ونبدأ بالجبهة الاولى :

كان لدى الاتراك في جبهة دجلة الفيلق الثامن عشر وهو بقيادة كاظم بك قره بكر على نحو ما ذكرناه في الفصل الحادي عشر • ويبدو انالخلاف الذي لا حظناه سابقاً بين هذا القائد ورئيسه خليل باشا قـد اشتد عقب سقوط بغداد ، فقد كان من رأي كاظم بك ان يستمر الفيلق في انسـحابه شمالاً فلا يتوقف الا في « اصطبلات » القريبة من سامراء ، وذلك لـكي يتجنب الخسائر التي لا فائدة منها ، أما خليل باشا فكان رأيه أن الفيلق يجب أن لا ينسحب أمام الانكليز انسحاباً بعيد المدى بل عليه أن يقاومهم ويحاربهم موضعاً بعد موضع ولا يترك موضعاً الا بعد أن يبـذل فيـه أقصى جهـده •

يقول الناقد العسكري باركر : ان المعارك التي جـرت أثبتت صواب رأي كاظم بك ، فقد تكبد الاتراك فيها خسائر كبيرة دون أن يجنوا منهـا فائدة ، ولو أنهم انسحبوا منذ البداية الى « اصطبلات » لكانت خطوطهم الدفاعية في هذا الموقع قادرة علىمقاومة الزحف الانكليزيبشكل أوفى•[1]

---

(1) Barker (The Neglected War) — London 1967 — p. 389.

اضطر كاظم بك أن يرضخ لرأي رئيسه خليل باشا حيث اتبع خطته على الرغم من علمه بخطأها . وفي ٢٤ آذار ١٩١٧ ـ أي بعد سقوط بغداد بثلاثة أيام ـ جرت معركة عنيفة بين الانكليز والاتراك في موضع يقال له «المشاهدة» على بعد خمسة وعشرين ميلاً من بغداد ، وكانت خسائر الفريقين فيها فادحة . وقد أدت هذه المعركة الى زيادة الخلاف بين كاظم بك وخليل باشا . وفي ٢٢ آذار قدم كاظم بك استقالته من قيادة الفيلق ، فقبلت الاستقالة ، وصدر الامر اليه من اسطنبول بالذهاب الى جبهة قفقاسيا ، وحل محله في قيادة الفيلق قائد اسمه شوكت بك الغلطلي (نسبة الى محلة غلطة في اسطنبول) .

وفي ٨ نيسان تمكنت القوات الانكليزية من احتلال بلد ، وفي ٢١ منه نشبت معركة شديدة في اصطبلات تكبد فيها كل من الفريقين زهاء ألفين بين قتيل وجريح . وفي ٢٤ منه دخل الانكليز سامراء . وفي ٦ تشرين الثاني استولوا على تكريت غير أنهم انسحبوا منها بعد اربعة ايام .

جبهة ديالى :

كان الفيلق الثالث عشر التركي لا يزال في ايران عند سقوط بغداد وهو بقيادة علي احسان بك ، وقد وصلته الاوامر بالانسحاب نحو العراق لانقاذ ما يمكن انقاذه فيه ، فأسرع بالانسحاب عاجلاً .

المعروف عن علي احسان بك أنه قائد حاذق شديد المراس ، ويعد انسحابه من ايران عملاً عسكرياً رائعاً حيث كان سير الفيلق بمعدل ثلاثة وثلاثين ميلاً في اليوم الواحد وذلك على الرغم من ظروفه الادارية الرديئة وموقفه المحفوف بالمخاطر اذ كان الروس يطاردونه من ورائه . (٢)

وصل الفيلق الى مضيق بايطاق الجبلي في ١٣ آذار ، فترك فيه قوة لتأخير مطاردة الروس له ، ثم استمر في انسحابه حتى وصل الى خانقين في ١٥ آذار . ولم يكن هناك جسر على نهر الوند ، فأوعز القائد الى جنوده باقتلاع الابواب من دور خانقين ليصنع منها جسراً ، وبذلك

---

(٢) شكري محمود نديم (حرب العراق) ـ بغداد ١٩٦٧ ـ ص ١٤٨ .

تم للفيلق عبور النهر .

كان الجنرال مود قد ارسل من بغداد قوة عسكرية كبيرة بقيادة الجنرال كيرى لمقابلة الفيلق التركي ، وكان واثقاً ان هذا الفيلق سيتحطم بسهولة لان الروس يطاردونه من ورائه بينما الجنرال كيرى مستعد له من الامام . فالفيلق التركي أصبح في نظر مود كالجوزة التي تقع بين فكي الكسارة . وفي ١٩ آذار أبرق مود الى لندن يبشرها بقرب تدمير الفيلق التركي ويطلب منها تعيين الحدود التي يجب أن تقوم بينه وبين القوات الروسية القادمة . وسرعان ما تبين للجنرال مود أنه كان متفائلاً أكثر مما ينبغي .

الظاهر أن الجنرال كيري لم يكن كفوءاً للقائد التركي علي احسان بك ، فقد أذهل هذا القائد الانكليز بسرعة تحركه وبراعة خططه ، وقد أطلق الجنود الانكليز عليه لقب « كيس الرمل العتيق » . [3] ففي ٢٥ آذار نشبت معركة عنيفة بين الفريقين بالقرب من جبل حمرين ، بين شهربان وقزلرباط ، تكبد الانكليز فيها خسائر جسيمة تقدر بألف ومائتين بين قتيل وجريح . وقد تمكن الفيلق التركي من الانسحاب بنجاح متجهاً نحو دلتاوة بغية الاتصال بالفيلق الثامن عشر .

جرت بعد ذلك معارك عديدة في المنطقة التي تقع بين ديالى ودجلة وحول نهر العظيم ، وكان النصر فيها للانكليز ولكنه كلفهم غالياً !

جبهة الفرات

عندما حل صيف ١٩١٧ توقفت المعارك في جميع الجبهات في العراق لشدة الحرارة ، ولم يقع حينذاك سوى معركة واحدة هي معركة الرمادي في جبهة الفرات ، وقد ذاق الانكليز فيها الامرين ، فكانت تجربة قاسية لهم قرروا أن لا يعيدوها مرة أخرى .

كان لدى الاتراك في الرمادي قوة يبلغ عدد جنودها ألفاً أو يزيد على الالف قليلاً ، وهي مؤلفة من ثلاثة أفواج بقيادة الضابط البغدادي

(3) Barker (op. cit.) — p. 390.

أحمد بك أوراق ، وقد اتخذت مواقعها الدفاعية على القناة التي تصل نهر الفرات ببحيرة الحبانية وهي تقع الى الشرق من الرمادي ويبلغ عرضها مائة وخمسين قدماً وعمقها أربعة أقدام •

وفي ٧ تموز ١٩١٧ وصلت الى تلول سن الذبان الواقعة على بعد خمسة وعشرين ميلاً من الرمادي قوة بريطانية كبيرة بقيادة الكولونيل هالدن ، وكان معها ١٢٧ سيارة حمل تكفي لنقل ستمائة جندي دفعة واحدة، وكانت تلك أول مرة تستعمل فيها السيارات لنقل الجنود بمثل هذا النطاق الواسع في العراق •

كانت القيادة الانكليزية تتوقع أن الاتراك سيسرعون الى الانسحاب من الرمادي حالما تبدأ القوة الانكليزية بمهاجمتهم ، ثم تبين لها ان توقعها هذا لم يكن قائماً على أساس صحيح •

بدأ الهجوم على مواقع الاتراك في صباح ١١ تموز ، وقد صمد الاتراك للهجوم بضراوة • وفي الساعة التاسعة والنصف هبت ريح عاصفة مشحونة بالرمال عرقلت مواصلات القوة الانكليزية وجعلت مدافعها غير قادرة على تمييز أهدافها مما اضطر الكولونيل هالدن الى وقف الهجوم • وفي ساعة مبكرة من صباح ١٣ تموز انسحبت القوة الانكليزية الى مواقعها في سن الذبان •

كانت خسائر الاتراك ١٥٠ جندياً بين قتيل وجريح ، يضاف اليهم ١٠٠ جندي هربوا والتحقوا بالقوة الانكليزية • (٤) أما خسائر الانكليز فبلغت ٢٥٠ جندياً ، يضاف اليهم ٣٢١ سقطوا من شدة الحر • (٥) فلقد وصلت درجة الحرارة يومذاك الى الخمسين تحت الظل بالمقياس المئوي ، وربما زادت على ذلك ، أما تحت أشعة الشمس فقد نافت على السبعين • ويقال ان العراق لم يشهد مثل تلك الدرجة العالية منذ سنين عديدة • ولم يكن الجنود الانكليز معتادين على ذلك فاصيب بعضهم بالجنون ، وأصيب آخرون منهم بضربة الشمس ، بينما أصيب فريق ثالث

---

(٤) محمد أمين العمري (حرب العراق) ــ بغداد ١٩٣٥ ــ ج ٣ ص ٤٧ــ٤٨ •

(5) Barker (op. cit.) — p. 419.

بالعطش أو التعب المهلك • وقد قررت القيادة الانكليزية بعد هذا تجنب القتال في مثل هذه الحرارة الا عند الضرورة القصوى • (٦)

توصلت الابحاث الطبية مؤخراً الى أن الجسم البشري يفقد عند التعرق الشديد كثيراً من ملحه ، وهذا يؤدي به الى الرهق المضر ، والى الموت أحياناً ، واكتشفوا ان الحيوانات البرية تلجأ في الحر الشديد الى لطع الارض المالحة ، ولذا يتناول العمال الآن في الصيف أقراصاً من الملح للتعويض عما يفقدونه بالعرق • ومن الجدير بالذكر ان القيادة الانكليزية في معركة الرمادي لم يكن لها علم بذلك مما أدى الى جسامة الخسائر التي لحقت بقواتها هنالك •

جيش الصاعقة :

عقب سقوط بغداد سيطرت على ذهن أنور باشا فكرة استعادتها بأي ثمن ، وقد فاتح الالمان بهذه الفكرة فاستجابوا لها بحماس وخصصوا لتحقيقها خمسة ملايين ليرة ذهب •

كان الالمان في ذلك الوقت قد ابتكروا طريقة جديدة في الحرب سموها « حرب الصاعقة » وهي الطريقة التي طبقت على نطاق واسع في الحرب العالمية الثانية والتي تعتمد على سرعة الحركة • وقد تقرر انشاء جيش على هذه الطريقة باسم « يلدريم » ، أي الصاعقة ، يتألف من الجيش السادس الموجود في العراق بالاضافة الى الجيش السابع الذي كان يجري تجميعه في حلب بقيادة مصطفى كمال باشا ، على أنه يلتحق به فيلق ألماني قوي التنظيم والتسليح ليكون العمود الفقري له •

نيطت قيادة جيش الصاعقة بالقائد الالماني المارشال فون فالكنهاين ، وهذا الرجل كان في الواقع قائداً عسكرياً عظيماً ، وكان في بداية الحرب قائداً للجيوش الالمانية كلها ، ولكن عيبه أنه كان جاهلاً بأوضاع البلاد العثمانية ولم يكن يدري أن حرب الصاعقة التي تلائم طبيعة الجيش الالماني هي غير صالحة للجيوش التركية •

وصل فالكنهاين الى اسطنبول في ٧ أيار ١٩١٧ ، وقام بجولة في

(6) Loc. cit.

شمال العراق وسوريا لدراسة الاوضاع العسكرية هناك عن كثب • وتبين له أن أهم مشكلة تواجهه في تشكيل الجيش هي رداءة الطرق وتعرض النقليات العسكرية فيها للاختلاس والنهب ، فالطريق الرئيس بين اسطنبول وحلب كان معرضاً للسرقة من قبل الاهالي والجنود معاً ولابد اذن من حراسته برجال من الالمان • يضاف الى ذلك كثرة عدد الفارين من القوات التركية ، ففي صيف ١٩١٧ بلغ عدد الفارين من تلك القوات مثل عدد الذين بقوا فيها أو ربما زاد عليه فعلاً • (٧)

في ٢٠ حزيران ١٩١٧ عقد في حلب مؤتمر عسكري على مستوى عالي حضره فون فالكنهاين وأنور باشا وخليل باشا وجمال باشا ومصطفى كمال باشا وعزت باشا • وقد تقرر في المؤتمر أن تكون خطة الهجوم في العراق من جهة الفرات لتهديد الجناح الايسر من قوات الجنرال مود وقطع خطوط مواصلاتها • وكان المعارض الوحيد في المؤتمر مصطفى كمال باشا اذ كان موقناً بأن مصير الهجوم هو الفشل الذريع ، ولم يؤيده في رأيه هذا سوى جمال باشا • (٨)

وقد أثار جمال باشا في المؤتمر موضوع الخطر الذي يهدد الجبهة الفلسطينية من سيناء ، وطلب تعزيزها بفرقة واحدة ، ولكن أنور باشا لم يوافقه على رأيه وأصر على وجوب الاهتمام باستعادة بغداد قبل كل شيء وقال : « ان كل جندي يرسل للجبهة الفلسطينية يقلل احتمالات النجاح في استرجاع بغداد » • (٩)

ولم يكد ينفض المؤتمر حتى أخذ العمل يجري في اعداد جيش الصاعقة بكل نشاط وقوة ، ووضع أنور باشا كل ما لديه من حزم في تدعيم العمل وتسريعه ، كما بذل المهندسون الالمان جهدهم ــ بما عرف به الالمان من كفاءة ودأب ــ في اتمام مد السكك الحديدية وشق الانفاق

(7) William Yale (The Near East) — Ann Arbor — p. 240—241.

(٨) ارمسترونج (مصطفى كمال) ــ ترجمة دار الهلال ــ القاهرة ص ٧٩ ــ ٨٠ •

(٩) شكري محمود نديم (حرب فلسطين) ــ بيروت ١٩٦٥ ــ ص ٩٣ •

التي تعترض طريقها في الجبال • (١٠)

وبينما كان العمل سائراً في مجراه حدثت حادثة في اسطنبول كانت بمثابة الكارثة على جيش الصاعقة • ففي ٦ ايلول تمكنت الجاسوسية الانكليزية من نسف محطة حيدر باشا وكانت فيها مقادير هائلة من المعدات الحربية التي كانت على وشك نقلها الى جيش الصاعقة ، فحدث من جراء ذلك انفجار هائل كانت له نتائج خطيرة على حركات ذلك الجيش • (١١)

وفي تشرين الثاني ١٩١٧ شن الجنرال اللنبي هجومه الكاسح على الجبهة التركية في فلسطين ، وعند هذا أدرك فون فالكنهاين ان جبهة فلسطين أولى بالعناية من استعادة بغداد ، وحاول اقناع أنور باشا بوجهة نظره هذه غير أن أنور باشا أبى ان يصغي اليه لان فكرة استعادة بغداد كانت لا تزال مسيطرة على ذهنه ، ونشب من جراء ذلك خلاف بين الرجلين • وفي ١١ كانون الاول دخل اللنبي الى القدس فاتحاً ، وصارت قواته تهدد دمشق وبيروت ، فاضطر أنور باشا أن ينسى أمر بغداد مرغماً ويهتم بأمر هذا الخطر الجديد •

معركة الرمادي الثانية :

كان القائد التركي في الرمادي احمد بك أوراق قد تلقى امدادات جديدة ، فصار لديه سبعة أفواج بدلاً من ثلاثة ، فحشد معظمها على قناة الحبانية شرق الرمادي ظناً منه أن الانكليز اذا هاجموه مرة أخرى فسوف يتبعون نفس الخطة التي اتبعوها في المرة السابقة ، وكان ذلك خطأً منه ادى الى هزيمة منكرة •

وكان الجنرال مود من الجانب الآخر قد وصلته أخبار مقلقة عن تشكيل جيش الصاعقة لاستعادة بغداد عن طريق الفرات ، فصمم على احتلال الرمادي لكي لا تكون ركيزة للجيش المذكور • وأعد لذلك فرقة عسكرية كاملة وناط قيادتها بقائد بارع سريع الحركة هو الجنرال بروكنج•

نصب الجنرال بروكنج جسراً على نهر الفرات وقام ببعض الحركات

(10) Barker (op. cit.) — p. 414.

(١١) شكري محمود نديم (المصدر السابق) — ص ٩٦ •

التظاهرية على الجانب الشرقي من النهر لكي يوهم الاتراك بأن الهجوم سيأتيهم من كلا الجانبين في آن واحد . وفي ٢٧ ايلول ١٩١٧ بدأ بروكنج هجومه كما أرسل لواءاً من الخيالة للقيام بحركة التفاف واسعة النطـاق نحو الغرب هدفها قطع طريق هيت والوصول الى شاطىء الفرات فـوق الرمادي. وقد نجح لواء الخيالة في حركته ، حيث قطع خط الرجعة على القوات التركية ، وصارت تلك القوات مطوقة لا يمكنها الانسحاب الا عن طريق النهر مع العلم انها لم تكن تملك جسـراً على النهـر يمكنها العبـور عليـه .

كان ضابط الركن توفيق وهبي قد أدرك خطورة الموقف في الوقت المناسب ، وأشار على رئيسه أحمـد اوراق ناصحاً بالانسحاب نحو هيت قبل أن يقطع الانكليز خط الرجعة عليهم ، (١٢) ولـكن أحمـد بك كان متردداً قضى وقته بعقد المشاورات واصدار الاوامر المتناقضة ، فأضـاع بذلك وقتاً ثميناً . ويقال أن تردده كان من جراء خوفه من رئيسه خليل باشـا ، (١٣) فأدى ذلك الى ضياع القوات التركية كلها وسقوطها غنيمة باردة في أيدي الانكليز .

وفي ظهر ٢٩ ايلول شوهدت الاعلام البيض ترفرف فوق الرمـادي دلالة على استعداد القوات التركية للاستسلام ، وقـد بلغ عـدد الذين استسلموا للانكليز ٣٤٠٠ جندي و ١٤٥ ضابطاً ، وكان من بينهم القـائد أحمد أوراق . أما ضابط ركنه توفيق وهبي فقد تمكن من الهرب هـو وبضعة أفراد من الجنود اذ رموا بأنفسهم الى النهر فعبروه سباحة ، (١٤) وعند خروجهم الى الضفة الاخرى تلقتهم عشائر الدليم التي كانت من حلفائهم سابقاً فجردتهم من ملابسهم تجريداً تاماً . (١٥) ولم يصلوا الى هيت الا بشـق الانفس .

---

(١٢) محمد أمين العمري (المصدر السابق) — ج ٣ ص ٦٣ .
(١٣) شكري محمود نديم (حرب العراق) — ص ١٧٤ .
(١٤) محمد أمين العمري (المصدر السابق) — ج ٣ ص ٥٩ .
(15) Arnold Wilson (Loyalties) — London 1936 — vol. 1, p. 272.

كان خليل باشا يومذاك في تكريت ، ولم تصله أخبار الرمادي فظل قلقاً لا يعرف ماذا جرى فيها . وفي اليوم التالي – أي في ٣٠ أيلول – أرسل طائرة ألمانية لاستطلاع الخبر . وجاءت الطائرة الى الرمادي وكادت تهبط الى الارض بالقرب منها لو لم يفطن الطيار في اللحظة الاخيرة الى ان الوضع في البلدة غير اعتيادي فعاد الى التحليق . (١٦) وقد وصل الطيار الى تكريت مساءاً وأخبر خليل باشا بأمر سقوط الرمادي ، (١٧) فكان الخبر صدمة مزعجة له .

ان سقوط الرمادي أدى الى حدوث تغير في موقف العشائر القاطنة الى الجنوب منها ، فهي كانت قبل ذلك قد اتخذت موقف العداء تجاه الانكليز ، وكانت تظن أن الاتراك عائدون . أما بعد سقوط الرمادي فقد أيقنت تلك العشائر ان الانكليز جاؤوا ليبقوا وأن من الاجدى لها أن تتعاون مع الاسياد الجدد . (١٨)

ماساة خانقين :

في ١ نيسان ١٩١٧ احتلت القوات الروسية خانقين على أثر انسحاب القوات التركية منها . وهذه هي المرة الثانية التي تقع خانقين فيها تحت الاحتلال الروسي خلال الحرب . وقد قاسى أهل خانقين في هذه المرة من البلاء أكثر مما قاسوه في المرة السابقة .

كانت القوات الروسية يتألف معظمها من الخيالة القوزاق وهم مشهورون بقسوتهم وعربدتهم وقلة مبالاتهم بآلام البشر ، ويروى عنهم أنهم كانوا في بعض المدن الايرانية يختطفون النساء من الشوارع ، ويهاجمون حمامات النساء ، ويقترفون أفعالاً لا يستحسن ذكرها .

بلغت الفظائع الروسية في خانقين حداً لا يطاق بحيث صار الاهالي يترحمون على عهد الاتراك ويتمنون عودتهم . فقد أخذ الروس يستحوذون على أموال الناس بالقوة ، وقد يدفعون الثمن أحياناً بـ « المناط » أي

---

(16) Barker (op. cit.) — p. 425.

(١٧) محمد امين العمري (المصدر السابق) – ج ٢ ص ٦٥ .

(18) Barker (op. cit.) — p. 425.

النقود الورقية الروسية ، وهي نقود كانت قد هبطت قيمتها أكثر من هبوط « النوط » التركي ، وقيل انهم قتلوا رجلين من المسلمين وسبعة من اليهود مع امرأتين لأنهم امتنعوا عن تصريف المناط . وشرع أهل خانقين يكتبون العرائض ويرسلونها الى الانكليز في بغداد يشكون اليهم فيها من جور حلفائهم الروس ويطلبون انقاذهم منهم . (١٩)

وفي تلك الآونة بدأت أخبار الثورة الروسية في بطرسبرغ تصل الى الروس في خانقين والمدن الايرانية التي كانت تحت احتلالهم ، فادى ذلك الى انحلال الضبط العسكري بينهم ، حيث صار الجنود لا يطيعون أوامر ضباطهم ولا يحترمونهم ، وبدأوا يتركون مواقعهم ويبيعون أسلحتهم ليشتروا بأثمانها خمراً يعربدون به ، وكانوا أذا مروا ببلدة أو قرية في طريقهم الى بلادهم هدموا دورها لكي يستخرجوا منها الخشب الذي يحتاجون اليه في تدفئة أبدانهم . (٢٠)

كانت الحكومة الايرانية في تلك الايام ضعيفة كل الضعف ولم يكن لديها من القوة ما تحفظ به الامن ، ولهذا صارت المناطق التي كانت تحت احتلال الروس في فوضى شاملة ، وانتشرت العصابات في كل مكان، كما انتشرت المجاعة . وكان نصيب خانقين من تلك الفوضى لا يقل عن نصيب المدن الايرانية .

وفي نهاية حزيران عاد الاتراك الى احتلال خانقين ، وطردوا منها الروس ، ولكنهم أكملوا التدمير الذي بدأه الروس فيها . تقول المس بيل: ان الحقول التي حصدها الروس من قبل جاء الاتراك فنظفوها تنظيفاً تاماً ، وأعدم الاتراك عدداً من الرجال البارزين في خانقين وقزلرباط بتهمة أنهم أخفوا حاصلاتهم الزراعية في الجبال وامتنعوا عن تزويد القوات التركية بها . (٢١)

---

(١٩) المس بيل (فصول من تاريخ العراق الحديث) ــ ترجمة جعفر الخياط ــ بيروت ١٩٧١ ــ ص ١٤٠ ــ ١٤٥ .

(20) Percy Sykes (A History Of Persia) — London 1958 — vol. 2. p. 486—487.

(٢١) المس بيل (المصدر السابق) ــ ص ١٤٦ ــ ١٤٧ .

وفي نهاية شهر آب اضطر الاتراك الى الانسحاب من خانقين ، غير أن الانكليز لم يدخلوها الا بعد أربعة أشهر ، فوجدوها في حالة من البؤس لا تطاق حيث كانت المجاعة قد اشتدت فيها وتفشت الامراض . وقد عين الانكليز الميجر صون حاكماً فيها ، وكان هذا الرجل ادارياً قديراً يتقن اللغات الكردية والفارسية والتركية ، فأخذ يعمل بحماس لانقاذ خانقين من مأساتها ، وصار الناس يتثالون على خانقين من مختلف الانحاء طلباً للمعونة ، وكانوا جياعاً وقد انتشر بينهم مرض التيفوس ، فأعد الميجر صون لهم مخيمات ومستشفيات موقتة . فاستعاد البعض منهم صحته بينما آثر الآخرون الانتقال الى العالم الآخر . (٢٢)

المجاعة في الموصل :

كان الموسم الزراعي في شمال العراق في أواخر عام ١٩١٧ رديئاً جداً . يقول محمد أمين العمري الذي كان يومذاك ضابط اعاشة في الجيش السادس التركي : انه كتب تقريراً الى القائد خليل باشا أشار فيه الى الخطر الذي سينشأ في ولاية الموصل من جراء قلة الحبوب وضرورة الاستعداد لجلب المؤن اللازمة من اسطنبول قبل فوات الاوان ، فلم يكترث خليل باشا لهذا التحذير وقال ان ولاية الموصل هي مستودع تموين العراق وليست هي في حاجة الى تموين يجلب اليها من الخارج . (٢٣)

بدأت المجاعة تستفحل فيأوائل عام ١٩١٨، وشملت الموصل والمنطقة الواسعة التي تقع الى الشمال منها حتى بحيرة « وان » . وأخذت جموع الجياع تهجر ديارها في الاناضول وتتجه نحو الموصل ، فكان بعضهم يموت في الطريق ، والبعض الآخر يموت في مدينة الموصل نفسها .

يحدثنا عبدالعزيز القصاب في مذكراته عما شاهده في الطريق بين حلب والموصل عند قرية « دمير قبو » فيقول : انه رأى جثث البشر ملقاة

---

(٢٢) برسي كوكس وهنري دوبس (تكوين الحكم الوطني فيالعراق) ـ ترجمة بشير فرجو ـ الموصل ـ ص ١٥ .

(٢٣) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) ـ بغداد ١٩٢٥ ـ ج ١ ص ١٣٥ .

على جانبي الطريق بكثرة لا يمكن وصفها ، وعند دخوله القرية وجـــد الجياع منتشرين فيها وهم لا يتمكنون من الحركة لشدة الجوع بصورة تفتت الاكباد ، وشاهد جثة حيوان وقد اجتمع حولها زهاء خمسين جائعاً وكل واحد منهم يقص شيئاً من لحم الجثة بواسطة القحوف ثم ينسـحب ليحل محله جائع آخر •

ولما وصل القصاب الى الموصل وجد المجاعة فيهـا لا تقـل عما هي في « دمير قبو » ، فقد كان المهاجرون اليها من « وان » بالاضافة الى جياع الموصل نفسها منتشرين في الشوارع والاسواق بكثرة ، وكان البعض منهم يختفون تحت دكاكين الخبازين والبقالين فاذا جاء أحد لشراء شيء من الطعام خرجوا اليه فجأة واختطفوا الطعام من يده وأكلوه حالاً ، وقد يختطف أحدهم اللقمة من فم صاحبه ليضعها في فمـه بأسـرع من لمح البصـر •

وقد شاهد القصاب مأموري البلدية يتجولون في كل صباح ومساء ومعهم الحمالون ليجمعوا جثث الاموات كأنهم يجمعون الحطب والنفايات، فلقد كانت الجثث يابسة خفيفة الوزن بحيث كان الحمال يضع أربع جثث في سلته ويحملها على ظهره كمثل ما يلتقط الخشبة الصغيرة • (٢٤)

ويعطينا ابراهيم الواعظ صورة أخرى عن المجاعة في الموصل ، اذ كان شاهد عيان فيها ، فيقول : انها بلغت حداً جعل الـكثير من الناس يأكلون لحم الكلاب والقطط ، كما أكلوا دم الذبائح بعد تجميده • وقد شاهد الواعظ بأم عينه هراً يهرب راكضاً من دار الى دار والناس يركضون وراءه حتى أمسكوا به •

وذكر ابراهيم الواعظ عن نفسه أنه كان في ايام المجاعة يأكل أكثر من أكله في الايام الاعتيادية ، وهو يعزو ذلك الى ما أحدثت المجاعة فيه من تأثير نفسي • فقد دخل في صباح أحد الايام مع صديقين له الى دكان بقال في باب الجسر وتناولوا فطورهم من القيمر والعسل والخبز حتـى بلغ ثمن ما أكلوه ثلاثة ليرات ذهب ولكنهم لم يشبعوا • وقد وصل الحال بهم أنهم صاروا يحملون في جيوبهم الى محل عملهم الزبيب واللوز ليأكلوا

---

(٢٤) عبدالعزيز القصاب (من ذكرياتي) ـ بيروت ١٩٦٢ ــ ص ١٧١ـ١٧٥ •

منه أثناء عملهم . وكانوا يفعلون مثل ذلك بعد تناولهم طعام الغداء اذ هم كانوا آنذاك يذهبون الى دكاكين البقالين ليأكلوا عندهم الحلوى . (٢٥)

وقد حدثت أثناء المجاعة حادثة عجيبة شاع خبرها في كل مكان وظل الناس يتحدثون عنها زمناً طويلاً ، وهي أن رجلاً من اهل الموصل اسمه عبود كان يصطاد الاطفال بالتعاون مع زوجته ، أو يشتريهم ، فيذبحهم ويصنع من لحومهم طعاماً يسمى « قلية » ويبيعه للناس في دكان له . واستمر على ذلك بضعة أشهر الى أن انكشف أمره أخيراً عن طريق الصدفة . ولما ذهب رجال الشرطة الى بيته وجدوا في حفرة فيه مائة جمجمة وعظاماً كثيرة . وقد سيق عبود وزوجته الى المحكمة ، وهناك انهارت الزوجة واعترفت امام الحاكم بما اقترفت هي وزوجها من الفظائع. وفيما يلي ننقل المحاورة التي جرت بينها وبين الحاكم حسبما ذكرته مجلة « علمدار » التركية في حينه :

الحاكم : كيف أقدمتما على هذا العمل ؟

المرأة : جعنا واحتملنا الجوع الى حد لا يطاق ، فاتفقنا أخيراً على أكل الهررة ، وهكذا كان ، وبقينا نصطادها ونأكلها الى أن نفدت من محلتنا، فبدأنا بالكلاب ونفدت أيضاً ، وكان لحمها أطيب وأشهى من لحم الهررة ، فجربنا أكل لحوم البشر .

الحاكم : بمن بدأتما أولاً ؟

المرأة : بامرأة عجوز خنقناها وطبخناها في حلة كبيرة الا انا قضينا كل تلك الليلة نتقيأ لان لحمها كان دسماً ، ثم ذبحنا ولداً صغيراً فوجدنا لحمه في غاية اللذة والجودة .

الحاكم : وكيف كنتم تصطادون الاولاد ؟

المرأة : بواسطة ولدنا ، كان يأتي كل يوم بواحد بحيلة اللعب معه، فنخنقه ونأكله وندفن عظامه في هوة عميقة حفرناها داخل بيتنا .

الحاكم : كم ولداً أكلتما ؟

المرأة : لا أذكرهم تماماً ولكن يمكن احصاءهم من عدد جماجمهم .(٢٦)

---

(٢٥) مصطفى الواعظ (الروض الازهر) — الموصل ١٩٤٨ — ص ٥١٧—٥١٨.
(٢٦) عمر ابو النصر (الحرب العالمية الاولى) — بيروت — م ٣ ص ١٨٨ .

حكمت المحكمة على عبود وزوجته بالاعدام شنقاً . وفي صباح يوم الاعدام أركبا على حمارين وسيقا الى ميدان باب الطوب حيث نصبت مشنقتان لهما ، وكان الناس في الطريق يبصقون عليهما ويشتمونهما ويضربونهما ، وكان عبود يرد الشتيمة على الناس بمثلها ويضيف عليها شتم الحكومة اذ كان يعتبرها المسؤولة عما حدث . وتجمهر الناس في الميدان ليشهدوا شنقهما . حدثني أحد الذين شهدوا الشنق فقال ان بعض النسوة من اللواتي فقدن أطفالهن كن ينهشن بأسنانهن أقدام عبود وزوجته من شدة الحنق والاسى . ويحكى ان امرأة كانت تنهش أقدامهما وتصرخ قائلة : « لقد أكلا ثلاثة من أولادي » .

لماذا ؟

كان للمجاعة تأثير سيء على وضع الجيش السادس التركي ، فقد اضطرت وحداته الى اهمال واجباتها العسكرية والانهماك في مشكلة الاعاشة ، كما اضطرت القيادة الى ترك أصغر قوة ممكنة في جبهة القتال وسحب القوات الباقية بعيداً الى الوراء لتسهيل أمر اعاشتها .

وفي الشهر الاول من عام ١٩١٨ هبط نصيب الجندي من الخبز في الفيلق الثالث عشر الى ١١٠ غرامات لليوم الواحد — أي أقل من صمونة واحدة — كما هبط نصيب الحيوان من العلف الى نصف كيلو ، فصار من الصعب اناطة أي واجب بالجنود الذين أنهكهم الجوع . وقد بلغت خسائر الجيش السادس من جراء الجوع أو الامراض الناشئة عن الجوع في كانون الثاني وشباط تسعة آلاف جندي . وفي آذار بلغ عدد الهاربين من الجيش نحو ألفين . أضف الى ذلك ان المجاعة أدت الى اختلال الامن وشيوع الفوضى والنهب في مختلف أنحاء الولاية . فصارت بعض العشائر والعصابات تقطع طرق القوافل ، مما اضطر الجيش الى سوق مفارز عديدة لمطاردتهم والتنكيل بهم . [٢٧]

هنا يواجهنا سؤال مهم : لماذا لم ينتهز الانكليز فرصة هذا الضعف العام الذي أصيب به الجيش التركي آنذاك لكي يهاجموه ويدمروه

---

(٢٧) محمد امين العمري (المصدر السابق) — ج ٣ ص ١١٣—١١٨ .

تدميراً ؟ فلقد كان في مقدورهم أن يفعلوا ذلك فلماذا لم يفعلوه ؟ ! •

يبدو ان هنالك عوامل ثلاثة كان لها أثرها في هذا الشأن :

اولاً : ان الانكليز كانوا آنذاك يمرون بما نسميه « فترة الملل من العراق » ، فمنذ أواخر عام ١٩١٧ بدأ الانكليز يشعرون بأنهم اقترفوا غلطة سوقية بفتح جبهة العراق ، وهي الجبهة التي كلفتهم من الارواح والاموال اكثر مما تستحق ، وقد أدركوا أخيراً ان هذه الجبهة ثانوية ليست لها أهمية كبيرة في تقرير مصير الحرب ، وان ما تكبدوه من الخسائر الهائلة فيها كان تبذيراً لا طائل وراءه ، وان الوقت قد حان لان يكفوا عن التمادي في ذلك • (٢٨)

ثانياً : في أواخر كانون الثاني ١٩١٨ أرسلت وزارة الحرب البريطانية الجنرال سمطس الى مصر مع هيئة منتخبة للمذاكرة مع الجنرال اللنبي حول وضع خطة موحدة لاخراج تركيا من الحرب • وفي أواسط شباط رفع سمطس الى وزارة الحرب تقريراً اقترح فيه التزام موقف الدفاع في جبهة العراق وحشد جميع القوات المتيسرة في جبهة فلسطين لتوجيه الضربة الحاسمة ضد الاتراك هنالك • وكان قد تم قبل هذا نقل فرقة هندية من العراق الى جبهة فلسطين ، فاقترح سمطس بالاضافة الى ذلك نقل فرقتين أخريين مع لواء خيالة • (٢٩)

ثالثاً : ان الجنرال مارشال الذي خلف الجنرال مود في القيادة العامة في العراق كان رجلاً مطواعاً يخضع للأوامر التي تأتيه من لندن دون أن يبدي عليها أي اعتراض حسب مقتضيات الموقف العسكري لديه • فلو كان مود ما زال حياً في تلك الفترة فلربما اتخذ تجاه الضعف الذي طرأ على الجيش السادس التركي موقفاً قوياً ، وربما هاجمه وقضى عليه قبل أن تتدخل وزارة الحرب البريطانية في عمله •

ومهما كان الحال فقد وردت الاوامر من لندن الى الجنرال مارشال تفرض عليه تقصير خطوطه وأن لا يقوم بأي هجوم الا عند الضرورة القصوى • واخذ مارشال يسحب قواته من بعض النقاط الامامية من أجل

---

(28) Barker (op. cit.) — p. 435—436.

(٢٩) شكري محمود نديم (حرب فلسطين) — ص ١٨١—١٨٢ •

تقصير خطوطه ، ولهذا تم اخلاء قره‌تبه وتكريت وغيرهما • يقول محمد أمين العمري في ذلك ما نصه :

« ولم نفهم الاسباب التي جعلت الجيش البريطاني ينسحب الى سامراء وجبل حمرين بعد أن كلف نفسه عناء عدة معارك نجح فيها واحتل بنتيجتها قره‌تبه و تكريت ، وبعد أن تكبد في تلك المعارك بضع مئات من القتلى والجرحى ، حتى أننا كنا نعتقد بان الجيش البريطاني لو استمر على زحفه وتقدمه لاحتل كركوك بسهولة ولطرد الاتراك من موضع (الفتحة) بعد عناء قليل • لكن الجنرال مارشال لم يستمر على زحفه وتقدمه انما ترك ساحة واسعة من الاراضي التي احتلها بدماء قطعاته ••• وكم استغربنا في حينه من انسحاب الانكليز بعد نجاحهم في هجماتهم هذه ••• » • (٣٠)

ويحدثنا العمري كيف أن قائد الفيلق الثامن عشر التركي اعتقد بأن الانكليز قد صمموا على اخلاء العراق كله على نحو ما فعلوا قبل هذا في الدردنيل ، وكان هذا القائد على وشك أن يصدر أوامره الى قواته بمطاردة القوات الانكليزية غير أن رئيس أركانه لم يوافقه على ذلك مما أدى الى وقوع نزاع شديد بينهما ، ولم ينته النزاع الا بعد أن تدخل مقر الجيش السادس حيث أمر بوقف الزحف الذي كان قائد الفيلق عازماً عليه •

معركة خان بغدادي :

على أثر استسلام القوات التركية في الرمادي في ايلول ١٩١٧ قررت القيادة التركية العليا تدعيم جبهة الفرات فأرسلت اليها من حلب فوجين من الجنود الاتراك مع قائد جديد هو شكري نايلي بك الارناؤوطي• وقد وصل هذا القائد مع جنوده بالشخاتير الى هيت في ١٨ تشرين الاول ١٩١٧ •

أحس الجنرال مارشال بما يجري في هيت من استعداد تركي ،

(٣٠) محمد أمين العمري (المصدر السابق) — ج ٣ ص ١١٨—١٢٠ •

وأدرك ما لهذه البلدة من أهمية سوقية وذلك لتشعب الطرق منها ومنابع القير فيها • وفي ١ شباط ١٩١٨ أصدر مارشال أوامره الى قائـد فرقـة الفرات الجنرال بروكنج بالتقدم نحو هيت واحتلالها في أقـرب فرصـة ممكنة • وفي ١٨ شباط أرسل بروكنج مفرزة استطلاع قوية نحو هيت، وقد استطاعت هذه المفرزة أن تحتل موضعاً يبعد عشرة أميال عن هيت ، ثم أخذت الطائرات الانكليزية تمطر المواقع التركية في هيت بالقنابل•(٣١)

ونشب آنذاك خلاف شديد في الرأي بين قائد الجبهة نايلي بك وقائد الجيش السادس خليل باشا ، فقد كان رأي نايلي بك ان هيت لا تصلح للدفاع ويجب الانسحاب منها الى خان بغدادي الذي يقع على بعد عشرين ميلاً الى الشمال منها ، وبدأ نايلي بك يسحب قواته من هيت فعلاً مما جعل الانكليز يحتلونها في ٩ آذار • وقد غضب خليل باشا على نايلـي بك من جراء ذلك وعزله من القيادة وأرسل بدلاً عنه قائداً آخر اسـمه نظمي بك ، وقد وصل هذا بالطائرة الى حديثة في ١٣ آذار •

وفي ٢٦ آذار نشبت معركة عنيفة بين الانكليز والاتراك في خـان بغدادي ، وكانت القوة الانكليزية تزيد على خمسة أضعاف القوة التركية، واتبع الجنرال بروكنج نفس الخطة التي اتبعها في معركة الرمادي السابقة حيث أرسل لواء الخيالة للقيام بحركة تطويق واسعة النطاق الى الغـرب من مواقع الاتراك ، وبذلك قطع خط الرجعة على القوة التركية • وكانت القيادة التركية من جانبها في حالة ارتباك لان خليل باشا كان يتدخل فـي شؤونها وهو على بعد مئات الاميال منها • (٣٢)

وفي صباح اليوم التالي استسلمت القوات التركية عن بكرة أبيها ، فكان مجموع الاسرى الذين وقعوا في أيدي الانكليز يزيد على خمسة آلاف • ولم يكن لدى الاتراك وقت كافي لتدمير أسلحتهم ، فغنمهـا الانكليز وكان فيها ١٢ مدفعاً و٤٧ رشاشاً وكميات كبيرة من الاعتـدة والعجلات وأدوات الطبخ • فكانت هزيمة الاتراك في هذه الموقعة أفظع

---

(٣١) محمد أمين العمري (المصدر السابق) ـ ج ١ ص ١٢٦ـ١٢٧ •
(٣٢) شكري محمود نديم (حرب العراق) ـ ٧١٤ •

من هزيمتهم السابقة في الرمادي . (٣٣) وأصبح الجنرال بروكنج كأنه هندنبرغ الانكليز في الفرات . (٣٤)

أعد الانكليز عقب انتهاء المعركة مفرزة مطاردة قوية مؤلفة من لـواء خيالة ومائة سيارة نقل مليئة بالجنود . وقد وصلت المفرزة الى عانة في صباح ٢٨ آذار ثم واصلت السير بعدها في طريق حلب ، وأسرت في طريقها رئيس البعثة الالمانية في الفرات الهر بروسر مع أوراقه ، كما غنمت ثمانية عشر ألف ليرة ذهب كانت مرسلة الى الشيخ عجمي باشا السعدون .

الهزيمة الاخيرة :

يبدو أن الانكليز قد عاودتهم نشوة الهجوم عقب انتصارهم في معركة خان بغدادي . ففي اوائل نيسان ١٩١٨ أصدر الجنرال مارشال أوامره الى الجنرال ايكرتن قائد الفيلق الثالث المرابط في خط جبل حمرين بالتقدم باتجاه كفري وطوز خورماتو ، وأخذت القوات الانكليزية بالتقدم في هذا الاتجاه دون أن تلقى مقاومة كبيرة ، واستطاعت أن تعيد احتلال قرة تبة في ٢٦ نيسان ، وبعد يومين احتلت كفري ، وفي اليوم التالي احتلت طوز خورماتو . وقد وقع في أيدي الانكليز نحو ألف وثلاثمائة أسير تركي ، كما غنموا عشرين مدفعاً ، وكان الأسرى في حالة يرثى لها (٣٥) مما يدل على الضعف العام الذي كان الجيش السادس التركي يعانيه في ذلك الحين .

وفي ٧ أيار دخلت القوات الانكليزية مدينة كركوك ، ولكن الجنرال مارشال ارتأى بعدئذ اخلاءها ، فانسحبت القوات الانكليزية منها في ٢٤ أيار . وقد سبب هذا الانسحاب مشكلة كبيرة لبعض سكان كركوك ولا سيما المسيحيين منهم ، فهؤلاء كانوا قد استقبلوا الاحتلال الانكليزي بحماس وتعاونوا معه ، ولذلك كانوا يخشون أن ينتقم الاتراك منهم عند

---

(33) Barker (op. cit.) — p. 444.

(٣٤) محمد أمين العمري (المصدر السابق) ـ ج ٣ ص ١٣٩ .

(35) Arnold Wilson (op. cit.) — vol. 2, p. 8.

عودتهم الى كركوك على نحو مافعلوا في الكوت سابقا • فصاروا يهربون من كركوك على عجل ، وكان عددهم نحو ١٦٠٠ شخصاً ، فذهب فريق منهم الى طوز خورماتو ، بينما ذهب آخرون الى بغداد • (٣٦) ولما عاد الاتراك الى كركوك نهبوا بيوت أولئك الهاربين وأراضيهم • (٣٧)

وعندما حل الصيف توقفت الحركات العسكرية في جميع الجبهات في العراق • وفي ٧ تموز أخذ الجنرال مارشال أجازة ليقضيها في الهند• وبعد انتهاء اجازته عاد الى العراق فوصل الى مقره ببغداد في ١ ايلول •

وفي ٢ تشرين الاول أبرقت وزارة الحربية البريطانية الى الجنرال مارشال في بغداد تقول : ان الاتراك على وشك أن يطلبوا الهدنة ولهذا ينبغي أن تتقدم القوات الانكليزية باتجاه الموصل لاحتلال أكبر قدر ممكن من الاراضي • وفي ٥ تشرين الاول عقد مارشال مؤتمراً عسكرياً مع قواده لتنفيذ هذا الامر ، وناط مهمة التقدم نحو الموصل بالجنرال كوب•

كان الفيلق الثامن عشر التركي المقابل لقوات الجنرال كوب معسكراً في الفتحة التي تقع على دجلة بين تكريت وشرقاط ، وكان قائده اسماعيل حقي بك ، ويقال عن هذا القائد انه كان متردداً يخشى تحمل المسؤولية بينما كان الجنرال كوب على النقيض منه قائداً جسوراً لا يحجم عن القيام بالمجازفة عند الحاجة • (٣٨)

نشبت عدة معارك ضارية بين الانكليز والاتراك استمرت من ١٨ تشرين الاول حتى ٢٩ منه • وفي صباح ٣٠ منه استسلم الفيلق التركي كله للانكليز بما فيه قائده اسماعيل حقي بك • فكانت تلك آخر وأفظع هزيمة مني بها الاتراك في العراق ، وقد غنم الانكليز فيها خمسين مدفعاً كما سقط في أيديهم اثنا عشر ألف أسير • (٣٩)

ومما يلفت النظر أنه في اليوم الذي وقعت فيه تلك الهزيمة الكبرى في شمال العراق كانت مفاوضات الهدنة بين الاتراك والحلفاء في جزيرة مودروس على وشك الانتهاء ، وقد تم عقد الهدنة في اليوم التالي • فكانت

---

(٣٦) محمد أمين العمري (المصدر السابق) — ج ٣ ص ١٨٠ •

(٣٧) المس بيل (المصدر السابق) — ص ١٥٢ •

(٣٨) شكري محمود نديم (المصدر السابق) — ص ٢١١ — ٢١٢ •

(39) Barker (op. cit.) — p. 456.

تلك مصادفة غريبة ، وهي لا تخلو من مضاضة بالنسبة للاتراك لانها أفقدتهم ولاية الموصل . فلو كان الفيلق الثامن عشر قد تمكن من الصمود يوماً واحداً لربما تغير وجه التاريخ في تلك الولاية .

كانت طلائع القوات الانكليزية قد وصلت في وقت عقد الهدنة الى القيارة التي تقع على بعد أربعين ميلاً من مدينة الموصل . وكان المفروض ان تقف عند هذا الحد لا تتعداه ، ولكن الجنرال مارشال أصر على احتلال ولاية الموصل كلها . وقد احتج القائد التركي على ذلك احتجاجاً شديداً فلم ينفعه ذلك شيئاً . وتم للانكليز أخيراً دخول الموصل ، وعينوا الكولونيل ليجمن حاكماً عليها ، وأعلن هذا ان حكومته لا تعترف بسيادة تركيا على ولاية الموصل بأية صورة ، وأنذر المسؤولين الاتراك بمغادرة الموصل حالاً .

وفي ١١ تشرين الثاني عقد اجتماع في السراي حضره أعيان الموصل ، وقام عبدالغني النقيب فألقى خطبة حمد الله فيها على اخراج أهل الموصل من الظلمات الى النور ، وعلى تبديل خوفهم أمناً وعسرهم يسراً ، وذكر أن أهل الموصل قد ابتهجوا كلهم بقدوم بريطانيا العظمى اليهم الا من كان منهم خائناً أو شقياً حيث سدت عليه أبواب الخيانة أو الشقاوة ، فان قدومها هو كقدوم الطبيب الذي يتم على يديه الشفاء . ثم قام عمانوئيل بطرك الكلدان فألقى خطبة تشبه في معناها خطبة النقيب وأبدى الشكر لممثل بريطانيا العظمى سائلاً الباري عز وجل أن يكلل مساعيه بالنجاح التام بشفاعة الانبياء والاولياء برحمتك يا أرحم الراحمين . (٤٠)

اخطاء الانكليز :

ان العامة في العراق ، وفي أقطار الشرق كلها تقريباً ، ينظرون الى بريطانيا نظرة مبالغاً فيها الى أبعد الحدود . فهم يتصورون كأن بريطانيا تملك دماغاً كبيراً يدبر الخطط ويحوك المؤامرات في العالم دون أن يعتوره الخطأ ، واذا سمع العامة بأية حادثة تحدث في أنحاء الارض أسرعوا الى القول بأن الانكليز لابد أن يكون لهم يد فيها أو مصلحة .

لا حاجة بنا الى القول ان هذا الرأي ساذج لا يثبت أمام النقد العلمي .

---

(٤٠) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) — ج ١ ص ١٥٣—١٥٤ .

فالإنكليز هم كغيرهم من البشر معرضون للخطأ دائماً ، وربما كانت أخطاؤهم أفدح من أخطاء غيرهم لاتساع امبراطوريتهم . يدل على ذلك ما تورطوا به من أخطاء فظيعة في حرب العراق . يقول الناقد العسكري الانكليزي باركر : ان المؤرخين المعاصرين يكادون يجمعون على أن الحرب العالمية الاولى قد أديرت في الغالب بطريقة تخبطية ولكن ادارة حرب العراق كانت أشدها تخبطاً ، فقد كانت بريطانيا تستفيد من أخطائها في الجبهات الاخرى ، أما في جبهة العراق فكانت تنتقل من غلطة الى أخرى . (٤١)

خسرت بريطانيا في حرب العراق نحو مائة ألف رجل بين قتيل وجريح، وعندما انتهت الحرب وقف بونار لو في مجلس العموم البريطاني يقول : « أتمنى لو أننا لم نكن قد ذهبنا الى العراق أصلاً » .

من أهم القواعد العسكرية المتبعة في الحروب الحديثة القاعدة النابليونية المشهورة التي أشرنا اليها في هذا الجزء غير مرة ، وهي وجوب توجيه أعظم قوة على أضعف نقطة من خطوط العدو . وقد رأينا الانكليز يخالفون هذه القاعدة في حرب العراق كما خالفوها في الحروب الاخرى التي شنوها على الدولة العثمانية .

كان في الدولة العثمانية نقطتان ضعيفتان جداً هما : خليج البصرة وخليج الاسكندرونة . ورأينا الانكليز يهاجمون النقطة الاولى بقوة ضعيفة الامر الذي أدى بهم الى كارثة الكوت ، أما النقطة الثانية فالغريب أنهم لم يهاجموها ففاتتهم بذلك فرصة كبرى .

ان خليج الاسكندرونة ذو موقع سوقي في غاية الاهمية ، أضف الى ذلك أن الاتراك لم يضعوا فيه قوة دفاعية كافية . وقد صرح أنور باشا للقائد الالماني فون هندنبرغ قائلاً : « أملي الوحيد هو أن العدو لم يكتشف ضعفنا في هذا الموقع الخطير » . والواقع أن الانكليز لو كانوا قد وجهوا قوتهم الكبرى على هذا الموقع بدلاً من توجيهها على الدردنيل لتمكنوا من ضرب الدولة العثمانية ضربة قاصمة ولربما تغير بها مجرى الحرب كله . (٤٢)

---

(41) Barker (op. cit.) — p. 15.

(42) Ibid, p. 471—474.

خاتمـــة

عبـــرة التـــاريخ

ان الاحداث التي وقعت في العراق خلال الحرب العالمية الاولى تعطينا دروساً قيمة قد تكشف عن بعض أسرار المجتمع العراقي وقد تساعدنا على فهم مرحلة الانتقال التي نعيشها في الوقت الحاضر .

من الاقوال المأثورة : ان الانسان ينكشف جوهره عند الشدائد . وهذا قول ينطبق على المجتمع العراقي خلال الحرب الاولى ، فان الاحداث الشـــديدة التي وقعت حينـــذاك كشفت عن طبيعتـــه المخبوءة وأظهرتـــه علـــى حقيقتـــه .

أهم صفة بارزة لاحظناها في العراق خلال الحرب هي أنه مجتمـــع تسوده القيم البدوية بكلا جانبيها السلبي والايجابي ، حيث رأينا فيـــه استفحال قيم العصبية والغزو والنهب والاتاوة والثأر من جانب ، وقيـــم الضيافة والنخوة والدخالة والتسيار من الجانب الآخر . وقد ظهرت تلـــك القيم بأجلى مظاهرها فيمنطقة الفرات الاوسط اثناء فترة العصيان، ولو أن العصيان كان قد اتسع نطاقه فشمل مناطق أخرى من العراق لظهرت فيهـــا القيم البدوية بمثل ذلك الوضوح أيضاً .

ان السلطة الحكومية تعد من أهم معالم الحضارة ، ولهذا فان تضاؤل تلك السلطة في مجتمع متاخم للبداوة يؤدي بطبيعة الحال الى استفحال العصبية القبلية وما يتصل بها من القيم البدوية . وقد لا حظ ابن خلدون هذه الظاهرة في المجتمع المغربي الذي عاش فيه قبل ستمائة سنة ، كمـــا لاحظناها في المجتمع العراقي خلال العهد المغولي والتركي .

ان المجتمع العراقي ــ كما أوضحته غير مرة في مؤلفاتي السابقة ــ عاش طيلة العهد المغولي والتركي في فترة « مظلمة » من الناحية الحضارية، حيث كانت الحكومة المركزية لا يهمها سوى جباية الضرائب ، وتركت الناس يفعلون بأنفسهم ما يشاؤون . فشاعت بينهم المعارك القبلية والغزو والنهب وقطع الطريق والثأر ، واضطر السكان الى التمسك بالعصبية والقيم البدوية

لكي يحافظوا على أرواحهم وأموالهم • ولم يقتصر هذا الامر على العشائر فقط بل شمل أهل المدن كذلك اذ هم صاروا يحملون السلاح للدفاع عن أنفسهم تجاه العشائر المجاورة ، وظهر بينهم رؤساء محليون على شاكلة شيوخ العشائر • وبذا اصبح القانون لا أهمية له في ضبط الامن ، وحل محله العرف العشائري المستمد من القيم البدوية •

ظل العراق يعيش على هذا الوضع حتى منتصف القرن التاسع عشر ، واذ ذاك بدأ تيار حضاري جديد متمثلاً في نمو السلطة الحكومية ، ولكن هذا التيار كان يسير ببطء شديد ، ولما نشبت الحرب في عام ١٩١٤ لم يكن التيار قد أنتج ثمراته المطلوبة ، ولهذا عاد السكان الى ديدنهم القديم حالما وجدوا الظروف مناسبة لهم •

من الجدير بالذكر ان السلطة الحكومية أخذت تنمو بعد الحرب بشكل تصاعدي الى درجة لا مجال لمقارنتها بما كانت عليه قبل الحرب ، وقد ساعدتها على ذلك وسائل السيطرة الحديثة كالطائرات والمصفحات والمدافع المحمولة مما جعل السكان غير قادرين على مجابهة الحكومة أو محاربتها على نحو ما كانوا يفعلون سابقاً ، فكان ذلك ايذاناً بدخول المجتمع العراقي في هذه المرحلة الانتقالية التي نعيش الآن فيها والتي تتميز بشدة الصراع بين قيم البداوة التي ورثناها من آبائنا وقيم الحضارة التي جاءتنا مع التيار الحديث •

الواقع ان هذه المرحلة ذات خطورة غير قليلة من حيث تقرير مصيرنا الاجتماعي ، فنحن نريد السير في طريق الحضارة الحديثة بينما قيمنا الموروثة تعرقل علينا الطريق • وقد أصبح من الواجب علينا في هذه المرحلة أن نكتشف تلك القيم الكامنة في أعماقنا ونسعى لمكافحتها بمقدار جهدنا •

يجب أن لا ننسى ان الكثيرين منا متحضرون ظاهرياً بينما هم في أعماقهم لا يزالون بدواً أو أشباه بدو ، فان قيم البداوة التي تمكنت من أنفسهم على توالي الاجيال ليس من السهل أن تزول عنهم دفعة واحدة بمجرد تقمصهم الازياء الحديثة أو تمشدقهم بالخطب الرنانة •

ان نصف سكان العراق اليوم ريفيون لا يزالون يعيشون على نمط ما كانوا عليه قبل ستين سنة ، ولم تتغير قيمهم الاجتماعية الا قليلاً • أما

النصف الباقي فهم على درجات شتى من حيث تغلغل الحضارة الحديثة فيهم، ولا نجد بينهم من هم متحضرون حقاً الا نسبة ضئيلة تكاد لا تتجاوز العشرة بالمائة أو أقل من ذلك .

يؤسفني أن أجد نفسي أعيد هـذا القول في كتبي مرة بعـد مرة ، ويؤسفني كذلك أن أجد بعض كتابنا ومفكرينا لا يفهمون ذلك ولا يريدون أن يفهموه ، فهم قد تغيروا في قيمهم ويحسبون أن جميع العراقيين قـد تغيروا مثلهم ، وتراهم يحاولون دراسة المجتمع العراقي في ضوء نظريات غريبة عنه اذ يعتبرونها الوسيلة الوحيدة لحل جميع المشاكل التي يشـكو منها ، وحين يفشلون في حل تلك المشاكل يظلون مصرين على رأيهم ويعزون سبب الفشل الى الناس لا الى أنفسهم .

خطـأ الاتـراك :

ان الاتراك الذين كانوا يحكمون العراق ارتكبوا أثناء الحرب خطأ فادحاً أدى الى الضرر بهم وبالبلاد ، فهم كانوا لا يختلفون في ذلك عـن مفكرينا الذين أشرنا اليهم آنفاً . انهم كانوا معتقدين اعتقاداً جازماً بـأن العشائر العراقية قوية جداً ولكن ضعفها ناشيء من تفرقها فاذا اتحـدت بتأثير دعوة الجهاد وفتوى علماء الدين فانها تتمكن حتماً من صـد الغزو الانكليزي ومن رمي الغزاة في البحر .

لقد سيطرت هذه الفكرة على أذهانهم بحيث أهملوا اعداد وسـائل الدفاع عن العراق ، ولما تبين خطأ رأيهم بعدئذ أخذوا يلومون العراقيين ويصفونهم بالخيانة ، بينما هم أولى باللوم من العراقيين .

ان دعوة الجهاد هي كغيرها من الدعوات المثالية لا يمكن أن تنجـح عملياً ما لم تكن منسجمة مع طبيعة الانسان وطبيعة القيم الاجتماعية التـي نشأ عليها . فأبناء العشائر العراقية انما تحمسوا للجهاد في بداية الامـر لانهم كانوا تحت تأثير المبالغ المغرية من الليرات الذهب التي أغدقها الاتراك على رؤسائهم من جهة ، وتأثير الامل بالنصر والفوز بالغنائم الوفيرة من الجهـة الاخرى . أما الدين وفتوى علماء الدين فلم يكن لهما سوى اهمية ثانويـة بالنسبة لهم اذ هم اعتادوا طول حياتهم على غزو بعضهم بعضاً دون أن يعيروا أي اهتمام لتعاليم الدين التي تنهى عن ذلك نهياً قاطعاً .

أشارت هوسات العشائر التي انطلقت ابان حركة الجهاد الى أنهم كانوا يأملون بالجنة نتيجة استشهادهم في الحرب ، ولا ريب أن الامل بالجنة له أثره في حركة الجهاد انما هو لا يكفي وحده في دفع العشائر الى القتال بل يجب أن يصحبه الامل بالنصر والغنائم • فقد دل تاريخ القبائل ـ البدوية والريفية جميعاً ـ على أنها تتهافت على الانضمام الى كل حركة دينية منتصرة ، وان كل نصر جديد تكسبه الحركة يؤدي الى زيادة انضمام القبائل اليها وزيادة تحمسهم لها ، ولكنهم لا يكادون يلمحون بوادر الخيبة والانكسار على الحركة حتى ينفضوا عنهاشيئاً فشيئاً ، فينسون الجنة عند ذلك وما فيها من نعيم مقيم •

ليس هذا ديدن القبائل فقط بل هو ديدن البشر جميعاً ، غير أنهم يختلفون في المظاهر والوسائل من جراء اختلاف القيم التي ينشأون عليها • ان الانسان بوجه عام لا يفهم من الدين سوى الجانب الذي ينتفع منه أو يتصور أنه ينتفع منه ، فهو لا يهتم الا" بالامور الاعتقادية والتعبدية من الدين لانها تعطيه السلوى وتسبغ عليه الطمأنينة تجاه أخطار الحياة ومستقبلها الغامض • أما الجانب الاخلاقي من الدين ، وهو الجانب الذي يخص علاقات الناس بعضهم ببعض والتضحية في سبيل الغير ، فالانسان لا يهتم به الا" في نطاق ما يلائم مصلحته أو يرفع مكانته بين الناس •

ان الانسان ميال بطبعه الى تفضيل الجزاء العاجل على الجزاء الآجل، وقد خبرنا البشر منذ آلاف السنين فوجدناهم يهتمون بجزاء الدنيا أكثر من اهتمامهم بجزاء الآخرة ، أما الذين يشذون فى سلوكهم عن ذلك فهم قليلون جداً ، وهؤلاء لا يمثلون القاعدة العامة بل يمثلون الاستثناء منها ، ولكل قاعدة شذوذ كما لا يخفى •

قد يحدث أحياناً أن يجتمع في الامر الواحد جزاء الدنيا وجزاء الآخرة معاً ، وعندئذٍ نرى الناس يندفعون فيه اندفاعاً حماسياً شديداً ، فيخيل للناظر البسيط أنهم يريدون بعملهم ثواب الآخرة بينما هم في الواقع يريدون ثواب الدنيا من حيث زيادة الجاه أو نيل المكسب • ولو كانوا يريدون الآخرة حقاً لرأينا أثر ذلك في أخلاقهم وحسن معاملاتهم مع الغير• ان هذا هو الذي جعل الحسين بن علي يقول في كلمة مشهورة له أثناء واقعة

كربلا : « الناس عبيد الدنيا ، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه مادرت معايشهم فاذا محصوا بالبلاء قل الديانون » .

بين التركي والعربي :

نقلنا في صفحة ٢٧٧ من هذا الجزء رأياً لخليل باشا في الجنود العرب، اذ هو اعتبرهم خونة وكان يشتهي أن يراهم معلقين على المشانق . وحين قارن بينهم وبين الجنود الاتراك قال ان الشجعان بين العرب لا تتجاوز نسبتهم الواحد بالمائة ، بينما لا يوجد بين الاتراك سوى جبان واحد من كل عشرة .

ان خليل باشا في رأيه هذا انما كان ينظر الى ظواهر الامور ويغفل عن العوامل الحقيقية التي تكمن وراءها . فالواقع ان العربي لا يقل شجاعة عن التركي ولكن في الحدود التي ترسمها القيم الاجتماعية في المحيط الذي ينشأ فيه . نحن لا ننكر أن الجندي التركي كان مقاتلاً باسلاً ذا صمود في القتال عجيب ، بينما كان العربي ينوي الفرار منذ اللحظة الاولى من تجنيده ، ولكننا يجب أن لا ننسى ان هذا الفرق ليس ناشئا عن كون التركي مخلصاً والعراقي خائناً ، بل هو بالاحرى ناشيء عن سبب آخر أعمق من ذلك .

ان الاتراك عاشوا طيلة خمسة قرون وهم في حالة حرب على من يسمونهم بـ « الكفار » ، من الاوربيين أو غيرهم ، وكانت الحروب الضارية بين الروس والاتراك متتابعة حيناً بعد حين . وجرت العادة في المجتمع التركي على احتقار كل من يفر من قتال الكفار ، واذا مات الفرد في القتال ترحم الناس عليه ومدحوه وبشروا أهله بأنه قد دخل الجنة فلا خوف عليه. فالفرد التركي ينشأ في مثل هذه القيم منذ طفولته ، وهو في كبره لا يعرف غيرها ، ويستنكر مخالفتها .

أما الفرد العربي فهو ينشأ في العراق على قيم أخرى ، انه لم يتعود على حرب « الكفار » بمقدار تعوده على المعارك التي تنشب بين عشيرة وأخرى ، أو بين محلة واخرى ، وكلما كان اكثر شجاعة في تلك المعارك ارتفعت سمعته بين قومه ، وأصبح بطلاً يشار اليه بالبنان ، أما اذا كان

ضعيفاً جباناً فانه يصبح عاراً على أسرته ويعتبره الناس « مخنثاً » لا خير فيه .

وهناك فرق آخر بين المجتمع التركي والعراقي ، فقد كان الفرد التركي ينظر الى الحكومة باعتبارها حكومة السلطان الذي هو ولي الامر وطاعتها مستمدة من طاعة الله ورسوله . أما في العراق فكان العداء مستحكماً بين الاهالي والحكومة وكثيراً ما تنشب المعارك بينهما ، وقد اعتاد الفرد العراقي على مخالفة أوامر الحكومة ونهب اموالها أو تخريبها ، وهو يفتخر بذلك ، واذا جاء الى الاهالي مجرم هارب من الحكومة آووه وحموه باعتباره دخيلاً عليهم ، وضللوا رجال الحكومة عنه ، واذا تعاون أحد منهم مع الحكومة أو أخبر الحكومة عن أمر من أمورهم احتقروه وعدوه جاسوساً .

يحدثنا هدجكوك البريطاني الذي تجول في أهوار العمارة بعد الحرب الاولى عن رجل من أفراد العشائر اسمه « الحاج ركان » أنه فقد أولاده الثلاثة في القتال من أجل دخيل التجأ اليه ، ثم مات هو نفسه أخيراً من جراء معاونته لعشيرته تجاه رجال الحكومة . [1] وليس هذا بالامر النادر أو الشاذ بين العشائر العراقية ، وما اكثر الذين ماتوا من أفراد العشائر استجابة لصيحة امرأة أو استغاثة جار أو هوسة عشائرية .

ولكن الفرد العراقي الذي يرمى بنفسه الى الموت في سبيل هذه الامور ، قد يرمى بنفسه كذلك في سبيل أمور تافهة كنهب دجاجة ومحاولة قتل صاحبها . وهو في جميع تلك الامور انما يجري حسبما توحي به القيم الاجتماعية في محيطه العشائري . فالدجاجة وان كانت ضئيلة الشأن في حد ذاتها لكنها ذات قيمة معنوية كبيرة في نظر الناس هنالك اذ هي ترمز الى الغلبة والرجولة وتدل على أن المنهوب « مخنث » لا خير فيه .

ويمكن أن نقول مثل هذا عن الفرد التركي الذي يرمي بنفسه الى الموت جهاداً في سبيل الله ، فهو قد اعتاد على ذلك في محيطه الاجتماعي ، ولكنه اعتاد أيضاً على أن يقترف الفضائع في الكفار عقب الانتصار عليهم فيقتل أطفالهم وينتهك حرمات نسائهم ويهلكهم جوعاً وتعذيباً . وقد رأينا أمثلة واقعية على ذلك فيما فعله الجنود الاتراك بالارمن ، وما فعلوه بشعوب

---

(١) فلانين (الحاج ركان) — ترجمة جميل سعيد وابراهيم شريف — بغداد ١٩٦٦ — ص ٤١ ، ٢١٦ .

البلقان ، وما فعلوه بأهل الحلة أخيراً • فالتعاليم الدينية تنهى عن ذلك نهياً قاطعاً ، ولكن الفرد التركي اعتاد عليه في محيطه الاجتماعي فلا يجد فيه أمراً مستنكراً ، وهو يؤمن أنه لا بد أن يدخل الجنة أخيراً بشفاعة النبي وأصحابه الاكرمين لانه كان مجاهداً في سبيل الله •

ان هذا دليل على أن البشر مهما اختلفت مظاهرهم هم في أساس طبيعتهم متشابهون •

المجتمع النجفي :

لعبت النجف دوراً هاماً خلال الحرب ، وتقلبت تجاه الحكومة عدة مرات ، فهي تزعمت حركة الجهاد في بداية الحرب ثم تزعمت حركة العصيان بعد زمن قصير ، وحين جاء الانكليز استقبلتهم النجف استقبالاً باهراً ثم كانت أول من ثار عليهم ، وعندما فشلت الثورة النجفية أقيمت في النجف حفلة كبرى لشكر الانكليز على اجهاض الثورة ، ولكن النجف أصبحت بعد سنتين مركزاً لثورة العشرين •

اننا في حاجة الى بحث مسهب لتعليل هذا التقلب الذي حدث في النجف ، وربما تيسر لي ذلك في الجزء القادم ، واكتفي هنا بذكر شيء منه لصلته بهذا الموضوع :

من الجدير بالذكر ان النجف كانت في النصف الاول من القرن الثامن عشر قرية خربة ليس فيها سوى بعض السدنة وقليل من السكان ، وكانت عرضة لغارات الاعراب • غير انها بدأت تنمو منذ منتصف ذلك القرن لاسباب لا مجال هنا لذكرها ، حتى أصبحت في القرن التاسع عشر بلدة مزدهرة عامرة بالسكان •

ومما يلفت النظر أن النجف أثناء نموها نمت فيها فئتان متمايزتان من السكان هما اللتان يطلق عليهما أهل النجف اسم «الملائية» و «المشاهدة»، ويمكن أن نسميهما بـ « المعممين » و « المسلحين » •

ان النجف أصبحت في القرن التاسع عشر — وما زالت حتى الآن — المركز الديني لطائفة الشيعة ، فكثر فيها تشييد المدارس الداخلية ، وتهافت

عليها الطلبة من جميع أنحاء العالم الشيعي • فكان فيهم العربي والايراني والتركي والهندي والافغاني والتيبتي وغيرهم • فكان الذي يدخل صحن النجف قبيل الغروب يشهد منظراً عجيباً حيث يجده مملوءاً بالمعممين كأنه « مزرعة البصل » على حد تعبير الشاعر النجفي الشيخ علي الشرقي • (٢)

ولكن النجف كانت في الوقت نفسه مملوءة بحملة السلاح الـذين يجيدون القتال ويشاركون في المعارك المحلية ، ومعنى هذا ان النجف لم تكن تضم مجتمعاً واحداً بل تضم مجتمعين مختلفين كل له قيمه وتقاليده وأعرافه الخاصة به •

يقال ان عدد المعممين في النجف بلغ في وقت من الاوقات نحو اثنى عشر ألفاً ، (٣) أما المسلحون فقد بلغ عددهم نحو ستة آلاف • (٤) وربما كان كل من هذين الرقمين لا يخلو من مبالغة انما هو على أي حال كثير جداً بالنسبة لبلدة لم يتجاوز عدد سكانها الاربعين ألفاً • ومن الممكن القـول ان تاريخ البلدان الاسلامية لم يشهد بلدة بمثل هذا التركيب الاجتماعي العجيـب •

كان المسلحون من سكان النجف منقسمين كما هو مشهور الى فريقين متعاديين هما الزقرت والشمرت ، وقد بدأ العداء بين هذين الفريقين منـذ بداية النمو في النجف ، فكانت المعارك بينهما متتالية لا تكاد تخمد حتـى تنشط مرة أخرى ، وقد تعاونت عوامل اجتماعية متنوعة على جعل المعارك المحلية في النجف أكثر وأعنف منها في أية بلدة عراقية أخرى • (٥)

ان المشهدي المسلح لا يختلف في سلوكه كثيراً عن الفـرد القبلـي من سكان البادية أو الريف ، فهو مضياف شهم ذو نخوة ، وهو في الوقت نفسه اعتدائي سفاك ينهب الناس أو يفرض عليهم الاتاوة • يحدثنا الشيخ جعفر محبوبة أنه شهد في طفولته في أوائل رمضان ١٩٢٣ هـ — أي فـي

---

(٢) جعفر الخليلي (هكذا عرفتهم) — بغداد ١٩٦٣ — ج ١ ص ٣١٣ •
(٣) محسن الامين (اعيان الشيعة) — دمشق ١٩٤٦ — ج ٢٣ ص ٢٧٢ •
(٤) علي الخاقاني (شعراء الغري) — النجف ١٩٥٥ — ج ٧ ص ٣٥٨ •
(٥) انظر في ذلك كتاب المؤلف (دراسة في طبيعة المجتمع العراقي) — بغداد ١٩٦٥ — ص ١٧٩ — ١٨٠ •

أوائل تشرين الثاني ١٩٠٥ م ــ معركة ضارية بين الزقرت والشمرت وكان من ابطال الشمرت عزيز باقر شام وولداه صكبان ومحمد وقد قتل عزيز أخيراً بعد أن قتل من رجال الزقرت رجالاً مشهورين بالنجدة والشجاعة ، وبمقتله انتهت المعركة بانتصار الزقرت ، وقد رأى الشيخ جعفر الغالبين وهم يحملون الاثاث والفرش الثمينة التي انتهبوها مـن بيوت المغلوبين . (٦)
ويحدثنا الاستاذ جعفر الخليلي كذلك أنه شهد في طفولته معركة في الصحن من أجل « قران » سقط فيها ثلاثة من القتلى . وشهد معركة أخرى بالقرب مـن مدرسـة الايرواني كـان بطلهـا كاظم صبي ، ورآه يذبح بسـيفه أربعة رجال . (٧)

ان هذا السلوك قد يكون أمراً مألوفاً في الريف أو البـادية لانـه السلوك الذي اعتاد الناس عليه جيلاً بعد جيل دون أن يكون هناك مـن يعارضهم أو يشجب عملهم . أما في النجف فالامر مختلف لوجود العـدد الكبير من المعممين حملة التعاليم الدينيـة فيهـا . فهؤلاء بحكم تفكيرهم الديني يحتقرون السلوك المشهدي ويشجبونه ويعتبرون أصحابه من أهل النار . ولهذا كان هناك عـداء خفي بين المعممين والمسلحين ، وقـد يظهر هذا العداء علناً في بعض الاحيان ويتخذ صوراً شتى .

ان كل واحدة من الفئتين لها محيطها الخاص بها ، وقلمـا تجتمعـان في صعيد واحد ، ولكن المشكلة تكمن في العامة من أهل النجف الـذين ليسوا معممين ولا مسلحين ، فهؤلاء يعيشون عادة في حالة ازدواجية عجيبة، اذ هم يخضعون في حياتهم لنظامين متناقضين من القيم الاجتماعية ، فهـم تارة متدينون يستمدون قيمهم من المعممين ، وهم تارة أخرى عشائريون يستمدون قيمهم من المسلحين .

نستنتج من هذا ان النجف تحتوي على نوعين من الزعامة : احداهما ملائية دينية ، والاخرى مشهدية محلية . ومشكلة الفرد العامي في النجف أنه ينشأ منذ طفولته على احترام كلا هذين النوعين من الزعامة على الرغم

---

(٦) جعفـر محبوبـة (ماضي النجف وحاضرها) ــ النجف ١٩٥٨ ــ ج ١ ص ٣٣٩ .
(٧) من مقالة مخطوطة لجعفر الخليلي .

من التناقض الواضح بين قيمهما الاجتماعية . ولهذا نجده ميالاً للتقلب في سلوكه حيث يخضع لهذه الزعامة حيناً ، ولتلك حيناً آخر .

كان العامة أثناء حركة الجهاد متحمسين لهـا يدعون الله أن ينصـر الاسلام على الكفر ويتلون دعاء زين العابدين لنصر حماة الثغور ، وهـم في ذلك كانوا تحت تأثير الزعامة الدينية طبعاً . فلما فشلت حركة الجهـاد وحلت محلها حركة العصيان التي تولتها الزعامة المحلية بدّل العامة موقفهم تبعاً لذلك ، فبعدما كانوا يدعون الله لنصر الاسلام أصبحوا يدعونه للانتقام من الاتراك الظالمين ، وصار شعارهم عندئذٍ : « الكفر يـدوم والظلـم لا يـــدوم » .

اهـل الكوفـة :

ان التركيب الاجتماعي الذي شـهدناه في النجف يشـبه من بعض الوجوه تركيب الكوفة في عهد الامام علي بن أبي طالب ، فقد كانت الكوفة كغيرها من الامصار الاسلامية آنذاك مقراً للقبائل البدوية التي كانت قـد جاءت من صحراء العرب لفتح العراق . ولكن الكوفة تميزت بوجود عدد من حملة التعاليم الاسلامية فيها يفوق ما كان في الامصار الاخرى منهم. والسبب في ذلك هو أن علياً عندما خرج من الحجاز قاصداً العراق فـي أوائل خلافته كان في صحبته جماعة كبيرة من المهاجرين والانصار والتابعين لهم حتى قيل ان الانصار كلهم جاؤوا معه الى العراق ولم يتخلف عنه سوى ثلاثة أو أربعة منهم . وقد كتب هو الى معاوية يقول : « وأنا مرقل نحوك بجحفل من المهاجرين والانصار والتابعين لهم باحسان ... قـد صحبتهم ذرية بدرية وسيوف هاشمية قد عرفت مواقع نصالها في أخيك وخالـك وجدك وأهلك ، وما هي من الظالمين ببعيد » . (٨)

معنى هذا ان المجتمع الكوفي كان في عهد عليّ خاضعاً لنوعين مـن الزعامة هنا : الزعامة الدينية التي تتمثل في عليّ وأصحابه مـن جهـة ، والزعامة القبلية التي تتمثل في رؤساء القبائل من الجهة الاخرى .

ومما يجدر ذكره ان علياً قبل وصوله الكوفة كان قـد قاتل أصحاب

---

(٨) ابن أبي الحديد (شرح نهج البلاغة) ـ بيروت ـ ج ٣ ص ٤٥٥ .

الجمل في البصرة وانتصر عليهم انتصاراً باهراً فكان هذا الانتصار من أهم الاسباب في التفاف القبائل الكوفية حول عليّ وتحمسهم له، فهم كانوا موقنين أنه سوف ينتصر على معاوية كمثل ما انتصر على أصحاب الجمل • وساروا معه الى صفين يحدوهم الامل بالنصر والفوز بالغنائم الوفيرة •

انتهت معركة صفين بالخيبة بالنسبة لاهل الكوفة ، ولهذا وجدنا فريقاً منهم يخرجون على عليّ وهم الذين اشتهروا في التاريخ باسم «الخوارج»، أما الفريق الآخر وهم الاكثرون فقد بقوا مع عليّ ولكن حماسهم له قد فتر ، فهم كانوا ينظرون الى علي ليس باعتباره اماماً يمثل التعاليم الاسلامية بل باعتباره رئيساً يقودهم الى النصر ، فلما خاب أملهم بالنصر وضعوا اللوم على عليّ وأخذوا يستهينون به •

لا حاجة بنا الى القول ان أصحاب عليّ من المهاجرين والانصار والتابعين لهم ظلوا على ولائهم له لانه كان في نظرهم رمز الحق تجاه الباطل، ولكن هؤلاء لم يكن لهم تأثير على أهل الكوفة الا من حيث النصح والموعظة مع العلم ان الموعظة لا تؤثر على الناس في تلك الظروف الا قليلاً ، ولذا وجدنا أكثر العامة من أهل الكوفة قد ساروا خلف رؤسائهم القبليين وهم لا يعرفون من أمور دينهم ودنياهم غيرما يقوله لهم أولئك الروساء •

حين ندرس الايام الاخيرة التي قضاها عليّ في الكوفة قبل مقتله — حسبما ورد وصفها في تاريخ الطبري وابن أبي الحديد وغيرهما — نرى بوضوح مبلغ الالم والتذمر الذي كان عليّ يشعر به تجاه أهل الكوفة ، فكان يذمهم في خطبه ذماً شديداً ويقول عنهم انهم ملأوا قلبه قيحاً ، اذ هم كانوا يعدونه بالخروج معه لحرب معاوية مرة بعد مرة ، ثم يخلفون الوعد معه في كل مرة • ولما ضربه ابن ملجم بالسيف أخيراً قال « فزت ورب الكعبة » ، وهذا يدل على مبلغ الالم الذي كان يشعر به تجاههم حيث أنجاه الله منهم •

من جملة الخطب التي ألقاها عليّ في ذم أهل الكوفة خطبة معروفة تسمى « القاصعة » ، وهي خطبة طويلة ذات دلالة اجتماعية لا يستهان بها اذ هي تبين لنا بجلاء موضع الخلاف بينه وبينهم ، فهم في سلوكهم العملي

يسيرون حسب قيمهم البدوية التي نشأوا عليها في محيطهم القبلي ، ولكنهم يتظاهرون بالدين شكلياً ، بينما هو يريد منهم ان يكونوا متدينين ظاهراً وباطناً . فهو يقول في تلك الخطبة : « واعلموا انكم صرتم بعد الهجرة أعراباً، وبعد الموالاة أحزاباً، ما تتعلقون من الاسلام الا" باسمه، ولا تعرفون من الايمان الا" رسمه . تقولون النار ولا العار كأنكم تريدون أن تكفئوا الاسلام على وجهه ... » (٩)

أهل الكوفة والحسين :

يمكن القول ان سلوك أهل الكوفة مع الحسين كان كمثل سلوكهم مع أبيه . فهم عندما بلغهم خبر موت معاوية في اواخر عام ٦٠ هـ ظنوا ان الدولة الاموية قد انهارت وان الدنيا أصبحت مع الحسين . وهنا اتفق رأي الزعامة الدينية ورأي الزعامة القبلية على استدعاء الحسين : تلك تريد الحسين اماماً ، وهذه تريده رئيساً يقودهم الى النصر .

اجتمع الكثير من زعماء الكوفة وكتبوا الى الحسين يستدعونه ليجعلوه خليفة عليهم ، فأرسل الحسين اليهم ابن عمه مسلم بن عقيل ، ولما وصل هذا الرسول الى الكوفة استقبله أهلها بحماس بالغ وبايعه الاكثرون منهم . ولكن هذا الحماس لم يدم طويلاً ، فقد وصل الى الكوفة الوالي الداهية عبيد الله بن زياد ، وأخذ يستخدم وسائل الترغيب والترهيب بطريقة بارعة ، حتى استطاع بعد فترة وجيزة أن يسيطر على الكوفة . والتفت مسلم وراءه فلم يجد من أعوانه أحداً ، فالتجأ الى امرأة أخفته في بيتها ولكن ولدها أحس به فأخبر السلطة عنه ، وانتهى امر مسلم اخيراً نهاية مفجعة كما هو معروف .

وبعد أن تم القضاء على مسلم أعد ابن زياد جيشاً من أهل الكوفة لقتال الحسين بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص . وقد حرص ابن زياد أن لا يضم هذا الجيش أحداً ممن يشك في ولائهم له ، أما الذين كان يشك في ولائهم من أهل الكوفة فقد قتل بعضهم وحبس آخرين منهم ووضع الباقين تحت رقابته الشديدة في الكوفة .

---

(٩) المصدر السابق — ج ٣ ص ٢٤٤ .

وقد التقى الجيش الاموي بالحسين في كربلا ولم يكن مع الحسين سوى عدد قليل من الاتباع • وجرت محاورات ومنابزات بين الفريقين قبل البدء بالقتال ، ويظهر من تلك المحاورات أن كلا من الفريقين كان يدعو الى مبدأ مناقض لمبدأ الآخر ، فأتباع الحسين كانوا يدعون الى نصرة الحسين باعتباره أولى بالطاعة من يزيد بن معاوية ، بينما كان خصومهم يدعون الى الوقوف في جانب ولي الامر فهو في نظرهم الامام الواجب الطاعة • وقال عمرو بن الحجاج أحد قواد الجيش الاموي يخاطب أفراد الجيش : « يا أهل الكوفة الزموا طاعتكم وجماعتكم لا ترتابوا في قتل من مرق من الدين وخالف الامام » • فسمعه الحسين و ردّ عليه قائلاً : « يا عمرو ، أعليّ تحرض الناس ؟! أنحن مرقنا من الدين أم أنتم ؟! والله لتعلمن لو قُبضت أرواحكم ومتم على أعمالكم أينا المارق ! » (١٠)

استتب الامر لبني أمية في الكوفة بعد مقتل الحسين ، ولكن ذلك لم يستمر سوى ثلاث سنوات تقريباً ، اذ لم يكد أهل الكوفة يسمعون بخبر موت يزيد في عام ٦٣ هـ حتى انتفضوا من جديد تحت شعار الاخذ بثار الحسين ، فظهرت حركة التوابين وتلتها حركة المختار الثقفي وقد تعقب هذا قتلة الحسين وقتلهم كلهم تقريباً بعد أن مثل بهم وهدم دورهم •

لقد تشوهت سمعة أهل الكوفة ، وما زالت مشوهة حتى يومنا هذا ، من جراء اشتراك بعضهم في مقتل الحسين • غير أنهم في حقيقة أمرهم لم يكونوا سيئين الى تلك الدرجة التي اشتهرت عنهم • فنحن حين نرى فريقاً من أهل الكوفة يخرجون لقتال الحسين يجب أن لا ننسى ان فريقاً آخر منهم قد خرجوا للاخذ بثأره • والواقع ان التوابين الذين خرجوا للاخذ بالثأر ضربوا مثلاً رائعاً في الوفاء والشهامة يندر نظيره • فهم قد صمموا على الموت منذ بداية خروجهم ، ولم يطلبوا من خروجهم أي مكسب دنيوي ، وظلوا مصرين على الموت حتى قتلوا عن آخرهم •

من يقرأ كتاب « أصدق الاخبار في قصة الاخذ بالثار » للسيد محسن الامين العاملي يلاحظ بوضوح أن الاكثرية الساحقة من أهل الكوفة كانوا

---

(١٠) محسن الامين العاملي (لواعج الاشجان) ـ النجف ١٣٧٣ هـ ـ ص١٢٣ •

من المحبين للحسين المطالبين بثأره ، ولم يكن الذين خرجوا لقتال الحسين الا نسبة قليلة منهم . ولذا رأيناهم قد ساعدوا المختار على تتبع قتلةالحسين واحداً بعد الآخر حتى استأصلوهم من الكوفة. ولكن مشكلة هذه الاكثرية من أهل الكوفة أنهم لم يساعدوا المختار ويؤيدوه في حركته الا بعد انتصاره ، أما قبل ذلك فكانوا راضخين للحكم الاموي لا يحركون ساكناً.

ان الفرق بين أهل الكوفة وأهل الامصار الاخرى هو أن لهم نوعين من الزعامة كما قلنا ، حيث كانت احداهما تدفعهم نحو اتجاه مضاد لما تدفعهم اليه الاخرى . أما أهل الامصار فكان لهم نوع واحد من الزعامة واتجاه واحد ، وهم لذلك قد استراحوا وأراحوا !

الداعية والباحث :

ان ما حدث في كربلا قبيل مقتل الحسين من حيث الصراع بين مبدأين حدث مثله في النجف وكربلا أثناء الحرب العالمية الاولى . فقد وصف أنور باشا أهل النجف وكربلا ــ كما ورد في صفحة ٢٩١ من هذا الجزء ــ أنهم بعصيانهم للحكومة خالفوا رضا الله ورسوله . والظاهر ان تلك كانت نظرة جميع المسؤولين الاتراك نحو الذين أعلنوا العصيان عليهم ، فهم كانوا يعتبرون أنفسهم أولياء الامور الذين أوجب الله طاعتهم ، وكل من خالف أمرهم لابد أن يكون مخالفاً لامر الله تعالى ، مع العلم ان خصومهم كانوا ينظرون في الامر نظرة أخرى اذ كانوا يعتبرون الاتراك ظالمين ، وان الثورة على الظلم واجبة بأمر الله تعالى .

الواقع ان التاريخ البشري كله جرى على هذه الوتيرة ، وما زال جارياً عليها ، فكل فريق من البشر اذ ينازع فريقاً آخر لابد أن يستند في نزاعه على مبدأ من المبادىء المثالية، دينية أو غير دينية . وهنا يكمن أحد الفروق الرئيسة بين الانسان والحيوان ، فالحيوان يعتمد في نزاعه على القوة المجردة وحدها ، أما الانسان فهو مهما كان جائراً أو لئيماً فلابد أن يتخذ له مبدأً مثالياً يدعمه في نزاعه ضد خصومه ، ولا بد أن يظهر له أعوان يؤيدونه في وجهة نظره ويزوقون له أعماله . وهو لكثرة ما يردده على نفسه ، وما يردده أعوانه معه من الاقوال في تدعيم رايه ، يصبح واثقاً بأن

الحق معه حتماً وأن الباطل مع خصمه .

يوصف التاريخ البشري بأنه سجل الصراع بين الحق والباطل ، ويمكن أن يوصف أيضاً بأنه سجل الصراع بين حق و حق باعتبار أن كلاً من الفريقين المتصارعين يؤمن بأن الحق معه وحده ، . وقد ورد في القرآن قوله تعالى : « وكل حزب بما لديهم فرحون » .

هنا يواجهنا سؤال مهم هو: أين يقف الباحث العلمي من هذا الصراع؟ هل يجب عليه أن يعين جانب الحق فيه ويؤيده تأييداً مطلقاً ، أم يقف على الحياد بين الجانبين ؟

لكي نجيب على هذا السؤال ينبغي أن نميز بين وظيفة الداعية ووظيفة الباحث في الحياة ، فالداعية هو الذين يتمسك بعقيدة من العقائد ـ دينية أو سياسية ـ ويدعو الناس اليها ، ولذا فهو مضطر أن ينظر في أحداث التاريخ نظرة تقييمية حسب معيار العقيدة التي يدعو اليها . أما الباحث فالمفروض فيه أن يدرس أحداث التاريخ دون أن تكون له أية فكرة مسبقة تحدد موقفه منها ، واذا كانت لديه مثل هذه الفكرة تحول من كونه باحثاً الى كونه داعية . وليس معنى هذا أننا نفضل أحدهما على الآخر، فكل منهما له وظيفته في الحياة الاجتماعية ، ولا تستقيم الحياة ما لم يكن فيها دعاة وباحثون في آن واحد ـ أولئك يحركون التاريخ وهؤلاء يدرسونه !

يمكن تشبيه الداعية والباحث بالمحامي والقاضي في محكمة التاريخ، فالمفروض في المحامي أن يتحيز الى جانب موكله لان هناك محامياً آخر يتحيز الى الجانب الثاني . أما القاضي فالمفروض فيه أن يكون محايداً بين الجانبين لكي يستطيع أن يدلي بعدئذ بحكمه العادل في القضية المعروضة عليه. فاذا تحيز القاضي كان كالمحامي الذي لا يتحيز الى جانب موكله، فكلاهما يعد مقصراً في أداء واجبه الذي نيط به .

ان بعض كتابنا ومفكرينا يخلطون بين الوظيفتين ويريدون أن يكون الانسان داعية وباحثاً في آن واحد . وهذا فيما أظن كان من الاسباب التي أدت بنا الى الوقوع في أخطاء التطرف مرة بعد مرة دون أن ننتفع من عبرة التاريخ !

الفهرس

تنبيه وشكر

وقعت في هذا الجزء أخطاء مطبعية بالرغم من العناية بالتصحيح ، وهي اخطاء تأمل ان يفطن اليها القارىء ويصححها بنفسه . ولا بد من تسجيل الشكر لمدراء المطبعة وعمالها على ما بذلوه من جهد في طبع هذا الجزء .

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد (٧٨) لسنة ١٩٧٤ (١٠٠٠ر١٠) نسخة